

شادي

شادي (قصص)

ملك منير شقير

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.



الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط 1. هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

alaanpublishers.com

المراجعة اللغوية: م. سامر المجالي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-483-2

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022 / 3 / 1437)

813.9

شقير، ملك منير

شادي / ملك منير شقير عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

ص (496)

ر.إ: 2022 / 3 / 1437

الوصفات: القصص العربية // الأدب العربي // العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى



الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

طبع بدعم من وزارة الثقافة

2 0 2 2

ملك منير شقير

شادي

قصص



الإهداء

إلى روح الأخ الذي رحل قبل الأوان

مطر

هطل المطر طيلة الصباح دون توقف، فكان أبو سعيد ينظر من النافذة بين الحين والحين وهو يعجب لغزارته، ثم يعود إلى مشاهدة التلفزيون وهو يشعر بالانزعاج. أخيراً ملّ الصور الملونة البراقة وما يرافقها من صخب وتكرار يُقصد بهما إلى التسلية فأطفأ التلفزيون. عندئذ انقضّ عليه الصمت كأنه كان يتحين الفرصة لمعالجه بضربته تلك. أذهلته الضربة وآلمته وبعثت في قلبه الفزع، فلبث مدة يتحسس أثرها في نفسه. وعندما هدأ قليلاً ألقى نظرة أخرى من النافذة فطالعت من جديد خيوط المطر المناسبة من فضاء ضبابي متجهم، فازداد عجباً وانزعاجاً لهذا المطر الذي تجاوز الحد المبشّر بالخصب.

اضطجع أبو سعيد على أريكته يتغني استراحة قصيرة تعينه على مواجهة ما تبقى من النهار. شعر بالنعاس يتسلل إلى عينيه بعد أرق الليلة السابقة، وبينما هو يغمضهما التفت إلى النافذة ثانية بحركة تعودها ذلك النهار فلم يرها؛ بل رأى جدراً عريضاً صلدًا لا أثر فيه للنافذة ولا للستائر التي كانت تنسدل على جانبيها. أربعة جدران إسمنتية عالية قد تعرّت تمامًا من الصور القليلة التي كانت تزينها. وما لبث أن اختفى كل ما في الغرفة عداها: التلفزيون والمنضدة والمزهريّة القديمة التي كانت تتوسطها والأريكة التي كانت تواجهه. والأعجب من ذلك كله أنه لم ير

للباب أثرًا في أيّ من الجدران؛ كأنما انتزعت يد من مكانه في لحظة خاطفة. ضاقت الغرفة وخبا الضوء فيها وكأنه لم يداخله ضوء النهار قط. تمنى أن يرى المطر ثانية، لكن العالم كان قد اختفى تمامًا وراء تلك الجدران العالية. راح الصمت يتكاثر ويتخلل كل ذرة من فضاء الغرفة المتضائل. كان صمّتًا داكنًا صلبًا هو الآخر كأنه جدار خامس خُيّل إليه أنه يستطيع لمسه إذا مدّ يده. أنساه الصمت كل صوت سمعه من قبل، بل تصوّر أنه لن يسمع صوتًا بعد الآن أبدًا. أغمض عينيه وهو يشعر بقنوط من يحشر في زنزانة ضيقة أو يهوي إلى قاع بئر سحيق.

عندما استيقظ من نومه في ساعة متأخرة من العصر كان المطر قد توقف، فخرج إلى الحديقة بلهفة بعد أن ضاق ذرعًا بغرفته التي لازمها يومين كاملين تجنبًا للمطر. كانت الحديقة تزرع تحت آثاره، فهوأوها كان مشبعًا بالبلل كأنه سيستحيل هو نفسه إلى ماء في أي لحظة؛ وتراها أسود قد فُقدَ تماسكه لكثرة ما تشرب من الماء، وبلاطها أصبح ناصعًا لامعًا كالمرآة لطول ما اغتسل، وفي مواضع منه تجمع ماء المطر على شكل برك صغيرة. أما الحائط فقد تحول لون حجارته الأبيض إلى ما يقارب الرمادي. تعرّت أغصان الشجر من بقية أوراقها فبدت هزيلة مرتعشة قد تعلقت بها قطرات كبيرة من الماء. وبدت أضلاع العريش المعدني الضخم أكثر سمكًا ومثانة بعد أن صقلها المطر. حمد أبو سعيد الله لنجاة الحديقة من الأذى المادي، لكنه ذهل للتغيير الذي طرأ عليها،

وشعر بأسى عميق وهو يرى أن المطر الغزير قد سلبها تلك الدعة التي
 تشيع فيها عادة بعد سقوطه، فتبدو مثل طفل يستكين في حضن أمه بعد أن
 ارتوى من حليبها. كانت السماء ما تزال ملبدة بغيوم كثيفة بدا أنها ستلبث
 طويلاً. تذكر كيف كانت الغيوم تتسارع لتخلي السماء بعد إنهاء مهمتها
 فتظهر من خلالها رقع زرقاء تبعث البهجة في القلب بعد سقوط المطر. أما
 اليوم فإن هذه الغيوم تنذر بمزيد منه، وهي عندئذ قد تسبب أذى حقيقياً.
 كانت الحديقة ساكنة تماماً فبدت مثل صورة مرسومة في كتاب. وكان
 الصمت يجثم على صدرها هي الأخرى ويلقها في مثل مادة شفافة عازلة.
 صمت عميق عرفه على الفور كرفيق يلازمه. لكن الحي كله كان في قبضة
 ذلك الصمت العنيد. لم يسمع أبو سعيد محرك سيارة ولا صياح طفل ولا
 نباح كلب، وكانت كل نوافذ البيوت المجاورة مغلقة بإحكام. لم يرَ أحداً
 من جيرانه يتفقد حديقته مثله، ولم يلمح جاره الذي يصادفه بين حين
 وآخر فيحييه قائلاً: «تسرني رؤيتك يا جار». كما لم تقع عيناه على حارس
 العمارة القريبة الذي يقضى نهاره بين دخول وخروج منها. لم ير طائراً
 واحداً ولا حشرة. حتى قطة الجيران التي اعتادت المجيء والاستلقاء
 تحت شجرة الليمون في ركن من الحديقة معظم النهار اختفت اليوم
 تماماً. لاذت المخلوقات بمخابئها هرباً من المطر ففرغ العالم من
 محتواه، وتحول إلى ما يشبه قشرة حية ميتة، وشعر أبو سعيد أنه المخلوق
 الوحيد على وجه الأرض.

قبل أن يستدير عائداً إلى داخل البيت توقف لحظة يستقري الغيوم الكثيفة القاتمة ثانية، فرآها أشبه بطيور جارحة تتزاحم في الأعالي وتوشك أن تتساقط على المدينة. تضاءلت الحديقة والأشجار والبيوت المجاورة وهو يشخص ببصره إلى ذلك التيه العلوي النائي الذي أشاع في قلبه الرهبة. أحسّ بالدوار كأنه ورقة شجر تترنح في الفضاء، فمد يده محاذراً السقوط فاصطدمت بجذع شجرة قريبة، تمسك به وهو يلهث. داخل أبا سعيد شيء من الارتياح لملمس الشجرة لكن الرهبة ما لبثت أن عاودته. وبينما كان يحاول أن يستجمع قواه بدأ المطر يهطل من جديد. ذهل أبو سعيد لعنفوانه وعاوده الخوف منه. ابتلّ رأسه وقدماه وثيابه، ثم هبت ريح باردة صفعت وجهه وعيثت بما تبقى من شعره، فتمنى لو أنه تلعف بكوفيته ولبس سترته السميقة وحذاه الواقى قبل خروجه. نظر إلى أسفل فرأى البرك الصغيرة التي خلفها المطر في أرض الحديقة تمتلئ بمزيد من الماء، ثم راحت تتسع وتمتد حتى أصبحت بركة كبيرة ضحلة من ماء فولاذي اللون في غمضة عين. ظل المطر ينثال على رأس أبي سعيد دون هوادة، وراح البرد ينغرز في قلبه مثل نصل حاد. أسرع ليعود إلى داخل البيت غير أنه فقد توازنه وسقط وسط البركة المتعاطمة بعد أن ارتطم رأسه بعمود العريش المعدني.

عندما استعاد أبو سعيد وعيه بعد مدة لم يدر طولها، كان المطر ما يزال يهطل والماء يزداد ارتفاعاً في البركة حتى حُيِّل إليه أن الحديقة باتت

على حافة الغرق. حاول أن ينهض فلم يستطع. أدرك أنه قد يتعرض للخطر من جراء الماء والبرد لكنه كان يزداد عجزاً عن الحركة كلما ازداد إدراكاً للخطر المحدق به. خشي أن يكون أحد أطرافه أو أضلاعه قد كسر نتيجة سقوطه فاستولى عليه رعب جديد. وهو إلى ذلك كان يعرف أنه لو صاح أو نادى فلن يخفّ لنجدته أحد في تلك البقعة التي باتت مهجورة. استسلم للماء وهو يوقن من جديد أنه قوة لا تؤتمن، وتجددت حيرته إزاء ما يمثله من موت و حياة يصعب التمييز بينهما أحياناً. ازداد الفضاء قتمة ثم بدأ الظلام ينشب أظفاره في الكون، وما لبث أن تخلل الفضاء كله. ظلام قديم كالدهر غير أنه ما يزال فتياً عاتياً، ظلام راح يطمس كل ما حوله تقريباً بعد أن انطفأت معظم الأضواء الكهربائية في الحي نتيجة المطر الغزير المستمر.

لم يعد أبو سعيد يرى شيئاً في الحقيقة، بل إنه نسي موضعه منها والاتجاهات فيها وكيفية العودة إلى داخل البيت. وغمره شعور أن إرادته قد سُلت كما سُلت حركته من قبل. انطفأت بقية الأضواء فعمّ الظلام. ارتجف أبو سعيد هلعاً لم رأى ذلك الوحش الأسود يحتل الأرض والسماء. وهو فوق هذا قد يتحول إلى مرتع لكائنات شتى تتسلل من أوكارها تحت جناحه؛ بعضها غير عاقل وبعضها يستخدم العقل لتقويض المعقول والمقبول. تذكر قصص الجن والوحوش الخرافية التي سمعها في طفولته، وبدت له كل تلك القصص والحوادث ممكنة الوقوع في مثل

ظلام الليلة. ثم رأى فجأة أنه قد تحول إلى واحد من كائنات الظلام العجيبة. ولو رآه أحد في تلك الساعة على ذلك النحو لظنَّ به الجنون أو البله أو الشر، دون أن تشفع له شيخوخته أو سيرته الحميدة.

أطبق اليأس على أبي سعيد وهو يرى الظلام يتحالف مع المطر على تلك الصورة، وأمّحى من وعيه كل شيء سوى هذين العملاقين فكأن العالم صنع منهما لا غير. وبينما كان المطر يشتدّ غزارة والظلام يشتدّ حلكة تأكد أبو سعيد أن أوان النجاة قد فات، وأن النهاية المحتومة باتت قاب قوسين أو أدنى. سيموت غرقاً أو برداً أو على يد مخلوق يتخذ من الظلام ستاراً لاصطياد الضعفاء من أمثاله. ثم خطر له أن انعدام الرؤية يحول دون تبيّن مصدر محدد للخطر رغم ما ينطوي عليه هو نفسه من خطر. لذلك يمكنه القول إن الخطر معدوم طالما أنه غير مرئي. لقد كان ظلام الليلة أشبه بغيب يحجب ما هو آتٍ، وإذا ما سدد إليه ضربة قاضية فإن وعيه بها سيكون قصيراً قبل أن تعاجله النهاية. إن أسوأ ما يمكن أن ينزل به الليلة هو الموت، والموت ليس أكبر الشرور. وطّن أبو سعيد نفسه على الاستسلام لظلام قد يكون أرحم مما يظن، وسمع نفسه يتمتم: فليكن ما يكون. وما لبث أن خفَّ شعوره بالخوف الذي كان قد نفذ إليه في الصميم، وشعر بشيء من الهدوء لعله أفضل بداية للنهاية.

مرّ زمن آخر لم يدر طوله، ثم توقف المطر بالتدريج فشعر أبو سعيد أن النجاة ممكنة. بعد قليل انبثق من قلب الظلام ضوء بعيد خافت فراوده

الأمل بأن يكون مقدمة لعودة بقية الأضواء. ثم انبثق ضوء آخر فبدأ الأمل يحل محل الاستسلام الذي وُطن عليه نفسه قبل قليل. عرف أن لظلام الليلة نهاية، وبينما كان الأمل ينمو في قلبه بدأ يحرك أطرافه بإعياء شديد. وإذا اطمأن إلى عدم إصابته بكسور خطأ خطوة أو اثنتين وسط الماء على غير هدى. كاد يقع مرة أخرى فمد يده بحركة تلقائية فاصطدمت بشيء عرف أنه الحائط الذي كان قريباً منه دون أن يدري. تمسك بالحائط تمسك المستميت، وهنا ظهر ضوء آخر قريب، فراح يخوض في الماء ببطء وقد استمدّ من الأضواء الوليدة عزماً. بعد قليل اصطدم بالدرجات القليلة المؤدية إلى باب غرفة الجلوس الذي كان قد خرج منه. صعد وهو يتعثر وفتح الباب وارتقى على الأرض.

نهض أبو سعيد بعد أن التقط أنفاسه. أضواء مصباحاً قريباً وغير ثيابه واستدفاً ثم جلس على أريكته المعتادة وهو يحاول تجنب التفكير في محنته وما خلّفته من أوجاع جسمية ونفسية. كان بحاجة إلى راحة طويلة فاسترخى في جلسته وراح يحلم بنوم طويل عميق.

فجأة رأى شبحاً رمادياً يقف وسط الغرفة ويكاد يطاول جدرانها. عرف فيه رفيقه القديم الذي يلازمه وعجب كيف غفل عنه لدى دخوله الغرفة. كان رفيقه ذاك أبكم بالطبع، لكنّ أبا سعيد تخيل أنه يومئ إليه ويقول بصوت واضح: لقد نجوت من المطر والظلام الليلة، أفتظن أنك ستنجو مني؟! أفتظن أنك ستنجو من الصمت?!

طائر أزرق

توقفت سلمى فجأة قبل أن تستأنف سيرها بحذر، ثم اقتربت من الشجيرة. طائر صغير أزرق يستكين إلى غصن فيها مغطى بأوراق كثيفة لامعة. حجمه لا يزيد على قبضة اليد غير أنه مكتمل الجسم محكم التكوين. خطوط ذهبية دقيقة تتخلل زرقته العميقة التي تلمع في أشعة الشمس فتكاد تخطف البصر. لم تبدر عن الطائر حركة عند اقترابها بل ظل ساكناً تماماً مطمئناً إلى مكانه على ذلك الغصن وكأنه مكانه الطبيعي. ألفة تامة تجمع بين الطائر والغصن وكأنهما من مادة واحدة أو كأنهما طفل وأمه. لم تر سلمى من قبل طائراً مثله يحطّ على شجيرة في هذه الحديقة التي تنتزه فيها بانتظام، بل إنها لم تر طائراً مثله في حياتها قط.

ازدادت اقتراباً من الشجرة فرأت تلك الزرقعة المتلاثلة تنبض بهدوء منتظم، وبدا لها ريشه أشبه ببتلات الزنابق التي تُجلب من أقاصي الأرض. بل إن الطائر نفسه بدا لها مثل زهرة نادرة قضى البستاني عمره في استنباتها لتحاكي مثلاً في خياله لا وجود له على سطح الأرض. طال وقوف الطائر على الغصن وكأنه لا يطيق فراقه. وطال وقوفها هي الأخرى وهي تحاول أن تستوعب كل ما في ذلك الطائر من جمال غريب رقيق معجز. إنه روح عذب يرفُّ على الحديقة، وها هو قد وصل لتوه من موطنه في جزيرة نائية في محيط لم يسمع باسمه أحد. أو لعله طير من طيور الجنة رأى أن يتوقف برهة في طريق عودته إليها ليبشر بما في الكون من جمال ظاهر قد تغفل عن العيون

وجمال خفيّ قد لا تدركه العقول. ذهلت من جديد لدقة حجمه وكأنها تراه للمرة الأولى. كيف يمكن لمخلوق دقيق مثله أن يصمد أمام البرد والحر والمطر والرياح؟ إن هذه الرقة العذبة -وهي من صميم جماله- تعني الهشاشة بعينها. كادت عيناها تدمعان إشفافاً على الطائر الصغير، وفاض قلبها بالحب لكل الكائنات.

شعرت سلمى أخيراً بالعجز عن استيعاب ذلك الجمال السحري الذي يتداخل مع الهشاشة إلى هذا الحد. أرهقتها الفكرة وما امتزج بها من قلق، فواصلت سيرها مبتعدة عن الشجيرة التي تؤوي ذلك الطائر النادر إلى حين. أشعة الشمس صافية ضافية والحديقة هادئة غافلة تماماً عن زائرها الغامض. ألقها رحب لا تحجبه خضرة سامقة. شجيراتنا تصطف حولها في نظام دقيق وتناسق واضح في الحجم والارتفاع. أرضها النظيفة تنخفض في بعض المواضع أو تنحدر نحو أجزاء ترابية عند الأطراف تنمو فيها بعض الزهور البرية المتفرقة، الحجارة الكبيرة السمكية التي رُصفت بها الأرض تنفرج أحياناً عن أعشاب تنمو بينها. أما شجيرات الورد المزروعة حول النافورة العالية في وسط الحديقة فهي تزهر اليوم بحمولتها كما لم تزه من قبل. كانت سلمى تعرف أشجار الحديقة واحدة واحدة، وكانت تأنس إليها كما تأنس إلى زوار الحديقة الآخرين. كثيراً ما كانت تلمس أوراقها فتحس برطوبة عذبة تسري في يدها تخفف من جفاف الهواء والغبار. وأحياناً يرفّ نسيم فتسمع للأوراق حفيفاً هادئاً ينسيها ما خلف أسوار الحديقة من ضجيج وزحام وأعباء. كانت الحديقة جزءاً من حياتها تستكين فيه إلى الطبيعة

وتستمتع بالضوء والهواء والحركة، وكانت أحياناً تهزول في ممراتها وهي تمنى أن تحلق.

في الطرف الآخر من الحديقة يبدو القسم المخصص للأطفال وفي وسطه الألعاب المتعددة التي يتأرجحون عليها ويتسلقون ويدورون. يمتلئ هذا القسم كل ضحى بالأطفال من كل الأعمار وبعرباتهم ودراجاتهم ومرافقاتهم، خاصة المربيات الآسيويات. حديقة الكبار ما تزال خالية كعهدا في هذه الساعة من الصباح إلا من البستاني الذي يلوح من بعيد مثل شبح. لكن ها هي السيدة الأجنبية تدخل الحديقة بخفة وهي ترتدي ثوباً يتماشى لونه مع شعرها الأشيب إلى حد كبير.

قالت لها صديقتها عندما أخبرتها بأمر الطائر: «هذا الطائر فأل حسن؛ إنه يحمل رسالة هامة، والطيور تحمل الرسائل إلى البشر منذ الأزل كما تعلمين».

كان السرور الذي نفذ إلى أعماق سلمى لمرأى ذلك الطائر بجماله المحير دليلاً آخر على ما تحفل به الحياة من نعم، وعلى قدرة الإنسان على الاستجابة التلقائية لها. لكن سرورها ذاك لم يكن سروراً خالصاً؛ فالجمال الفائق الذي أسبغته الطبيعة على ذلك الطائر الرقيق ذكرها بما في الحياة من مخاطر وما يكتنف نورها من ظلام. ازدادت سلمى حرصاً على التنزه في الحديقة، وصارت تبدأ جولاتها بالتوجه إلى الشجيرة التي أصبحت مركز الحديقة بالنسبة لها. كانت تتفقد أغصانها لعلها ترى الزائر السحري يحطّ

على شجيرته ثانية، ثم تفقد الشجيرات المجاورة. لكنها كانت تُمنى بخيبة الأمل في كل مرة.

في أحد أيام ذلك الصيف رأت سلمى جرافة صغيرة خارج سور الحديقة، وفي أثناء سيرها فيها لمحت كشكاً أبيض قد أقيم بجوار كشك البستاني، ثم رجلاً يخرج منه ويقف إلى جانب البستاني يحدثه. لم تحفل بأمر الرجل ولا بأمر الكشك الجديد، لكنها في زيارتها التالية رأت جرافة ضخمة قد حلت محل الأولى خارج الحديقة وبضعة عمّال يحيطون بها. دخلت فرأت بعض المعدات الثقيلة المبعثرة على أرضها فأكملت جولتها وهي تتفادها. خطر لها أن تسأل البستاني عنها لكنها لم تفعل، فمن المعروف أن الحداثق تحتاج إلى الصيانة من وقت لآخر.

عندما توجهت إلى الحديقة بعد أيام فاجأها ضجيج العمال وصوت أشياء ثقيلة تلقى على الأرض خارجها، فعرفت أن أعمال الصيانة قد بدأت. رأت بعض الصغار والكبار واقفين عند بوابة الحديقة المغلقة حائرين. سمعت ما يشبه همهمة خافتة تسري بينهم، وأخيراً قال ولد شاحب ذو عيين واسعتين لأحد العمال: «هيا، متى سندخل الحديقة؟». لم يتلق جواباً فعاد يسأل: «متى سندخل؟». فأجاب العامل: «لن تدخلوا اليوم». فسأل الولد بالاحاح: «هل سندخل غداً؟». أجاب العامل: «لا أعرف». فقال محتجاً: «لكنني ألعب في هذه الحديقة كل يوم». لم يجب العامل. ثم قالت شابة يحيط بها ثلاثة أطفال: «لقد اصطحبتُ هؤلاء الأطفال إلى الحديقة اليوم لأشرح

لهم درسًا عن النباتات، وها أنت تمنعنا من الدخول». قال العامل وهو يرفع كتفيه: «لا شأن لي بهذا. إني أنفذ الأوامر لا غير».

أخيرًا تجرأت إحدى المربيات الآسيويات قليلًا وقالت للعامل بلهجتها الأجنبية المترددة: «لكننا نأتي إلى هنا دائمًا دون أن يمنعنا أحد». لم يجبهها العامل بل واصل ما كان فيه من تنظيم للمعدات الملقاة على الأرض. عندئذ قالت أم شابة مستنكرة وهي تشد بيدها على عربة طفلتها ذات العينين السوداوين اللامعتين: «لا أفهم حتى الآن لماذا نمنع من الدخول. هل في الأمر سر؟». أجاب العامل وهو يتناول أنبوبًا معدنيًا غليظًا ويضعه إلى جانب أنابيب مشابهة: «لا أعرف. عليكِ بسؤال شخص غيري». أما السيدة الأجنبية فقد اكتفت بالوقوف جانبًا وهي تراقب ما يجري بهدوء. بعد قليل قال ولد ذو شعر أسود ناعم وهو يضع قدمه على زلاجه متلهفًا للانطلاق فوقها: «ستعود أُمي لاصطحابي إلى البيت فهل أستطيع انتظارها في الحديقة؟». أجاب العامل دون أن ينظر إليه: «لا يمكن. هذه أوامر المسؤولين». انضمَّ الولد إلى زميله وهو يتبادل معه نظرات تشي بخيبة الأمل. جاء ولدان يركضان لكنهما توقفا عندما رأيا الجمع المنتظر. ظهرت القطعة الشقراء فجأة كأنما لتستوضح الأمر لكنها ابتعدت بعد قليل ببطء. خيم الصمت على الجميع ثانية، غير أن مزيجًا من الغضب والأسى كان يعلو الوجوه، ثم بدؤوا يتفرقون بعد أن أدركوا عبث مسعاهم. رأت سلمى الدموع تلتمع في عيني طفل خلف نظاراته الكبيرة المستديرة، ورأت طفلًا طويلًا نحيلًا يشد قبضته وكأنه يريد أن يصوبها نحو هدف ما. كان من الواضح أن المتظرين -وجلهم

من الأطفال - لم يفتنوا إلى موضوع الصيانة، وكان من الغريب أن العامل امتنع عن ذكرها على أنها هي السبب في حظر الدخول. ربما منعه من ذلك سبب وجيه.

عندما اقتربت سلمى من الحديقة بعد أيام سمعت أزيزًا حادًا هائلًا يخترق الأصوات كلها وكأنه صوت منشار ضخمة. منعها الرجال من الاقتراب قائلين إن قطع الأشجار قد ابتداءً وإن هذا يشكل خطرًا على كل من يقترب. غاب عنها كل صوت، كل كلمة، كل فكرة وحلّ محلّها جميعًا فراغ شاسع باهت الصفرة أسدل حولها مثل ستار. احتمت بذلك الستار إلى حين وهي تعجز عن الاستيعاب، ثم بدأ الغضب يجتاحها. ما علاقة الصيانة بقطع أشجار الحديقة؟ لا شك أن الأمر ينطوي على ما هو أكبر وأخطر من مجرد الصيانة. ولعله السبب في امتناع العامل عن ذكره. لم تبال بسؤال العمال عن السبب الحقيقي لقطع الأشجار؛ فما نفع السؤال؟ إنها لن تحظى بجواب يرضيها مهما قالوا. ما السبب الذي يبرر قطع الأشجار في مدينة كبيرة تحتاج إلى كساء أخضر يجمّلها ويخفف من اغترابها؟ ما الذي يبرر اجتياح حديقة صغيرة وادعة تستكين بين المباني فتبعث البهجة في ما حولها؟ ما الذي يبرر قتل كائنات حية تعزز الحياة؟

لكن سلمى تعرف أن الأشجار تُقطع في كل مكان وأن البعض يتخذ من قطعها حرفة له. فالمدن بحاجة إلى مزيد من الأعمار كما يقولون والأشجار تحول دون ذلك. وحتى الأراضي الزراعية لم تسلم من هذا المنطق. بل إن الطبيعة نفسها تقسو على الغابات أحيانًا فتشعل فيها الحرائق التي تأتي على

قسم كبير من أشجارها. إن سلمى لا تستطيع التصدي لذلك المنشار الآلي الهائل بالطبع، ولا لتلك الجرافة الجبارة، ولا لغيرهما من آلات القتل التي باتت تتربص بالحديقة. وهي بالطبع لا تستطيع التصدي للقوى التي تقف خلفها كأنها القدر المحتوم. تذكرت قوى القتل التي تعيثُ فسادًا في الأرض فتخفي مئات الأبرياء من على وجهها، وتشرّد مئات آخرين، وتحوّل الأطفال إلى أشلاء في لحظات. ألا ما أبشع الوحش الكامن في الإنسان عندما يطل برأسه! حزن كبير يغمرها، وعجز يزيد من حزنها. أهذا ما تنبأت به الصديقة؟

لم تعد سلمى تجرؤ على تذكر الطائر السحري الأزرق الذي هزتها رؤيته هزًا وكأنه روح هابط من عالم غيبيّ تكتمل فيه الأشياء. لم يكن ذلك المخلوق ذا جمال صاعق فحسب، بل كان هادئًا وادعًا أيضًا، متآلفًا مع الشجيرة حتى ليكاد يتحد بها، متناغمًا مع كل ما في الحديقة وكأنه جزء طبيعي منها. لقد جاء من موطنه البعيد ليزور الشجيرة مجددًا صلته بها ومقدمًا هبته الفريدة لكل من يراه. كانت سكينته العميقة توحى بأنه لا يحس بأي خطر يتهدهده رغم صغره وضعفه. لكن فيمَ الخوف؟ إن الحداثق منزله منذ الأزل وهو يطمئن إليها وإلى كل ما فيها ومن فيها. إنه يثق بالحياة والأحياء، إنه يطير ويرتحل ويستكشف الفضاء والأرض بوحى من ثقته هذه دون أن يشنيه عن ذلك شيء.

اختفت معالم الحديقة شيئًا فشيئًا. احتلتها الآلات الضخمة التي مدت أذرعها في كل اتجاه لتستحوذ على فضائها وكأنها وحوش خرافية لا أسماء لها. تعالت صيحات العمال الخشنة في أرجائها واختلطت بالأزيز والهدير

والصليل. لم يعد لحديقة الأطفال وجود. تحطمت ألعابها الملونة ثم تكوّمت على ظهر سيارة شحن لتُنقل إلى مكان ما. تمت سلمي أن تتجنب مرأى الحديقة وهي تقع فريسة لكل تلك القوى العاتية، لكنها كانت كثيرًا ما تضطر للمرور بها. في أحد الأيام بدت لها كتلة ضخمة قاتمة توشك أن تبرز من جوف الأرض بينما العمال يحتشدون حولها وهم في حال بالغة من الحماس. علت الكتلة بين عشية وضحاها وكأن يدًا سحرية مسّتها. بدأت تطاول المباني المجاورة وسرعان ما تحولت إلى برج راح يعلو ويعلو وكأنه يريد أن يبلغ السماء. قيل إنه برج سكني، وقيل إنه مجمع للمؤسسات الرسمية، وقيل إنه المقر الإقليمي لمنظمات دولية أو ربما لشركات عالمية. لم يعرف حقيقة البرج أحد لكن أهل الحي رأوا فيه شيئًا شاذًا عما حوله بلونه القاتم وارتفاعه الشاهق والمواد المستعملة في بنائه. لم يكن في رأيهم نموًا طبيعيًا للحي ولا للمعمار المعتدل السائد فيه، بل جسمًا غريبًا يقتحمه ويفسد بيئته ويتقصص من جماله.

في أحد الأيام توقف صخب العمل والعمال فجأة، وخلا الموقع تمامًا إلا من الركام الذي كان أشبه بمخلفات زلزال. كان بناء البرج قد اكتمل وبدأت فترة من السكون والصمت قبل أن يبدأ تجهيزه من الداخل وإعداده للعمل. استغرقت هذه الفترة بعض الوقت بدا خلالها البرج مثل كتلة صماء عمياء لا نفع فيها لأحد. لكنه كان في الحقيقة ذا بأس لا يُنكر ولا يُستهان به. أليس هو الذي اقتلع أشجار الحديقة وسحق زهورها وأطفأ ألوانها؟ أليس الذي نبش أرضها وحطم نافورتها وسمّم هواءها؟ أليس الذي أفزع الطيور وشرّد

الأطفال؟ أليس الذي صمّت لضجيج الآذان؟ ألا ما أشبهه بالغول الذي يتردد ذكره في حكايات الجدات! كان ذلك الغول يهزم في النهاية على يد بطل من الأبطال، أما هذا الغول فقد أصبح أمرًا واقعيًا وجزءًا لا يتجزأ من معالم الحي، وسيظل يطل عليه إلى ما شاء الله. ولا يستبعد أن يتكاثر مثل غيره من الغيلان التي تغزو المدن الكبيرة قادمة من عوالم أخرى.

لقد انجذب الإنسان إلى الفضاء منذ أقدم العصور كما تشهد الأبنية الشاهقة التي شيدها لأغراض دينية أو لأسباب دنيوية، مثل التعبير عن هويته وتأكيد وجوده وإثبات قدرته. ولا شك أن ناطحات السحاب الحديثة تحاول أن تضاهي تلك الصروح التاريخية، وأن تحكي حكاية مماثلة عن التقدم والتفوق. لقد استعملت في بنائها كل المواد والأدوات والتقنيات ببراعة فائقة، وبذل في بنائها الكثير من المال والجهد، واحتاج بناتها إلى تدليل الكثير من العقبات. لكن الأهم أنها قد أصبحت مصانع للأفكار ومراكز للإبداع ومسارح للنشاط الإنساني المثمر. ومن المؤكد أنها تملك من الموارد الفكرية والمادية ما يمكنها من البقاء. إن هذا البرج الشامخ الذي يقوم على ربة عالية وثبة مماثلة في الفضاء لكن شتان ما بين الثوب والوصول، فهذا البرج بحاجة ماسة إلى موارد ضخمة تمكنه من العمل وبث رسالة الازدهار. ولا بد له بعد ذلك من طاقة هائلة تسمح له بالاستمرار.

ماذا تبقى من رسالة الطائر الأزرق؟ ماذا تبقى من هديته الثمينة للحديقة؟ لقد قوّض البرج الحديقة فقضى على موطن غني بالجمال الطبيعي الظاهر دون أن يعد بأيّ جمال خفي، فمن الواضح أن خطوطه الصارمة الساذجة

تفتقر إلى الخيال وتستعين بالجمال. كانت الحديقة توحد بين عناصر الطبيعة من ماء وهواء وضياء وتراب في مسعى واحد، وكانت تؤلف ما بين الكائنات الحية على اختلافها. كانت تحتضن الكبار والصغار وتقرب ما بينهم. كانت تجمع ولا تفرق. وها هو البرج فدفقهم جميعاً. لكن البرج لن يكتفي بتفريق زوار الحديقة، ولا بحرمان أهل الحي من متنفس وملعب وملاذ، بل إنه سيقبل حياتهم رأساً على عقب. سيزاحمهم على الهواء والماء والأرض، وسيجلب المزيد من الزحام والضوضاء والحركة والتلوث، وقد ينتهي به الأمر إلى طردهم والتهام حييهم كما التهم حديقته من قبل. وكم يخشى أهل الحي أن يُستعمل لمراقبتهم والتلصص عليهم! بل إنه قد ينقض عليهم يوماً بكل أحماله وأثقاله النفيسة.

غير أن رسالة الطائر الأزرق لم تضع. إنها باقية حتى لو لم تبق أشجار يُحطّ عليها. إنها رسالة الجمال المطلق الذي يسري في الكون رغم القبح، إنها رسالة الائتلاف رغم الاختلاف، ورسالة الإقدام في سبيل تحقيق غايات الحياة رغم الموت الذي يغلفها. هذه معانٍ يعرفها البشر منذ القدم وإن لم يتمكنوا من اعتناقها دائماً. ورسالة الطائر هي التذكرة بها والتبصرة بوجودها، فهو معلم ملهم حقاً.

ولعل نبوءة الصديقة لم تذهب هباء هي الأخرى. فهذا الطائر حلم لا حد لروعته، أو هو رؤيا مشرقة. والرؤى، ومثلها الأحلام، دليل إلى الممكن الذي يتحوّل إلى واقع إن صحّ العزم.

العصر

تنزل هناء من سيارتها وتمشي على مهل. ضوء الشمس يتخلل كل ذرة في الفضاء فيترك فيه ما يشبه بقعاً ملونة متراقصة، ينهمر على ذرى الأشجار فتبرق مثل قطع صغيرة من الزجاج، ثم ينعكس على نوافذ البيوت فيبهر البصر. السماء تتألاً كأن العصر بداية نهار جديد.

الرصيف الداكن يبدو وكأنه قد صُقل صقلاً. الأشجار على جانبي الشارع تكتسي أوراقاً غضة يرتعش بعضها فتبدو مثل أجنحة العصافير التي تمرح بينها. شجرة الجاردينيا في الجانب الآخر من الشارع تنوء بوردها الكبير الأحمر. الشجرة النحيلة في نهاية الشارع تقف شامخة راسخة. الحداثق تستلقي في أحضان الخضرة المخملية وعطورها تفوح في الجو الدافئ. بعض الزهور يتوارى تواضعاً وبعضها الآخر يتطاول، لكن الورد يطل من فوق كل سياج مثل أضواء معلقة في الخضرة اللامعة. تتوقف هناء في سيرها كي تستوعب جمال الورد. تتمنى لو تشمّه بل تعبٍ عييره عبّاً، لكنها تواصل سيرها وهي تحاول أن تنسم رائحته من بعيد. السيارة السوداء تقف في المرآب وهي مغطاة بقماش أبيض سميك كأن صاحبها لم يعد له فيها أرب. لكن بقية السيارات تربض على جانبي الشارع فتبدو مثل لعب ضخمة لامعة تنعكس على سطوحها رقع من زرقة السماء وخضرة الشجر. القطعة الرمادية تنام عند الباب الأزرق ناعمة البال كعادتها، غير أنها تفتح عينيها لحظة ثم تغمضهما.

الشارع خالٍ تمامًا، ساكن لا يسمع فيه غير وقع خطاها. لا سيارات تصل إليه ولا سيارات تغادره. لا أطفال في الحدايق. من الأرجح أنهم يستريحون بعد عودتهم من المدرسة أو يستذكرون دروسهم أو يتناولون وجبة المساء. الكبار لم يعودوا من أعمالهم بعد، والمسنون يلازمون بيوتهم دون شك. تستسلم هناء للهدوء الذي يتغلغل فيها مثل عطر آخر مذاق في الهواء. تنبعث أنغام البيانو من إحدى النوافذ فجأة. لعلها طفلة تتدرب على العزف وهي ترتدي ثوبًا أبيض مزركشًا، لكن صوتًا فتياً نديًا يعلو بعد قليل متغنيًا بالحياة وجمالها.

كثيرًا ما تسير هناء في هذا الشارع الذي تحب تصميم بيوته وحدائقه وانحناءه الرشيق، وهي ترى فيه مثالًا للجمال والرفاه. لكنها اليوم تراه مثل جنة صغيرة، بل إنها ترى العالم كله صورة عنه. تود هناء لو تبطئ من سيرها فما زال في الوقت متسع، لكنها لا تريد أن تتأخر بحال من الأحوال؛ فسميرة تنتظرها. سميرة تنتظرهن كلهن؛ فاليوم موعد لقائهن. وهناء تحرص على هذا اللقاء المتكرر فلا يفوتها أبدًا لأنه ينسيها مشاغلها إلى حين، ويُسعرها بالدفء والراحة. من عاداتها أن تصل قبل بقية الصديقات لتساعد سميرة في استعداداتها الأخيرة، ثم تجلس وإياها في الشرفة تنتظران وصول الصديقات واحدة بعد أخرى. الجلسة ممتعة دائمًا في شرفة سميرة الواسعة التي تنتشر النباتات في أركانها وتسلق جدرانها وتعترش سقفها. مظلتها الملونة تذكر بمباهج الصيف ومثلها المقاعد التي اختيرت لها ألوان المظلة نفسها. ومن خلف الشرفة يمتد البيت الكبير جميلًا أنيقًا هو الآخر.

تجلس هناء في المكان نفسه من الشرفة كل مرة، وتنظر إلى الحديقة وزهورها فتزداد جلستها متعة. تعود إلى تأمل شجيرة الورد التي تتوسط صفًا طويلًا من أخواتها، وتعجب لوردها الغامق الذي امتزجت فيه بضعة ألوان معًا وتكاثفت على نحو ليس له مثيل. إنه آية من آيات الحديقة في نظرها، وهي لا تمل من النظر إليه أبدًا. من وقت لآخر تحط العصافير على شجيرتها المفضلة، ثم تنتقل إلى السور خلفها فتتلفت يمنة ويسرة وتعود إليها بلهفة كأنها لا تقوى على فراقها. تمنع العصافير في لهوها وتطيل حديثها مع الورد فيزداد توهجًا وكأنها تصبّ في مسامعه غزلاً.

شجيرة الياسمين تمتدّ على السور قرب الباب وهي تنثر نجيماتا ببطء فتكاد تغطي التراب تحتها بل وحتى الرصيف. عطرها يكتنفها مثل ضباب فيزيد من سحرها. أما الورد فهو يضج حياة، وهو يبرز للرائي من مكمنه ويحدثه بأفصح لسان. بينما يستغرق الياسمين في صمته، ويُسْغَل الورد بالعصافير، تتألق الأضاليا وتتيه الجلاديولا بحلتها الحريرية الفاخرة. لكلّ من نباتات الحديقة معنى مختلف. لكلّ من زهورها لغة تخاطب بها العالم وعطر تهديه له. وكلها تتعايش في حديقة سميرة وتتقاسم هباتها. لكن لا شيء يضاهي شجيرة الورد الوسطى في نظر هناء. كثيرًا ما تدمع عيناها وهي تتأمل لونها الذي تحار في وصفه ولا تجد له اسمًا. من أي فردوس يهبط لون الورد وعطر الياسمين وغلالة الجلاديولا يا ترى؟ كيف يضم العالم مثل هذا الجمال ولا تمّحي منه الشرور؟

هناك تعرف حديقة سميرة بكل دقائقها وكأنها حديقته. بل تشعر أن النباتات في حديقة سميرة صديقة لها أيضًا. تحرص هناك على زيارة سميرة دائماً فهي قريبته لا صديقته فحسب. وهي كثيراً ما تنتهز فرصة جلوسهما معاً قبل وصول الصديقات لتخبرها عن أمور تهمها أو لتفضي إليها بما لا تفضي به لغيرها. تصل الصديقات أخيراً بعد انتظار لا يطول. يدخلن متمهلات؛ زينتهن ظاهرة، عطورهن فوّاحة، وابتساماتهن صافية كالفضاء، عميقة كأنها جزء من تكوينهن، دافئة تغذيها المحبة والثقة. يلوح الشارع من بعيد عند دخولهن فتبرز حيويتهن بجانب سكونه. ومن خلفهن يمتد النجيل وقد زهت خضرته. لقد مرت الحياة بهؤلاء النساء مرّ النسيم فأصبح الشباب الدائم بعض حظهن منها. وهنّ في مثل هذه المناسبات يتألّقن كأنهن من بعض كائنات الحديقة. تدرك هناك ما في هذه اللقاءات من اعتزاز بالجمال وحسن المظهر، لكنها تراها توثيقاً للمحبة قبل كل شيء، واحتفاء بالأنوثة، وتعبيراً عن بهجة الحياة.

رندة أول من يصل دائماً. وهي تدخل كمن يخطو على خشبة المسرح ويعرف أن الأنظار تتجه إليه أينما كان. فهي نجمة بطبيعتها. سحر تدخل بشيء من التعالي الذي سرعان ما يتلاشى عندما تتكلم وتنتقل على سجيتها. ونجلاء ذات الطرف الناعس تبدو كمن يفكر في أشياء بعيدة، ولعلها بوجهها القمحي المستدير وفمها الدقيق وشعرها الطويل الناعم أجملهن. ونهى تدخل متوثبة فتبدو بثوبها الهفهاف الملون مثل فراشة. وليلى عذبة الابتسام صغيرة القد لكنها ذات طاقة هائلة، وهي تأخذ من كل نشاط بسبب. لقد أوسعت الحياة هؤلاء النساء تدليلاً وهن يقبلن عليها بدورهن اعترافاً

بجميلها. فور أن يكتمل عقد الصديقات ينساب الحديث بينهن مثل جدول رقراق. يروين أخبارهن ثم يتشعب الحديث دون أن يتجه وجهة معينة. تحتسي الصديقات الشراب من أكوابه المزخرفة وهن ماضيات في حديثهن الذي يعزز ألفتهن الطبيعية. وعندما يخفت الحديث في ختام الجلسة تلمع السعادة في عيونهن، وأخيراً يرتشفن القهوة وقد بدت عليهن سكون تام. في تلك اللحظات تشعر هناء أن العالم ليس إلا شرنقة دافئة في مثل لون وردها المفضل. تفرق الصديقات في ساعات المساء الأولى على أن يلتقين في موعد قريب. فلقاؤهن جزء طبيعي من حياتهن، وهي لا تحلو بدونه.

تصل هناء إلى نهاية الشارع وهي تشعر أن ذلك العصر يشبه كأساً مترعة بمسرات الحياة. تنعطف إلى شارع جانبي وقد ازدادت لهفتها على لقاء الصديقات. الهدوء يتعمق فيذكرها بذاك الذي يسبق رفع الستار في المسرح أو انطلاق الألعاب النارية في سماء الليل. تواصل سيرها المتمهل حتى تصل إلى البيت الكبير. تتوقف قليلاً عند بوابته قبيل الدخول فترى الحديقة واسعة كعهدها بها، غير أنها خالية إلا من قطة تنكمش عند السور. تدخل فترى النجيل الذي يتوسطها وقد اتسعت رقعته، لكن الاصفرار يشوب جوانبه غير المستوية وكأن البستاني أهمله منذ مدة. الزهور تحتل حوضاً ضيقاً عند طرف الحديقة يميل ترابه إلى اللون الرمادي، وفيه بضع شجيرات تحمل ورداً متفرقاً عطشاً. لا أثر لشجيرتها المحببة بين الشجيرات؛ لا شجيرة ياسمين تنكئ إلى السور؛ لا عطر يثقل الهواء؛ والعصافير قليلة متقطعة الغناء. ممرات الحديقة تتناثر فيها أوراق الشجر الجافة وبعض أعقاب السجائر، وظلال

الأشجار الهرمة تخيم عليها رغم قلتها. أما البيت الكبير فلا صوت ينبعث منه، لا ضحك يتعالى من شرفته ولا نبات يتسلق جدرانه، وكل نوافذه مغلقة. لا أثر لأصحاب البيت. لكنّ شبحاً يلوح عن بعد فجأة ثم يتسلل إلى داخله. يلوح شبح ثانٍ ثم يختفي داخل البيت هو الآخر. شبح ثالث، ورابع! لعلهم مارة ضلوا طريقهم، أو لعلهم زوّار عابرون. يقترب منها أحد أولئك المتسللين وقد امتص النهار حيويته وزحف على ثيابه فترك فيها غصوناً لا تخطئها العين. ينظر إليها بعينين زائغتين ويهمهم بشيء لا تفهمه، ثم يمضى مسرعاً وكأنه ضُبط في جرم. يدخل شخوص آخرون ثم يختفون داخل البيت. لكن نوافذه تظل مغلقة، وستائره تظل مسدلة، والصمت يظل يغرقه. تسري رعدة في جسم هناء كأن الشمس لم تدفع الكون طيلة النهار، وضوؤها يشحب وكأن يداً استلّت منه بقايا خيوطه الذهبية.

تسير هناء في إثر أولئك الشخوص دون مزيد من التفكير. تدخل البيت فتستقبلها الردهة المعتمة. تصعد بضع درجات بسرعة. تنتظر لحظات ريثما تخلو الردهة من القادمين، ثم تضغط زر المصعد وتختفي داخله على عجل. تفتح باباً آخر وتدخل كمن يريد أن ينجو بنفسه. تقفل الباب بسرعة كمن يريد الاحتماء وراءه. كل أولئك الشخوص غرباء. كلهم غرباء عنها، كلهم غرباء عن بعضهم البعض. لكل منهم لغة ولكل منهم عالم ولا وحدة تلمّ شعثهم. بيتهم موحش كحديقته، وهو مهجور حتى لو امتلأ بهم. لكن لا مهرب لهناء منهم. فأولئك الغرباء جيرانها!

المزهرية

أغمض الأستاذ شفيق عينيه بشدة وأخفى وجهه كله تحت اللحاف. حاول أن يفرغ ذهنه من كل فكرة، ثم راح يتنفس تنفساً عميقاً منتظماً مركّزاً انتباهه على عملية التنفس ذاتها وعلى حركة صدره وهو يعلو ويهبط. شيء من الخدر يسرى في جسمه، ولعل النوم في طريقه إليه الآن. انقلب على جانبه الأيمن. الوجه الأسمر الممتلئ يبرز أمام عينيه مرة أخرى. وجه ساكن كأنه وجه تمثال. عيان سوداوان كبيرتان تنظران إلى الفراغ، شفتان مطبقتان. لعنة الله عليك! لعنة الله عليك! الوجه الأسمر لا يبدو عليه أي رد فعل، لكنه رغم جموده ينبض بالحياة. العيان السوداوان تلمعان لمعاناً بعيداً خافتاً، والوجنتان يسري تحت جلدهما الداكن الأملس دم الشباب.

بعد قليل نهض الأستاذ شفيق من فراشه. الساعة الآن الواحدة صباحاً. توجه إلى الحمام، وعند عودته اندس في فراشه بلهفة وأخفى وجهه تحت اللحاف ثانية. الوجه الأسمر يبرز أمام عينيه من تحت اللحاف؛ وجه أبكم قد اختفى منه كل تعبير، وجه قد انفصل صاحبه عن مكانه وزمانه فكأنه غير موجود. انقلب الأستاذ شفيق على ظهره وعاد إلى التنفس العميق. الوجه الأسمر يطل عليه من فضاء الغرفة، العيان غارقتان في سوادهما تنظران إلى لا شيء. الصوت العالي الحاد يزلزل كيانه، والمزهرية المصنوعة من الكريستال النقي قد استحالت قطعاً تستعصي على العدّ. يد

توجه إليه ضربة قاسية من حيث لا يعلم، والألم أشد من أن يحتمله. لعنة الله عليك! لعنة الله عليك! المزهرية ما تزال تشعّ نورًا حتى بعد أن تهشمت وتناثرت على الأرض. لطالما جلبت إليه السرور حتى وهي فارغة. اشترتها بنفسها قبل سنوات كثيرة لا يذكر عددها وسرعان ما احتلت مكانًا هامًا في البيت. كانت تملؤها بالزنبق الأبيض كلما استطاعت وتضعها في ركنها المعتاد من غرفة الجلوس. ماذا يفعل بها الآن؟ لعنة الله عليك! لعنة الله عليك!

ملّ الأستاذ شفيق من التنفس العميق بل وشعر بالتعب من جرائه. انقلب في فراشه مرة أخرى. كم الساعة الآن يا ترى؟ النوم أبعد ما يكون عن عينيه، ويبدو أنه سيقضى الليل كله مؤرقًا. الصوت العالي الحاد يهوي على مسامعه وكأنه مطرقة تهوي على رأسه فيجن جنونه. المزهرية على الأرض، ولا توجد قوة في العالم تستطيع لَمَّ أجزائها معًا. صوته يجلجل في أنحاء البيت فيهز أركانه: لعنة الله عليك! لعنة الله عليك! سأكسر يدك هذه! سأكسر رأسك. سأكسر عظامك كلها. استلقى الأستاذ شفيق على ظهره ثانية وراح يشد عضلات ساقيه ثم يرخيها مرة بعد مرة. انتقل إلى عضلات بطنه فصدره فكتفيه، وعندما انتهى من تمارين الاسترخاء هذه انقلب على جانبه الأيسر وهو يشعر بشيء من الراحة الجسمية. لعل هذا يساعده على النوم. العينان تنظران ولا تنظران، الوجه لا يبدو فيه غضب ولا حقد ولا عداً ولا تحد ولا أي شعور آخر، والفتى

يتحول إلى شخص غريب وكأنه لا يأتي إلى بيته كل يوم لينظفه ويعدّ له الطعام.

أصابعها الطويلة الرشيقة تعانق المزهريّة وهي تحملها إلى غرفة الجلوس، وجهها يشرق بابتسامة خاصة وكأنها تقول: «انظر إلى الزنبق ما أجمله!». المزهريّة تقف بكبرياء على منضدة مزخرفة في ركن من غرفة الجلوس، نحيلة متناسقة الأجزاء تشرّب إلى الأعلى. الضوء ينصبّ على أديمها من النافذة الكبيرة خلفها فيتألأ بالبحر. شفافيتها تبرز بياض الزنبق ونقاءه، وهي أجمل ما يمكن أن يحتضن أعواده الطويلة التي لم تفتح كل براعمها بعد. عطر كثيف ينسكب منها ويشيع حولها وكأنه غلالة رقيقة تنسدل أمامه في فضاء الغرفة، عطر سخيّ يذكّر بجمال الحياة ويعد بنعيمها. لم يملأها بالزنبق بعد رحيلها قط، ولا بأيّ زهور أخرى. لم ينقلها من مكانها، بل لم يجرؤ على لمسها، وكأنها أثر مقدس. لكنه كان يتأملها من بعيد فيخال انه يشم عطر الزنبق وهو يتدفق منها مثل موجة غزيرة تغمر الغرفة وتنتشر في ما يجاورها من الغرف. وعندئذ يثور في قلبه مزيج من البهجة والحنين والحسرة معاً. لكانها والزنبق والمزهريّة شيء واحد!

كانت المزهريّة توحى له بشيء من الثبات بعد أن انقلبت حياته رأساً على عقب فتدخل بعض العزاء إلى قلبه. كان يظنّها باقية في مكانها إلى الأبد، لكن الصوت العالي الحاد ينقّص على مسامعه، وفي اللحظة التالية تتناثر المزهريّة على الأرض وقد تهشمت إلى عشرات القطع. لعنة الله

عليك! لعنة الله عليك! كيف كسرتها؟! يده ترتفع لتنهال على الوجه الأسمر بصفعات ينفّس بها عن غضبه الذي يتفجر في داخله ويهزه هزًّا. ليته يأتي بعصا غليظة فيهوي بها على رأس هذا الفتى الذي يقف أمامه مثل تمثال. ليته يفتك به في التو واللحظة. سأكسر يدك هذه! سأكسر عظامك كلها! يا غبيّ، يا غبيّ. يغيض الشعور من الوجه الأسمر، والوعي يتراجع إلى ركن قصيّ فيه يصعب الوصول إليه. يده تهبط ببطء إلى مكانها، فهو لم يضرب خادمًا في حياته قط. لكنه يردد مرة بعد مرة بصوت أشبه بالفحيح: لعنة الله عليك! لعنة الله عليك! لقد سلبه هذا الفتى شيئًا لا يُقدَّر بثمن، سلبه شيئًا يرمز إلى ما كانت حياته الماضية تزخر به من دفء وجمال. وهو لا يدري ما يصنع بغضبه الذي يعتل في داخله مثل بركان. ليته يكسر شيئًا بدوره، بل ليته ينفجر بالبكاء. الفتى لا يفسر ولا يحتج ولا يدافع عن نفسه. وهو لا يتعد ولا يستدير ولا يتحرك مطلقًا حتى عندما يهيم بضربه. الفتى لا يتجنبه بأي حال وكأنه يقدم نفسه قربانًا لغضبه. وجهه يحتفظ بجموده وكأنه يقيم سدًّا منيعًا بينه وبينه في نفس الوقت. وجمود الفتى يمتص شيئًا من غضبه ومرارته.

انقلب الأستاذ شفيق على ظهره ثانية. يبدو أنه لن ينام الليلة فليستسلم للأرق دون مقاومة. سيزغ الفجر عما قليل فيصلّي كما اعتاد أن يصلّي منذ عام بعد أن تقاعد. وربما نام بعد الصلاة. أذان الفجر نور آخر يشق الظلام، أو هو رعد يعقبه المطر والريّ. صوت المؤذن يدخل الراحة إلى قلبه وكأنه ظل يفيء إليه. وهو عندما يقف أمام خالقه يتخفف من كل

زيف فيرتاح. كم انتظر الصلاة خلال هذا العام! وكم استعان بها على مواجهة أحزانه! العينان السوداوان تنظران نظرة خاوية وكأنهما عينا حيوان أعجم يقوم حاجز طبيعي بينه وبين الإنسان، أو كأنهما عينا مخلوق هبط لتوّه من كوكب آخر. لا يذكر الأستاذ شفيق أنه رأى أحداً يتصرف هكذا في موقف من هذا النوع من قبل. لماذا لا يدافع الفتى عن نفسه؟ لماذا لا يتفوه بكلمة؟ كيف يستطيع أن يضبط مشاعره إلى هذا الحد؟ ما أشع الخوف الذي يفضح ضعف الإنسان وينتقص من إنسانيته! فهذا الفتى يختبئ وراء مظهره الجامد كما يختبئ حيوان مذعور في جحره، بل هو يعمد إلى إنكار وجوده دفاعاً عن نفسه. لقد أفلح الأستاذ شفيق في إرهابه حقاً بعد أن أحسن خدمته طيلة عام!

المزهرية على الأرض مهشمة، ولن يملأها الزنبق ثانية حتى لو أراد. ليس من السهل أن يغفر له كسرهما، فقد حطم ما كان يذكّره بعطر الزنبق الذي كان يتنشي به، بجماله الذي كان يسعده، بصفائه الذي كان يرمز إلى صفاء حياته، بالمفارقة الطريفة بين صغر الزنبق وعطره السماوي. والاهم من كل ذلك أنها مزهريتها. ولقد ظلت على حالها بعد رحيلها. ما كان يظن أنها سترحل قبله. انهدم برحيلها ركن من أركان حياته وأقفر العالم من حوله. وقف مذهولاً أمام الفجيعة ثم أمام التغيير الذي داهمه. استسلم للحزن ومر بكل مراحلها، ثم واجه شبح الوحدة. وبعد أن بدأ يألف حياته الجديدة تمسك بكل أسباب السرور التي ترتبط بها، ومنها المزهرية. ها هو قد بلغ السادسة والستين من عمره، ولقد ودّع الكفاح من

أجل المهنة ومثلها العليا كما ودّع الحياة الزوجية الهادئة التي نعم بها عشرات السنين. جلّ وقته ينقضي في القراءة والراحة وانتظار زيارات أولاده من وقت لآخر. ليس من السهل أن ينسى المزهرية وكسرها، وهو محقّ في غضبه، لكن كثيرًا من الأشياء تكسر وتتلف. حتى المعاني تتحطم، والأفكار تتغير أو تموت، والدوام سراب في حد ذاته كما يعرف حق المعرفة. سيخف ألمه على كسر المزهرية بمرور الوقت كما خف على فقدان أشياء عزيزة أخرى فكثيرًا ما يعقب الكسر الجبر. لن يعود إلى تأنيب الفتى أو تهديده. لكن، أما كان يجدر بالفتى أن يعتذر عن كسر المزهرية؟ أما كان من الصواب أن يعترف بخطئه؟ لعل الخوف الذي بدا ظله المتردد في عينيه حال بينه وبين الكلام. لعله لم يجد مجالًا للاعتذار وهو يواجه ذلك الغضب الجامح الذي باغته. ولعله لم يجد ضرورة للاعتذار بعد أن أهين على ذلك النحو. غير أن صمته نفسه ربما كان اعترافًا بالخطأ واعتذارًا. الفتى يتعالى على كل شعور ولا يكاد وجهه يشي بخوفه؛ الفتى يحافظ على هدوئه وعلى كبريائه معًا. أما هو فيستسلم للغضب ويهّم بضرب عامل اقتلعه الفقر من بلده البعيد وألقى به في بيته ليكسب عيشه. وهو أيضًا يشتمه رغم ما عرف عنه من لين الجانب وحسن المعاملة. لقد انزلق الأستاذ شفيق إلى درك لا يرضاه لنفسه. فهو لم يضرب أحدًا في حياته قط، بل لم يضرب أولاده في صغرهم إلا ضربًا خفيفًا عند الضرورة القصوى وعلى كره منه. الضرب عنف لا ضرورة له، والعنف يلوث صاحبه في المقام الأول. ولطالما ترفع الأستاذ شفيق عن

الشتائم أيضًا، فهي تنتقص من قدره ومن احترامه لنفسه ولا تليق به بوصفه محامياً قضى عمره في حل الخلافات بطريقة سلمية. بل هي لا تليق بأحد. وجه الفتى تبدو فيه نظرة تأنيب، وربما نظرة سخرية. ولا شك أن الأستاذ شفيق فقد هيئته في نظره.

لقد ثارت ثائرة الأستاذ شفيق لكسر المزهرية باسم الذكريات العائلية الدافئة التي كانت توحى بها، لكنه لم يجد فائضاً من الدفء الذي يعمر قلبه نحو عائلته ليمتص به بعض غضبه على هذا الفتى الذي ربطته به علاقة عمل طيبة طيلة عام. أين الفضيلة في العطف إذا اقتصر على الأقربين؟! ولماذا لا تشيع الرحمة وتفوح كالعطر فتغمر الأقرباء والغرباء على السواء؟ لقد كانت المزهرية تبعث السرور في قلبه لما كان يرى فيها من قيمة جمالية كبيرة أيضًا، لكن الجمال لا وجود له ولا معنى بمعزل عن الإنسان. والمزهرية هشة بطبيعتها، وهي معرضة للكسر على يد أي شخص فلماذا يريد لها الخلود؟ لماذا يريد لها البقاء في عالم تبلى فيه الكائنات الحية في كل لحظة ويقترّب الإنسان فيه من الموت مع كل نفس يتردد في صدره؟ هل كان ليثور هكذا لو أن فردًا من عائلته كسرها؟ ليتّه اكتفى بتأنيب الفتى وإنذاره بدلًا من التعبير عن غضبه بتلك الطريقة الفجة مستغلًا ضعفه ومستهينًا بكرامته. لقد تركت قسوته روااسبها الثقيلة في نفسه هو أيضًا وكأنها سمٌ سرى فيها. ولقد أدت إلى إفساد علاقته بالفتى. إن القسوة من السيئات حقًا! أغمض الأستاذ شفيق عينيه بشدة ورفع يده كأنما ليغطي وجهه خجلًا.

نهض الأستاذ شفيق من فراشه مرة أخرى. سيتوضأ استعداداً للصلاة
 الفجر التي اقترب موعدها، وعندما عاد إلى فراشه جلس فيه بدلاً من أن
 يستلقي لئلا يغلبه النوم بعد أرقه الطويل فيضطر للوضوء ثانية. حاول أن
 يسترخي في جلسته ليخفف من الإرهاق الشديد الذي يشعر به. بعد أقل
 من ساعة انطلق الأذان فاستسلم لصوت المؤذن وما فيه من قوة وجمال،
 ونسي كل ما عداه. طرب لكلمات الأذان وروحانيتها وموسيقاها، وحلّق
 معها طويلاً حتى تفرقت الدموع في عينيه. سيقف بين يدي خالقه بعد
 قليل كما اعتاد، وسيستغفره كما يفعل في كل صلاة فيحس بأنه يتطهر.
 لكنه يدرك اليوم أن الاستغفار وحده لا يكفي، إذ لا بد من بذل جهد
 حقيقي لتطهير النفس من كل ما قد يلوّثها. ولا بد له هو شخصياً من أن
 يطهّر قلبه من تلك القسوة التي تجلت في معاملته للفتى أمس. الصلاة
 وحدها لا تكفي للتطهير، بل لا بد من الالتزام بما تمثله من قيم تسمو
 بالنفس وتنأى بها عن مواطن التلوث أصلاً، فالصلاة ليست عبادة فحسب
 بل هي عمل وبناء أيضاً. والتطهير من القسوة لا يمكن أن يستقيم بدون
 التكفير، بدون محو آثار القسوة من نفوس ضحاياها. وهذا يعني فعل ما
 من شأنه أن يطيب خاطرهم ويعوضهم عما لحق بهم من أذى ويؤكد
 كرامتهم الإنسانية. نهض الأستاذ شفيق من فراشه أخيراً وهو يحس أن
 حملاً يثقله، ومشى بخطى بطيئة متعبة إلى حيث يصلي كل يوم في غرفة
 الجلوس.

كيف يطيب خاطر الفتى؟ سوف يحسن استقباله بالتأكيد، سوف يرحب به، وسوف يكون هذا بمثابة اعتذار. سوف يعفيه من بعض أعمال البيت اليوم، سوف يعطيه بعض النقود. هل يزيد له أجره؟ هل يقدم له هدية صغيرة؟ وماذا عساها أن تكون؟ لكن الأستاذ شفيق لا يريد أن يبالغ في استرضاء الفتى أو التسامح معه. لا يريد أن يبدو وكأنه يكافئه على فعلته التي سببت له ألماً عميقاً، فكسر المزهرية كان أشبه بتر عضو من أعضاء جسمه. إنه لن ينسى الإهمال الذي أدى إلى كسرها أبداً، ولا يريد للفتى نفسه أن ينساه قط. ما يريده هو تعويض الفتى عن إهانتته له مع التأكد من أن الإهمال لن يتكرر في يوم من الأيام. ليس من السهل أن يتجنب المرء الغضب الجامح في كل المواقف، لكن الشعور بالغضب شيء وإهانة الآخرين بدافع منه شيء آخر. والأستاذ شفيق يعرف بحكم تجربته الطويلة أن التعبير عن الغضب ممكن بدون الاستهانة بالكرامة الإنسانية. في تلك الساعة المبكرة من النهار الجديد عاهد الأستاذ شفيق نفسه على ألا يعود إلى إهانة الفتى أو غيره مهما حدث، واستقر رأيه عندئذ على أن مثل هذا الالتزام سيكون أفضل تعويض للفتى، وأحسن ما يضمن سير العلاقة بينهما على ما يرام. شعر الأستاذ شفيق بشيء من الهدوء بعد أن توصل إلى ذلك القرار فعاد إلى فراشه لينال نسيماً من النوم إن استطاع. قد يصل الفتى أثناء نومه لكن لا بأس. فالفتى يعرف مخبأ المفتاح ويستطيع أن يدخل البيت من بابه الخلفي ويبدأ عمله كالمعتاد.

استسلم الأستاذ شفيق للنوم أخيراً وهو يأمل أن يحمل له اليوم الجديد المزيد من هدوء النفس.

استيقظ في الساعة التاسعة والنصف وهو يشعر براحة جسمية ونفسية، لكنه ظل راقداً في الفراش ليطول من أمد استمتاعه بتلك الراحة. لا شك أن الفتى وصل وباشر عمله اليومي، ولا شك أنه سيعدّ له فنجان القهوة حالاً، فالأستاذ شفيق تعود منذ عشرات السنين على بدء نهاره بتناول القهوة في الفراش. ضغط الأستاذ شفيق الجرس المجاور لفراشه مستدعياً الفتى والقهوة معاً. خفّض من صوت المذياع كي يتمكن من سماع طرقات الفتى على باب غرفته. مرت بضع دقائق عاد بعدها إلى ضغط الجرس، لكنه لم يسمع طرقة على الباب. لعل الفتى قد خرج إلى الحديقة ليحضر بعض أدوات التنظيف التي يتركها هناك أحياناً. راح الأستاذ شفيق ينتظر مجيء الفتى حاملاً معه فنجان القهوة، بل خيّل إليه أنه يشم عبير القهوة المحبب إليه. لكن الصمت ظل يخيم على البيت. ربما تأخر الفتى في الوصول لسبب قاهر، ربما أصيب بوعكة، ماذا لو تغيب الفتى عن العمل اليوم؟ لن يصعب على الأستاذ شفيق أن يدبر أموره عندئذ. سيعدّ القهوة بنفسه وسيكتفي بما يجده في الثلاجة من طعام. وماذا لو تغيب أياً ما؟ سيصعب عليه في هذه الحالة استقدام عامل آخر على عجل فضلاً عن عدم رغبته في استبدال الفتى بآخر بعد أن تعود على خدمته الجيدة.

سيعود الفتى بالتأكيد. ولماذا لا يعود؟ لقد أحسن معاملته طيلة العام الذي قضاه في خدمته، وهو لم يكلفه يوماً بعمل يفوق طاقته. بيته صغير

نسبيًا، وهو ساكنه الوحيد، والأعمال فيه محدودة معروفة، والفتى كان يتقاضى أجرًا لا يقل عن أجر أولئك الذين يشقون بالعمل في بيوت كبيرة مزدحمة بالكبار والصغار من متعددي الأهواء والطلبات. والأهم أنه كان يبدو راضيًا أتم الرضا عن كل ظروف عمله. أما هذه المشكلة التي نشأت بينهما فهي من النوع الذي ينشأ كثيرًا بين صاحب العمل والعمال بسبب الإهمال، لكنها الأولى بينهما والفتى هو السبب فيها، ولا ينتظر لها أن تتكرر إذا توخى الفتى الحذر الدائم. أين سيذهب الفتى إذا لم يعد؟ لن يسهل عليه إيجاد عمل آخر بسبب القيود الكثيرة المفروضة على العمال الأجانب، ولا خيار أمامه سوى العودة إلى عمله هنا، سيعود بالتأكيد، ربما بعد قليل. أما الآن فلا يسع الأستاذ شفيق إلا الانتظار وهو يُمْنِي النفس باحتساء القهوة التي يتقن الفتى صنعها. لكن الفتى لم يظهر في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي، ولا في الأيام التي تلت. انتظره الأستاذ شفيق طويلًا لكنه لم يره ثانية قط.

الرحلة

توجهت إلى قاعة المسافرين بعد أن ودعت أخي فوصلت إليها بعد مشي طويل، ثم جلست في تناقل وحولي أمتعتي. كانت قاعة فسيحة لا يكاد يرى أولها من آخرها. مقاعدها وثيرة أنيقة لكنها خالية؛ أضواؤها خافتة، ونوافذها العالية الواسعة سوداء تمامًا بسبب الظلام في الخارج.

كنت قد حاولت كبج دموعي لئلا تثقل على أخي؛ فالدموع مؤلمة للباكي والرأي على السواء، بل هي معيبة مثل العري والكل يريد لها ألا تكون. لكن دموعي وداعي له ولأهلي جميعًا، وهل من يفارق أهله ووطنه ييخل بالدموع؟ لم يشر أخي إلى دموعي فهي منظر يتكرر كل سنة. ولم يكن ثمة ما أقوله أنا فالكلمات المعتادة مملة رغم صدقها وهي لا تغني شيئًا. الصمت أبلغ، وهو يساعدني على جمع شتات نفسي. فقد كان في داخلي ما يشبه موجة كثيفة قاتمة لا تفتأ تعلو وتدفعني في كل اتجاه فأنوء تحت وطأتها. ومع كل حركة فيها كانت الدموع تغرق وجهي فلا أستطيع حيالها شيئًا. وضعت نفسي تحت رحمتها وتركته تفعل فعلها حتى أصبحت محور وجودي في تلك الساعة، فقد تعلمت ألا أقاوم الدموع بل أتركها تنهمر بكل حرية حتى أستنفد ما لديّ، فالبكاء وظيفة طبيعية مثل التنفس، والدموع مثل إعصار لا بد أن ينتهي إلى غايته ولا يجدي التدخل فيه. لكنني أحجل من دموعي العلنية وما فيها من ضعف مقيت. أما زلتُ أبكي بعد كل هذه السنين؟ ماذا سيظن

بي الناس؟ ربما كان البكاء شيئاً متوقعاً في المطار، لكنني لا أرى أحداً غيري يبكي.

ما تزال القاعة مهجورة، وهي مثلي تنوء بمخلفات ذلك النهار. الأضواء الهزيلة تزيد من وحدتها، وكل ما فيها يشير إلى نهاية لا إلى بداية. أهاجت القاعة المزيد من حزني فاشتد بكائي مرارة. وما لبثت الدموع أن أصبحت مثل ستار انسدل أمام عينيّ فحجب عني كل شيء. من أين تنبع هذه الدموع؟ وهل يمكن أن يكون ينبوعها زاخراً إلى هذا الحد؟ إنها إن سهل تفسير سببها صعب تفسير غزارتها. بدت لي دموعي تلك مثل قوة بدائية جامحة تتفجر من مصدر سحيق في كياني كما تتفجر المياه من جوف الأرض. كنت أتألم لفيضها، لكنها كانت تفرّج عني في نفس الوقت فينحسر حزني لحظة ثم يطغى ويجتاحني ثانية. كانت الدموع ذروة الألم وقرارته في آن واحد، كانت انتقاداً وخموداً، هجومًا وارتدادًا. كنت أعرف أنها لن تجف بسرعة، وأن ذلك الحزن الشرس الذي يمزقني لفراق أهلي ووطني لن يخفف منه شيء، فكل كلام يقال في مثل هذه المواقف لا يمحو حزنًا ولا يجفف دمعًا.

كان الظلام في الخارج دامسًا شاسعًا، وخيل إليّ أن ذلك العملاق الأسود يدق على زجاج النافذة ويومئ إليّ كي ألتف بعباءته الثقيلة وأنام في طياتها نومًا ينسيني حزني إلى حين. كان الظلام مريحًا، وكان نفيًا لوحشة القاعة المهجورة وأضوائها الباهتة؛ للغرباء الذين يلوحون خارجها مثل أشباح أو آلات متحركة ثم يختفون، للحارس الذي يجلس في مقصورته بمنأى عن كل ما حوله، لفراغ الردهات الواسعة التي اجتزتها قبل قلبي؛ لحزن الواجهات

نصف المضياءة، للأصوات القليلة الغامضة التي تصل إلى سمعي من بعيد، ولكل مظاهر الترحال والفرار. لكن في قلب الظلام أضواء كثيرة لا أراها من مجلسي هذا. أضواء مترقصة من كل شكل وحجم ولون ترصع الليل الوديع وتستمد منه وهجها كما يستمد الزرع حياته من حقل خصيب، أضواء متناثرة تومض مترددة أو تسطع وتتصل فتبدو كالنهر. رأيت تلك الأضواء في مستهل رحلتي إلى المطار لكنها اختفت في الظلام واختفت معها المدينة وكأنها مدينة أسطورية تبدو بأضوائها الباهرة من بعيد ثم تتلاشى وكأنها لم تكن. ولقد تركت بين هذه الأضواء السقيمة في القاعة وذلك الظلام الحال كخارجها، وعماء قليل ساعدار مدينتي كلها وأحمل إلى الجانب الآخر من العالم لأستأنف حياتي هناك. أما الآن فالمدينة ما تزال قريبة مني، وأنا أكاد أتنسم عبقها مع أني لا أراها. وإذا غيرت اتجاهي سأجد نفسي في وسطها بعد زمن قصير فتضمنني إلى صدرها الدافئ. فمكاني في مدينتي راسخ لا ينازعني أحد فيه أو عليه بل هو حقيقة غنية عن الذكر. وحتى لو لم أولد فيها لأحسنت وفادتي.

أضواء المدينة تتراكم فيها كما تتراكم الأوراق في الوردية، وهي تفسح فيها موضعاً إثر موضع فتتسع رقعتهما وكأنها لن تتوقف عند حد. هي أضواء أليفة ذات ملامح مميزة تشير إلى المكان كما تشير الوجوه إلى الشخص، وهي لا تبته ولا يتسلل إليها القدم: هذه أضواء المسجد، تلك أضواء الفندق الكبير وتلك لافتات المتاجر، وهنا الشارع الرئيسي. عندما بدأت رحلتي إلى المطار الليلة نظرت إليها بأسى وأنا أخلفها ورائي واحداً إثر واحد. وخيل

إليّ أن الأسى يخالجهما هي الأخرى لسفري وأنها لا ترى له ضرورة. هذه المدينة لا تنازعها مدينة أخرى في قلبي، وهي ماثلة في ذهني دائماً حتى أثناء بعدي عنها. يفرعني فراقها في كل مرة أجلس فيها في هذه القاعة، لكنني أنتزع نفسي منها سنة بعد سنة وأنا أنزف دموعاً. والحزن يخلف ندوباً عميقة في داخلي لا تفتأ تتزايد، لكنني أعرف أن مدينتي باقية تنتظري.

لم تكن دموعي تنقطع إلا لتسيل مرة أخرى. ومن خلالها لاحت لي وجوه تختلف كبراً وصغراً كأنها أضواء انتظمت في عقد، وكلما لاح لي وجه تعاطمت تلك الموجة الطاغية في داخلي وكأنها ستجرني من مكاني ثم أرسلت بفيضها من الدموع إلى عيني. وجوه رقيقة الملامح تحتل قلب المدينة، ولقد فارقتها قبل ساعة وهي تغالب الألم بكبرياء. كلمات قليلة لم نقو على أكثر منها، ثم صمت أغرقنا فيه ألما الممض فتجمد الهواء بيننا وأصبح كالزجاج. لكن الالهفة البادية في العيون قاومت الصمت فحاولنا استحضر الأمل في لقاء قريب. توقفنا عند الباب. قبلتهم طويلاً. تجلى الألم في الوجوه أخيراً فخبأ نورها قليلاً وامتزج بالاستسلام فشعرت بالحزن يخترقني مثل سيف. سألت دموعي في النهاية وكأنها لن تتوقف، فانتزعت نفسي من عناقهم وكأني أريد الهرب؛ فالرحيل أهون من انتظاره. لماذا يتعاقب الفراق واللقاء على هذا النحو الذي يشعني بالإعياء؟ ولماذا نتحمل قدر السفر عاماً بعد عام؟ إننا لا نكاد نلتقي حتى نفترق، فهل يأتي وقت لا أفارقهم فيه أبداً؟ هذه الوجوه هي الحياة نفسها بالنسبة لي، وهي تشدني إليها بدفئها ونورها مهما ابتعدت عنها وكأنها جاذبية الأرض التي لا تقاوم. إنها

مرجعي في كل الأمور أينما كنت حتى دون أن أعرف، وإليها أعود ولا يمكن أن يحول بيني وبين العودة شيء.

ليس لي مدينة حقيقية غير مدينتي هذه. ففيها ولدت ونشأت وتعلمت ما احتجت إلى تعلمه في أول أمري. أحببت بيوتها الحجرية البيضاء التي تتسلق الجبال وترقد عند السفوح كيفما اتفق، وحدائقها المنتزعة من الصحراء، وسماءها الزرقاء المتألثة، وفضاءها الشفاف، وبراءتها؛ سحرت بتناقضها فهي جرداء خضراء، ناشئة عريقة، متواضعة طموحة؛ وارتحت لتوازنها بين القديم والجديد وغفرت لها قصورها. لقد تركت في مدينتي آثارًا عميقة لا تمحى حتى لكأنها مرسومة على ملامحي. ولعل الناس يرونها في وجهي كما أرى أنا كثيرًا من المدن في وجوه الناس.

كانت مدينتي قبل بضعة عقود من السنين صغيرة ذات أجزاء متقاربة متجاذبة، وكانت الحياة تدور حول مركزها الجغرافي المحدود ولا تتباعد عنه كثيرًا. كان قدمها مائلًا للعيان وكان يمتزج بحاضرها فيزيد سحرها. كانت إذ ذاك ما تزال تحاول أن تنهض من أمسها القريب المغمور، وكانت لصغرها وبساطتها هادئة معزولة عن عواصف المنطقة فأصبحت مقصدًا طبيعيًا لمن مسهم ضر جراء تلك العواصف. وعندما وقعت المأساة الكبرى غير بعيد منها أفسحت للوافدين مكانًا في قلبها حتى أصبحوا أكثرية سكانها وأمدتهم بأسباب الأمن ثم الازدهار. كانت المدينة بحاجة إلى الوافدين لتنمو كما تحتاج النواة إلى طبقات لتصبح خلية عاملة، ولقد منحها الوافدون ما

اكتسبوه في مواطنهم الأصلية من معرفة وخبرة حتى أصبحت مدينة كبيرة ذات طاقة متزايدة وإمكانات متجددة.

كانت تلك الموجة العاتية لا تكاد تهدأ في داخلي حتى تهاجمني ثانية وتشير في حزنًا ويأسًا لا يخفف منهما إلا تلك الدموع، لكن إلى حين. وسرعان ما حجبت دموعي تلك أضواء القاعة وظلام النوافذ على السواء، غير أنني كنت أوقن أنني سأعود إلى مدينتي بعد حوالي عام وأنهل من معينها كما أشاء. فقد عدت إليها في كل مرة من قبل، ولا أرى ما يدعو إلى نمط مختلف في حياتي الآن. لقد كنت أو من بمدينتي، وهو إيمان ينبع من حركتها الدائبة وتقدمها المستمر ومولدها الجديد بعد خمول طويل، ومن المكانة الهامة التي تحتلها في حاضرها. كنت أشعر بأرضها صلبة تحت قدمي، لكنني كنت أعرف أن الأرض ليست صلبة ولا ثابتة دائمًا. فكثيرًا ما تختفي الأوطان من صفحات الخرائط ومن كتب التاريخ وتسمى بأسماء أخرى وينساها البشر. وها هي الضفة التوأم تستلب أرضها ويشرد أهلها ويضيع تراثها، ها هي الضفة التوأم تغير عمدًا وقهراً حتى ليكاد ينكرها أهلها وكأنها شخص يسلم جلدته ويشوه وجهه ويعرى من ثيابه. إن أرض الضفة ترزح تحت وطأة قوة عاتية تزلزلها تحت أقدام أهلها، فلا هي ثابتة ولا أهلها مستقرون. وهم لا يملكون أن يسموها وطنًا. فهي نصف وطن، شبه وطن، أو وطن مؤقت إلى أن يفقد تمامًا. وهي أيضًا وطن حقيقي عاشوا فيه قرونًا وضربت جذورهم في أعماقه ولم يعرفوا غيره وطنًا. وحمايتها أطفال، مقاتلوها أحداث، وهم لا يملكون إلا الحجارة سلاحًا.

لكني تشبث بإيماني بمدينتي وكأنها تتمتع بقوة ذاتية خارقة تذود عنها. ولا شك أن الأخطار التي تحيط بمدينتي دفعتني إلى الاحتماء بذلك الإيمان بدلاً من تفحصه تفحصاً دقيقاً؛ فيد الشر التي تنكّل بأهل الضفة وتستولي على مقومات حياتهم أقرب إلينا من حبل الوريد. وهي قوة سوداء عمياء لا يردعها العقل ولا الأخلاق ولا القانون، ونحن لا قبل لنا بالتصدي لها؛ أي أن إيماني بمدينتي كان في جزء منه معرفة تغذي نفسها بنفسها وكأنه تعويذة أرددها وأتوسل بها. فكنت أشبه بطفل صغير يؤمن أن أمه باقية إلى الأبد لأن حياته لا تستقيم بدونها، وهو يستमित في التمسك بهذه المعرفة لأنها أثمن من أن يضيعها. ولقد حال إيماني ذاك دون التساؤل عن مصيري إن اضطرت إلى الهجرة من مدينتي، لأن ذلك شيء كالبر لا أستطيع استيعابه أو مواجهته. كيف يحول غاصب بين إنسان ومدينته، فيحرمه من شم غيرها ورؤية حياته مرسومة على صفحاتها؟ كل مدينة تنسج من الروابط مع الأهل والأصدقاء بل والغرباء من سكانها، وهي تجسد ما بينهم من عواطف وذكريات. ولا بد للمسافر من الرجوع إليها للتعرف إليها من جديد واستخراج المعاني الكامنة فيها وتأكيد الهوية والحق.

غير أنني كنت أرى الناس يهاجرون من مدنهم أو يرغمون على الهجرة منها. ولقد لجأ إلى مدينتي نفسها أقوام كثيرون بحثاً عن الأمان أو الرزق فانضموا إلى مزيج السكان فيها وارتبطوا معهم بصلات وثيقة. جاء الوافدون واثقين من أنفسهم ومفعمين بتلك الطاقة التي كثيراً ما تميز الوافدين، ومضوا يعمرون المدينة وينهضون بأنفسهم حتى علا شأنها وشأنهم. لم أقو يوماً على

استقصاء الجوانب الشخصية من هجرتهم لأنني أرى فقدان الوطن أقسى من الوأد. ولا شك أن كثيرًا منهم اختزنوا الحزن حتى أعيائهم، لكنني وجدت فيهم لينًا ووقارًا بدلًا من الشكوى والتفجع على الماضي أو التفاخر به. كان الوافدون خير بناء حتى لكأنهم معدن ثمين انتزع من منجمه ونُقل إلى موطن آخر لتصنع منه النفائس. ولقد تحولت هجرتهم إلى نصر لهم وإلى فجر جديد للمدينة التي تحولت بالتدريج إلى واحة استقرار وازدهار.

أما أنا فأعادر مدينتي مرة بعد مرة رغم كل حبي لها. فقد فتح أفقها الرحب عيني على العالم، ومنحتني روحها السمحة حرية التنقل وبثت في شعورًا بالثقة لقاء ثمن عادل هو التقيد بقيودها. هكذا أصبح لي بمرور الزمن أكثر من مدينة؛ بعضها قريب وبعضها بعيد، ولكل منها معنى ومكانة، لكنها كلها تنبع من مدينتي الأولى رغم صغرها وبساطتها في الأصل. كنت أزيد من معارفي وخبرتي في هذه المدن وأبرهن على استقلالي. وفي السنوات الأخيرة أصبح لي مدينة جديدة أتنقل بينها وبين مدينتي الأولى فتهني كلُّ منهما أحسن ما لديها. وأنا آخذ هذه الهبات وكأنها حق لي وأؤلف بينها فيجتمع لي كل جديد شائق. لكن فراق مدينتي الأولى يظل مصحوبًا بألم لا يطاق ولا يحتمل.

دخل أناس قلائل إلى القاعة ما لبث أن أعقبهم عدد مماثل، وجلسوا جميعًا في نهايتها فبدوا لي مثل كتلة بعيدة غبراء كتلك الأمتعة الكثيرة التي تحيط بهم. كانت هيئتهم المشعثة تشير إلى أنهم في المراحل الأخيرة من رحلتهم أو في طريق العودة إلى بلادهم. تبادلوا بعض الحديث المتقطع ثم

صمتوا وأطرق بعضهم. لم يروني ولم يحسوا بوجودي. حتى لو رأوني لأشاحوا بوجوههم عن حزني الواضح ودموعي الغزيرة. كانوا أجنب لا تجمعني بهم لغة حقيقية نتعارف بها أو نتفاهم حتى لو أردنا. ولو حدثت في وجوههم ونظرت في عيونهم لرأيت فيها معاني لا أفهمها.

بعد قليل سمعت صوتاً بعيداً في القاعة ثم لاحظت حركة مفاجئة فيها، وظهرت موظفة في أقصاها تبدو في عجلة من أمرها. ظهر أشخاص آخرون واختفوا مسرعين وسمعت مزيداً من الأصوات. عرفت أن ساعة السفر قد حانت وأن الموظفة ستدعونا إلى ركوب الطائرة عما قليل. نهضت بشاقل وأنا أحمل أمتعتي ومشيت على مهل. داهمتني تلك الموجة المتربصة في داخلي من جديد، وأغرقتني بمزيد من الدموع كأنما لتعوض الدقائق القليلة التي توقفت فيها قبل ذلك، فحجب ستارها القاعة عني مرة أخرى. تركتها تسيل بعد أن تعبت من كفكفتها، فكانت أشبه بلحن حزين يعلو ختامه ويصخب حتى يصم الأذان. كان الانتظار في القاعة بمثابة وداع طويل وتزود قبل الرحيل. سفر ولا سفر. أما الآن فلم يعد الرحيل شيئاً أنتظره وأفزع منه بل شيئاً أواجهه، وسأقذف في الفضاء عما قليل وأحمل إلى بلد بعيد كأنه كوكب آخر. بدت القاعة أكثر كآبة وأنا أغادرها وكأني أفسدتها ببيكائي، فهي قاعة أنيقة جعلت لإبراز الجانب المشرق من السفر لا الجانب المضطرب منه. وهي تريد مسافرين يسعدون بالسفر لا مسافرين مثلي يشقون به ويرونه انسلاخاً عن أهم جوانب حياتهم. تمنيت أن أسرع إلى الطائرة لأضع حداً لهذا الجزء المؤلم من رحلتي لكنني أردت أن أدقق النظر فيما حولي من

المطار، وأن أرهف السمع لآخر الأصوات فيه لأحفظ كل ذلك في موضع آمن من ذاكرتي. لا شيء يعدل رؤية هذا المطار عند العودة، لكنه الليلة بارد قاس لا يابه لي. كيف انتظر سنة كاملة لا أرى مدينتي فيها؟ صحيح أني أثق بالعودة إليها، لكن صروف الحياة كثيرة والناس ينقلبون من حال إلى حال.

لم يعد الظلام كثيفاً في الخارج بل أصبح مثل شراب قاتم ممزوج بالماء. ولقد فقد ذلك السكون العميق الذي كان يتغلغل فيه بعد أن أفسدته الأضواء والجلبة في هذه الجهة من القاعة. فهذه الطائرة التي ستخطفني عما قليل تقحم نفسها على الليل أيضاً وتمزق نسيجها الطبيعي الأبدي وكأنها شيطان. وهي تنتهك حرمة السماء فتروح وتجيء فيها بعد أن تقتلع الناس من مدنها ومن بين أهلهم. أعطيت الموظفة تذكركي وأنا أطرق برأسي لئلا ترى دموعي فأعادتها لي بعد أن اقتطعت قسمًا منها واستأنفت سيري دون أن أراها أو تراني. اجتزت الممر الطويل الذي يشبه النفق ببطء فشغلني التوجه إلى الطائرة عن البكاء قليلاً. وأخيراً لاح لي مدخلها وعلى جانبيه فتاتان باسمتان لم أستطع أن أستوعب شيئاً من إشراقهما فمررت بينهما وأنا أطرق برأسي ثانية.

وعندما دخلت الطائرة رأيت ما يشبه النيران داخلها. أضواء حارة برتقالية اللون تتأرجح في كل ركن من أركانها وفضاؤها وتهاجم عينيّ اللتين قرّحتهما الدموع فتمنيت لو تطفأ. كانت تلك الأضواء تفضح حزني أمام العالم بأسره بعد أن جهدت في إخفائه عن الناس القلائل الذين صادفتهم، لكن ها هو يفقد حرمة فيصبح مثل خرقة مهلهلة. وبدا لي جانبا الطائرة مثل فكين واسعين

تلقى بينهما الفرائس من كل صنف وحجم، ولقد صفت في مواضع الأسنان منهما رؤوس كثيرة متشابهة بكل دقة. أما الأجسام فلا شك أنها اختفت في أحشاء هذا الطائر الجارح الذي أجهز عليها وأبقى على الرؤوس. ستختفي هذه الرؤوس بدورها عندما يطبق عليها الطائر العاتي فكيه بعد قليل.

كانت تلك الرؤوس تتجه نحوي بفتور وكأنها تستنكر منظر وجهي الذي يعيث به الحزن فساداً، فربما كان هؤلاء المسافرين لا يفارقون أهلهم إلا ريثما يعودون إليهم، ولعل الطائرة بالنسبة إليهم مجرد مكان مريح ينقلهم من منزل إلى منزل ومن فندق إلى فندق. أحزانهم يسيرة وهم يستطيعون كتمانها في أنفسهم إذا شعروا بها. خفت من تلك الرؤوس الكثيرة الساكنة فجلست في أقرب مقعد أنتظر مصيري مثلها. ها قد تلقفني الطائر الخرافي بفمه وهو لن يمهلني إلا قليلاً قبل أن يزدردني. ما إن جلست حتى بدأت دموعي تتدفق من ينبوعها الخفي العجيب ثانية فتكاد تزهق أنفاسي. لم أر أحداً بجواري فاستسلمت لها دون مقاومة أو تفكير. بكيت وبكيت وتركت لوعتي تبلغ منتهاها. ارتحت لهذه الحرية التي منحتها لنفسي وراودني الأمل في الخلاص من بعض ذلك الحزن العنيد عما قريب.

تململت الطائرة ثم سكنت ثم تحركت من جديد. حركة يسيرة بعثت في حواسي شيئاً من الخدر وكأنها مهد يهتز برفق. لكن لا يمكن للطائرة أن تخذعني بهذه الحركة المتلصصة، فقد بدأت رحلتها أخيراً وبعد قليل ستحملني إلى أقاصي الأرض دون أن تجدي دموعي شيئاً. ازدادت الطائرة سرعة وتصميماً وراحت تنحرف يمنة ويسرة كمن يعرف طريقه كل المعرفة

لكن دون أن تحدث صوتاً كأنما لتحكم مكيدتها. استمرت حركة الطائرة زمناً حتى بدأت أظن أنني أذهب في نزهة ليلية على متنها أفرج بها عن كربى وأعود بعدها إلى مدينتى. تمنيت لو أقضي الليل وأنا أروح وأجىء على تلك الأرض، ولا بأس إذا تعطلت الطائرة وعدت إلى مدينتى دون ارتحال وقبل موعدى بكثير. أخيراً توقفت الطائرة وبدأت تهدر، ثم علا هديرها دون هواده حتى طغى على كل صوت آخر فأيقنت أنه سيتمخض عن عمل غادر لا أستطيع رده. كانت الطائرة مثل وحش يصب جام غضبه في هدأة الليل، ولم تكن حركتها المتمهلة في البداية إلا مقدمة لهذه النوبة من الغضب. طال وقوف الوحش وهو ينذر بالثبور، وكان النذير يشتد كلما علا الهدير فيقترب القدر المحتوم. ستتطلق القوة التي تجيش في هذا الوحش من عقالها بعد لحظات فينقض عليّ ويسوقني إلى حتفي كما تساق الشاة. ثم راح الوحش يتمايل فتشبث بالمقعد لأستمد منه بعض الثبات.

بعد قليل بدأت عجالات الطائرة تدور بسرعة محمومة وكأنها تريد أن تمزق الأرض لتنفذ إلى أحشائها. فخيّل إليّ أنني سأقذف إلى ركن قصي من الفضاء لا عودة منه وأن هذا الصراع المستميت بين الطائرة والأرض ليس إلا تأهباً لذلك. اشتد توتر الطائرة حتى خلت أنها ستنفجر فتمنيت أن تقلع لتضع للتوتر حداً. عمق الصمت داخل الطائرة وهي تمارس طقوسها العجيبة تمهيداً للإقلاع، ووجدت في تتبع الأصوات الصادرة عنها ما أنساني البكاء قليلاً بعد أن أعيتني الدموع. استمرت الطائرة في عراكها مع الأرض بقوة مسعورة لا تكل ولا تمل. وما لبثت أن اشتد اهتزازها وعلا هديرها وكأنها

شخص أصابه مسٌّ من الجنون فاشتدت قبضتي على المقعد، وأغمضت عيني اللتين جفت دموعهما في تلك اللحظات ورحت أترقب الإقلاع رغم خشيتي إياه. علا الهدير حتى كاد يصم الآذان، واندفعت الطائرة إلى الأمام قليلاً فخف الاحتكاك بينها وبين الأرض بعض الشيء، ثم اشتد اندفاعها فأحسست أنها لفظت ما تبقى من مدينتي بعد أن نكّلت به طويلاً. كانت تلك لحظة دقيقة غلف الظلام فيها اليقين بالشك. وعندما تأكدت في لحظة تالية أن الطائرة خلفت الأرض وراءها فعلاً انهمرت دموعي بمثل السرعة التي كانت تنطلق بها. ثم أطبق عليّ يأس تام لإدراكي أن الطائرة ارتفعت عن الأرض كثيراً في تلك اللحظات الخاطفة.

كنت أعرف الإثارة التي تصاحب لحظة الإقلاع بعد أن قضيت أعواماً في مراقبتها وخاصة في رحلة العودة إلى مدينتي. وهي إثارة تتولد من الإقدام والإحجام معاً؛ من الرغبة في التحرر من إसार الأرض ومن الخوف من هذا التحرر. لكنني لم أستطع أن أستجيب للحظة الحرية الآسرة في تلك الليلة لأن اللوعة حلت محلها فمحتها تماماً. وحين انتهت عاصفة الإقلاع راحت الطائرة تترنح على نحو بعيد عن حركتها الواثقة على مدرج المطار فذبّ في قلبي الهلع. وبعد أن كنت أراها مثل مار د جبار رحت أطلع إلى ما يثبت قوتها ومقدرتها من جديد، فالحظة التي تكون فيها الطائرة في قمة إقدامها هي أيضاً لحظة وقوفها أمام المجهول فلا يمكن الجزم بما ستمخض عنه رحلتها، وهي قد تسلمنا جميعاً إلى الهلاك. رحت أردد دعائي المعتاد بينما الطائرة تصارع الفضاء بعد أن صارعت الأرض، وتذكرت أن مدى هائلاً

أصبح يفصلني عن مدينتي الآن فرحت أتخيله وكأن في تخيله عزاء عن فقدها.

في رحلة سابقة أثناء النهار اندفعت الطائرة إلى الأمام بعد وقوفها الطويل، وركلت الأرض وكأنها وحل علق بعجلاتها فرأيت الأرض تتراجع بسرعة مذهلة كدت معها أصرخ وكان وجودي نفسه رهن بها. كانت تلك لحظة زاد جسمها من هولها، وعندما رأيت المسافة تزداد اتساعاً بيني وبين الأرض وددت لو أضرب المقعد بيديّ وقدمي كما يفعل طفل في نوبة فزع وغضب. وسرعان ما اختفت تلك المساحات المترامية ذات اللون الذهبي الشاحب، وعرفت أني سأطير بعد قليل فوق أرض غريبة لا تنبسط تحتني بالحرية والسماحة نفسها، وخيل إليّ أني أتدحرج في الفضاء مثل كرة وأنّي لم أعد أعرف مكاني من العالم. كان اختفاء الأرض في مستهل تلك الرحلة فجيحة لا تلغى ولا تمحى فهي مثل جرح تبقى ندوبه النفسية وإن التأم. فالالتئام لا يغير من واقعة الجرح نفسها شيئاً.

أما في هذه الرحلة الليلية فقد حجب الظلام تلك اللحظة القاسية التي استحال فيها الأرض إلى ما يشبه السراب. وبعد فترة من الطيران الخفيض المرتبك بدأت الطائرة تستعيد ثباتها وراحت ترتفع تدريجياً بحركة ملؤها التصميم. تسلفت الطائرة الفضاء مرة بعد مرة وكأنها لا تعرف حداً. وأخيراً راحت تنساب في سماء الليل بعد أن حلفت فيها وعلت وكأنها مملكتها تتحرك فيها كما تشاء، فاستسلمت لحركتها المطمئنة وتوقفت عن مراقبتها. ظلت دموعي تسيل في هدوء لكنني بدأت أدرك أني دخلت مرحلة جديدة

أتجه فيها إلى الأمام وإلى المستقبل بينما تتجه الأرض إلى الوراء وإلى الماضي. بعد قليل فتحت عيني بعد أن كنت لا أقوى على فتحهما، فجأة سمعت صوتاً خافتاً يسأل:

- لم البكاء؟

من أين ينبعث هذا الصوت؟ هل أصبحت أتوهم أصواتاً بعد أن أنك البكاء قواي؟ إنه صوت قريب لكنني لا أرى أحداً بالقرب مني. لم أر أحداً بجانبني عندما جلست في مقعدي. أما المقاعد المحاذية لي في الجانب الأيسر فهي ما تزال خالية. لكنني عندما التفتُ إلى اليمين رأيت رجلاً يجلس في مقعد لا يفصله عني إلا مقعد واحد. لعله جلس هناك بعد أن جلست ودون أن أنتبه إليه لاستغراقي في البكاء أو مراقبة الطائرة. نظرت إليه باستغراب طغى على الحرج الذي تملكني لرؤيته لي وأنا أبكي فرأيته ينظر إليّ بتساؤل يشوبه العطف فزال عني بعض الحرج. لكنني ترددت في إيضاح سبب بكائي الذي قد يبدو صيانياً للبعض. ثم إن حزني ملكي وحدي فلا ينبغي لأحد أن يتطفل عليه، وهو حزن هائل لا يخفف منه شيء. كان قد استدار في مقعده وأصبح مواجهاً لي تقريباً فبدأ شاباً رزيناً قد عركته الحياة إلى حد ما دون أن تفسده. لم يكن وجهه على درجة كبيرة من الوسامة أو النضارة لكنه كان مألوفاً فارتحت إليه وشعرت أني أستطيع الإجابة عن سؤاله. ثم رأيت أن الأدب يحتم عليّ الإجابة فنظرت إليه نظرة خاطفة وقلت دون أن أستدير:

- فراق الأهل والوطن.

فقال بعد تردد وبالصوت الخافت المهدب نفسه:

- هل من أمل في العودة؟

كان يتكلم بتلك النغمة التي يستعملها الكبار لتشجيع الصغار على الحديث. استغربت سؤاله بل استهجتته. أهذا سؤال يسأله أحد؟ سأعود بالطبع. ولم لا أعود؟ كلي رغبة في العودة، ولا عائق يحول دونها. أجبته دون أن أنظر إليه:

- نعم.

فقال:

- الحمد لله.

كان الشاب يتكلم بلهجتي فهو إذن من مدينتي. سكت وسكتُ ورحت أحرق في المقعد أمامي دون أن أحفل برؤية شيء لأنني كنت أتوق إلى الراحة، لكنني رددت بدوري:

- الحمد لله.

تخففت من بعض حزني وأنا أحمد الله، ولاحت لي فرجة وسط الظلام رحت أنظر من خلالها إلى المستقبل. توجهت إلى الله بالحمد ثانية وشعرت أنني بدأت أخرج من مستنقع الحزن الذي كنت أغرق فيه. سوف أشغل نفسي أثناء هذه السنة بكل ما هو مفيد كعاداتي فتمر مثل غيرها من السنين وأعود في نهايتها إلى مدينتي. لاحت في مخيلتي تلك الوجوه التي تشع حبًا ونورًا. لقد مرت ساعات على وداعي لهم، ولقد ذهبوا لشأنهم وها أنا أذهب لشأني. سأزداد بعدًا عنهم عندما أصل إلى مدينتي الثانية لكنني سأظل على اتصال بهم رغم البعد. إنهم معي دائمًا وأبدًا لأنني أحمل جهم أينما كنت، وهو لي ثروة

وزاد. من الصحيح أن هذا الحب يضاعف ألمي لفراقهم لكنّ من شأنه أن يخفف الكثير من الآلام أيضًا. سأجد نفسي بينهم بعد حوالي سنة فيتجدد في قلبي الدفء والفرح. الحياة ذهاب وإياب، فراق ولقاء، ظلام وضياء، وهذا تواتر طبيعي. فلأضع ثقتي في هذا التواتر، ولأركز على حلم العودة.

كانت الطائرة تطير بكل عزم وأصبح من الجلي أنها ستصل إلى وجهتها دونما تأخير. إنها تحملني إلى عملي في مدينتي الثانية وتعيدني في إجازتي إلى مدينتي الأولى وكأنها مُسَخَّرَةٌ لخدمتي أحسن تسخير. إنها في رحلة دائبة وكأنها الكرة الأرضية، وهي تولد من جديد في كل رحلة. والفصول تتعاقب بدورها. فلأضع ثقتي في هذا التكرار الطبيعي. أخذ ظلامي الداخلي ينقشع وبدأت دموعي تجف. ثم تذكرت الشاب الذي يجلس قريباً مني وكيف خفف عني بعطفه المهدب. التفتُ إليه فرأيتَه ينظر إلى المقعد أمامه وقد علت وجهه كآبة لم ألحظها من قبل أثناء نظري الخاطف إليه فبدا أكبر مما رأيته إذ ذاك. قلت له بلهجة وضعت فيها بعض التحفظ:

- وأنت؟

نظر إليّ بتساؤل وكأنه نسي الحديث القصير الذي دار بيننا قبل دقائق قليلة فظن أني أبادره بالكلام. كررت سؤالاً بطريقتة تساعده على التذكر فقلت:

- وأنت، هل تعود قريباً؟

أجاب والكآبة ما تزال تبدو في وجهه:

- لا أعرف.

ثم أسرع يضيف وكأنه ندم على هذا الاقتضاب أو كأنه أراد مكافأتي على اهتمامي بأمره:

- قد لا أعود أبداً.

كنت أريد بسؤالني أن أبادله مودة بمثلها خاصة بعد أن انجابت عني سحابة الحزن القاتمة المثقلة بالدموع، غير أن سحابة أخرى بدأت تخيم عليّ فيما يبدو. ما باله يتكلم هكذا؟ إن الناس يعودون من السفر عادة. سألته وأنا أتوق إلى تأكيد هذه القاعدة التي أقنعت نفسي بها قبل قليل:

- ولم؟

فأجاب وهو يتسم ابتسامة خفيفة لا تكاد تبدد الظل الذي يخيم على وجهه:

- إني ذاهب إلى أمريكا.

وهل من يذهب إلى أمريكا لا يعود؟ إن أمريكا في أقاصي الأرض حقاً، لكن المسافرين إليها يعودون بعد عام أو أكثر. بل إن البعض يعود أكثر من مرة في العام الواحد. لا بد من العودة حتى ولو بعد أعوام. ليت الناس لا يرتحلون أبداً، لكن الذهاب ضروري في كثير من الأحيان وهو ملازم للإياب. سألته ثانية وأنا أتلهف على تأكيد هذه الشائبة التي جهدت في التوصل إليها:

- هل أنت مهاجر إلى أمريكا؟

صمت برهة وابتسامته الخفيفة ما تزال تمتزج بذلك الظل ثم أجاب:

- بل أنا ذاهب للدراسة.

لكن كثيراً ممن يذهبون إلى أمريكا للدراسة يعودون ولو بعد حين. كثير منهم يظلون فيها أيضاً هرباً من أوضاع لا يحتملونها أو بحثاً عن حياة أفضل. ليت هذا الشاب يعود إلى وطنه أو يبقى فيه فهو يبدو لي من خيرة الشباب. كان وجهه جاري مثل وجوه أبناء مدينتي التي أفهم حركاتها وتعابيرها وكأنها تخاطبني دون كلام، لكن هذه الكآبة البادية في وجهه كانت تكسبه تعبيراً لا أفهمه تماماً. كثيراً ما أرى وجوهاً تملوها الكآبة لكنها لا تتغلغل فيها وتتمكن منها وكأنها طبقة رمادية تمتد تحت سطحها كما في وجهه. لقد مد لي يد العون في لحظة ضعفي، لكن هذا المعنى الذي أراه في وجهه يززع ما رأيته فيه من قوة. كانت ملابسه مختلفة أيضاً فهي ليست مثل تلك التي يرتديها الشباب إعلاناً لاستقلالهم وإعجابهم بأنفسهم واعتزازهم بها وكأنها بيان يوجهونه للملأ، كانت ملابس عادية غائمة اللون لا تلفت النظر ولا تعبر عن الفردية الصارخة، بل هي أشبه بملابس الرجال الذين يكبرونه سنّاً. كان من الواضح أن انتقاءها لم يلقَ منه جهداً كبيراً لكنها كانت لائقة وغير متنافرة. وكانت بدورها توجه رسالة واضحة تقول إن هذا الشاب لا يتخذ الملابس هدفاً أو ترفاً، وإنه يسعى إلى إيجاد مكان معقول لنفسه في العالم بدلاً من أن يضع نفسه في مركزه.

لم أشأ أن أثقل عليه بأسئلتي فعمدت إلى الصمت، لكنه ما لبث أن قال بنفس الصوت الخافت المهدب وكأن قوله يفسر كل شيء:

- أنا من الضفة.

من الضفة؟

شعرت أن يداً تدفعني بعنف فأجتاز تخمًا وأنتقل من عالم إلى عالم ومن
وعى إلى وعى. لماذا يذكرني بالصفة؟ إنها حزن كبير بل قارة من الحزن. ألا
تكفيني كتلة الحزن التي كنت أتنازل معها قبل قليل؟
كررت بصوت خافت لا يكاد يسمع:

- من الصفة؟

إنها الصفة التوأم التي تنهش وتغرز فيها الحراب؛ الصفة التي يدافع عنها
الأطفال والأحداث بالحجارة؛ الصفة التي لا أستطيع متابعة أخبارها لأن
قلبي يدمى لمحتتها؛ الصفة التي أنتزعها من ذهني بمجرد أن تخطر فيه لأنها
تشعري بعجز قاتل. لقد تطفلت الصفة على إجازتي أيضًا فأفسدتها بمعنى من
المعاني، فقد كانت أحداث انتفاضتها تُعرض على شاشة التلفزيون فتملؤني
أسى. لكنني كنت أعود إلى ما كنت فيه من احتفال أو تسلية بعد قليل. لم
نتوقف يوماً لفكر في الصفة ملياً، بل اكتفينا بالدعم المالي لانتفاضتها
وجعلناه غاية نضالنا ووسيلة نكفر بها عن تخاذلنا. وسرعان ما أصبحت
الانتفاضة بنداً آخر في حياتنا الاجتماعية يضيف إليها بعض المعنى والهدف.
ورحنا نلتقي ونسامر ونستعرض أنفسنا لقاء ما دفعناه فنعقد صفقة رابحة. في
الماضي كنا نذهب إليها في يوم العطلة لنستمع بجمالها وهدوئها دون أن
نحس كثيراً بجرحها. تضاءلت في مقعدي خجلاً. إن هذا الشاب من الصفة
التوأم، ونضال مواطنيه المجيد كان يغذي حياتنا الاجتماعية الحافلة ويشعرنا
بالفخر فتوهم أننا نشارك فيه. إن هذا الشاب كان أثناء إجازتي الممتعة يشاهد
الانتفاضة أمام عينيه لا على شاشة التلفزيون، ولعله كان يشارك فيها؛ وكان

في أثناء ذلك يعد العدة لفراق أهله ووطنه وهو يعرف أنه قد لا يعود. كيف فاتني أن أقرأ وجهه وأفهم معناه؟!

إن الضفة التوأم تصلب تحت أعيننا دون أن نملك لها شيئاً. غير أننا نحتمي بالمبعدين عنها كما نحتمي بكل الوافدين فنفسح لهم مكاناً في مدينتنا ونغويهم بمباهجها، ثم نشرهم في طموحاتنا عسى أن يصبحوا مواطنين صالحين مثلنا ينسون وينون ويكتسبون العلم ويتخذون من الثقافة حلية. إننا نصول ونجول في حلباتنا اليومية الصغيرة ونعود إلى بيوتنا المريحة راضين عن أنفسنا فنام ملء عيوننا. لكننا نعرف أن إنجازاتنا لا تحرر أرضاً ولا تستعيد كرامة. فعملنا لهوٌ، وجدنا لهوٌ وفكرنا لهوٌ. غير أن أطفالنا ربما كانوا أقدر منا وأصلح، وقد يحققون يوماً ما عجزنا عن تحقيقه، فلماذا لا نعهد بمهمتنا لهم؟ وفي هذه الأثناء تزداد مدينتنا عمراناً ونظاماً وخضرة، ونزداد نحن تفاخراً بمحاسنها ونضارتها وزيتها المستحدثة. ولا شك لدينا أنها ستصبح مدينة كبرى تدوم إلى الأبد كما تمتد إلى الأزل، وستبقى ذخراً لنا ولكل الوافدين.

ثم خطرت لي فكرة رهيبة، هل يغادر هذا الشاب وطنه فقط أم يغادر وطنه وأهله معاً؟ لعل أهله سبقوه إلى أمريكا. أو لعلهم في مكان آخر آمن. فسألته:

- وأهلك؟

قال:

- أهلي في الضفة.

كيف يترك أهله يواجهون ما يحدث في الضفة؟ هل يتركهم حقاً؟ ومتى يراهم؟ بان التساؤل في وجهي فأضاف:

- ولا أعرف متى أراهم ثانية.

شعرت أن اليد نفسها تدفعني ثانية لكن بعنف أشد فأكاد أنكفي على وجهي. هذا يعني أن الفراق بينه وبينهم قد يكون أبدياً. فما أسهل أن يقتل الناس في الضفة! وما أسهل أن يمنع أهلها من دخولها! ماذا أفعل بهذا الحزن الجديد الذي يداهمني؟ إنه حزن يختلط بالغضب واليأس ويشبه محيطاً مظلماً عاصفاً لا أستطيع حتى تخيُّله. إن الحزن قديم كالجبال حقاً وهو راسخ مثلها، ولقد جُبلت به حياة الإنسان منذ بدء الخليقة حتى أصبح له صنوًا، وليس منا إلا وقد أفسح له مكاناً في قلبه يختلف ضيقاً واتساعاً. لكن كيف يحتفظ هذا الشاب برباطة جأشه رغم حزنه؟ لو كنت مكانه لتهاويت. لا شك أنه من طينة أخرى.

لكن لماذا يترك أهله؟ لماذا لا يشاركهم مصيرهم؟ لماذا يتخلى عن النضال؟ ومن سيناضل في الضفة إذا هجرها أهلها؟ يجب أن تستمر الانتفاضة في الضفة. يجب أن يتحقق أمل التحرير. وهذا القهر الذي يواجهه أبناء الضفة؟ وهذا القتل الذي يتعرضون له كل يوم؟ لماذا لا ينجو بنفسه؟ لماذا يحرم من الفرص التي تتاح لغيره من الشباب؟ العلم جهاد أيضاً وأمريكا ليست نزهة كلها، والناس يهاجرون من ساحات الحرب والصراع منذ بدء التاريخ. ولقد أرهاق هذا الشاب النضال كما أرهاقتني الحفلات الكثيرة أثناء إجازتي، وهو الآن يتطلع إلى حياة هادئة.

ماذا أقول لجاري كي أخفف عنه قليلاً؟ ماذا أقدم له لقاء مودته التي خففت من حزني بعد أن ظننت أنه لن يخفف منه شيء؟ هل أقدم له قطعة من حزني الجديد لأبرهن له على تعاطفي؟ وكيف أصف له ضخامة هذا الحزن وجسامته؟ لكنني لا أقوى على الكلام، وقد لا يقوى هو على الاستماع. الأمل أجدى من الحزن فلا أقدم له بعضه على شكل دعاء. استجمعت شتات نفسي أخيراً وقلت له وأنا أتمهل عند كل حرف تأكيداً لما أقول:

- أدعو لك بالتوفيق ولأهلك بالسلامة ولوطنك بالتحجير.

كنت أعتقد أن دعائي المنطلق من أعماق قلبي والنابع من الأُخوة والحزن القاهر، له من القوة ما يمكنه من اختراق الحجب وتغيير الأحداث وتحقيق الآمال. لعل أهله يلحقون به بعد حين فيلتئم شمل الأسرة. لعله يجتمع بهم قريباً على أرض كريمة حرة. لعله يجتمع بهم على أرض الوطن في المستقبل. إن اجتماع الأهل على أرض الوطن في ظل حياة كريمة شيء يراه البعض من البديهيّات ويراه البعض الآخر من الممكنات، فهل يمكنه بصموده أن يراه من هذه أو من تلك؟ دعوت الله أن يبقى على الأمل في قلب هذا الشاب حياً.

سكت وسكت وأنا أتمنى لو أني لا أتكلّم ثانية. بل تمنيت لو أنه لم يكلمني قط. انكمشت على نفسي وفارقتني الثقة التي عاودتني بعد انحسار موجة الحزن. شعرت بوخز ضمير يثقل عليّ ويفسد حزني النقي وكأنه غشاء يلقي على صفحة مياه صافية. إننا أخوان لكنّ كلّاً منا يلقي مصيراً مختلفاً. أنا أنقل بين مدينتين ووطنين وأنال أحسن ما فيهما، وهو يُنكر عليه وطن واحد

فيضطر إلى الهجرة منه. هو يسافر للدراسة في بلد ناءٍ مجهول، وأنا أسافر للعمل في مدينة كبرى بتّ أعرفها تمامًا. في تلك اللحظات رأيت جاري يقف مثل عملاق شدّ عوده النضال ولم ينل الاحتلال من إنسانيته أو كبريائه. أما أنا فكنت مثل طفل أفسدته النعمة فأصبح يرى العالم رأسًا على عقب.

لقد غلبني الحزن لفراق أهلي ووطني على أمري فحال بيني وبين الرؤية الواضحة. وها هو جاري يلقني درسًا في ضبط النفس والاعتدال ويذكرني بحسن حظي. فهل قص عليّ قصته ليؤنّبني يا ترى؟

أخيرًا قال الشاب بعد أن طال وجومي:

- لقد أصرّ أهلي على سفري؛ إذ لا فائدة ترجى من البقاء في الضفة.

يجب أن أدرس وأعمل لمستقبلي، وفي أمريكا فرص كثيرة.

كان قوله إيضاحًا وربما دفاعًا أيضًا. لعله أراد التأكيد أنه لا يهاجر من وطنه إلا مرغماً مقهورًا. لكن صوته أصبح أكثر انخفاصًا وشاب لهجته التردد. شجبت ابتسامته الخفيفة وبدأ ينظر إلى المقعد أمامه بعد أن كان ينظر إليّ، فبدأ أكبر مما رأيته في أي وقت مضى. إذن فقد تخلص جاري عن الانتفاضة وهو أحد أبنائها لينجو بنفسه ويلحق بالركب قبل أن يفوته. وبعد أن كان في الضفة يضرب قوات الاحتلال بحجر، ها هو يتحول إلى مهاجر لا صوت له ولا أثر. كلانا يهجر وطنًا: أنا إلى حين وهو إلى الأبد. كلانا هارب متخاذل. فأنا أهرب إلى مدينة براقة تزداد حياتي فيها فائدة ومتعة، ولقد نأيت بنفسني عن الانتفاضة فلم يتسع لها قلبي ووقتي كما يجب. ها نحن قد اشترطنا في الحزن والذنب فنحن أخوان حقًا، ولعلنا جبلنا من الطينة نفسها.

لكنني أترك وطني ترفاً ودون انتفاضة وهو يتركه في غمرة انتفاضة لا يعرف أحد مصيرها. ومثله كثيرون، ومنهم أقوام ساهموا في بناء مدينتي على مر السنين. والأهم من ذلك كله أن حزن جاري يفوق حزني بكثير وإن لم يفصح عنه، ولعل في هذا وحده ما يشفع له.

قبل أن تغادر الطائرة كررت تمنياتي الطيبة له وكأنها زاد لرحلته. كان الصباح قد طلع غير أنه كان يتشح بالليل حتى ليكاد يصبح قطعة منه. توجهنا إلى المكتب المخصص للركاب العابرين ووقفنا صفوفاً تقدّم للموظفين أوراقاً ونأخذ منهم أوراقاً. وعندما تسلمت أوراق المرحلة المتبقية من رحلتي استدرت فرأيت جاري الشاب وسط مجموعة من الرجال المنتظرين في صف آخر. لم أكد أعرفه في تلك الساعة المعتمة الباردة؛ فقد كان يقف صامتاً وقد انحنت قامته الطويلة فبدت ملابسه فضفاضة وبدا فيها أقرب إلى الكهولة. كان وجهه غائماً وقسماته غير واضحة وكأنها اختلط بعضها ببعض. أين هذا الشبح المتلفع بهذا الفجر الرمادي من ذلك الشاب الذي خفف عني بثقته وهدوئه؟ إني أراه يبدأ رحلته الطويلة الشاقة متعباً ويقف على أعتاب المجهول خائفاً. إني أراه يتجه إلى منفاه وكأنه يتساءل إن كان سيجد فيه موطناً قدم أم يتحول إلى ذرة تسحقها الأقدام؟ في تلك اللحظات التي غمرني فيها الخوف والعطف على جاري دعوت الله ثانية أن يسدد خطاه.

أسرعت إلى طائرتي وأنا أتلهف للوصول إلى مدينتي الثانية. كانت الشقة قد بعدت بيني وبين ذلك الحزن العارم فلم يعد يشب في أظفاره بل أصبح مثل ذكرى قريية. ستمضي الأشهر وأعود إلى مدينتي ثم أعبر الحدود من

جديد فأوسع عالمي ثانية دون أن يعوقني عائق. خبرتي طويلة وخطواتي ثابتة ومعالج حياتي واضحة. أعرف ما ينتظرنني في كل من المدينتين ومكاني أكيد في كليهما. لكنني تمهلتي قليلاً وأنا أردد تعويذتي المعتادة. من الصحيح أني أؤمن بمدىتي وأستمد منها إيماناً بمصيري، لكنني أدرك أن الإيمان وحده لا يكفي لأنني أتلهف على يقين أو شبه يقين يستند إلى واقع نصنعه نحن بأيدينا. إنني أتلهف إلى عمل حقيقي ندرأ به الأخطار الخارجية، ونعالج الشرور الاجتماعية، ونواجه الكوارث الطبيعية ونحمي الحقوق. إنني أتلهف إلى يوم نبلغ فيه من القوة الذاتية ما يمكننا من التحكم في مصيرنا وضمان مكان راسخ لأنفسنا على الأرض حقاً، بدلاً من أن نترك القدر يوزع الحظوظ على الأفراد والجماعات وكأنه يخبط خبط عشواء. عندئذ فقط يثمر اليقين طمأنينة حقيقية.

غبار

أخرج أبو رضا دفتره العتيق من الدرج وراح يدقق النظر في الصفحات الأخيرة منه. توقف قليلاً وفرك يديه معاً ليخفف من شعوره بالبرد ثم تناول ورقة من الدرج كتب عليها بعض الأرقام وعاد يتأمل الدفتر ثانية. استدار لينظر إلى التقويم المثبت إلى رف خلفه فرأى المواضيع الخالية من الرف قد علاها الغبار الكثيف. سعل وعطس عدة مرات وهو يحس أن الغبار يتخلل كل ذرة من الهواء رغم برودته، ثم تذكر أنه لم يتناول الدواء منذ أيام. نهض ونفض الغبار عن الرف وعن رفوف أخرى مجاورة ومسح المنضدة بعناية. فتح الباب قليلاً للتخلص من الغبار فرأى زجاجه بحاجة إلى التنظيف هو الآخر فمسحه على عجل. وقف قليلاً عند الباب ونظر إلى السماء الملبدة بالغيوم البيضاء التي يشوب أطرافها لون رمادي ذكره بالغبار. عاد إلى دفتره لكنه ما لبث أن سمع صياحاً في الشارع فتذكر أن موعد انصراف التلاميذ من المدرسة القريبة قد حان. نظر إلى الباب مستبشراً بزيارة بعضهم لبقالته كالمعتاد. علا الصياح وفجأة ظهر عند الباب شخص لم يره من قبل. كان شاباً طويلاً هزياً. وكان يتلفت إلى الشارع في دعر ويقول:

- خبي. خبي. خبي. يضرب.

وقبل أن يفهم أبو رضا قول الشاب سمع وقع أقدام مسرعة فازداد دعر الشاب وعاد يقول وهو يلهث:

- خبثني. خبثني. يضرب.

بعد لحظات ظهر جمع من تلاميذ المدرسة وهم يتصايحون ويتضحكون ويشيرون إلى الشاب الذي اندفع إلى وسط البقالة وهو يحيط رأسه بذراعيه ويقول:

- يضرب. يضرب. لا. لا.

سأله أبو رضا:

- من؟

أشار الشاب إلى الصبية فقال له أبو رضا مطمئناً:

- لا لن يضربك أحد.

كان أبو رضا يعرف أولئك التلاميذ الذين اعتادوا زيارة بقالته لشراء الحلوى، وكان يخشى بعضهم لما يحدثونه من جلبة وفوضى، لكنهم بدوا له في تلك اللحظات مثل الشياطين. لم يشأ أن ينهرهم فاكتمل بأن قال لهم بهدوء:

- كفّوا عن هذا يا أولاد واتركوا هذا المسكين وشأنه.

فقال الشاب:

- سكين. سكين. يذبح. يذبح. سكين.

أجفل أبو رضا لقول الشاب وقهقهه الصبية ومضى الشاب يقول وهو يحرك رأسه من جانب لآخر وقد أغمض عينيه:

- لا لا لا.

نظر أبو رضا إلى الصبية مؤنبًا فراحوا يتعدون ببطء وهم ما زالوا يتضحكون. مشى أبو رضا إلى الباب ليتأكد من ذهابهم وقال للشاب:

- ها هم قد ذهبوا.

اختفى أبو رضا خلف ستارة في آخر البقالة وعاد بكوب من الماء. طلب من الشاب الواقف في وسط البقالة أن يشربه. كان الشاب يرتجف فانتبه أبو رضا لقميصه الصيفي وحذائه البالي. قال له وهو يخرج بضعة قروش من درجه:

- خذ هذه واذهب.

أخذ الشاب النقود لكنه عاد يقول وهو يشير إلى الشارع وكأنه يعني الصبية الذين اختفوا قبل قليل:

- يضرب. يضرب. لا لا.

- لماذا؟

- لا أعرف.

- ماذا فعلت ليضربوك؟

- لا أعرف.

- لن يضربوك. لقد ذهبوا. اذهب أنت أيضًا.

تلكأ الشاب قليلًا ثم مشى إلى الباب بحذر. وقف هناك هنيهة وهو يتلفت إلى الشارع ثم اختفى.

هز أبو رضا رأسه عجباً وسرح بفكره قليلاً ثم عاد إلى دفتري يقبله ويكتب مزيداً من الأرقام على الورقة. أمسك بالتقويم ورسم دائرة حذرة حول أحد تواريخه ثم نظر إلى الباب متوجساً.

بعد أيام كان أبو رضا يتكلم مع زبون عندما انتبه إلى شخص يقف بالباب دون حراك. تأهب لاستقبال هذا الزبون الجديد فإذا بالشاب الطويل الهزيل نفسه يقف كالذاهل. دعاه إلى الدخول فرفع الشاب كتفيه رافضاً الدعوة وهو يحرق في الزبون الذي كان يريد شراء علبه سجائر. لم يجد أبو رضا النوع المطلوب من السجائر فطلب منه الزبون نوعاً آخر لم يجده كذلك. عرض عليه أبو رضا نوعاً آخر شبيهاً غير أن الرجل رفضه واستدار متجهاً إلى الباب. عندئذ ارتسم الذعر على وجه الشاب الذي ولى هارباً وهو يصيح بكلام غير مفهوم. تفحص أبو رضا المواضع الخالية على رف السجائر وهو يعرف أن عدواها قد تسري إلى رفوف أخرى عما قريب. بعد حوالي عشر دقائق عاد الشاب فوقف بالباب وهو يتلفت إلى الشارع فتناول أبو رضا كيساً موضوعاً على الأرض وناداه:

- تعال فخذ هذه السترة والبسها.

لم يلق الشاب إليه بالاً فمشى أبو رضا إلى الباب وأعطاه الكيس وهو يسأله:

- لماذا هربت قبل قليل؟

فقال الشاب بعد لحظات وهو يشير إلى عنقه:

- يذبح.

- من؟
- شرطي.
- أي شرطي؟
- هنا. هنا.
- ليس ذلك الرجل شرطيًا.
- قال الشاب وهو يشير إلى عنقه ثانية:
- شرطي. يذبح. سكين. يذبح.
- لماذا يريد أن يذبحك؟
- لا أعرف.
- ماذا فعلت ليذبحك؟
- لا أعرف.
- لن يذبحك. لا شأن للرجل بك.
- يحبس. يحبس.
- لن يحبسك. الرجل لا يعرفك.
- وعندئذ دخل الشاب إلى وسط البقالة بخطى حذرة وهو ينظر إلى الرفوف فسأله أبو رضا:
- هل تريد شيئًا؟
- سكين.
- سأله أبو رضا فرعًا:
- لماذا؟

- يذبح.

- من؟

- شرطي.

فقال أبو رضا وقد نفذ صبره:

- ليس ذلك الرجل شرطياً، وهو لا يريد أن يذبحك. لا توجد

سكاكين هنا. هيا فاذهب.

لم يتحرك الشاب فأخرج أبو رضا بضعة قروش من درجه لعلها تنسيه
أمر السكين وتشجعه على الذهاب.

قدر أبو رضا أن الشاب ربما رأى في سترة الرجل وغطاء رأسه ما يشبه
زي الشرطة. وربما كان شرطياً بالفعل فطالما سمع عن رجال شرطة
يتخفون في ملابس مدنية ويتصرفون كباقي الناس. صدم أبو رضا لذلك
الرعب الذي بدا في وجه الشاب وأيقن أن ماضياً أليماً يكمن وراءه. كان
يشفق عليه، لكنه كان يخشي أن يعتاد المجيء فينفر الزبائن في وقت هو
أحوج ما يكون فيه إلى المزيد منهم. ومن أدراه فلعل الشاب نفسه شرطي
متخفٍّ أو مخبر يتظاهر بالبله ليخفي حقيقته. قد يكون من الضروري أن
يخبر أحداً بأمره إن عاد وهو يرجو ألا يعود.

ارتفع صوت المؤذن من المسجد القريب داعياً الناس إلى صلاة
العصر، فوضع أبو رضا دفتره في الدرج وهو يسائل نفسه عن جدوى
الرجوع إليه مرة بعد أخرى بعد أن كاد يحفظ كل تلك الأرقام عن ظهر

قلب. رأى بعض جيرانه من أصحاب الدكاكين يمشون باتجاه المسجد فتمنى لو يستطيع مرافقتهم. كان يحنّ إلى الصلاة وسط المصلين وإلى السجود على أرض المسجد بينهم. غير أن الذهاب والإياب سيزيدان من سعاله ولهائه. استغفر الله ثم توجه إلى مؤخرة الدكان حيث توضأ وصلى. عاد إلى منضدته وجلس خلفها ساهماً. ازداد شعوره بالبرد بعد الوضوء ففكر في شراء مدفأة لكنه عدل عن رأيه بعد قليل. لم تطل مقاومته للدفتر طويلاً فعاد يقارن أرقام الأشهر القليلة المنصرمة ثم أزاحه من أمامه في ضيق وراح ينظر إلى الباب. بعد انتظار طويل جاءت فتاة اشترت زجاجة ماء وتلاها رجل اشترى مناديل من الورق ثم عاملة منزلية اشترت زجاجة عصير. دخل شاب وألقى نظرة متفحصة على الرفوف ثم استدار متجهاً إلى الباب. دخل صبي وقلّب لفائف الحلوى. التقط إحداها ثم أعادها إلى مكانها وخرج دون أن يشتري شيئاً هو الآخر. راح أبو رضا يتأمل الدائرة التي رسمها على إحدى صفحات التقويم ثم أشاح بوجهه وعاد ينظر إلى الباب رغماً عنه.

بدأ الظلام يهبط لكن دون أن يخفف من زحام الشارع أو يهدئ من ضوضائه. وعندما حان موعد الانصراف رتب أبو رضا بعض محتويات البقالة ثم أحكم كوفيته حول رأسه وأقفل باب البقالة بصعوبة ذكرته بضرورة إصلاحه. مشى بخطاه الثقيلة وهو يحس أن البرد قد اشتد في ذلك المساء فانتابه سعال طويل. رأى بعض جيرانه الأقربين فأشار إليهم من بعيد مودعاً: بائع الأثاث المستعمل الذي كان يجلس داخل دكانه

قرب الباب يدخن سيجارة، الخضري الذي كان ينقل بعض الصناديق إلى داخل الدكان، بائع الملابس الشعبية الذي كان يقف في دكانه قرب الباب وهو يعبث بحبات مسبحة، بائع القماش الذي كان يقلّب ورقة بين يديه، صاحب محل إصلاح الدراجات الهوائية الذي كان يرتب بعض الأدوات. مر أبو رضا من أمام البقالة الجديدة الكبيرة أو «سوبر ماركت الرخاء» كما تقول لافتتها فرأى صاحبها يصفّ البضائع على رفوفها، بينما كان أحد عماله ينقل بضائع أخرى من سيارة الشحن الصغيرة الواقفة قرب الباب. فكر في اسم يطلقه على بقالته التي تعرف باسمه فكان أول ما خطر له هو «بقالة الرجاء». وعندما مر بصيدلية الشفاء تذكر دواء الحساسية فقرر أن يؤجل شراءه فلعل الأعراض تخف إذا ما واطب على مسح الغبار عن الرفوف. رأى بائع الأدوات المنزلية يقفل باب دكانه وقد وقف إلى جانبه شاب فتذكر أنه لم يره منذ بضعة أيام. تبادلوا التحية فقال جاره:

- هذا ابني صالح، وهو سيتسلم العمل هنا عما قريب.
- رأى أبو رضا صاحبه يتوكأ على عصا فعلم منه أنه سقط على الرصيف مؤخراً إثر زلة قدم. مضى أبو صالح يقول:
- إني لم أعد أقوى على العمل يا صاحبي وأن لي أن أستريح.
- انكمش شيء في داخل أبي رضا فراح يسعل لكنه لم يقل شيئاً. عاد أبو صالح يقول:

- وأنت يا أبا رضا؟ لماذا لا تدع ابنك يتسلم البقالة بدلاً منك؟

فأجابه:

- لا بد.. لا بد لابني أن يتم دراسته الثانوية أولاً.

ثم أردف وهو يلهث:

- إن شاء السميع العليم.

قال صاحبه:

- لكن صحتك أهم من دراسته. لا شيء يعدل الصحة، والعلاج

يكلف كثيراً كما تعلم. كن حذراً يا صاحبي.

لم يشأ أبو رضا أن يسترسل في الحديث مع صاحبه الذي ما لبث أن ذهب وابنه في اتجاه مختلف. مشى وحيداً، وعندما مر بمخفر الشرطة حاول أن يسرع من خطاه الثقيلة وكأنه يخشى ظهور أحد من داخله. لم يدخل المخفر في حياته قط والحمد لله لكنه كان يشعر بالرهبة كلما اقترب منه وكان شخصاً سيخرج منه فجأة ويقتاده إلى مكان مجهول. توقف لقطع الشارع الذي بدا له في ذلك المساء مكاناً غريباً غير واضح المعالم رغم الأضواء. راح يسائل نفسه عن جدوى كل تلك السيارات التي تعوق المشاة وتؤدي إلى الحوادث، وتسبب غازاتها بعض الأمراض وتزيد من حدة بعضها الآخر كهذه الحساسية التي يعاني منها منذ سنوات. لم يقو على المشي إلى حيث كانت الإشارة الضوئية فانتقل إلى موضع آخر من الرصيف وانتظر وقد اشتد سعاله. تمكن أخيراً من قطع الشارع وهو يتوخى الحذر كما نصحه صاحبه. بعد قليل وجد نفسه في شارع ضيق

مظلم فخیل إلیه أنه سقط فی هوة سحیقة. عرف أنه ضل طریقہ رغم معرفته القديمة بالحی فعاد أدرجه إلی حیث کان.

مر أبو رضا من أمام المسجد غیر أنه لم یستطع الانتظار ریثما یحین وقت صلاة العشاء بسبب تعبہ وتلهفه علی الوصول إلی البیت. سیصلي هناك کما اعتاد فی الآونة الأخيرة ویستغفر ربہ علی تقصیره هذا. لم تکن أضواء المسجد الخارجیة قد أضيئت بعد فی تلك الساعة، لكن خیّل لأبی رضا أنه یرى شخصًا فی الزاویة البعیدة من الفناء. وتأكد من ذلك عندما رأى الشخص یمشي بضع خطوات ویتوقف ثم یعود إلی المشی. لم یر أبو رضا غرابة فی ذلك فبعض المصلین یقفون فی فناء المسجد أو یتجولون فیہ ریثما یحین موعد الصلاة. لكن صوتًا کالنحیب تناهی إلی سمعہ فرجّح أن یكون صادرًا عن تلك الزاویة التي یقف فیها الشخص ملتفًا بالظلام أو یکاد. ثم سمع بضع کلمات:

- نار. نار. یحرق. جهنم. نار. لا. لا.

فخیل إلیه أنه سمع ذلك الصوت من قبل. لا بل إنه یعرف الصوت تمامًا ویعرف صاحبه أيضًا. توقف أبو رضا فی مكانه بینما راح الصوت یردد:

- نار. نار. یحرق. یحرق. نار. جهنم. لا. لا.

وهنا تحول النحیب إلی صراخ تخلله کلام مضطرب وترددت فیہ الکلمات نفسها مرة بعد أخرى: جهنم. جهنم. نار. نار. یحرق. یحرق. لا. لا.

ثم راح الشاب يلّوح بذراعيه ويدور حول نفسه بينما كان صراخه يعلو ويعلو. توقف بعض المارة وهزوا رؤوسهم ثم مضوا في طريقهم. وأخيراً فتح باب المسجد وخرج منه شيخ اتجه إلى حيث كان الشاب وراح يكلمه وكأنه يحاول إسكاته. لكنه لم يفلح فرفع يده وكأنه يهدده. ثم أسرع الشيخ إلى داخل المسجد بينما كان الشاب يواصل صراخه الذي عاد فتحول إلى نحيب. في هذه الأثناء كان عدد من المصلين قد تجمع في الفناء انتظاراً للأذان فقال أحدهم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال آخر:

- مسكين.

وقال أبو رضا مثلما قالوا. فجأة ركض الشاب ووثب متسلقاً سور الفناء واختفى في الظلام. غادر أبو رضا مكانه وهو يفكر في ضرورة تسليم الشاب إلى جهة تتولى رعايته. لكنه كان يعرف أن تسليمه إلى أي جهة قد يعني أيضاً تسليمه إلى مصير مجهول.

فتح أبو رضا باب البقالة بعد لأي ودخل على مهل. وبعد أن جلس قليلاً قام فمسح المنضدة ثم الرفوف كما اعتاد في الآونة الأخيرة. عطس ثم سعل طويلاً وكان مسح الغبار يزيد من سعاله بدلاً من أن يخفف منه. جلس حتى هدأ سعاله ثم استأنف المسح وهو في شك متزايد من جدواه. بعد أن أغلق بقالته في المساء عرج على الصيدلية وطلب الدواء الذي كان

يستعمله في الماضي لعلاج الحساسية. أخبره الصيدلي أنه غير موجود وطلب منه العودة في اليوم التالي. عاد أبو رضا في اليوم التالي لكنه لم يجد الدواء فقدم له الصيدلي دواء آخر قال إنه مماثل للأول ويصلح بديلاً له لكنه أغلى سعراً. اشترى أبو رضا الدواء البديل على مضض راجياً أن يكون فيه شفاء مما يعانيه. لمس بعض التحسن بعد شرائه، لكن السعال لم يختف كما كان يرجو فعاد إلى الصيدلية طالباً الدواء القديم. عندئذ أخبره الصيدلي أنه لم يعد متوفراً في الصيدليات لأن الشركة قد توقفت عن صنعه فاضطر أبو رضا إلى شراء الدواء البديل ثانية. كان الصيدلي قد أوضح له في مرة سابقة أن علاج الحساسية ليس أمراً سهلاً وأنه يتطلب الابتعاد عن كل ما قد يسببها مثل البرد والغبار والروائح النفاذة وما إلى ذلك. وعندما تكررت زيارات أبي رضا للصيدلية نصحه الصيدلي قائلاً:

- ليس من المستحسن تناول أي دواء لمدة طويلة دون استشارة الطبيب.

فهم أبو رضا أن الصيدلي يلّمح إلى خطر ما، لكنه كان يخشى زيارة الطبيب لما تتطلبه من تكاليف ليس هذا وقتها. لذا استمر في تناول الدواء البديل. خطر له يوماً أن يذهب إلى الصيدلية الأخرى لكنها بعيدة نسبياً وقد لا تكون أكثر فائدة من هذه.

لم يعد أبو رضا يراجع دفتره بعد أن تبين له من الأرقام المدرجة فيه أن إيراد البقالة أخذ في الانخفاض، لكنه ظل يكثر من النظر إلى الباب ترقباً للزبائن. ولما كان ترقبه يطول في كثير من الأحيان خطر له أن يجتذبهم

بخفض أسعاره كما يفعل بعض التجار من وقت لآخر. غير أنه تهيّب الإقدام على مثل هذه الخطوة التي لم يفكر فيها في الماضي قط. أما اجتذاب الزبائن بتزويد بقالته بأنواع جديدة من البضائع كما اقترح عليه جاره أبو جاد فهو ضرب من المستحيل بعد أن أيقن من انخفاض إيراداتها. كان أبو رضا يكثر أيضًا من النظر إلى التقويم المثبت قرب منضدته ثم يتبع ذلك بالنظر إلى الباب توجسًا. وفي أحد الأيام أطال النظر إلى التقويم حتى غامت عيناه وانتابه سعال طويل. وعندما رأى جاره أبا جاد عائداً من صلاة العصر في المسجد قام من وراء منضدته ودعاه إلى الدخول ثم بادره بلهفة:

- هل.. هل من أخبار؟
- ما زلنا ننتظر.
- لقد انتظرنا طويلاً.
- أغلب الظن أن الأخبار لن تكون كما نشتهي.
- تعني أن الإيجار سيزداد؟
- على الأرجح، لكن الموضوع لم ينته بعد، ما زلنا نحاول.
- هل... هل عرفت مقدار الزيادة؟
- ما زال الوقت مبكراً.
- إذن سننتظر.

في تلك اللحظات بدا مستقبل البقالة غامضاً في نظر أبي رضا، لكنه كان متفائلاً بالمساعي التي يبذلها أبو جاد لدى معارفه الكثيرين للتوسط وحل

المشكلة. من حسن الحظ أن بناته قد تزوجن، أما الأولاد الثلاثة - وجميعهم أصغر من البنات - فيجب أن يتموا المرحلة الثانوية قبل الالتحاق بأي عمل. كان يحلم بأن يرى ابنه الأكبر بقالاً مثل صاحب سوپرماركت الرخاء، وابنه الأوسط جندياً، وابنه الأصغر موظفاً حكومياً. انتهت عطلة الشتاء أخيراً وعاد التلاميذ إلى المدرسة القريبة، وصار أبو رضا يستقبل أعداداً منهم كل يوم تقريباً غير أنها تقل عما اعتاده في الماضي. سرّ أبو رضا بعودتهم رغم الفوضى التي يحدثونها في البقالة، ورغم اضطرابه إلى مراقبتهم بعد أن ضبط بعضهم وهم يضعون الحلوى في جيوبهم دون دفع ثمنها. وفي يوم دخل التلاميذ البقالة وهم يقهقهون ويقولون:

- هل رأيتم المجنون؟

- رأيناه. رأيناه.

- ماذا كان يقول؟

- لم نفهم من كلامه شيئاً.

وراح أحدهم يلوح بيديه ويصيح مقلداً الشاب فطلب منه أبو رضا عدم الصياح. إذن فالشاب المسكين لم يلق بعد من يرهاه. لم تمض أيام علي حديث التلاميذ عن «المجنون» حتى رأى أبو رضا ذلك الشاب يهرول على الرصيف وخلفه مجموعة من التلاميذ والصبية الآخرين، وهم ينادونه بشتى الأسماء، بينما وقف عدد من المارة وهم يتبادلون النظرات، في حين كان الصبية الذين يبيعون أصنافاً من السلع الصغيرة

على الرصيف يتضحكون. وراح الشاب في أثناء ذلك يحرك رأسه ويديه في مختلف الاتجاهات ويصيح بكلام غير مفهوم. تابع أبو رضا الموكب حتى اختفى وهدأت الضجة. استغرب ثانية أن يُترك هذا الشاب هائماً على وجهه في الشوارع وكأنه ليس من مسؤولية أحد. لم يتمكن ذلك الشيخ من مساعدته في تلك الليلة، لكن إمام المسجد قد يكون أقدر على ذلك ولا بد لأبي رضا من اللجوء إليه. لقد احتفى به الشاب المسكين يوماً فحماه والأولى به أن يحاول ثانية.

واظب أبو رضا على شراء الدواء البديل من صيدلية الشفاء رغم ارتفاع سعره وفائدته المحدودة وطعمه غير المستساغ. كان يعجب للمواد التي تدخل في تركيب ذلك الشراب الذي يصبّه في جوفه كل يوم، وكثيراً ما ترخّم على أمه التي كانت تعد لهم أشربة سائغة لعلاج السعال من الأعشاب الطبيعية التي تحتفظ بها في البيت. في أحد الأيام كان يوشك على مغادرة الصيدلية عندما فوجئ بذلك الشاب يقف على الرصيف قرب بابها وهو يشير إلى الأعلى. بعد قليل دخل فناداه بائع الأدوية ليعطيه بعض النقود كما يفعل عادة مع المتسولين. لكن الشاب رفع كتفيه رافضاً أن يتحرك من مكانه فطلب منه البائع الانصراف. إلا أن الشاب ظل يشير إلى الأعلى ثم قال:

- فوق. فوق.

نهره البائع واتجه نحوه يريد إخراجه فقال الشاب:

- ثعبان. ثعبان.
- ارتاع البائع وغيره ممن كانوا في الصيدلية ظناً منهم أن الشاب قد رأى ثعباناً في مكان قريب. واصل الشاب إشاراته إلى الأعلى وعاد يقول:
- ثعبان فوق. ثعبان فوق.
- وهنا راح يقول وهو يكاد يشرف على البكاء:
- ثعبان. يقتل. ثعبان. يقتل.
- فقال البائع لمن حوله:
- فهمت. إنه يشير إلى رسم الأفعى والكأس على لافتة الصيدلية وهو الرسم الذي تتخذه الصيدليات رمزاً لها.
- ثم قال للشاب:
- لا يوجد ثعبان هنا. هيا فانصرف.
- فردد الشاب وهو يخفي وجهه بيديه:
- ثعبان. يقتل. ثعبان. يقتل.
- ثم أشار إلى الرفوف التي وضعت عليها الأدوية وصاح:
- سمّ. سمّ. يشرب. سمّ.
- حاول البائع إخراجه ثانية فصاح الشاب وهو يشير إليه:
- ثعبان. ثعبان. سمّ. سمّ.
- علا صياحه وهو يردد كلماته هذه فخرج الصيدلي من مكتبه في الداخل وعاد الشاب يشير إلى الرفوف ويقول:
- سمّ. سمّ. يشرب. سمّ. سمّ.

وهنا اقترب منه أبو رضا وقال له بهدوء كما فعل في مرة سابقة:

- هذا ليس سمًّا، ولا يوجد ثعبان هنا. إنه رسم لا غير.

ثم أخرج من جيبه بضعة قروش وضعها في يد الشاب طالبًا منه الخروج. أخذ الشاب النقود لكنه استمر في صياحه. وأخيرًا دفعه البائع إلى الخارج بقوة سقط معها على الرصيف حيث كان بعض المارة قد تجمعوا. لكن الكلمات ظلت تتدافع من فمه:

- ثعبان. سم. ثعبان. سم.

قال البائع:

- أعوذ بالله من هؤلاء المجانين. أين الشرطة؟ وكيف تركهم يسرحون ويمرحون بين العقلاء هكذا؟

قال أبو رضا:

- مسكين.

إنه لا يعرف حقيقة هذا الشاب لكن ما يراه منه يشير شففته البالغة. قد تضبطه الشرطة وتضع حدًّا للأذى الذي قد يسببه لنفسه ولغيره، لكن الرعاية ضرورية أيضًا في نظر أبي رضا. لذا سأل البائع:

- ألا تعرف أحدًا يستطيع مساعدته؟

قال البائع:

- لا أعرف أحدًا شخصيًا، لكنني أظن أن وزارة الشؤون الاجتماعية مسؤولة عن هؤلاء.

لماذا لم تخطر هذه الوزارة ببال أبي رضا من قبل؟ إنه لم يتصل بها في حياته لكن إمام المسجد قد يكون أدرى بكيفية ذلك. وعليه أن يراه قريباً.

أغلق أبو رضا بقالته قبيل الوقت المعتاد بسبب شعوره بالتعب. وحين خطا بضع خطوات ناداه جاره أبو فالج بائع الأثاث المستعمل. دخل فوجد جارين آخرين. قال له أبو فالج:

- إننا نتكلم عن الإيجار الذي يستحق بعد أيام كما تعلم.

قال الجار الثاني:

- لقد قررنا الامتناع عن دفع الزيادة المطلوبة.

وقال الجار الثالث:

- إنها زيادة هائلة في هذه الظروف التي نمرّ بها.

قال أبو فالج:

- لا يمكن أن ندفع الزيادة نفسها التي يدفعها الصيدلي مثلاً.

قال الجار الثالث:

- أنا لم أبع شيئاً منذ يومين.

قال الجار الثاني:

- وأنا لم أبع شيئاً منذ أيام فالناس يدخلون ويخرجون ولا يشترون.

قال أبو فالج:

- ولا تنسوا أننا دفعنا زيادة كبيرة في العام الماضي أيضاً.

قال أبو رضا:

- لكن.. لكن الامتناع سوف يسبب المشاكل.
- قال أبو فالح:
- اذا تعني؟
- قال أبو رضا:
- سوف يخرجنا المالك من الدكاكين بالقوة.
- قال أبو فالح:
- فليفعل ما بدا له.
- قال أبو رضا:
- أو.. أو يرفع علينا دعوى.
- قال أبو فالح:
- لن ندفع مهما كلف الأمر.
- قال الجار الثاني:
- لن نكون ضحية للظلم هذا العام أيضًا.
- قال أبو فالح:
- ونحن مصممون على هذا.
- خرج أبو رضا من دكان أبي فالح وهو يتمنى لو يستطيع تسليم أمر البقالة لابنه لكن لا بد من الانتظار ستين.
- في اليوم الموعد ذهب أبو رضا إلى بقالته مبكرًا. رأى في طريقه أبا فالح واقفًا وسط دكانه وحوله بعض أصحاب الدكاكين المجاورة وكلهم يتكلمون بصوت أعلى من المعتاد. وكان أبو رضا قد رآهم مجتمعين عدة

مرات في الأيام القليلة السابقة بعد أن فشلت مساعي أبي جاد لتخفيض الزيادة، وبعد أن تزعم أبو فالح جماعة الرافضين لها. اقترب أبو رضا من بقالته فرأى شخصاً يقف قرب بابها ملتصقاً بالحائط وسرعان ما تبين أنه الشاب المسكين. كان هذا الأخير ساهماً زائغ النظرات، وبدا شديد النحول وأكبر سنًا مما كان أبو رضا يظن، مع أن شعره الملتصق بجبينه كان فاحمًا. دخل أبو رضا فأحضر بضع كعكات أخذها الشاب وهو ما يزال ساهمًا. في تلك اللحظات قرر أبو رضا أن يذهب إلى إمام المسجد بعد صلاة عشاء ذلك اليوم.

جلس أبو رضا ليرتاح قليلاً ثم قام فنفض بعض الغبار ورتب بعض الرفوف. كان قد أحضر الإيجار ومعه الزيادة المطلوبة بعد أن استسلم للأمر الواقع تجنباً للمشاكل، ورغبة في وضع حد لذلك القلق الذي عاناه في الأشهر الأخيرة بسبب الزيادة المتوقعة. إنها زيادة كبيرة دون شك وفيها ظلم واضح، لكنه يأمل في تعويضها بإلغاء بعض أوجه الإنفاق الأخرى مثل تغيير باب البقالة وطلاء جدران البيت وبناء سور له وما إلى ذلك. شطب الدائرة المرسومة على التقويم راجياً أن ينقضي اليوم بسلام. غير أنه ما لبث أن سمع جلبة غير معتادة. انتظر قليلاً ثم أطل من باب البقالة فرأى جيرانه الذين كانوا مجتمعين في دكان أبي فالح وقد وقفوا على الرصيف بعد أن انضم إليهم المزيد من أصحاب الدكاكين. وعلى بعد أمتار قليلة وقف رجل قصير القامة حسن الهندام يحيط به ثلاثة رجال ضخام الجثة يرتدون ملابس سوداء.

قال الرجل القصير مخاطبًا المجموعة:

- أفهم من كلامكم أنكم ترفضون دفع الزيادة.
- بالتأكيد.

- مع أن الزيادة لا تخل بعقود الإيجار التي وقعتم عليها.
أجابه أبو فالح:

- ليس في عقود الإيجار ما يبرر هذه النسبة التي تطلبها.
- عاد الرجل القصير يقول:
- أهذا قراركم الأخير؟
- بالتأكيد.

قال الرجل:

- يبدو أنكم تريدون استئجار الدكاكين بأبخس الأثمان.
- فأجابه أبو فالح:

- ويبدو أنك تريد مصّ دماننا بأسهل الطرق.

علا الصياح وتململ الرجال الثلاثة في وقفته. ارتفعت الأيدي في الهواء وحاول أحد أفراد المجموعة أن يمسك بتلابيب الرجل القصير فسارع الرجال الثلاثة لإبعاده عن المجموعة قليلاً.

في هذه اللحظة ارتفع صوت يقول:

- دينار. دينار.

التفت الواقفون على الرصيف كما التفت الموظف الذي كان ينقل صناديق البضاعة إلى سوبرماركت الرخاء فرأوا شاباً طويلاً هزياً يقف عند حافة الرصيف ويصيح:

- دينار. دينار. يأخذ. يأخذ. دينار.

فقال له أحد مرافقي الرجل القصير:

- اخرس أيها المعتوه.

لكن الشاب لم يبال به، ومضى يقول وهو يشير إلى الرجل القصير:

- دينار. دينار. يأخذ. حرامي. حرامي.

شعر أبو رضا بخوف حقيقي على الشاب فحاول الاقتراب منه لتهديته وحثه على المغادرة كما فعل في مرات سابقة. وعندما رأى مرافقو الرجل القصير أن الشاب ماض في ترديد كلماته هجم عليه أحدهم وراح يوسعه ضرباً. فصاح الشاب وقد التوت قسماات وجهه:

- يضرب. يضرب. لا. لا. حرامي. حرامي.

وهنا تقدم أبو رضا محاولاً اختراق الجمع لإنقاذه من براثن هذا الرجل الذي يريد به شراً. ظل الشاب يردد نفس الكلمات دون أن يفلح الضرب في إسكاته. وعندئذ أخرج الرجل من جيبه سكيناً لوّح به فصمت الشاب برهة ثم تحرك وكأنه ينوي الهرب. سرّ أبو رضا إذ رأى الشاب يحاول النجاة بنفسه لكنه ما لبث أن سمعه يصيح:

- سكين. سكين. يذبح. يذبح.

ثم قال بصوت مرتجف:

- يذبح. دم. دم. حرامي. حرامي.

وعندئذ اندفع حامل السكين فاصطدم بأبي رضا الذي كان يحاول الاقتراب من الشاب فسقط أبو رضا على الأرض. طارد الرجل الشاب على الرصيف بضع دقائق، وعندما أوشك على الإمساك به اندفع الشاب كالإعصار وقفز إلى وسط الشارع غير مبال بالسيارات الكثيرة. حاول الرجل اللحاق به لكن السيارات أعاقته حركته. أما الشاب فركض بينها حتى جاءت سيارة شحن لم يستطع تفاديها فطرحته أرضاً.

لم يجد أبو رضا من يساعده على النهوض من سقطته غير أنه سمع صيحات الجزع وكلمات مثل: ماذا حدث؟ لا إله إلا الله. لا أمل. لا فائدة. لا إله إلا الله.

وعندما تمكن من النهوض أخيراً رأى الجميع وقد شخصوا بأبصارهم نحو موضع واحد وسط الشارع حيث توقفت سيارة الشحن وأمامها كومة آدمية مزرجة بالدماء.

قال أحد الواقفين:

- لقد شفى المسكين غليلي بكلماته تلك.

فقال أبو رضا وهو ما زال ينظر إلى الموضع نفسه بذهول:

- لكن.. لكنه دفع الثمن غالياً.

أما الرجل القصير ومرافقه الثلاثة فلم يكن لهم في الشارع من أثر.

زحام

راحت أمل تشق طريقها في المتجر وهي تدفع عربتها أمامها ببطء شديد، لكنها كانت تضطر في بعض الأحيان إلى التوقف تمامًا لتجد مكانًا تتحرك فيه بين جموع الناس الذين كانوا يدفعون عربات مماثلة، وأحيانًا كانت تتوقف طويلاً عندما يتركون عرباتهم في مكانها ويذهبون لتناول حاجياتهم من على الرفوف. تمت لو أنها استطاعت تجنب ذلك الزحام في ذلك اليوم، لكن كان لا بد لها من استكمال حاجياتها بنفسها قبل العطلة التي ما فتئت تقترب.

ذهبت أمل أخيرًا لتدفع ثمن مشترياتها فكان عليها أن تنتظر دورها. استغربت منظر القبة الحمراء على رأس الموظفة لكنها رأت قبعات مماثلة على رؤوس كل الموظفين الذين يقومون بعملها نفسه، ويجلسون في صف طويل لم تكد ترى نهايته. مضت دقائق طويلة ثم بدأت المرأة البدينة التي تقف أمامها مباشرة وضع حمولة عربتها على الحزام المتحرك تمهيدًا لدفع ثمنها، وسرعان ما تكومت أمامها أصناف من الخضار والفاكهة والحلوى وربما من كل بضاعة أخرى يبيعها المتجر حتى لم يعد الحزام يتسع لها. عرفت أمل أن انتظارها سيطول لكنها رأت الأحزمة المجاورة تروح تحت حمولة مماثلة. التفتت إليها المرأة باسممة وكأنها تعتذر عن كثرة مشترياتها، فرأت أمل وجهًا كبيرًا مستديرًا يشبه بلونه المعطف الأحمر الزاهي الذي كانت ترتديه. بادلته الابتسام وهي تحاول أن تتحلى بالصبر مثل غيرها من الزبائن الذين كانوا ينتظرون دون ضيق ظاهر. تذكرت أنها لم تسمع أحدًا

يتأفف أو يتذمر منذ أن بدأت جولتها، بل كان كل شيء يسير بهدوء وسلاسة رغم الزحام.

لم تجد أمل متعة في شراء حاجياتها في ذلك اليوم بسبب الزحام، لكنها لم تملك إلا أن تعجب بالمتجر الذي كان يبدو في أحسن مظهر ممكن. فقد اكتظت رفوفه بمزيد من البضائع الجذابة، وفي أعلاها صُفّت بضائع أخرى ذات ألوان زاهية وأشكال أنيقة لم ترها من قبل. ومن سقفه تدلت نجوم كبيرة ذهبية وفضية تحيط بها أوراق الزينة اللامعة الأخرى. أما الموظفون فكانوا يتحركون بخفة وشيء من البشر يعلو وجوههم وكأن العيد المقرب قد بثّ فيهم حيوية جديدة. بدأت المرأة البدينة تودع مشترياتها في أكياس ملونة لا تحصى فعرفت أمل أن دورها قد حان. أخيراً وضعت المرأة أكياسها على العربة وخرجت، وبعد دقائق خرجت أمل بدورها وهي تحمل أكياسها القليلة. توقفت في الساحة الواسعة المسقوفة خارج المتجر حيث كان أكثر من عشرين طفلاً يرتلون بعض الأناشيد الدينية. راحت تستمع إليها وهي تتأمل الأطفال الذين كان كل منهم ينشد بطريقة مختلفة وعلى وجهه تعبير مختلف وكأنه يمثل دوراً في مسرحية. شعرت وهي تضع نقودها في علبة التبرعات التي كان يحملها أحد الأطفال أن تلك أفضل خاتمة لجولتها المتعبة التي استغرقت ساعة كاملة في المتجر. ولولا عجلتها لتوقفت طويلاً لتسمع المزيد.

بدأت العتمة تهبط لكن مساحات من الضوء الأزرق الغامق ظلت تتخلل الغيوم الرمادية الكثيفة، وعند الأفق ظهر شريط باهت من ضوء النهار لم

تحتله العتمة بعد. اتجهت أمل إلى موقف الباص في الشارع الرئيسي وهي تشق طريقها بين حشد آخر من زبائن المتجر المغادرين له والقادمين إليه. غير أنها عندما وصلت إلى الشارع الرئيسي رأت زحاما لم تر له مثيلا من قبل. خيل إليها لأول وهلة أن أولئك الناس قد خرجوا لتوهم من احتفال ضخم أو أنهم في طريقهم إليه. بل إنها ظنت أن مهرجانا كبيرا سيقام في الشارع عما قليل. تمت أن تعود من حيث أتت لكن كان لا بد لها من ركوب الباص أو القطار لتعود إلى بيتها، وكل من موقف الباص ومحطة القطار في آخر الشارع الرئيسي. وقفت لحظات وسط أمواج الناس المتلاطمة وهي في حيرة من أمرها. لسعها البرد غير أنها لم تبال به لأن همها كان منصرفا إلى اقتحام اللجة القاتمة التي تحاصرها والوصول من ثمة إلى شاطئ الأمان. استأنفت سيرها دون أن تستطيع تبين موقع قدميها وسط أولئك الناس المتوجهين بلهفة إلى موقف الباص، أو محطة القطار، أو المتاجر التي يغص بها الشارع الرئيسي، أو أماكن اللهو، أو الشوارع الفرعية الكثيرة، وكأنهم حجاج يسعون إلى معابد. كانوا يمشون فرادى وأزواجا وجماعات حاملين أكياسهم الكثيرة وكأنها قرابين يريدون تقديمها على مذابحها. لكن منهم من كانوا يتوقفون على الرصيف فجأة وهم يتحدثون أو يفقدون أكياسهم، فتتوقف أمل في مكانها ثم يواصلون سيرهم فتتقدم معهم ببطء شديد وهي تكاد تتخبط في مشيها. بعد قليل أسرع ثلاث فتيات الخطى دون اكتراث بمن يدفعن في طريقهن. ثم أقبل شاب وكأنه يخشى أن يفوته موعد هام فاصطدم بامرأة مسنة دون أن يبالي بها. وعلى مقربة من أمل بدأ ثلاثة أطفال

يتدافعون غافلين تمامًا عمن حولهم. وفي غمرة الزحام كانت الأمهات يدفعن عربات أطفالهن بحذر بالغ فتتجنبهن أمل ما استطاعت وهي ترثي لحالهن. كان أولئك الناس يجهدون في إنجاز مهامهم في ذلك المساء وهم تحت وطأة ضغط شديد تنم عنه عجلتهم وإمارات الجد أو الهم المرتسمة على وجوههم، لكنهم كانوا بعيدين عن الصياح والشجار، بل إن الضحك كان يعلو بينهم من وقت لآخر بينما الخطى تشي بما يشبه الفرح أحيانًا. أما البرد فلم يعبأ به أحد حتى أولئك الذين لم يرتدوا المعاطف أو السترات الثقيلة.

تجمع أناس آخرون خارج المتاجر الصغيرة المتلاصقة على جانبي الشارع وهم يمعنون النظر في البضائع التي تزدهم في واجهاتها وتكدس خارجها. وفي متجر للأسطوانات صدحت أغنية صاخبة تتخللها ضربات الطبول التي كانت تنهال على السمع مثل المطارق. وغير بعيد منه وقف رجل ينفخ في بوقه بكل عزم وكأنه يطعن الفضاء بأنغامه العالية الحادة طعنة تلو أخرى، وعندئذ بدا الضجيج وكأنه يتآمر مع الزحام ليجعل ذلك المساء عصيبًا حقًا. وعند مدخل شارع فرعي وقف الشيخ البدين ذو الوجه الباسم المتورد واللحية البيضاء يحيي المارة وهو يقرع جرسه. كان ثوبه الأحمر يتوهج مثل أضواء الشارع التي تتحدى عتمة الشتاء المبكرة فتذكرت أمل المرأة البدينة التي رأتها في المتجر، وبدت لها ابتسامة الشيخ وكأنها تعد بخيرات تشبه ما كانت تحمله تلك المرأة في أكياسها. لم يستطع الشيخ أن

يستوقف الأطفال ويستمتع إلى أمانهم بسبب ضيق الشارع وازدحامه، فحمدت أمل الله على ذلك، لكنها تخيلت أنه يربت رأسها ويسألها:

- وأنت يا صغيرتي، ماذا تتمنين؟

فتقول له: أتمنى أن أصل إلى بيتي الليلة بسلام ودون تأخير طويل.

بدأت العتمة تتكاثر، إلا أن أضواء الشارع المتزاحمة ظلت تقاومها وكأنها تجهد في إحالة وقت الغسق إلى ما يشبه النهار. كانت تلك الأضواء تتسلق الأشجار العارية وتلتف حول أعمدة النور، وتتدلى من الفضاء على شكل الأهلة والنجوم والوجوه الضاحكة والأشجار والأجراس. ومن بعيد بدت أضواء ملونة أخرى على شكل لوحات علقت في فضاء الشارع وامتدت من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر. وحول واجهات المتاجر وفوق مداخلها انتظمت أضواء أخرى كأنها عقود طويلة من الأحجار الكريمة.

وصلت أمل بعد زحف طويل بطيء إلى موقف الباص تحيط بها تلك الكتلة البشرية التي كانت تشبه بضاعة مكدسة على حزام متحرك في متجر، وهناك رأت جمعا آخر من الناس ينتظرون، ناهيك بعربات الأطفال العديدة. في الجهة المقابلة من الشارع احتشد الناس في مدخل محطة القطار، بينما وقف آخرون على الرصيف خارجها وهم يتحدثون ويدخنون. وفي نافذة البنك بدت شجرة كبيرة ترينها قلائد الأضواء، وتتناثر فوقها عبارات التهئة كما تتناثر في أرجاء الشارع للتذكير بما هو آت. فكل أولئك الناس كانوا يعدّون العدة لاستقبال العيد، وها هو العيد يقترب وبعد غد يكون هنا. راحت أمل تزجي الوقت بالنظر إلى لوحات الزينة المضاءة التي تطل على

موقف الباص وتعد الناس بالفرح شريطة إتمامهم الأعمال المطلوبة منهم قبل حلول الموعد المضروب. رأت أمل في تلك الأضواء الساطعة التي كانت تشاهدها لأول مرة كثيرًا من المبالغة والهدر، لكنها قالت لنفسها بعد تفكير: لا بأس في أن يستحضر الناس فرحًا يستهلكونه في الشهر الأخير من العام. لا بأس في أن يقاوموا كآبة ذلك الشهر وأن ينشغلوا عما فيه من تذكر وتفكير وما قد يبعثه هذان من أسى وشجن.

شعرت أمل بقدر من الاطمئنان أنساها بعض توجسها من الزحام ومن العتمة التي كانت تزيد من وطأته، وبدا لها العيد وكأنه يمد إليها يده مع أنها لم تكن من الساعين إليه. أحست بتقارب مع من حولها أذاب بعض حدودها، فمضت ترقب الناس بشيء من الاهتمام وهي ما تزال تتلهف وصول الباص. رأت المرأة القريبة منها تجلس ساهمة على مقعد الانتظار المثبت على الرصيف فابتسمت لها، وعلى الفور قالت المرأة وكأنها كانت تنتظر تلك اللحظة:

- ها قد تأخر الباص ثانية.

قالت أمل: نعم فالزحام شديد.

قالت المرأة متذمرة دون أن تنظر إليها مباشرة: وهو كثيرًا ما يتأخر في هذه الأيام.

قالت أمل: إنه العيد.

قالت المرأة بלהجة التذمر نفسها: نعم. وهو يسبب الزحام دائمًا.

قالت أمل: لكنه يجلب الفرح أيضًا.

قالت المرأة بفتور وهي ما تزال تتحاشى النظر إلى أمل: نعم.
كانت المرأة نحيلة شاحبة تلبس معطفًا في مثل لون شعرها الأشيب.
والغريب أنها لم تكن تحمل أكياسًا كبقية الناس، فبدت كما لو أنها ضلت
الطريق ووجدت نفسها في موقف الباص عن غير قصد. بعد قليل وصل
شيخ إلى موقف الباص وهو يتعثّر في مشيه، فنهضت امرأة ودعته إلى
الجلوس مكانها على أحد المقاعد القليلة في ذلك المكان الضيق، فأومأ
برأسه شاكرًا دون أن يتكلم.

أقبل الباص أخيرًا وهو يميل بحمولته الثقيلة من الركاب ويتحدّى
العمّة هو الآخر بلونه الأحمر. لم تجد أمل لنفسها مقعدًا فيه، فوضعت
أكياسها في المكان المخصص لها ووقفت عند الباب وقد انكمشت على
نفسها تجنبًا للارتطام بالركاب الآخرين. راح الباص يتلوى في سيره
كالمعتاد، لكن سائقه كان يتمهل بين حين وآخر لئلا يصدم أحدًا من المارة
الذين كانوا يضطرون إلى الهبوط من الرصيف إلى الشارع بسبب الزحام، أو
الذين كانوا يعبرون الشارع بسرعة ودون اكتراث بالمركبات المتدفقة فيه.
ومن وقت لآخر كان الباص يتوقف تمامًا عند الإشارة الضوئية فتبدو
السيارات والباصات وكأنها توشك أن تتكدس فوق بعضها البعض.

نزلت أمل من الباص فطالعتها الشجرة الكبيرة المثقلة بالأضواء
الكهربائية في نافذة مبنى البلدية. بعد قليل انعطفت إلى شارع بيتها مخلفة
وراءها الزحام والأضواء وكل أسباب التوتر. مشت على مهل والليل ما يزال
في أوله وهي مطمئنة إلى أنها ستكون في بيتها بعد دقائق. أحكمت اللفّاع

حول رقبتها، وراحت تتشقق الهواء البارد المشبع بالهدوء اللذيذ الذي تغلغل في الشارع الخالي من الناس والسيارات. الأكاليل الخضراء والحمراء تزيّن أكثر الأبواب، والأشجار الهرمية الصغيرة تتوارى خلف ستائر النوافذ الشفافة. خضرتها الداكنة مرصعة بالأضواء الصغيرة الملونة التي تومض وميضًا خافتًا في عتمة الشارع فتوحى بأن الأشجار حية تنبض. ينطفئ بعض تلك الأضواء ثواني قليلة فتشتعل أضواء غيرها ذات ألوان مختلفة لا تلبث أن تنطفئ هي الأخرى، وهكذا. أطالت أمل النظر إلى تلك الأشجار الهامسة التي تعد بهناء عائلي ودفء أكيد، وتخيلت أفراد العائلة الواحدة وهم يجلسون قربها فيجددون المحبة بينهم ويعزّزون التفاهم. تسلك الفرع إلى قلب أمل لرؤية تلك الأشجار السحرية، ومع أنها كانت تأسف لاقطاعها من غابات الصنوبر البعيدة فإنها لم تملك إلا أن تعجب بجمالها ومعناها.

في اليوم التالي غادرت أمل عملها مبكرة كبقية الموظفين. كانت المتاجر والبنوك ما تزال تغصّ بالناس، لكن الزحام كان يخفّ بمرور الوقت. في العصر قلّ عدد السيارات والباصات في الشوارع إلى حد كبير وأبطأت كلها من سرعتها مع اقتراب يوم العيد. غمرت أمل سعادة مألوفة لدى دخولها بيتها الذي يحسن استقبالها ويوفر لها كل أسباب الراحة على الدوام. ها هي العطلة قد بدأت وما عليها إلا أن تستمتع بها بعد أن أنجزت كل الأعمال الضرورية قبلها. في صباح يوم العيد داهم أمل شعور بأنها قد انتقلت إلى مكان في أقصى الأرض، أو هبطت على سطح كوكب آخر. أحست أن شيئًا عجيبيًا قد حدث لكنها لم تعرف كنهه. ألح عليها ذلك الشعور الذي خالطه

سرور خفي فاستسلمت له دون أن تفارقها الحيرة. بعد قليل أحست أنها تطفو في مادة كثيفة تحتل الفضاء وتحيط بها من كل جانب فتعزلها عما حولها. استسلمت لها كما تستسلم لمياه دافئة تحتضنها، وعندما صحت من النوم تمامًا عرفت السبب في كل ذلك. إنه السكون الذي أطبق على الحي إطباقًا تامًا يذكر بعالم الأساطير أو قصص الخيال العلمي. أمضت أمل فترة تستوعب ذلك السكون النادر وهي تعجب لعمقه وثباته، ومن جديد استكانت إلى شرنقته المنيعه التي رأت فيها هبة من هبات العيد.

نهضت من سريرها متكاسلة فوجدت البيت دافئًا عطرا. ما عليها اليوم إلا أن تستمتع بالراحة والفراغ ريثما تأتي صديقتها فتصطحبها إلى بيتها لتناول عشاء العيد معها ومع عائلتها. وقفت بالنافذة فرأت الضوء يغمر الفضاء رغم بعض الغيوم، لكن لا شيء يتحرك في الشارع ولا حتى السيارات. أبواب البيوت مغلقة، لا أحد يخرج منها أو يدخل، ولا أحد يعبر الشارع كالمعتاد. لا أثر للكبار ولا للصغار، ولا حتى لطفلة الجيران التي لا تكف عن الحركة عادة. لا صوت ينبعث من أي مكان، لا موسيقى لا نشيد لا أغنية. عجبت أمل إذ رأت العيد يُدفن في السكون، لكنها تذكرت أن أهل الحي يحتاجون إلى الراحة بعد احتفالهم الصاخبة التي سبقت العيد، وبعد سباقهم المحموم لشراء الهدايا واللوازم الأخرى قبل مواعده الذي كان مصلًا كالسيف فوق الرقاب. ومنهم من سافر لقضاء عطلة العيد في أماكن أخرى كما يتبين من سياراتهم التي خلفت مساحات باهتة في أرض الشارع بعد أن كانت تملؤه بألوانها وأشكالها المتنوعة. تعمق السكون مع تقدم النهار وركد

الهواء، وبدا كل شيء رمادياً بلون الإسمنت: السماء والفضاء وجذوع الأشجار الهرمة وأغصانها العارية التي هجرتها الطيور منذ مدة. تذكرت أمل طائر أبي الحناء الذي رأيته في الحداثق مؤخراً، وتمنت أن تراه ثانية لما فيه من جمال رقيق يخفف من كآبة منتصف الشتاء ويذكر بالحيوية الكامنة وراء الجمود.

بدأت أمل تتلهف وصول صديقتها، وعندما جاءت ركبت في سيارتها وكأنها تلوذ بها من وحشة الحي. راحت السيارة تجوب الشوارع وحيدة. في مبنى البلدية كانت الشجرة ما تزال تطل بأغصانها المضيئة على الشارع المهجور، غير أنها فقدت شيئاً من بريقها وأبهتها المكتسبة من المبنى نفسه. أو هكذا خُيل لأمل. بل إن أغصان الشجرة بدت لها وكأنها أذرع تمتد مستغيثة وتقول: لقد سئمت وحشة الشارع كما سئمت زحامه من قبل فمتى ترفع عن كاهلي هذه الأحمال المضيئة؟ ومتى أحمل إلى المستودع لأنام فيه نوماً طويلاً؟ كان الشارع الخلفي خالياً هو الآخر، مستسلماً للعتمة التي تنقُص عليه بشراصة دون أن تفلح أضواؤه الهزيلة في التخفيف منها. لا أكاليل خضراء وحمراء تزين أبوابه، لا أشجار صغيرة تضيء نوافذه، ولا زينة تحلق في فضائه. بيوته كالمهجورة أو الغارقة في وحدة مريرة بعد أن أخطأها العيد أو عجز عن الاقتراب منها. المطعم الصيني مغلق وكأنه يؤكد اغترابه. البقالة الهندية شبه مضاعة لكن دون حركة ظاهرة فيها. تذكرت أمل المرأة النحيلة الشاحبة التي كانت تبدو في موقف الباص كالشبح وسط أضواء العيد وجلبته. تمت أن يكون الشيخ البدين الباسم قد حمل إليها في كيسه بعض

خيراته، لكن أمل كانت تعرف أن ذلك الشيخ لا يساوي بين الجميع في هباته رغم عطفه الظاهر.

في بيت الصديقة كانت الأضواء الهادئة والألوان الدافئة تتعانق لتنسي أمل وحشة الشوارع وبهرجة العيد على السواء. جلست أمل قرب الشجرة التي كانت تتألق في ركن من غرفة الجلوس فتسلل إليها عيبرها الخفي المنعش. لا عجب في أن تصبح هذه الشجرة القادمة من الغابة رمزاً للعيد بنضارتها الدائمة وبما تضيفه عليه من دعة وروحانية. اتصل الحديث بين الأصدقاء هادئاً سلساً مثل جدول رقراق، وعزز العشاء التقليدي الألفة بينهم ببعده عن التكلف هو الآخر. من أдраها فلعل كل بيت مرت به اليوم كان يخفي نواة دافئة هادئة كهذه بعد أن غاض العيد من الشوارع واستقر في أعماق البيوت. ولعل أهل حيّها يستكينون الآن إلى مثل هذه النواة قرب أشجارهم المضيئة. في نهاية الزيارة تبادلت أمل وصديقتها الهدايا، وكان من نصيب أمل كتاب عن النباتات والحيوانات التي تستوطن تلك البقعة من العالم. في إحدى صفحاتها طالعها صورة كبيرة لطائر صغير وديع تلون صدره الحمرة. سرّت أمل لرؤية صورة أبي الحناء الذي كان في نظرها رمزاً للعيد كالشجرة مع أنه يصل دون جلبة ودون أن يلقي إليه الناس بالاً. كل من شجرة عيد الميلاد وطائر أبي الحناء يجيء من حيث لا زحام ولا عجلة ولا ضوضاء. كل منهما يجيء من عالم الطبيعة حاملاً تحية العيد وكثيراً من البهجة. كل منهما هبة سخية من ذلك العالم مع أنها لا تحمّل في أكياس.

البحيرة

جلست مروءة وصديقتها في الشرفة الفسيحة، ثم أغمضت كل منهن عينيها ورفعت رأسها كأنها تحيي الشمس. صمتن جميعاً وهن يستقبلن تلك الأشعة التي يمتزج فيها الدفء بالرقّة، وتركنها تنفذ إلى داخلهن وتنسيهن ما حولهن. تمنّت مروءة أن تظل في جلستها هذه طيلة النهار فلا تضطر للنهوض أو الحديث أو الأكل. كانت أشعة الشمس تغزل بخيوطها غير المرئية شرقة حولها وترسم ابتسامة خفيفة على وجهها. انحسرت عن ذهنها الأفكار الصغيرة والكبيرة معاً، بينما كانت الشمس تسبغ عليها السكينة وتفجر فيها ينبوعاً من الفرح الهادئ وتسلمها إلى التصالح مع كل شيء. ها هي الشمس تستقبلها أجمل استقبال رغم غيابها الطويل وكأنها تعرف أنها من أبنائها. ليتها لم تغب عنها كل تلك السنين. ليتها كانت تأتي كل عام فتغرق في فيض أشعتها وترتشف شرابها السحري الذي يهددها. لقد كانت تتزع نفسها من العمل كل عام بحثاً عن الاستجمام فلا تظفر منه بما تجده اليوم تحت هذه الشمس العجيبة.

طال صمت صديقتها فعرفت أنهما مستمتعتان بالدفء مثلها. لكنّ ليلي تمللت أخيراً في مقعدها وقالت بصوت خفيض: ألا تريدان فنجاناً من القهوة؟

لم تجب مروءة وهانية في البداية ثم غمغت هانية: بلى.

فتحت مروة عينيها قليلاً فانبهرتا بذلك الفضاء البلوري الشاسع. أغمضتهما ثانية وهي تغمغم بدورها: بلى.

جاء النادل بالقهوة. شاب صغير لا يتجاوز العشرين من عمره. وجهه أسمر مستدير وشعره أسود أجعد قليلاً. تقاطيعه مرسومة بعناية، لكن عينيّه غارقتان في ضباب لا يمت بصلة إلى ذلك الضوء المنهمر بكل سخاء. كانتا بلا بريق وكأنهما من معدن استخرج لتوّه من الأرض ولم يُصقل بعد. كان يبدو عليه الوجل ولا يحسن الإمساك بالفناجين. راحت مروة تتأمل بهتمام فازداد وجهه وعلا وجهه عبوس خفيف. ارتشفت الصديقات القهوة على مهل، وشعرت مروة بذلك الفرح الهادئ يستقر بداخلها وكأنه جنين طال انتظاره. بدأن يتبنهن إلى ما حولهن بعد حالة الخدر التي استولت عليهن عند استسلامهن لأشعة الشمس.

الشرفة واسعة تغتسل مثلهن بتلك الأشعة الباهرة، أناس كثيرون يجلسون مثل جلستهن وبعضهم شقر قدموا من بعيد طلباً لدفع الشمس في منتصف الشتاء. وتحت الشرفة تمتد حديقة الفندق الأمامية ذات المستويات المتدرجة نباتاتها الكثيفة وزهورها ونخيلها ومسابعها، ثم الكثيب المفروش بالرمال الأبيض والمنحدر إلى البحيرة التي تستسلم للشمس منذ بدء الخليقة، ومن حولها الضفاف ثم التلال البعيدة. طالما قرأت مروة عن هذه البحيرة وشاهدتها في الخرائط والصور. كانت زرقاء فاتحة، رحة مترامية، ساكنة لامعة كأنها من الزجاج، وفوقها ينصبّ ضوء باهر مركّز. وعلى ضفتها القريبة بضعة أبنية صغيرة لعلها تابعة للفندق.

كانت ضفاف البحيرة داكنة اللون تكثر فيها الصخور. اختفت المدينتان القديمتان الحافلتان بالأحداث منذ دهور دون أن تتركاً فيها أثراً. ثم غاضت الحياة بكل أشكالها من الضفاف فتحوّلت إلى بيداء لم تكن لتطأها قدم لولا هذا الفندق. ولعل الفندق نفسه سيختفي يوماً. راحت مروة تطيل النظر إلى ذلك القفر الذي لم تر مثله من قبل فرأت فراغه نفسه حافلاً بالأسرار. ومن ورائه تراكت صخور شاهقة تشبه بناء ذا تصميم مبتكر تجنب بانيه إعطاءه شكلاً محدداً، وهي أحفل منه بالغموض.

سألته ليلي: هل تذكرين هذا المكان؟
قالت مروة: لا، إني لا أكاد أذكر منه شيئاً. ويمكن القول إني أراه للمرة الأولى اليوم.

سألته هانية: متى زرتِ البحيرة آخر مرة؟
قالت: وأنا طفلة. ولا أعرف كم كان عمري آنذاك.
بعد القهوة أخرجت ليلي مرآتها ووضعت طبقة جديدة من أحمر الشفاه، ثم نهضت ودخلت ردهة الفندق.

قالت هانية: كم أنا سعيدة بمجيئك معنا اليوم.
قالت مروة: وأنا سعيدة بصحبتكما في هذا المكان.
قالت هانية: من حسن الحظ أننا وجدنا أماكن في هذا الفندق. لقد افتتح قبل سنوات قليلة لكنه سرعان ما ازدحم بأهل المدينة والسياح، وليتهم ينون فندقاً مماثلاً ليخفف عنه الضغط.
قالت مروة: إنه فندق مريح.

قالت هانية: لقد كان بناؤه نعمة على كل هؤلاء الناس الذين يقصدونه للاستجمام.

عادت هانية تقول لمروة: رأيتك تطيلين النظر إلى النادل. فقالت مروة: لقد لفت نظري وجهه الجامد الذي يشبه تلك الصخور، ولعله يماثل وجوه آبائه وأجداده دون أدنى تغيير.

سألته هانية: ماذا رأيت فيه؟ قالت مروة: رأيت فيه القفر والفقر.

قالت هانية بصوت خفيض وكأنها تحدث نفسها: سيكون له مكان في اللوحة.

عادت ليلي بعد قليل وبصحبتها رجل أنيق باسم يرتدي بذلة قاتمة وربطة عنق زاهية. قالت لصديقتها: الأستاذ لطفي مدير الفندق، وهو أيضًا صديق لزوجي.

ثم قالت للأستاذ لطفي: هذه صديقتنا هانية، وهذه صديقتنا مروة التي جاءت من باريس لقضاء عطلة قصيرة في وطنها الأصلي.

صافحهما الرجل بمودة ظاهرة. دعه ليلي إلى الجلوس فقالت له هانية: كنت أقول لمروة قبل قليل إن هذا الفندق أثبت نجاحه لدرجة أننا نتمنى بناء فندق مماثل قربه.

قال الأستاذ لطفي وهو يضحك: لكن الفندق الجديد سينافسنا.

قالت هانية: لا خوف عليكم من المنافسة..

شكرها الأستاذ لطفي ثم سأل مروة: وكيف هي الحياة في باريس؟

قالت مروة: مريحة وممتعة.

قال: إن باريس مدينة جميلة حقًا بأبنيتها وشوارعها وأضوائها. منذ متى تعيشين فيها؟

قالت: منذ ما يقرب من عشرين سنة.

قال: لا شك أنك قد تعودت على الحياة هناك.

قالت: إلى حد بعيد.

قال: ولا شك أنك تحملين الجنسية الفرنسية.

قالت: نعم.

قال: وهل أنت فرنسية حقًا؟

قالت: إني عربية قلبًا وقالبًا، لكن الحياة ألقت بي في غير بلاد العرب.

بدا الأستاذ لطفي وكأنه يريد الاسترسال في أسئلته لمروة لكنه تنبه لشيء فجأة فقال: ماذا تفضلن من الشراب؟

قالت ليلي: لقد شربنا القهوة قبل قليل.

قال الأستاذ لطفي: إذن لا بد من شراب بارد الآن.

جاء النادل نفسه وقد ازداد الوجل في عينيه. وزّع الأكواب ببطء وحذر كأنه يخشى أن تنقلب فيسبيل منها الشراب. كان يشبه الأستاذ لطفي بسمرته وشعره الفاحم وربما كانا من الأصول نفسها.

عاد الأستاذ لطفي يسأل مروة: وهل تعملين في باريس؟

قالت: أعمل محررة في إحدى الصحف العربية التي تصدر هناك.

قال وهو يضحك: لكن هذه مهنة المتاعب كما يقولون.

قالت: هذا وصف ينطبق على كل مهنة يريد صاحبها إتقانها.
عاد يسألها: هل تزورين بلدنا - أعني بلدك الأصلي - كثيرًا؟
قالت: أزوره كل بضع سنوات.
قال: وأهلك؟

قالت: أهلي الأقربون في باريس.
سألها: ألا تفتقدين بلدك الأصلي؟
قالت: أفقد فيه أشياء كثيرة دون شك.
سكت الجميع، وبعد قليل ودعهن الأستاذ لطفي بالابتسامة المشرقة.
قالت ليلي لمروة بعد ذهابه: أرجو ألا تكوني قد تضايقت من أسئلته
الكثيرة.

قالت مروة: لا، فأنا أعمل مع العرب وأعرف حبهم للسؤال.
كانت مائدة الغداء في مطعم الفندق حافلة بأنواع لا تحصى من الأطعمة،
هي جانب من الرخاء الذي قررته الفنادق الكبرى لكل سكان الأرض على
اختلافهم. لم تملك مروة إلا أن تتذكر البيداء المحيطة به وما تخفيه من فقر،
لكنها حاولت نسيان ذلك التناقض واستسلمت لما يغدقه الفندق على نزلائه
من عطاء. اختارت أطعمة لم تجربها من قبل ثم جلست مع صديقتها إلى
مائدة بجوار النافذة الكبيرة المطلّة على الحديقة الخلفية للفندق. كانت
أصغر من الحديقة الامامية، ومن خلفها امتدت أرض تشبه ضفاف البحيرة.
وفي الأفق البعيد بدت تلال تشبه السحب بألوانها الفاتحة.

بعد الغداء تجولت الصديقات في حديقة الفندق الأمامية التي رُسم فيها كل شيء بدقة بالغة. تنقلن بين مدرجاتها ثم هبطن إلى الكثيب الرملي المؤدي إلى البحيرة مباشرة. تخيلت مروة وهي تطل على البحيرة أنها توشك أن تلتقي بشخص أسطوري يلفه ضباب القرون، أو بعملاق، أو ربما بالتاريخ نفسه. كانت تتطلع إلى رؤية البحيرة عن كثب لكن شاطئها كان مزدحمًا بكثير من نزلاء الفندق. كان بعض الأجانب من النزلاء يستلقون في مياه البحيرة دون حراك وهم يرفعون وجوههم نحو الشمس. أما الواقفون على الشاطئ فقد انشغل كثير منهم عن البحيرة وأسرارها بالتقاط الصور لرفاقهم.

قالت ليلي مترددة: هل نذهب إلى الشاطئ؟

تمهلت هانئة قبل أن تجيب فأسرعت مروة تقول: فلنتظر ساعة أو ساعتين ريثما يخف الزحام.

عدن إلى الحديقة الأمامية يتجولن فيها من جديد ويصعدن درجات ويهبطن أخرى ثم ذهبن إلى المقهى المتصل بها. قالت ليلي وهي تجلس: آه ما أحلى الكسل! ما أحلى الجلوس طيلة النهار دون عمل!

قالت هانئة: وهذا ما جئنا من أجله.

قالت مروة لهانئة: إذن فأنت لم تحضري معك أدوات الرسم.

قالت هانئة: لا فقد أردت راحة تامة من كل عمل خلال هذين اليومين.

بعد قليل سألت ليلي بمرح: قهوة؟

وافقتاها بلهفة. وأقبل نادل جديد يشبه نادل الصباح وكأنه أخوه. الطول نفسه، اللون نفسه والشعر نفسه. عيناه جامدتان مثل عيني زميله غير أن نظرة مكر كانت تطل منهما وكأنه يتكتم على أمر.

سألته مروة: هل أنت من أهل هذه المنطقة؟

قال بعد أن رمقها بطرف عينه: نعم.

سألته: وهل تأتي إلى هنا كل يوم؟

قال: نعم.

عادت مروة تسأله: وهل تحب عملك؟

قال بطريقة آلية ودون أن تتغير نغمة صوته أو تعبير وجهه: نعم.

كان النادل أبكم مثل ضفاف البحيرة التي لا تبين عن تاريخها. وكانت إجاباته المقتضبة مثل ومضات لا تفلح في إضاءة داخله الذي جففته الشمس كما جففت موطنه، لكنه كان مثل زميله يخطو خطواته الأولى نحو حياة جديدة.

قالت هانية بعد أن ذهب: لاشك أنه سعيد بعمله فهو مورد جيد للرزق.

قالت ليلى: لقد كان بناء هذا الفندق من نعم الله على هذه المنطقة التي

انتعشت من جرائه.

لم تر مروة مظاهر كثيرة للانتعاش في طريقها إلى الفندق لكنها لم تقل شيئاً.

قالت ليلى: وربما سيبنون فنادق أخرى هنا في المستقبل.

قالت مروة: لكن بناء الفنادق لا يكفي لإنعاش المنطقة. إن فيها إمكانيات أخرى يمكن أن تستغل أحسن استغلال.

قالت ليلي: هذا يحتاج إلى جهود كبرى وزمن طويل، وبناء الفنادق أسهل وأسرع.

قالت مروة: ثم إن هذا الفندق يمثل نمطاً مستورداً من الحياة هو أبعد ما يكون عن الحياة التي اعتادها أهل هذه المنطقة.

قالت هانية: لكنه نمط من الحياة أضحى عالمياً.

قالت ليلي: وأهل هذه المنطقة يتكيفون بأسرع مما نظن. وها هو الفندق مليء بعمال منهم.

قالت مروة: هل عرف أهل المنطقة بأمر الفندق قبل بنائه يا ترى؟

قالت هانية: لا أظنهم عرفوا شيئاً من هذا القبيل.

قالت ليلي: هذه ليست أوروبا يا مروة. ثم إن أهل المنطقة من أشد سكان البلاد تخلفاً.

قالت هانية: لا شك أنهم رحبوا ببناء الفندق وبما يقدمه من فرص العمل. فالأعمال قليلة هنا، والزراعة لا تستوعب كل السكان.

قالت مروة: لكن هذه البقعة تجاور وادياً يشتهر بخصبه منذ فجر التاريخ، والزراعة نشاط أساسي فيه، وهو خليق بأن يوفر أعمالاً للكثيرين. لقد رأيت الأشجار الصغيرة المتفرقة في طريقنا إلى هنا: يانعة، رشيقة، رقيقة، أخاذة وتمنيت لو تغطي كل جزء من الوادي. ورأيت أيضاً بعض القرى فتمنيت لو يتبع أهلها الأساليب الحديثة في الزراعة لكي ينهضوا بها وتنهض بهم.

قالت هانية: إن الزراعة الناجحة تتطلب جهودًا جبارة في هذا الزمن.
قالت ليلى: والخدمات الفندقية مورد جيد للدخل في الوقت الحالي.
قالت مروة: لكن هذا الفندق الفخم الذي يفرض نفسه على المنطقة يبرز
فوارق الثروة أمام سكانها.

قالت ليلى: وهو في نفس الوقت يساعد على رفع مستوى معيشتهم.
قالت هانية: وربما كان أولئك المساكين مشغولين بكسب عيشهم لدرجة
لا تترك لهم وقتًا للمقارنة.

سكتت مروة. إن البحيرة هي سبب وجود الفندق ولولاها ما غرس هنا،
والتناقض بينهما صارخ. فضفافها خالية منذ قرون بينما الفندق يزرع تحت
حمولة ثقيلة من أحدث ما صنعه البشر بعقولهم وأيديهم. أما تلك الصخور
الشاهقة فهي لم تمسّها يد منذ الخليفة ولن تمسّها إلى أبد الأبد. وحتى لو
حلّق البشر فوقها فإنهم لن يجدوا وسيلة للهبوط عليها. إنها خارجة عن
الإنسان وإرادته وتكاد تكون خارجة عن كوكبه. بل هي قد تنقّص يومًا فتدمر
المنطقة. والتناقض بينها وبين الفندق مفرع.

نظرت مروة فإذا بالأستاذ لطفي مقبل عليهم من بعيد. حيّاهن بالمودة
نفسها وجلس قبل أن تدعوه إحداهن للجلوس. نادى النادل وأصر على
طلب الحلوى لهن بينما اكتفى هو بطلب فنان من القهوة يشربه بصحبتهن.
قال لهن: أرجو أن تكون الإقامة في فندقنا قد طابت لكن.

قالت ليلى: إنها إقامة ممتعة فعلاً.

قالت هانية: إنه فندق رائع.

قالت مروة: إنه فندق مريح.

قال: أرجو أن يغريكن هذا بتكرار الزيارة.

قالت مروة: أرجو ذلك.

فندق مريح. فندق جذاب. وما على المرء إلا أن ينظر إلى كل أولئك الناس المستسلمين لبريقه. ولقد نجح في كل بلد حلت فيه فروعه الكثيرة. لكنه بني برؤية أجنبية وأموال أجنبية، وهو يتاجر بالبحيرة وتاريخها دون أن يستوحي منها شيئاً. ولقد أهملت المنطقة المحيطة به رغم ما قد يكون فيها من إمكانيات وكان تخلفها شرط لازم لإظهار تقدمه.

قالت مروة بعد حين: كم أتمنى أن يبنى في هذه المنطقة فندق بأموال وكفاءات محلية يعبر عن المنطقة بدلاً من أن يطمس هويتها، ويقدم الراحة والرفاهية بأسلوب مستقل بدلاً من اتباع أسلوب جاهز مستورد. سيكون عندئذ أشبه بنبتة تنمو في بيئتها الطبيعة وتزدهر.

قال الأستاذ لطفي مستغرباً: لكن هذا يحتاج إلى رؤوس أموال ضخمة وخبرة طويلة.

قالت مروة: وماذا عن كل تلك المنشآت والمشاريع التي تقام في العاصمة والمدن الأصغر؟
قال: هذا أمر مختلف.

لم يوضح الأستاذ لطفي الاختلاف الذي يعنيه. أما ليلي وهانية فقد التزمتا الصمت وكأنهما لا توافقان على رأيها، لكن مروة اعتادت ألا تلتقى آراؤها موافقة الكثيرين. بعد قليل قال الأستاذ لطفي: كنت أود تذكركن

بالحفلة التي تقام الليلة في ملهى الفندق فهي قد تزيد من متعة إقامتك. الفرقة الموسيقية ممتازة حقاً.

لم يقلن شيئاً في البداية ثم قالت ليلي: سنرى.
ودعهن الأستاذ لطفي بنفس المودة. فقد كان مصقولاً كفندقه، منمقاً كحديقته. وكانت ابتسامته الوضيئة الدائمة تصارع الظلال التي يلقيها شاربه الكث وعينه الكبيرتان اللتان تماثلان بلونهما شعره الفاحم الذي ظهرت فيه بضع شعرات بيضاء.

عندما وقفت مروة على شاطئ البحيرة مع صديقتها قبل الغروب أحست بهدوئها يتسلل إليها على مهل. كانت البحيرة شاحبة في مثل لون السماء وبعض التلال البعيدة. وكانت مياهها ساكنة لامعة كشأنها في الصباح. شعرت مروة أنها تتحرر من سلطان اليابسة وهي تقترب منها. لكنها تذكرت أن للمياه قوانين صارمة هي الأخرى وأنها ذات سلطان أخذ يفرض نفسه عليها بالتدريج. كانت مروة تنجذب نحو المياه انجذاباً غريزياً مثل كل البشر الذين أغوهم المياه منذ أن وجدت الحياة على الأرض. شعرت أن البحيرة تدعوها إليها كما تدعو أم طفلها إلى أحضانها، فتمنت أن ترتمي في مياهها وتستوعب الشمس التي تكثفت فيها على مدار القرون وتلامس التاريخ الطويل الذي أرهقها حتى استكانت على ذلك النحو. غير أنها كانت تعرف أن تلك البحيرة ليست أمّاً على الإطلاق وأن مياهها قبر للأحياء.

لكن لا يمكن للبحيرة أن تكون ميتة في حقيقة الأمر. لقد استقبلت ضفافها البشر منذ أقدم العصور، فتراكمت فيها طبقات من الحياة تخللت كل

ذرة من ترابها. أيعقل أن تكون تلك الحياة الموغلة في القدم قد اختفت، أم أن آثارها ما تزال ماثلة وإن لم يرها أحد؟ لعل بقايا المدينتين الغارتين ما تزال تضطرب في قاع البحيرة. وربما استطاع المرء سماع أصداؤها البعيدة إذا أحسن الإصغاء.

قالت ليلي: لن نستطيع السباحة فيها بالطبع.

قالت مروة: بالطبع.

قالت هانية: سأرسمها من الذاكرة عندما أعود.

مشين على شاطئ البحيرة وسط جمع متضائل من الناس، وتخيلت مروة ان البحيرة تتمدد باتجاههن وتحاصرهن فتحجب الضفاف عن نظرهن. كانت مياهها تزداد شحوباً قبل أن يبدأ الغسق في خطّ أول سطورهِ عليها. وبدأت الصخور الشاهقة أقرب إليهن من أي وقت مضى فقالت مروة لهانية: أرجو ألا تنسي رسم تلك الصخور.

قالت هانية: لن أنسى فهي ذات أثر بالغ في النفس.

قالت ليلي: إنها صخور غريبة.

قالت هانية: إنها مخيفة.

قالت مروة: ماذا ترين فيها؟

قالت هانية: إنها تبدو لي مثل إله يوشك أن يصب جام غضبه على البشر. إن أصدااء التاريخ تتردد في تلك الضفاف الجرداء، ولعل أرواحاً من الماضي السحيق تهيم فيها ليل نهار دون أن يحس بها أحد. أو لعلها مأوى لمخلوقات غريبة لا وصف لها كتلك التي قرأت عنها مروة في القصص وهي

صغيرة. كانت تلك الضفاف تثير الخيال بأسرارها، كانت مأهولة وإن كانت مهجورة. ومن الحكمة أن تُترك وشأنها لتظل مسرحاً للماضي وهو ثروتها. فالأماكن التاريخية ترفض كل تدخل قد يغير من طبيعتها. والبحيرة بحاجة إلى هذه الضفاف الجرداء لكي تظهر وتتألق. أما تلك الصخور الشاهقة فلا حد لغموضها، بل هي مثل قوة عاتية تلغي إرادة الإنسان.

كان الفندق شعلة من الأضواء عندما عادت مروة وصديقتها من شاطئ البحيرة، وكان يعجّ بمزيد من النزلاء والزوار. جلسن في الشرفة ريثما يحين موعد العشاء. من بعيد بدت البحيرة مظلمة إلا من أضواء قليلة لا تغني شيئاً. تخيلت مروة أن ذلك الظلام محيط شاسع، وأن الفندق سفينة ضخمة تكاد تغرق في لجته اللامتناهية رغم كل أضوائها. وكم عجبت حين تذكرت أن ذلك الظلام الحالك كان يكمن خلف الضوء الباهر طيلة النهار وكأنه يتربص به.

لم تر مروة مثل ذلك الظلام من قبل فقد عاشت في المدن الكبيرة في وطنها الأصلي وخارجه طيلة حياتها. كان ظلاماً تراكمت طبقاته الكثيفة حتى تمكنت من الأرض والفضاء. بدا مغرقاً في القدم هو الآخر، متآلفاً مع روح المكان. بل بدا بدايئاً كما كان في بدء الخليقة. كان ذلك الظلام المخيم على البحيرة وما حولها جميلاً في وفرة واطراده وكأنه ينبوع زاخر متدفق. ولقد اتهم القفر بعقمه وفقره فأخفاه عن الانظار. وفي طياته دُفن كنز من السكينة يغذي الجسم والروح معاً. تمت مروة أن تتدثر بظلام البحيرة، لكنها في واقع

الأمر لا تستطيع حتى النظر إليه إلا إذا استعانت بالضوء الذي يطله ويلغيه، فهو مجهول بالضرورة. إنه قوة طبيعية هائلة مثل الصخور، وهو مثلها يوحى بقوى غيبية لا قبل للإنسان بها. كان الظلام في تلك الليلة يشدّ مروءة إليه بجبروته وغموضه كما قد يشدّ غيرها من أبناء المدن المضيئة. لكنها ما كانت لتجرؤ على الاقتراب منه حتى لو وجدت إلى ذلك سبيلاً. فهو مخيف بقدر ما هو مثير للخيال، ولا يعرف أحد ماذا يكمن في ثناياه. لا شك أنه مرتع للحيوانات الضارية وربما للأشباح. بل إن مروءة كانت تشعر بالخوف حتى من رقع الظلام القريبة التي تتخلل أضواء الحديقة.

لم تفلح الأضواء في استنزاف الظلام منذ أن راحت تغزو المنطقة، فهل يطول بقاءه يا ترى؟ ليس بمقدور الإنسان الإبقاء على ذلك المورد الطبيعي في زمن يتطلع فيه إلى تحسين حظه من الحياة، فذلك الظلام هو ابن هذه الببداء وبها يرتبط مصيره، ولا شك أنه سينهزم أمام الضوء إذا أراد الإنسان أن ينال نصيبه من الرخاء. فماذا سيكون من أمر البحيرة وضافها عندئذ؟ هل تنجو من غزو الضوء أم تظلّ معقلاً للظلام؟

قالت ليلي لمروءة بعد أن رأتها تتأمل ما حولها طويلاً: أنت لم تتعودي رؤية كل هذا الظلام.

قالت مروءة: هو ظلام جميل رغم أنه مخيف.

قالت ليلي: لكن باريس مدينة النور كما يقولون.

قالت مروءة: إني لم أر في حياتي نوراً كالذي رأيته اليوم. والإنسان يحتاج إلى الظلام كما يحتاج إلى النور.

قالت هانية: أما نور الثقافة في باريس فلا يعدله نور. وأنا لا أنسى زيارتي لمتحف اللوفر وغيره من المتاحف.

قالت ليلي: وأنا لا أنسى متاجر باريس وخضرتها وجمالها الطبيعي. سُرّت مروءة بالعودة إلى عالم الفندق المألوف بعد أن طالعتها الظلام بأوجهه المختلفة المحيرة. قررت أن تستسلم لكسل عقلي لم تألفه وأن تنغمس في ما حولها بدلاً من التأمل والملاحظة: الردهة الأنيقة، الأضواء البراقة، الألوان المتراحة، اللوحات الفنية، الأصوات الكثيرة، الناس الذين يغصّ بهم المكان، والموسيقى التي تنساب في الردهة كأنما لتخفف عن النزلاء عناء يوم قضوه في الراحة والاستجمام. كان الفندق يوفر لها أكبر قدر من الراحة. كان يقربها من الظلام الساحر الذي ما كان لها أن تراه لولاه، ثم يتزعمها منه ويحميها. كان الفندق يفصلها عن البحيرة ثم يهيئ لها الوسائل لرؤيتها. نشاطاته سطحية استهلاكية لكنها من صميم مهمته، ولا شك أنه ضروري لاجتذاب كل أولئك الناس. لقد أدخل بعض العمران على ما حوله لكن المزيد من هذه الفنادق العالمية سيغير من طبيعة المنطقة وقيمها السائدة.

تحدثت الصديقات عن رحلة هانية وليلي الأخيرة إلى باريس وعن رحلتهن القادمة إلى لندن. ثم قالت ليلي: من الغريب أني لم أر هنا شخصاً أعرفه إلا الأستاذ لطفي.

قالت هانية: إنه شخص لطيف حقاً.

قالت مروءة: واللفظ جزء من مقوماته كمدير للفندق.

زرن متجر الفندق فاشترت ليلي مستحضرات تجميل استعملت أملاح البحيرة في صنعها. واشترت هانية صوراً لتستعين بها في رسم المناظر التي شاهدتها في ذلك اليوم. واشترت مروة كتاباً عن تاريخ المنطقة. قالت لنفسها وهي تقلب صفحاته إن هذه المنطقة بعيدة عنها ومجهولة بالنسبة لها، لكنها لا تملك إلا أن تستجيب لما فيها من غرابة وجمال. إن قلبها يهفو إليها وخيالها يحلق بألف جناح وهي تتأملها.

في طريقهن إلى المطعم رأين الأستاذ لطفي يمشي مسرعاً. توقف عندما رآهن فقالت له ليلي: لقد ذكرناك قبل قليل وها نحن نراك أمامنا.

قال بابتسامته المعهودة: وماذا قلتن عني؟

قالت ليلي باسمّة: ماذا تظن؟

تجاهل الأستاذ لطفي سؤالها وقال: وكيف قضيتن عصر اليوم؟

قالت مروة: ذهبنا إلى البحيرة.

قال: وكيف وجدتها؟

قالت مروة: شائقة.

قال: لا شك أن بحيرات أوروبا أجمل منها بكثير.

قالت مروة: المنطقة غريبة أيضاً وخاصة الظلام الذي يلفها تماماً في الليل.

قال الأستاذ لطفي وهو يضحك بصوت عالٍ: الظلام غريب؟ إنه في كل مكان هنا. ولولا هذا الفندق لكانت المنطقة كالقبر.

ثم أضاف وقد هدأت ضحكته: لماذا لا نصدر بعضاً من هذا الظلام إلى باريس؟ لكن بشرط أن تصدروا لنا شارع الشانزليزيه بأصوائه ومتاجره وكل ما فيها من بضائع.

قالت هانية: لكن باريس ترفض الظلام.

لم يتبته الأستاذ لطفي لقول هانية ولم يعلق عليه أحد.

قررت الصديقات أن يسهرن في ملهى الفندق. كانت أغاني الفرقة من اللون الخفيف الشائع الذي يردده الناس كل يوم فاستمتعت بها مروة، لكنها كانت تتمنى سماع أغان عربية يؤديها مغن عربي. فهي تنفذ بألحانها الطليّة المفعمّة بالعاطفة إلى أعماق لا تنفذ إليها أغان أخرى، غير أنها تفضل سماعها وسط جمهور يشاركها معناها فتقوى الروابط بين بني القوم الواحد. قبل أن تأوي مروة إلى سريرها وقفت بنافذة غرفتها المطلّة على الحديقة الخلفية للفندق. بدت لها تلك الحديقة أنيقة كما في النهار لكن أصغر مما رأتها آنذاك، وكانت أضواؤها الهادئة تخفف من الظلام المحيط بالفندق. ومن وراء الحديقة كان القفر يمتد بينما الظلام الحالك يربض فوقه. تذكرت مروة أنها لم تر حراساً للفندق أثناء النهار لكن لا يعقل أن يترك مكان كهذا دون حراسة، فأسواره لا تكفي لصدّ حيوانات ضالة تبحث عن طعام أو حيوانات ضارية تبحث عن فريسة، أو لصوص تغريهم الفخامة، أو قوى أخرى أكبر وأشرس تستعصي على الفهم. عثقت مروة نفسها وهي ترى أنها عادت إلى تذكر حكايات الطفولة وما في بعضها من مخلوقات خارجة عن العالم الطبيعي.

ابتعدت مروة عن النافذة وهي تدرك أن مخاوفها لا مكان لها في فندق حديث مليء بالنزلاء في بلد يقع في وسط العالم. أوت إلى سريرها أخيرًا وهي تتطلع إلى الغد، إلى استقبال الشمس ثانية وزيارة البحيرة مرة أخرى والاستمتاع بصحبة صديقتها يومًا آخر. غفت لكنها ما لبثت أن استيقظت على صوت يشبه النقر على زجاج النافذة. لم تقو على النظر إلى مصدر الصوت لأنها كانت تشعر بنعاس شديد فاستغرقت في النوم ثانية. لكنها استيقظت بعد قليل على صوت النقر وقد علا قليلاً. رفعت رأسها فرأت النافذة سوداء تمامًا بعد أن كان الضوء المنبعث من الحديقة يتخلل ظلامها. ورأت دائرتين كبيرتين مضيئتين كأنهما عينان تحدقان من خلال زجاج النافذة ودائرة أخرى حمراء كأنها فم مفتوح. ثم سمعت فحيحًا يتردد بانتظام كالأنفاس. تحول النقر على النافذة إلى دقّ معبر عن نفاذ الصبر فكادت مروة تفقد صوابها. خبأت وجهها تحت أغطية السرير وقلبها يخفق بشدة حتى ليكاد يتوقف. بعد قليل أزاحت الأغطية قليلاً واسترقت النظر إلى النافذة لعلها تكتشف أن ما رآته كان وهمًا. لكن السواد كان ما يزال يملأ النافذة بينما العينان تقدحان شرًا. تسارع الدقّ على زجاج النافذة فدست مروة رأسها تحت الأغطية ثانية وهي لا تكاد تقوى على التنفس. طال الدقّ ثم سمعت همهمة عالية تحولت إلى زمجرة أعقبتها ضربات متوالية على زجاج النافذة أدت إلى كسره. راح المخلوق يلهث عاليًا وكأنه يجهد في الدخول من النافذة المحطمة. ثم دوت صرخة ثاقبة تلتها ضربات عنيفة على الجدران فراحت الغرفة تهتز وتمايل كأن الأرض زلزلت من تحتها.

هرع النزلاء إلى خارج الفندق وهم يتدافعون ثم وقفوا في الحديقة بينما كانت أجزاء من المبنى تنهار أمام أعينهم فتستحيل ركاباً. نظرت مروة فإذا بليلى وهانية تقفان بجانب رجل يشبه الأستاذ لطفي غير أنه كان يلبس ثوباً مما يلبسه أهل المنطقة ويقف مذهولاً. أما هي فلم تستطع مغادرة الغرفة لأنها كانت عاجزة عن الحركة. انهارت جدران غرفتها ثم سمعت وقع أقدام ثقيلة على أرضها التي بدأت تنهار هي الأخرى بينما السواد الحالك يملأ فضاءها تماماً إلا من العينين المشتعلتين. راح المخلوق يقترب منها خطوة خطوة وهو ينفخ وحرارة شديدة تنبعث منه. أدركت مروة أن نهايتها تقترب دون أن تستطيع الاستنجاد بأحد فصرخت صرخة هائلة فقدت على إثرها الوعي.

صحت مروة وهي ترتجف وتبكي. وجدت نفسها على حافة السرير وقد تبعثرت أغطيته حولها وسقط بعضها على الأرض. لكن الضوء كان يغمر الكون ويغسله من الظلام ويظهره من الشر الذي يتستر بستره. وكانت زرقعة السماء صافية كما في صباح الأمس وكأن شيئاً لم يكن. رأت كم قميص نومها ممزقاً فأدركت أنها كانت تشده وهي تحت وطأة الكابوس. ثم رأت خدوشاً صغيرة دامية في ظاهر يدها حيث انغرزت أظافرها. كان قلبها ما يزال يخفق بشدة فلم تستطع النهوض من السرير. وعندما استعادت بعض هدوئها رأت خدشاً صغيراً على وجنتها وعليه آثار دم خفيفة. تأملت وجهها طويلاً لتأكد أنه لا يشي بما وقع لها أثناء الليل. تمهلّت في استعداداتها الصباحية لتستعيد هدوءها كاملاً، ثم راحت تسائل نفسها: لماذا وقعت ضحية سهلة

لخوفها من الظلام بعد أن رأت وجهه الآخر؟ أما تزال طفلة مذعورة تختبئ تحت سطح المرأة الناضجة؟ لكنها لم تشأ أن تسترسل في أسئلتها تلك بل حمدت الله على انتهاء محبتها.

وصلت مروة إلى المطعم متأخرة فاعتذرت لصديقتها اللتين كانتا تنتظرانها، لكنها لم تخبرهما بتجربتها العصيبة. قالت لها ليلي أثناء تناولهن طعام الفطور إنها وهانية رأتا الأستاذ لطفي وهما في طريقهما إلى المطعم وأنه دعاهن جميعاً إلى جولة في المنطقة بسيارته. كانت مروة تحب أن تتعرف إلى المنطقة وأن ترى معالمها لكنها فضلت الاستسلام للكسل بعد محنة الليلة الماضية. قالت لصديقتها: اذهبا معه إذا شئتما. أما أنا فساكون سعيدة بالجلوس في شرفة الفندق كالأمس.

قالت هانية: بل سنبقى معك فحنن لا يمكن أن نذهب بدونك.

قالت ليلي: إذن سأتصل به بعد الفطور واعتذر له.

كان هناك سبب آخر يدفع مروة لرفض الذهاب في جولة مع الأستاذ لطفي. لقد بدا لها مفتقراً إلى المعرفة الكافية بالمنطقة قليل الاهتمام بها رغم أنه يعيش فيها ويعمل. وربما كان ينظر إليها كمجرد سلعة تجتذب النزلاء إلى فندقه ويستخف بها فيما عدا ذلك. إنها لتفضل أن تشاهدها بصحبة شخص يبصرها بجوانبها المختلفة ويعمّق نظرها إليها.

جلست مروة في مقعدها في شرفة الفندق، وراحت ترتشف القهوة التي وجدت فيها لذة خاصة في ذلك الصباح الذي أعاد إليها الطمأنينة. راحت تمنع النظر في البحيرة كالأمس وكأنها تريد لصورتها أن تنطبع في ذهنها بكل

تفاصيلها لكي تستعيدها كلما أرادت. كانت أشعة الصباح تدفع كل خلية في جسمها كشأنها بالأمس فتمنت لو تختزنها هي الأخرى لتستدفع بها في مهجرها البعيد البارد.

قالت لها ليلي: أراك قد وقعت في غرام البحيرة يا مروة.
قالت مروة وهي تبسم: إن لشحوبها وسكونها ولمعانها أثرًا عميقًا في النفس.

قالت هانية: بعض الناس هنا لا يحبون هذه البحيرة كما تعلمين.
قالت مروة: نعم، لكنني أحاول أن أنظر إليها ككل.
قالت هانية: بعض الناس يرفضون زيارتها.
قالت ليلي: وبعضهم يشيخون بوجوههم عنها إذا اضطروا للاقتراب منها لأنها ملوثة حسب ما تقول الكتب الدينية.
قالت مروة: ما تقوله الكتب الدينية عن البحيرة جزء من معناها دون شك ولا يمكن إغفاله. لكن التلوث بكل أنواعه ودرجاته مظهر من مظاهر الحياة. فالحياة نفسها مغروسة في الطين. كل المدن ملوثة بأكثر من طريقة، ولا شك أن هذا الفندق الجميل ملوث بدوره. لقد غسلت البحيرة آثام البشر فوصمت بها، لكنها آثام البشر لا آثام الطبيعة.

قالت ليلي: لا يمكن النظر إلى التلوث على أنه شيء يمكن قبوله.
قالت مروة: طبعًا، فمن واجب الإنسان أن يسعى دائمًا إلى النقاء رغم الصراع الأبدي بينه وبين التلوث. النقاء مثل أعلى كما يعرف العقلاء ولا يمكن للحياة الكريمة أن تستقيم بدونه.

بدأت الصديقات الثلاث في ذلك الصباح وكأن كلاً منهن تريد أن تقضي الوقت بطريقتها الخاصة. فقد أخرجت هانية الصور التي اشترتها ليلة أمس وراحت تتفحصها وتقارنها بالمنظر أمامها وتدوّن بعض الملاحظات. وأخرجت ليلي المستحضرات التي اشترتها وأخذت تقرأ التعليمات المكتوبة عليها. شعرت مروة برغبة في تصفح كتابها لكنها كانت تفضل أن تخلد إلى الكسل في يومها الأخير هناك. قالت ليلي بعد مدة: ألا تريدان السباحة في بركة الفندق؟

قالت هانية وهي ما تزال تنظر إلى الصور: بلى، لكن قبيل الغداء. وافقتها مروة وعادت تنظر إلى البحيرة. بعد قليل اقترب رجل عجوز من منضدتهن مستأذناً في أخذ الكرسي الرابع. شكرهن وذهب فانضم إلى مجموعة من الرجال في مثل سنه كانوا يجلسون خلفهن ويتحدثون بالإنجليزية.

قالت مروة لهانية: أتمنى أن أرى اللوحة التي سترسمينها للبحيرة.

قالت هانية: سترينها إن شاء الله.

قالت مروة: لا أدري كيف سترسمين الظلام الذي رأيناه ليلة أمس.

قالت هانية: لا بد لكل رسام أن يجد طريقة للتعبير عما يريد.

بعد ساعة من الزمن أعاد الرجل العجوز الكرسي وهو يشكرهن ثانية.

وقع نظره على صور هانية الموضوعة على المنضدة فقال: صور جميلة.

قالت هانية: نعم.

قال: وطقس رائع.

قالت هانية: دون شك.

قال: ليتنا نعم بشيء من هذا الدفء في إنجلترا.

ابتسمن فمضى يقول: لقد التقطت صوراً عديدة للبحيرة ووضفاتها لأعرضها على أصدقائي في النادي عندما أعود. لكنها لا تكاد تفي المنطقة حقها.

استمر الحديث بينهم فائراً، متقطعاً، مهذباً كشأن الحديث الذي يتبادلونه الغرباء وهم يتطلعون إلى نهايته.

عاد الرجل العجوز يقول: أرجو أن تظل هذه المنطقة على ما هي عليه الآن.

فقالت مروة: لكنها بحاجة ماسة إلى التنمية.

قال: لا شك أن بناء فنادق ممتازة كهذا سيساعد على تنميتها.

قالت مروة: لكن التنمية يجب أن تقوم على الإنتاج أيضاً لا على مجرد تقديم الخدمات. يجب أن تقوم على الزراعة بشكل أساسي في مثل هذه المنطقة. وهناك الصناعة التي يمكن أن تعتمد على الثروة المعدنية في البحيرة. وربما كان في المنطقة ثروات أخرى تهزأ بما نعرف.

قال الرجل: لكن هذا قد يغير المنطقة. إن الأماكن التي ظلت على طبيعتها قليلة في العالم ومن الخطأ التفریط فيها لأنها قد تدرّ ثروة هائلة على أهلها. انظرن إلى كل هؤلاء السياح. لقد جاء معظمهم من بلاد مزدحمة بما بناه البشر واخترعوه واستتبوه وهم يحنون إلى الفراغ. والأهم من ذلك كله أن التنمية قد تؤثر على البحيرة نفسها.

قالت مروة: لا بد من تحقيق توازن دقيق بين الطبيعة والتنمية.
قال الرجل: أتمنى ذلك. لكن هناك خطرًا آخر يهدد البحيرة وهو أن
منسوب مياهها آخذ في الانخفاض كما يقول الخبراء. وقد يأتي يوم تجفّ فيه
تمامًا.

قالت مروة: أرجو ألا يأتي ذلك اليوم أبدًا.
قال الرجل: والبحيرة تتوسط منطقة مضطربة أيضًا، وهذا خطر آخر.
قالت ليلي: لست أرى أي اضطراب حولنا في هذه اللحظة.
قال: هذا صحيح، لكن لا يمكن نسيان الصراع الدائر على مقربة منذ
عقود.

قالت هانية: إننا نحاول أن نتناساه لكي نستمتع بيومنا هذا.
قال: ألا تخشين أي أخطار أخرى؟
قالت مروة: الأخطار في كل مكان، فالكوارث الطبيعية قد تدهم أي
منطقة في العالم. ولا تنس الأخطار التي تواجه البلدان المتقدمة بسبب التقدم
نفسه.

قال الرجل: هذا صحيح.
سألت هانية: هل هذه أول زيارة لك للبحيرة؟
قال الرجل: لا. لقد جئت مرات عديدة من قبل.
عادت هانية تسأله: وهل أنت معجب بها إلى هذا الحد؟
قال الرجل: إني مغرم بها وبالطبيعة الساحرة حولها. والبحيرة تعني
التاريخ والمعتقدات الدينية أيضًا. ماذا تعني البحيرة بالنسبة لك؟

قالت مروة: البحيرة هي مجموعة من المفارقات بالنسبة لي: جمال الطبيعة وقصور البشر، الفراغ الظاهر والامتلاء الخفي، الجذب السطحي والغنى الكامن، الهدوء والاضطراب، الدوام والهشاشة، الماضي والمستقبل، النور الذي يغمرها في النهار والظلام الذي يتلعتها في الليل. لا أملك إلا أن أنظر إلى كل هذه الجوانب معاً لأن الأشياء ذات أبعاد متعددة، ومعناها يعتمد على ما تدركه الحواس ويعرفه العقل ويوحيه الخيال وتحتفظ به الذاكرة.

قال الرجل: البحيرة ذات جوانب متعددة حقاً، وهي تجتذب الناس من كل مكان.

قالت مروة: لكني أتمنى ألا يكون الإقبال عليها سبباً في تغييرها.
قال الرجل: وأنا أتمنى ألا تتغير البحيرة لأي سبب من الأسباب.

كانت السباحة في بركة الفندق ضرورية بعد أن قضين يومين تقريباً دون حركة تذكر. تركت مروة المياه تنسيها كل القضايا التي أثارها حديث الرجل. إن الصحافة تأبى عليها إلا أن تشغل بمختلف القضايا العامة وتحمس لها، وقد علمتها التحدي والتصدي لكنها ساعدتها أيضاً على تقبل الخلاف والاختلاف. نزلت مروة إلى شاطئ البحيرة قبل أن تصعد إلى غرفتها لتحزم حقيبتها فوجدتها كعهدها بها: ساكنة وادعة، لو أنها فاتح رقيق وصفحتها تتألاً مثل ماسة ثمينة. ساءلت نفسها: كيف تكون البحيرة مَيِّتة وهي على هذا القدر من الجمال؟ كيف تكون مَيِّتة وهي تختزن ثروات يمكن أن تنهض بالحياة؟

والبحيرة إلى ذلك راسخة مثل تلك الصخور، وأكثر دوامًا من كل البشر الذين تعاقبوا عليها فإليت زوراها يستلهمون منها بعض هدوئها وصمودها الأبديين.

انتزعت مروءة نفسها من شاطئ البحيرة وذهبت إلى غرفتها فشعرت بشيء من الخوف لدى دخولها. كان الضوء قد انحسر عن الغرفة التي بدأت تنهياً لاستقبال ما تبقى من النهار. ليت ذلك الكابوس لم يفسد عليها ليلتها في هذه الغرفة الأنيقة المريحة. هل يأتي ذلك المخلوق ثانية فيرعب النزير الجديد يا ترى؟ وكم أربع من النزلاء في الماضي؟ شعرت مروءة بارتياح عميق لأنها ستنجو منه الليلة. ثم تذكرت أن ما رآته لم يكن إلا كابوساً ساهم خيالها في صنعه إلى حد كبير. راحت تفكر في ما حدث لتخفف من وطأته عليها. إنها لا تستغرب أن تتجسد مخاوف الإنسان على نحو مرئي للبعض وخاصة في الأحلام والكوابيس فهناك قوى كثيرة لا قبل للإنسان بمواجهتها، وهي بالضرورة تثير مخاوفه التي يعيها وتلك التي لا يعيها. أولها القوى الدينية والأخلاقية التي تعاقب الإنسان على شروعه وتكيل له الضربات العشوائية من حين إلى حين. وهناك الشر الإنساني الذي يدفع إلى الفساد والظلم والعنف. وهناك القوى الطبيعية القاهرة التي تثور من وقت لآخر فتسبب الكوارث المختلفة. وهناك الحيوانات المفترسة التي تدفعها الغريزة العمياء. وهناك القوى الاجتماعية التي تشد الإنسان إلى الخلف وتعرقل جهوده. والوحش الذي رآته في الكابوس ما هو إلا تجسيد لإحدى هذه

القوى أو بعضها أو كلها، وتعبير صارخ عن خوفها منها. وهذا أمر طبيعي في منطقة نائية نسبياً تثير الخيال بقدمها وغموضها وأسرارها.

عندما مرّت مروة بردهة الفندق قبل أن تغادره استوقفتها إحدى اللوحات المعلقة على الحائط وفيها تظهر البحيرة وقد بدت المفارقة واضحة بين سطحها الذي يشع ضوءاً وبين الضفاف الداكنة التي تشبه مخلفات قديمة مستهلكة. كانت الصخور الشاهقة تحتل مكاناً بارزاً من الجانب الأيسر من اللوحة وكأنها هي موضوعها الرئيسي. كانت داكنة هي الأخرى لكنها لم تبد كجزء من الأرض المحيطة بها، بل كوحش كاسر تجمد على هيئة الصخر محتفظاً بطبيعته الوحشية ومتحفزاً للهجوم. رأت مروة في الطريقة التي رسمت بها تلك الصخور تعبيراً قوياً عن العنف والغضب. أخبرت هانية بأمر اللوحة فقالت هانية إن الرسامة الأجنبية أجادت رسم تلك الصخور فأبرزت جانباً أساسياً من معنى البحيرة.

كان الأستاذ لطفي في وداعهن قبيل الغروب وهو يلبس ربطة عنق لا تقل زهاء وأناقة عن ربطة الامس. أعرب عن أمله في أن يراهن في فندقه مرة أخرى في المستقبل فشكرته مروة على حفاوته وامتدحت فندقه فقال لها بتهذيبه المعهود: إني أغبطك على الحياة في باريس وأتمنى لك السعادة الدائمة فيها. إنها مثال المدينة الحديثة في نظري.

لا شك أن الأستاذ لطفي مدير ناجح أضاف الكثير إلى راحتهم بمودته وحفاوته، وهاتان فضيلتان لا تنكران. لفت نظر مروة مزاجه الرائق وابتسامته الدائمة وردود فعله البسيطة التي لا يصعب التنبؤ بها. شعرت وهي تودعه أنها

عرفت عنه في هذين اليومين كل ما يمكن أن يعرف وأنها لا تتوقع لشيء فيه أن يفاجئها بجدته أو عمقه أو حيويته. فسطحه اللامع الذي تعهده طويلاً قد لا يخفي سوى طبقات راکدة مثل فندقه. لقد قطع شوطاً بعيداً في مسيرته نحو الرخاء المادي مثله في ذلك مثل كثيرين غيره، ولا شك أنه سيمضي في تلك المسيرة قدماً.

أما مروة فقد غادرت الفندق مع صديقتها وهي تنوي أن تعود إلى البحيرة في المستقبل القريب لتستوعب المزيد من جمالها وسكنتها ولتأمل وجوها المتعددة وتنفذ إلى معانيها.

زهرة حمراء

في أواخر الشتاء انتقلت الأسرة إلى البيت الجديد الذي بُني في أعلى الجبل. كان بيتاً كبيراً مؤلفاً من غرف نوم عديدة، وقاعة استقبال، وأخرى للطعام، وغرفة جلوس واسعة، ومطبخ فسيح، وحديقة شاسعة. وكان أكثر أثاثه جديداً أيضاً. لم يُخَفِ أحد من أفراد الأسرة فرحته الشديدة بالبيت الجديد. شعروا أنه بداية جديدة لهم بعد ذلك البيت الصغير. لكن أكثرهم فرحاً كان فريدة لأن فيه غرفة مخصصة لها. أثاثها جديد تماماً ولها شرفة كبيرة عالية ستسلفها يوماً نباتاتها المفضلة، ومن تحتها ممر في الحديقة زرع فيه صف من الشجيرات. كانت تعتبر الشرفة ملكها الخاص لكنها لم تستطع الجلوس فيها عند انتقالهم بسبب البرد. وكان عليها الانتظار.

كان ذلك الشتاء بارداً ماطراً نزل فيه الثلج عدة مرات. لكن البرد استمر بعد انتقالهم وكأنه لن ينتهي أبداً. ولم تفلح وسائل التدفئة المستعملة في البيت في التخفيف منه بقدر كافٍ. كثيراً ما كانت فريدة ترتجف وهي تدرس في غرفتها، بل إنها كانت تخاف أن تنتقل من مكان لآخر في خشية البرد. كان البيت الجديد بحاجة إلى كثير من التنظيم أيضاً، فالفوضى التي صاحبت الانتقال إليه قلبت حياتهم اليومية رأساً على

عقب. وكثيراً ما شاركت فريدة في عملية التنظيم وهي تحلم باليوم الذي تستقر فيه أمور البيت الجديد لتستمتع به حق الاستمتاع!

أما الحديقة فالريح كانت تصفر فيها والغيوم القاتمة تلبّد سماءها. كانت الحديقة قد زُرعت أجزاء منها قبل انتقالهم إلى البيت الجديد ببضعة أسابيع، لكنها كانت ما تزال عارية في أواخر الشتاء. غير أن خيوطاً لالون لها من النبات بدأت تمتد فوق الجزء الأسفل من سورها على حين غرة، وبدأت لمحات هزيلة متفرقة من الخضرة دون أن ترتفع عن مستوى الأرض. خضرة هشة تبعث على الأسى بدلاً من الفرح، حياة جديدة يخشى عليها من اللمس كما يخشى على وليد. بل إن المرء يخاف أن ينظر إليها لئلا تتمزق أو تفتت من مجرد النظر. كان لا بد من انتظار الربيع لكي تستقر أمور البيت والحديقة.

بدأ الربيع أخيراً لكنه كان بارداً هو الآخر. ظلت الغيوم تتراكم في سماء الحديقة فتبدو مثل إكليل أبيض فوقها، وظل البيت بارداً بدوره. لكن الحياة بدأت تدب في الحديقة بالتدريج. تماسكت النباتات شيئاً فشيئاً كأنها قد اعتزمت أمراً. بدأت تنمو وتزداد عدداً، ثم جاء وقت زحفت فيه إلى أماكن جديدة من الحديقة. أخيراً تفتحت زهور صغيرة تخشى أن تلمسها هي الأخرى. كان البنفسج أول ما ظهر في الحديقة منها؛ كومة من الزهور مرسومة بدقة تتكى على أوراقها العريضة المخضلة ببقايا المطر، متقاربة كأنها تحتمي ببعضها البعض بينما عيونها الصفراء تبارق في قلب العتمة البنفسجية، متواضعة لا تكاد ترتفع عن مواطئ الأقدام، خجولة لا

تفصح عن مواطن جمالها لكنها تتحدى البرد والبلل كأى رسول مقدم يعلن مولد الربيع. انحنت فريدة فوقها فتناهى إليها عبيرها الذي لا يقل عنها رقة ودقة، وراحت تنشق بهلفة حتى لا يفوتها من سحره الخبيء شيء.

تفتحت زهور أخرى معلنة عن جمالها بثقة أكبر. ظهرت البانسيه قرب السور. حفنة منها لا أكثر، شبه وحيدة في الحديقة الخلفية المترامية غير أنها ما لبثت أن تكاثرت وامتد صفها. ألوانها مألوفة، وأشكالها تشبه وجوهاً غريبة الملامح تتطلع إلى العالم بشوق. ثم بدأت زهور السويت بيز تتسلق السور العالي ببطء وعناد فوق سيقانها الواهية مثل طفل يتعلم الحركة ويصمم على إتقانها، وحتى ألوانها الرائقة كانت تذكر بالأطفال. عجبت فريدة لاسمها الأجنبي وتوقفت عند اسم البانسيه الذي بعث فيها شيئاً من الأسى لما يوحى به من الفراق والتغير. جاء دور النرجس، مشرق هو الآخر لكنه أكثر متانة بأوراقه ذات الطبقات المتعددة. ما إن اقتربت فريدة من تلك الزهور التي لا ترتفع عن الأرض إلا قليلاً حتى هاجمها عبيرها وحملها إلى عالم السحر، إلى قوس قزح، إلى سماء يتناثر فيها سحاب ملون، وطافت بخيالها صور بعيدة مبهمة، وهزتها مشاعر لا تعرف لها اسماً. لم يكن للبانسيه والسويت بيز عبير يذكر لكن ذلك لم ينقص من جمالهما شيئاً. أما النرجس فقد تركز سحره في ذلك العبير النفاذ الذي يوحى بألف معنى. كانت فريدة ترتجف من البرد أثناء جولتها في الحديقة ذلك اليوم رغم ملابسها الثقيلة، وزادت الرطوبة التي تشبع بها

الهواء بعد كل ذلك المطر من شعورها بالبرد. لكنها رأت الزهور تمضي إلى غايتها من النمو والازدهار دون أن تبالي بالبرد أو يعيقها عائق. عندما اقتربت من المطبخ رأت صفوفًا منتظمة من نبات الفول الأخضر يعلوها نوارها الشاحب المبشر بقرب نضج حبّاته. لقد أصرت الوالدة على زرع الفول الأخضر في حديقة المطبخ فوافقها الجميع لأنها كانت من الخضار المفضلة لدى الأسرة.

مع ازدياد الدفء بدأت فريدة تشعر بمزيد من الاطمئنان في وسطها الجديد وكأنها نبتة من نباتات الحديقة. ازداد البيت نظامًا وبدأت الحياة اليومية تعود إلى سابق عهدها من الاستقرار. تكررت جولات فريدة في الحديقة فرأت صفوفًا طويلة من الأشجار قد زرعت عند أطرافها، ومن بينها أشجار الحور التي كانت أوراقها العليا ترتجف وتلتمع فتبدو رمادية أو بيضاء تقريبًا. ورأت أشجار فاكهة وُزعت في أرجائها بنظام دقيق. ارتفع كثير من النباتات عن مستوى الأرض بشكل ملحوظ، وبعد أن كانت فريدة ترثي لضعفها أصبحت تعجب لعزمها وتصميمها. بعد التجوال بين الزهور والنباتات كانت فريدة تجلس على حافة بركة الماء في الجزء الأوسط من الحديقة الخلفية، وتتخيّل الكرمة التي ستسلق العريش المقام فوقها. في الصيف المقبل ستدلى منها عناقيد لا حصر لها! ناهيك عن الثمار التي ستقطف من أشجار الفاكهة الأخرى! أما الساحة المرصوفة بالبلاط حول البركة فهي تتسع لعشرات الناس وتصلح لكل الحفلات!

في العصر كانت فريدة تتسلل إلى شرفتها لتخلو بنفسها كما تشاء. كانت تجلس على مقعدها المريح وتستسلم لأشعة الشمس التي بدأت تنسيها برد الشتاء وأوائل الربيع. وبعد أن تكتفي من ذلك الدفء الوليد تبدأ بمراجعة دروسها ثم تنتقل إلى قراءة الكتب التي تفتحت عليها عيناها أول مرة في البيت الصغير. كانت الشرفة عالمها الخاص الذي لا يتسرب إليه صوت من البيت أو الحديقة، وها هي الآن تجلس فيها وتطيل الجلوس كما كانت تحلم في ذلك البيت. لكن فريدة كانت وحيدة في ذلك الربيع؛ فالبيت الجديد بعيد عن الحي القديم وعمن عرفتهم فيه، وقد لا يتاح لصديقاتها زيارتها قريباً. ليس لهم جيران بعد في أعلى الجبل، وهي لا تعرف أحداً في المدرسة الجديدة معرفة كافية حتى الآن. كانت أحياناً تصطحب أخويها الصغيرين في جولاتها في الحديقة ليستمتعاً مثلها بجمالها، لكنها كانت في معظم الأحيان تهيم فيها وحدها إلا من صحبة معجمها المصوّر الذي يدرج أسماء النباتات ويبيّن صفاتها. لا شك أنها ستعتاد هذه الوحدة بمرور الوقت، أما الآن فعليها أن تكتفي بصحبة الزهور والكتب وسماع أغانيها المفضلة.

قبل أن يشتد حر الصيف دعيت الجدة وبعض الأقرباء لمشاهدة البيت الجديد والحديقة لأول مرة. توقفت الجدة عند بوابة الحديقة الأمامية وهي تنظر بإعجاب إلى العريش المقام فوق مدخلها العريض وإلى الزهرة النادرة التي ستبدأ في تسلقه عما قريب. تأثرت الجدة لرؤية أصيص الفل على الدرج المفضي إلى باب البيت وكأنه صديق قديم. قطفت لها

فريدة زهرة فل فتشقت الجدة عبيرها وهي تغمض عينيها كمن يحمل إلى مكان وزمان بعيدين. جلسوا جميعاً حول بركة الماء في الحديقة الخلفية التي كان بعض أجزائها ما يزال ينتظر انبثاق الزهور من تحت تربتها الداكنة المتحفزة، لكن الخضرة كانت تجهد في التوسع في أجزاء أخرى منها. ارتفعت أشجار الفاكهة قليلاً واستقامت لكنها ظلت نحيلة، أغصانها قليلة متباعدة وأوراقها متفرقة. شجيرات الياسمين ازدادت نضارة بينما هي تتهياً لاستقبال نجومها الصغيرة البيضاء، وبجوارها شجيرات اللبلاب التي بدأت تعانق السور. تفتحت زهور متفرقة في الأحواض ومن بينها الأضاليا التي أضفت على الحديقة مزيداً من الحيوية بصفرتها الدافئة، وكذلك فعلت شجيرات الياسمين الأصفر. اهتمت الجدة اهتماماً خاصاً بشجيرات الورد المحملة ببقايا ما جادت به في أواخر الربيع وتنبأت لها بمستقبل باهر. أخيراً طلبت الجدة من فريدة أن تغني لها أغنية قديمة مما عرفته في صباها ومما تناقلته الأجيال، وبدت الجدة سعيدة وهي تستمع لتلك الأغنية التي تتحدث عن فتاة غضة تنتظر فارساً لا يلبث أن يأتي.

في أوائل الصيف التالي بدأت الزهور تكتسح الحديقة. ظهرت منها أصناف وألوان لا تعد بين عشية وضحاها وكأن الأرض انشقت عنها: زهور في أحواض دائرية، زهور في أحواض مستطيلة، زهور فوق سيقانها الطويلة المستقيمة، زهور تصطف جنباً إلى جنب، زهور تسلق السور

بقاماتها الفارعة الدقيقة، زهور تختبئ في الزوايا أو تجثم فوق أوراقها اللامعة أو تجثو على التراب. لم ينقض عجب فريدة لتنوع تلك الزهور ولسحرها الذي يوحد بينها. كانت قد رأت الكثير من الزهور في حديقة جدتها وتعلمت أسماءها، لكنها الآن أمام أصناف جديدة تمامًا، ولقد جاء بها البستاني بعد بحث طويل لتكتمل بها الحديقة بناء على تعليمات الوالد، وكان لكثير منها أسماء أجنبية مثل البيتونيا والبيجونيا والإستر وغيرها.

وبعد أن كانت الزهور في العام السابق تستमित في سبيل بقائها، أصبحت الآن تجهد في إبراز ما أودع فيها من جمال دون أن تحجب منه شيئًا. فالجلاديولا تستعرض أوراقها الحريرية الزاهية التي تشبه أثواب النساء الباذخة؛ الزنبق يبدو في حوضه الكبير مثل طيور أسطورية توشك أن ترفرف بأجنحتها الملونة استعدادًا للتحليق؛ التيوليب يرصّ قناديله المضئية كمن يتهيأ لاحتفال، الزنبق الأبيض يتألق فيذكر بالغيم والضباب والعوالم السماوية، السوسن الأزرق يعمق لونه وتلمع أوراقه، السوسنة المسماة بالسوداء تزداد غموضًا وسحرًا وسط كل تلك الزهور الملونة. كثيرًا ما تخيلت فريدة أن الزهور لها صفات ومشاعر كبني الإنسان. فالسوسن الأزرق مثلاً صامت مفكر على عكس الجلاديولا الضاحكة الواثقة، والسوسنة السوداء تشعر بالاغتراب ولا تأتلف مع بقية الزهور، والزنبق الأبيض بريء كالأطفال، أما الياسمين فلا حد لكرمه. أزهاره تكاد تغطي على خضرته، وهي لا تضن بنفسها على الأرض تحتها. لعل رائحة الياسمين من أول الروائح التي عرفتتها فريدة في حياتها لكنها لم

تفقد جدتها في نظرها يوماً. كانت رائحته توحى لها بفردوس تلمحه من بعيد لثوان معدودة، بل إنها كثيراً ما شعرت أن تلك الرائحة الغنية ترويهها أو تغذيها.

كان كل ما في الحديقة ناضراً مشرقاً في بداية ذلك الصيف وكأنه بداية الخليقة. خيل لفريدة أن تربة الحديقة لم تنبت شيئاً من قبل حتى جاء هذا الصيف فرأت أن تُخرج فيه كنوزها المخبوءة عبر العصور. وهذا الهواء العذب الذي تنتشقه في أعلى الجبل فينعشها كما ينعش الزهور ويشحذ حبها للحياة، لعل أحداً لم ينتشقه من قبل أيضاً. وربما كانت فريدة أول من يقف في تلك البقعة من الأرض. لكن البرد ظل يسري في الحديقة صباحاً ومساءً. كان برداً حاداً كأنه نصل يشق الهواء ويكاد يحدث صوتاً كالصليل في رأي فريدة. لكنه كان يتبدد في الضحى وينسى حتى المساء. مع تقدم الصيف زهت الزهور وتوهجت في أشعة الشمس التي كانت تنسكب فوقها انسكاباً مثل خيوط من الذهب الخالص. كم عجبت فريدة لإهابها الرقيق الذي يبدو وكأنه نسج من الأثير أو أشعة الشمس أو أجنحة الفراش الذي يراقص حولها. وكم ساءلت نفسها: كيف تضم الزهور هذا الفيض من الجمال؟ كيف يقوى كيائها على ضبط هذه الحياة المتدفقة فيها وعلى كبح هذا العنفوان؟ قضت فريدة أوقاتاً طويلة في الحديقة ذلك الصيف. كانت تتوقف عند كل زهرة لتستوعب جمالها وكأنها تستنشقه مثل هذا الهواء المعطر ثم تنتقل منها إلى أخرى. كانت تشعر بالتعب أحياناً وهي تتأمل الزهور وتشم عبيرها وتحاول أن تحيط بمعجزاتها. بل

إن ذلك الجمال المتناهي كان يبكيها أحياناً. ليتها زهرة من هذه الزهور! ليتها تنضم إليها وتقاسمها حظها من هذه الحياة الغنية! في منتصف الصيف أصبحت السماء في مثل لون الفيروز. تدفق الماء من نافورة البركة ولمع البلاط المحيط بها وتلألأ الحصى الأبيض الناصع الذي فُرشت به الممرات بين أحواض الزهور التي لم يعد فيها بقعة خالية. فاحت في الحديقة عطور سماوية وامتزجت، تماوجت الألوان، فتحت الحديقة ذراعيها لاستقبال المزيد من العصافير والفراش والنحل، واستضافت العديد من القطط ذات الألوان المختلفة. ركض الأخوان الصغيران في الحديقة وتسابقا وطاردا القطط فترددت أصدااء ضحكاتها في أرجائها. كانت أشجار الحور قد ارتفعت هاماتها في الفضاء وازدادت أوراقها كثافة، فبدأت تسدل حول الحديقة ما يشبه ستاراً مخملياً يحتضنها. بلغت الحديقة في تلك الأيام أوج جمالها حتى لم يعد لها من ذلك مزيد. بل إنها بدت في بعض الأحيان وكأنها تحشد قواها لحدث هام. خيل لفريدة إذ ذاك أن الحياة نفسها تحتفل بهذه الحديقة الجديدة، وتساءلت: أهذه هي الجنة يا ترى؟

في منتصف الصيف أيضاً ظهرت الزهرة الحمراء. نبتت في الحديقة الخلفية على عودها الغليظ الشائك بين يوم وليلة دون أن يلحظها أحد. كانت زهرة غريبة لم تجد لها فريدة في معجمها المصور اسماً ولا رسماً. هل هي وردة؟ إنها تشبه الوردة لكنها ليست وردة بحال من الأحوال، فحمرتها القانية تختلف عن كل ما رأت من قبل، حمرة عميقة تكاد تقطر

دماً على الحصى الأبيض. كما أن شكلها يختلف عن كل ما رأت من الزهور. فالجزء الأوسط منها يشبه وجهًا غاضبًا محتقناً. لم يكن نسيج تلك الزهرة الحمراء أقل غرابة. فأوراقها سميقة خشنة مغضنة كالجلد أو اللحم ولا صلة لها بتلك المادة الأثرية التي نسجت منها بقية الزهور. بل خيل لفريدة في إحدى اللحظات أن تلك الزهرة الحمراء تنبض. من أدراها فهي قد تتحرك يوماً من تلقاء نفسها! ثم خيل إليها أن ذلك الوجه الغاضب يزداد احتقناً يوماً بعد يوم وأن حمرة تزداد كثافة. بدت الزهرة الحمراء لفريدة وكأنها تتفجر بحياة عنيفة يصعب كبها على النقيض من الزهور الأخرى التي تزخر بطاقة مألوفة طيعة. ما أشبه تلك الزهرة الحمراء بوحش وليد! إنها لتبعث الرعدة في الأوصال.

من زرع تلك الزهرة يا ترى؟ أيعقل أن يكون قد زرعها أحد؟ لا يمكن أن تكون زهرة كهذه قد زرعها أحد. لعل بذورًا موغلة في القدم أنبتتها في هذه الجنة دون مشيئة أحد. من الصحيح أن شقائق النعمان تنمو من تلقاء نفسها في الحدائق وخارجها، لكن شتان ما بين شقائق النعمان وهذه الزهرة. كانت فريدة تراقب الزهرة الحمراء كل يوم بدافع الفضول، وبدافع الخوف أيضاً. فقد كانت تشعر أنها بمراقبتها لها تأمن شرها. ماذا لو انقضت عليها يوماً؟ تذكرت تلك الزهور التي تختطف الحشرات والمخلوقات الصغيرة وتلتهمها. بل إن الزهرة الحمراء بدت لفريدة وكأنها قد تبتلع حيواناً صغيراً وتخفيه في ثناياها! ما أفظع ذلك! والعجيب أن أسراب النحل كانت تتهاوت عليها دون أن تخشى منها خطراً! احتارت

فريدة في أمرها. هل هي زهرة حقاً أم شيء يتنكر في مظهر الزهرة؟ هل هي نبات أم حيوان؟ كثيراً ما تخيلتها فريدة تكبر وتنفصل عن عودها ثم تتدحرج في أنحاء الحديقة وتعيث فيها فساداً! لعلها روح شريرة، أو لعلها نذير. لقد ولدت تلك الزهرة الحمراء من باطن الأرض اللزج المضطرب ولم تهبط من عالم علوي كما توحى بقية الزهور. ولقد أفسدت نظام الحديقة بشكلها الدخيل عليها. كم تمنيت لو أنها تختفي فجأة كما ظهرت! هل تقطفها وترمي بها بعيداً؟ هل تقتلعها من جذورها؟ لكنها لا تستطيع الإقدام على فعل كهذا دون سؤال البستاني عن أمرها.

أجابها البستاني: نعم لقد رأيت هذه الزهرة من قبل كثيراً فهي تنمو في الحدائق وهي معروفة تماماً. أنت على حق في تشبيه لونها بالدم فبعض الناس يسمونها الزهرة الدامية.

- من زرعها؟
- لم يزرعها أحد. ولا حاجة بها لأن يزرعها أحد.
- لماذا؟
- لأنها تنمو من تلقاء نفسها.
- ألا يمكن اقتلاعها؟
- لا فائدة من اقتلاعها لأنها ستنمو من جديد وفي الموضع نفسه أو بالقرب منه. إنك لن تستطيعي التخلص منها مهما فعلت.
- ما العمل إذن؟

- لا شيء. إننا مهما نظمنا الحديقة فلن نستطيع التحكم فيها تمامًا لأن الطبيعة ستتدخل فيها دائمًا. لذلك ستظل الحديقة تفاجئنا بما تنبت. ولو لم تظهر هذه الزهرة الحمراء في الحديقة لظهر مكانها شيء آخر ما كان يمكن التنبؤ به.
- لكن الزهرة الحمراء تفسد الحديقة.
- إن التنوع ضروري في الحديقة لأن الكائنات المختلفة يحتاج بعضها إلى بعض. لقد سحرت أنت بتنوع الحديقة. والزهرة الحمراء جزء من هذا التنوع وأكبر مثال عليه، ولقد أبدعتها القوى نفسها التي أبدعت بقية الزهور التي تحبينها.
- لكنني لا أحب هذه الزهرة الحمراء.
- هوني عليك! حاولي أن تضعيها في موضعها الصحيح. إنها غير ضارة على الإطلاق بل هي مفيدة جدًا. أرايت هذا النحل الذي يتزاحم حولها؟ إن العسل الذي يصنعه النحل من هذه الزهرة لا يدانيه عسل في حلاوته ونكهته. إنها في الحقيقة مثل بقية الزهور التي يصنع العسل من رحيقها ومثل أشجار الفاكهة أيضًا، مثل الكرمة التي تتطلعين إلى عناقيدها في الصيف القادم! إن العسل الفاخر هو ثمرة هذه الزهرة التي ترتعدين لمنظرها، وهو هبة كبرى.
- لكنني لا أحب العسل.
- أكثر الناس لا يوافقونك هذا الرأي. وربما أحبيته في المستقبل.

- لكنني أخاف من منظرها.
- لا شك أن بعض الناس يفزعون لمنظرها كما تفزعين لأنها تذكرهم بالدم. إن منظرها عدواني في نظر البعض وحيواني في نظر البعض الآخر. لكن كثيرًا من الناس يتقبلونها بل ويرحبون بها. ربما اعتدت عليها بمرور الوقت.
- ألا يمكن فعل شيء حيالها على الإطلاق؟
- لن تستطيعي التخلص منها بحال من الأحوال. وإذا عجزت عن تقبلها اعتبريها ثمنًا تتقاضاه منك الطبيعة لقاء بقية الحديقة التي لا تشوبها شائبة. لقد جادت الطبيعة بهذه الزهرة الحمراء. فلماذا لا نقبل عطاءها هذا كما نقبل أشياء كثيرة في الحديقة وخارجها؟
- كانت فريدة تأمل من البستاني حلاً مرضياً لمشكلة الزهرة الحمراء لکه خيب أملها. وعندما أخبرت والدها بما قاله البستاني وجدته يوافقه على رأيه فازداد شعورها بالخيبة. غير أنها عندما خلت بنفسها في الشرفة ذلك العصر اعترفت أنه قد يكون مصيباً في بعض ما قال. لا شك أن الزهرة الحمراء تفسد جمال الحديقة الذي اكتمل بل هي تلطخه، لكن فريدة لا تستطيع حيالها شيئاً. والأحرى بها أن تتقبلها، وأن تسلم بهذين الشقين المتباينين في الحديقة والمتلازمين كما قال البستاني. أو ربما كان عليها الاكتفاء بما تحبه في الحديقة والإعراض عما لا تحب. قد تتغير نظرتها إلى الزهرة الحمراء في المستقبل. والحل الوحيد الذي تراه الآن هو تقبل الوقائع التي لا تستطيع تغييرها.

في عصر يوم من أيام ذلك الصيف جلست فريدة بجانب بركة الماء في الحديقة الخلفية وحولها صديقاتها العديديات. كانت الكرمة قد تسلقت العريش المقام فوق البركة وغطت معظمه بخضرتها الغامقة، لكن أشعة الشمس كانت تنفذ إليهن من خلال ظلها الرطيب فتستقر بقع صغيرة متفرقة منها على أجزاء مختلفة من ملابسهن. كانت العناقيد الخضراء تتدلى من كل جزء فيها، عناقيد صافية اللون بدأت تشف عن كنوزها التي ستنضج عما قريب فتصبح كالعسل في مذاقها كما قال البستاني. كانت فريدة وصديقاتها يتحدثن ويضحكن وقد استأثر الفرح بقلوبهن، ومن وقت لآخر كان يتخلل حديثهن صمت قصير لا تلبث أن تعقبه الضحكات والأحاديث من جديد. تجولت الصديقات في الحديقة وعلت نداءاتهن وصيحاتهن في أرجائها، ركضن فيها وطاردهن بعضهن بعضًا وكأنهن قد عدن إلى الطفولة التي لم يفارقنها إلا منذ سنوات قليلة. توقفن أخيرًا عند الزهرة الحمراء وتأملنها بضع دقائق في صمت. تبادلن نظرات مستطلعة وتمتمن بكلمات غير واضحة، وأخيرًا انفلتن من إسارها وتراكضن إلى مجلسهن الأول حول البركة، واستأنفن ما كنّ فيه من حديث وضحك. ثم رحن يأكلن ما أعد لهن من طعام وما قطفته فريدة من الفاكهة التي ترصع الأشجار مثل حجارة كريمة لا تحصى.

أخيرًا غنت فريدة بناء على طلب صديقاتها. كانت أغنية قديمة عن الزرع والثمر والمطر اتسقت كلماتها كما تتسق الزهور في أحواضها. كان صوتها هادئًا يتمهل عند كل كلمة كأنه يتأملها. كان حيًا دافئًا يذكر بلمس

أوراق الشجر، يخفت حيناً كحفيفها، ويعلو حيناً آخر كخريف الماء المنساب في البركة. رددت الصديقات بعض المقاطع معها بنفس الأسلوب المتمعن وقد هدأ صخبهن الأول. شعرن أن هذه الأغنية القديمة التي لا يعرف أحد بدايتها تقرب بينهن أكثر فأكثر بعدوبتها وصدقها. أما فريدة فقد شعرت أن هذه الأغنية التي تتحدث عن تكرار أزلي جزء من الحديقة، وأنها تعزز ما تراه حولها من انسجام واستقرار وما يملأ قلبها من دفء وثقة. غمرتها سعادة عميقة في تلك اللحظات فقررت أن تتذكر هذه السعادة دائماً لتكون لها درعاً واقياً تولد صلابته من اللين. كانت فريدة ترى الزهرة الحمراء من مجلسها ذاك. إنها ما زالت تفسد الحديقة في رأيها لكنها تحاول أن تعتبرها إحدى الجزئيات في الصورة الكلية، تحاول أن تضعها مقابل كل ما يشعرها بالسعادة في عصر ذلك اليوم، وهي قد تعتاد وجودها يوماً ما كما قال البستاني.

صلاة

هَمَّت إيمان بالدخول من الباب الرئيسي للمسجد، وإذا برجل يقبل من الداخل وهو يحمل صندوقاً ضخماً ثم يندفع خارجاً من الباب وهو ينظر بعيداً وقد تجهم وجهه. لم ينتظر دخولها ولم يتفوه بكلمة اعتذار واحدة. لا شك أنه كان في عجلة من أمره لكن العجلة ليست مما يبرر الاندفاع من الباب على ذلك النحو المزعج في نظر إيمان، ومن حسن الحظ أنه لم يصدمها بصندوقه ذاك. توجهت نحو اللافتة التي تحمل كلمة «الاستقبال» وهي تثبت الغطاء على رأسها. وعندما وصلت إلى النافذة الضيقة في آخر البهو، حيّت الرجل الذي يجلس خلفها وسط أكوام من الورق والأدوات المختلفة دون أن يبدو منه إلا وجهه وأعلى صدره. نظر الرجل إليها نظرة خاطفة قبل أن يحوّل عنها بصره وهو يغتمغم:

- وعليكم السلام.

- أين مصلى النساء من فضلك؟

فأجابها الرجل وهو يشير برأسه إلى آخر البهو دون اكتراث:

- من هناك.

- شكراً.

وقبل أن تستدير لتغادر النافذة قال لها الرجل وهو يرفع يده ويهز رأسه

فتهتز معه لحيته السوداء الكثة فوق جلاباه الأبيض:

- غطّي شعرك كله يا أخت.

جذبت إيمان الغطاء فوق جبهتها بسرعة ودفعت ما ظهر من شعرها تحته ثم توجهت إلى حيث أشار الرجل. توقفت عند لوحة الإعلانات وقرأت جانباً من برنامج المحاضرات الدينية والنشاطات الاجتماعية، ثم استأنفت سيرها وهي تنوي العودة لقراءة بقية البرنامج. كان البهو طويلاً يتسع في موضع ويضيق في آخر فلا يبدو له شكل منتظم، وكانت معظم أجزائه تبدو مثل وعاء نظفه صاحبه بعد الاستعمال دون أن يعبأ بصقله. كان ضوء النهار الشاحب يتسلل إلى البهو من النوافذ فتمنت لو تفتح كل الأبواب المؤدية إلى الفناء الأمامي لعل مزيداً من الضوء يخفف من كآبة المكان. شعرت إيمان بالحرج لوقع أقدامها فوق الأرض العارية وما قد يسببه من إزعاج، لكن البهو كان خالياً تماماً إلا منها، وخامرها شعور أنه لن يستقبل أحداً في ذلك النهار غيرها. لم تر قطعة أثاث واحدة تخفف من عري البهو، ولا كتابة قرآنية تزيّن سقفه أو جدرانها كما في المساجد عادة، وكأن ما اختص به من استقبال الناس أفقده كل وظيفة أخرى. تساءلت إيمان لم لا تكتسي الجدران بزخارف صامته على الأقل، أو بملصقات تعرض جوانب من الحضارة الإسلامية.

قبل أن تصل إيمان إلى الباب الذي أشار إليه الرجل رأت باباً آخر قد انفرج عن قاعة واسعة فتلکأت عنده قليلاً. كانت القاعة خالية مثل البهو، عارية إلا من سجادة زرقاء تغطي أرضها كلها فلا تكاد ترى نهايتها. وكانت مجردة من كل زينة ما عدا الآيات القرآنية المذهّبة التي زُخرفت

بها قبتها الزرقاء العالية. وفي الركن القريب من الباب تكدست مجموعة من المصاحف دون ترتيب. لا شك أن هذه القاعة مصلّى للرجال، فهي أوسع من أن تخصص للنساء اللواتي يقصدن المساجد عادة وهن أقل من الرجال كثيرًا في ما تعلم. والقاعة مجاورة للبهو وقريبة من أبوابه الخارجية والفناء الأمامي فلا يمكن أن تكون للنساء. من الأسهل أن تصلي فيها بدلًا من أن تمضي في بحثها عن مصلّى النساء، لكن كيف تسجد في مكان يدوسه رجال غرباء بأقدامهم ويمسونه بأكفهم وجباههم؟ خشيت أن يراها موظف الاستقبال وهي تقف بباب تلك القاعة، فمن غير اللائق أن تتطفل امرأة على مكان مخصص للرجال ناهيك عن مجرد التفكير في الصلاة حيث يصلّون.

توجّهت إيمان إلى الباب الكبير في نهاية البهو، وسرعان ما وجدت نفسها في ممر قصير أفضى بها إلى فسحة بدت عند جانب منها منطقة الوضوء. رأت امرأة تبرز من القسم الداخلي لتلك المنطقة وفي يدها خرقة راحت تمسح بها المغاسل بحركة بطيئة متكررة وكأنها لا تعي ما تفعل. توقفت إيمان قليلاً وهي تشعر بشيء من الألفة نحو تلك المرأة التي جمعها بها ذلك المكان المهجور. سارعت إلى تحيتها ففتحت المرأة عينها وكأنها تفيق من غيبوبة ونظرت أمامها نظرة لا يضيئها الوعي بما حولها، ثم حركت شفيتها بكلام رجحت إيمان أنه رد على تحيتها، وعادت إلى مسح المغاسل التي لم يبد فيها أثر للاستعمال. كانت المرأة قد ضربت حول نفسها نطاقاً يشبه ذلك اللفاح الكبير الذي يطوق وجهها

بإحكام، أو تلك الملابس الطويلة الفضفاضة التي تحاصر جسمها من كل جهة. أما وجهها فكان ينطق بشيء مثل مرارة مزمنة أصبحت جزءاً من ملامحه. لم تشأ إيمان أن تسأل المرأة عن مصلى النساء، بل واصلت سيرها نحو باب في مواجهتها وقد تعمق شعورها بالوحشة. فتحت الباب فرأت درجاً يؤدي إلى قاعة صغيرة تطل على قسم من قاعة الرجال وتعلوها القبة الزرقاء نفسها. بدت القاعة مثل جزء ملحق بالمسجد لا في صميمه، فتساءلت إيمان كيف تجد النساء طريقهن إلى مكان بعيد معزول كهذا؟ أخيراً دخلت وجلست على السجادة الزرقاء المماثلة لتلك التي فرشت بها أرض قاعة الرجال.

كانت إيمان قد توضأت قبل مغادرتها البيت فتناولت أحد المصاحف الموضوعة على رف صغير وبدأت تقرأ بعض السور القصيرة. وما لبثت أن شعرت بشيء من الارتياح في تلك القاعة البعيدة الخالية التي تتيح لها أن تقرأ ما تشاء من القرآن وتقف بين يدي ربها كما تحب. بعد فترة سمعت أذان الظهر ينبعث واهياً متقطعاً من مكان قصي في المسجد، فأتمت قراءتها ووقفت للصلاة وكلها ثقة أنها تذكر ما يجب أن تقول وتفعل رغم انقطاعها الطويل. همست لنفسها بالبسملة التي ترددها ليل نهار لما فيها من معاني الرحمة، ثم تلت سورة الفاتحة على مهل وهي تتشبث بكل كلمة فيها وكأنها تتذوق ما فيها من فخامة وتوازن. أعقبت ذلك بسورة قصيرة وهي تتأمل معانيها وما فيها من حقائق خالدة. وأخيراً سجدت فأطالت السجود وهي تسلم أمرها لله بكل طواعية. شعرت إيمان

برضا عميق وهي تلصق جبهتها بالسجادة الزرقاء. سجدت مرة بعد أخرى والرضا يزداد في قلبها. وضعت نفسها بين يدي ربها مرة بعد أخرى وهي تحس أن التكرار نفسه يشبع فيها نهماً قديماً. وعندما حان وقت الدعائين الأخيرين تبينت أنهما مغروسان في ذاكرتها منذ أيام المدرسة على نحو لا يمكن معه نسيانهما. فاض قلبها بحب الله في اللحظات الأخيرة من الصلاة حتى دمعت عيناها، وعند انتهائها تدفقت الكلمات من بين شفتيها وتهدج صوتها وهي تدعو لأهلها في الوطن البعيد الذي تغترب عنه لأول مرة. تمت لو تطول جلستها على تلك السجادة حتى تذوب في زرقتها العميقة الساكنة. تمت لو تُحلق قرب تلك القبة الصافية التي ترسم فيها زخارف ذهبية متلاثلة تشدها إليها شداً. شعرت إيمان في تلك اللحظات أنها تقف على عتبة عالم غير العالم، وغمرها سلام شامل، بينما كان شيء مثل نبتة ناضرة دائمة الخضرة ينغرس في قلبها.

فتحت إيمان عينيها بعد الصلاة فخيّل إليها أن القاعة الصغيرة قد اتسعت، وأن ضوءها الخابي قد اكتسب شيئاً من الشفافية. ظلت جالسة وكأنها لا تريد الانصراف فوعدت نفسها بعودة قريبة. نهضت أخيراً فمرت بغرفة الضوء لكنها لم تر المرأة. وعندما وصلت إلى البهو رأت رجلين قد وقفا عند باب مصلى الرجال وهما يلبسان حذائيهما في صمت بعد أن فرغا من الصلاة. ومن بعيد رأت بضعة رجال يغادرون البهو إلى أماكن أخرى في المسجد حيث يعملون. كانت إيمان المرأة الوحيدة في البهو وربما في المسجد كله فعاودها الشعور بالحرَج وكأن وجودها نفسه

موضع ريبة. لكنها عنفت نفسها قائلة إن لها في المسجد حقاً كما للرجال وإنه مكان طبيعي لها أسوة بهم. خرجت إلى الفناء ومشت فيه على مهل وهي تتأمل الأشجار اليناعة المحيطة به، وتركت النسيمات تربّت وجهها برفق وتبعث في قلبها مزيداً من الطمأنينة.

اختارت إيمان لعودتها يوم الجمعة، فهو اليوم الذي يصلي فيه المسلمون جنباً إلى جنب، فيتعارفون ويوثقون الصلات بينهم، فالدور الاجتماعي للمسجد لا يقل أهمية عن دوره الديني. لكنها كانت ترغب أيضاً في أداء صلاة الجماعة استكمالاً لصلاتها المنفردة قبل أكثر من أسبوعين. انتزعت نفسها من دراستها في ذلك اليوم، وعندما وصلت إلى المسجد رأت النساء يتجهن إلى مدخل جانبي منفصل عرفت في ما بعد أنه مخصص لهن. كان أكثرهن يتلفعن بالسواد من الرأس حتى القدمين، لكن بعضهن كنّ يلبسن نعالاً مزخرفة تبدي أقدامهن العارية المحناة. كن يسرن ببطء وحولهن تسير بنات صغيرات محجبات يرتدين ملابس طويلة ملونة. اتجهت إيمان إلى الباب الرئيسي كما فعلت في المرة الأولى، وعندما دخلت البهو رأت جمعاً صغيراً من الرجال بينهم امرأة أو اثنتان لا يكاد المرء يلحظهن وعدد من الصبية. تفحصت لوحة الإعلانات فلم تر فيها جديداً يذكر فعادت إلى الباب الرئيسي قبل أن تمضي إلى قاعة النساء. وقفت هناك بوجل وراحت تتأمل ما حولها.

كان القادمون إلى المسجد يتوقفون برهة في فناء الأمامي ثم يدخلون البهو بحماس هادئ وخطى واثقة وكأنهم عرفوا المكان طيلة حياتهم.

وهناك كانوا يقفون في مجموعات صغيرة أو يتجولون في أرجاء البهو أو يمشون فيه على مهل وهم يتوكؤون على عصيهم، بينما الصبية يركضون بينهم وهم يزهون بشبابهم التي بدت فيها عناية كبيرة. كان معظم أولئك الرجال ممن قدموا من شبه القارة الهندية في الأصل، لكنها رأت رجالاً آخرين من الشرق الأقصى ومن جزر الكاريبي وآخرين لم تعرف موطنهم الأصلي. كما رأت عددًا لا بأس به من العرب وقلة قليلة من الأوروبيين. دخل ثلاثة رجال ذوي قامات فارعة كجذوع الأشجار المعمّرة، وفوق بنيانهم الشامخ انسدلت أثواب بيضاء فضفاضة مطرزة برسوم زاهية، وعلى رؤوسهم استقرت قلانس صغيرة مطرزة برسوم مشابهة. وقفوا بكبرياء وكأنهم ملوك قدموا لتوهم من القارة السوداء، وبعد قليل وصل رجال يرتدون أثوابًا بيضاء ناصعة تفوح منها رائحة الطيب. شعرت إيمان بالتقدير نحو أولئك الرجال الذين حرصوا على مظهرهم احترامًا لأنفسهم وللمسجد، ورأت في ذلك انتماء واضحًا من جانبهم. بدا كل أولئك الرجال مطمئنين إلى وجودهم في مكانهم الطبيعي فتمنت لو تستمد من وجودها بينهم ثقة مماثلة.

أضفى القادمون بعض الحيوية على البهو الذي كان مهجورًا عند زيارتها الأولى للمسجد وكأنه قشرة جافة ذابلة، كما بدت أبعاده أكثر وضوحًا وانتظامًا مما كانت عليه في ذلك اليوم. تزايد عدد الرجال بالتدريج حتى امتلأ بهم البهو فانبعث فيه دفء أكيد، وأخذ جو من الترقب يسود المكان وكأن احتفالاً ضخماً سيقام فيه عما قليل بحضور

كل هؤلاء فيجلب لهم جميعاً فرحاً عارماً. تمت إيمان أن تظل واقفة وسط هؤلاء الإخوة الذين قدموا من مختلف الأصقاع والبقاع، والذين يشاركونها أعماق العقائد والمشاعر، لكن موعد صلاة الظهر كان يقترب فتوجهت أخيراً إلى قاعة النساء. عندما اقتربت من منطقة الضوء سمعت أصواتاً ونداءات عالية وضحكاً، ثم رأت امرأة في منتصف العمر لم يُخف الحجاب جمالها. كانت تتبادل الحديث والضحك مع مجموعة من النساء والفتيات، وكانت كلما همّت بمسح موضع بالخرقة التي في يدها تتوقف للمزيد منهما. وفي أثناء ذلك كانت المياه تسيل على أرض الغرفة دون أن تجد من يمسحها أو يجففها.

كانت إيمان قد توضأت في البيت كما فعلت في المرة الأولى فواصلت سيرها نحو قاعة النساء. وعندما وصلت إليها وجدتها قد امتلأت تقريباً فدهشت لكثرة العدد. وقفت بالباب تبحث عن مكان تجلس فيه. لم تشأ أن تجلس قرب الباب حيث تتكوم كل تلك الأحذية، كما أنها لم تشأ الجلوس في أقصى القاعة فتكون آخر من يغادرها. رأت أخيراً مكاناً ضيقاً في وسط القاعة فشقت طريقها إليه. تحركت المرأة الجالسة قربها وأفسحت لها مكاناً فشكرتها إيمان وجلست، فابتسمت المرأة ابتسامة أضاءت وجهها القمحي الوديع الذي لم تنل منه الأيام وعادت إلى قراءة القرآن. وإلى جانب المرأة جلست طفلة لعلها حفيدتها. كان غطاء رأسها قد انزلق عن شعرها الفاحم اللامع الذي يحيط بوجهها المستدير

الشاحب ذي القسّمات الرقيقة، بينما كانت عيناها السوداء وان الواسعتان تجولان في ما حولها باهتمام واضح.

كانت النساء يجلسن على أرض القاعة كيفما اتفق ودون تشكيل صفوف واضحة، لكنهن كنّ راسخات على الأرض ملتصقات بها مثل أشجار ضخمة لا يسهل اقتلاعها. كان التنوع واضحاً بينهن في العمر واللون والملامح والملابس والموطن الأصلي، لكن إيمان تذكرت أن هؤلاء النساء نشأن على التعاليم نفسها، واستوعبن الأفكار نفسها، ولا شك أن حياتهن اليومية تتشابه في أكثر طقوسها وتفصيلها. شعرت إيمان براحة غريزية لوجودها في مجموعة تقتصر على النساء لعلها تشبه تلك التي يشعر بها أفراد القطيع الواحد. كانت موقنة من التشابه التام بينها وبينهن بالطبع فازداد ارتياحها وخف عنها بعض ما كانت تشعر به من عزلة. كان الهدوء يسود القاعة معظم الوقت، لكن بعض النساء كنّ يتحدثن بصوت عال أحياناً أو يتمتمن أثناء قراءتهن القرآن أو الأدعية، أو يجبن عن أسئلة بناتهن الصغيرات دائبات الحركة. لم تجد إيمان مصحفاً تقرأ فيه فندمت لعدم إحصار مصحفها معها. استسلمت للهدوء المتقطع الذي أسلمها إلى حال من السكينة فلم تعد بها رغبة في التأمل والتحليل والتكهن. انصرفت عن كل فعل واستسلمت لتلك السكينة العذبة كل الاستسلام.

تحشرج مكبر الصوت قليلاً ثم صمت، وبعد دقائق عاد إلى التحشرج. وأخيراً انبعث صوت الخطيب ضعيفاً بعيداً عن الوضوح ربما

بسبب خلل في المكبر لاحظته في زيارتها الأولى. وربما كان الخطيب نفسه قد شاخ وداهمته العلل هو الآخر. استهل الخطيب خطبة الجمعة بالمقدمة التقليدية، ثم انتقل إلى صلبها وهو موضوع الصيام الذي اختاره لسبب واضح هو اقتراب شهر رمضان. كان الرجل يتعثر في كلامه من حين لآخر، وزاد من صعوبة الأمر أنه كان يتكلم الإنجليزية بلهجة لم تعتدها إيمان بعد. نظرت إيمان إلى النساء حولها فوجدتهن غافلات عن الخطبة والخطيب. كان بعضهن قد أغمضن عيونهن ينشدن بعض الراحة، بينما استمر البعض الآخر في قراءة القرآن أو الأدعية أو الحديث مع جاراتهن بين الحين والحين، وراح قسم منهن يتململ في جلسته. أما الفتيات الصغيرات فقد بدا في وجوههن الوجوم أو الملل أو الحيرة. وجدت إيمان في انصراف النساء عن سماع الخطبة عاملاً آخر وحد بينها وبينهن، لكنها لم تعرف إن كنّ يشاركنها خيبة أملها أيضًا.

تلا ذلك خطبة باللغة العربية عن الموضوع نفسه، فمضى الخطيب يعدد من الحقائق ما يعرفه كل مسلم. تذكرت إيمان خطبًا كثيرة من ذلك النوع سمعتها في الماضي، فلم تر ضيرًا في تجاهل هذه الخطبة التي تتجاهل موضوعات جوهرية وتلجأ إلى هدهدة المصلين بذكر ما هو معروف. كانت تدرك أن خطبة الجمعة بطبيعتها لا تسمح بطرق موضوعات عميقة خاصة في هذا المسجد الذي يقصده مسلمون متعدّدو اللغات والثقافات، لكنها كانت تتوق منذ زمن بعيد إلى سماع خطب أو أحاديث توقظ الناس من غفلة الحياة اليومية، وتحفز فكرهم وتلهب

شعورهم بدلاً من أن تغرقهم في التفاصيل. كانت تتوق إلى سماع خطب عن الأخلاق الإسلامية والعدل الاجتماعي وحقوق المرأة والتطرف الديني، والموضوعات الغائمة التي تلحّ على المسلمين والموضوعات الشائكة التي يحتاجون إلى من يعينهم على النظر فيها. ولا بأس إذا أثار كل ذلك جدلاً قد يسلم السامعين في النهاية إلى قدر من اليقين يعزز السلام في مجتمعاتهم. تمت إيمان أن تعود إلى حال السكينة التي كانت تنعم بها قبل بدء تلك الخطبة الباهتة التي لا غناء فيها، ثم راحت تنتظر بدء الصلاة بفارغ الصبر.

أقيمت الصلاة أخيراً فدبّت الحركة في القاعة. نهضت المصليات تأهباً لها ووقفن في صفوف طويلة انتظمت بسرعة ودون جهد. وسرت موجة من الحماس بين الفتيات الصغيرات اللواتي وثبن من أماكنهن ووقفن إلى جانب أمهاتهن بسرعة. ولم تكن إيمان أقل منهن حماساً للصلاة الجمعة التي ستوج ذلك النهار بعد طول انتظار. انبعث صوت الإمام ضعيفاً كالمعتاد لكن إيمان استطاعت متابعة ما يقول لأنها كانت ما تزال تذكر تعاليم الصلاة. سلّمت زمام أمرها للإمام بصفته القائد الطبيعي للصلاة، وتركته يبحر بها في ذلك المحيط الذي يعجّ بالأسرار دون الأخطار. راح الرجل يتلو بلسان عربي سليم ما لا تحفظ وما لا تعرف من القرآن فسحرت بتلاوته مع أنها لم تسمع كل ما قال، وطربت للغة نفسها وكأنها موسيقى عذبة أو ترانيم أم حنون تهددها. ولم يحل مكبر الصوت رغم خلله دون سماعها صوت الرجال وهو يهدير بمنتهى العزم «آمين».

فاهتزت لسماع ذلك الصوت القوي الذي يشبه صرخاً شاهقاً. راحت تصغي إلى ذلك الصوت مرة بعد أخرى فترى الصرح يعلو ويعلو فتعاودها غبطة عميقة. رأت إيمان هؤلاء النساء اللواتي لم تكذب تبادل معهن كلمة واحدة يتجهن معها وجهة واحدة، ويرافقنها في نفس الرحلة الداخلية إلى القطب الأوحده وهي لبّ الصلاة. كنّ جميعاً يقمن بالشعائر نفسها بسهولة ويسر وكأنها أول ما تلقين من معرفة. وكن يكررن الحركات والسكنات بانسجام تام وكأنهن جسم واحد ففجبت إيمان ثانية لما تراه من وحدة تحل محل الكثرة.

كان شعور إيمان بالانتماء الكامل إلى المصليات والمصلين مما زاد في توهجها الداخلي، وفي تلك اللحظات أيقنت أن المصلين رجالاً ونساء قلب واحد وفكر واحد يسعى مسعى واحداً. كانت في كل مرة تسمع فيها كلمة «آمين» السحرية تحس أنهم ينصهرون جميعاً في بوتقة واحدة فيشتدّ عودهم. كما رأت في تتابع تلك الشعائر وتكرارها وانتظامها تأكيداً لا للصلة الروحية مع الخالق فحسب، بل تعزيزاً للصلة الأخوية بين المصلين أنفسهم. انتهت الصلاة أخيراً لكن إيمان ظلت تجلس على الأرض وكأنها لم تنبته إلى انتهائها أو كأنها لم ترد لها أن تنتهي. استغرقت في دعاء طويل حار، وعندما فتحت عينها بعد دقائق رأت كثيراً من النساء ما زلن يجلسن على الأرض وهن مستغرقات في الدعاء بدورهن. كان عقد النساء قد بدأ ينفطر شيئاً فشيئاً، فاختفت تلك الصفوف الواضحة المتماسكة التي كانت تنتظمهن. تفرقت النساء في أنحاء القاعة وأسرع

بعضهن إلى الانصراف بينما تلك البعض الآخر. تركت بعض النساء الأغذية تنزلق عن رؤوسهن واستلقت بعض العجائز في أوضاع واتجاهات مختلفة طلباً للراحة بعد عناء الصلاة، أو انتظاراً لموعد صلاة العصر. وقفت بعض النساء أو جلسن في مجموعات صغيرة، وعلت أصواتهن بالحديث أو النداء أو نهر بناتهن الصغيرات اللواتي عدن إلى الحركة الدائبة والدوران والقفز، وعندئذ سمعت إيمان لغات لم تفهم منها شيئاً.

شُغلت النساء كُلُّ بأمرها، وعلت بعض الوجوه نظرة توحى بالانشغال بما وراء المسجد من شؤون دنيوية. وخطر لإيمان أن صلاة اليوم التي كانت بالنسبة لها قمة روحانية وعاطفية لم تكن للبعض منهن إلا عملاً آلياً يؤدي كل أسبوع. كان ذلك النور ما يزال ماثلاً أمام عينيها، وذلك الدفء ما يزال يسري في داخلها فيملاً قلبها بالحب نحو هؤلاء النساء اللواتي شاركنها الصلاة. لكنها لم تدر ما تصنع بذلك الحب وكيف تقدمه لهن، فهي لا تعرف أحداً ممن ترى. بحثت عن المرأة التي أفسحت لها مكاناً إلى جانبها فلم تجد لها أو لفتاتها الصغيرة أثراً. لمحت أولئك النساء الإفريقيات الطويلات بشياهن المزركشة الزاهية، والنساء الآسيويات القصيرات بشياهن البسيطة ووجوههن المستديرة التي تشبه وجوه الأطفال، فخطر لها أن الفروق بين المصليات أكبر مما كانت تظن. ازداد الفتور في قاعة الصلاة شيئاً فشيئاً، وأخيراً بدأت تخلو وتعود مثل صدفة فارغة متآكلة. توجهت إيمان إلى الباب حيث تراحمت بعض النساء بحثاً

عن أحذيتهن وقد نسين النظام الذي التزمته أثناء الصلاة. وقفت جانباً إلى أن تسنى لها استعادة حذاءها ومشّت خلف النساء. رأت بعضهن يغادرن المسجد من الباب الجانبي المخصص لهن، بينما توجه البعض الآخر إلى الفناء الرئيسي فتبعتهن إلى هناك.

كان الرجال قد تجمعوا في جانب من الفناء بينما تجمعت النساء في الجانب الآخر منه، لكن المجموعتين كانتا تتداخلان عندما يقف أفراد الأسرة الواحدة معاً. جلس البعض من الجنسين على المقاعد الحجرية الطويلة المحيطة بالفناء، وعلت الأصوات بالحديث الذي كان في بعض الأحيان حماسياً مصحوباً بإشارات الأيدي، وبدأ على الجميع استسلام لتلك الاستراحة التي تخللت ذلك النهار الخالي من البرد والمطر. كانت النساء قد انقسمن إلى مجموعاتهن الصغيرة تبعاً للموطن أو اللغة وكأن التنوع الخصب بينهن أدى في النهاية إلى الانقسام الحتمي. غير أن التجاذب الواضح بين أفراد المجموعة الصغيرة الواحدة لم يمتد إلى المجموعات الأخرى التي بدت مثل جزر منفصلة لا يسهل عبور المضائق بينها. بدأت إيمان تتوق إلى انتماء طبيعي مماثل يقوم على أساس اللغة أو الوطن، وبدأت تشتاق إلى الحديث الذي ينبع من ذلك الانتماء ويعبر عن دخيلة النفس ويجسّد التفاهم. لكنها لم تر حولها أحداً يمكن أن يشاركها ذلك.

ظلت إيمان تقف في الفناء وحدها. فضاء غائم يترامى حولها، الجو معتدل لا بارد ولا دافئ، والوقت غير واضح. الناس يقفون أو يجلسون

معاً عن بعد، يتحركون حركات بسيطة محدودة ويشيرون بأيديهم أحياناً. أرض قفر تفصل بينها وبين تلك الشخوص البعيدة، لا معالم فيها ولا أبعاد لها. المسافة تتسع بينها وبين تلك الشخوص فلا يمكنها اجتيازها بحال من الأحوال، الصمت يتغلغل في الفضاء فلا أصوات تصل إليها منها، والصلة تنقطع بينهما شيئاً فشيئاً. هل ما تراه حقيقة أم أنه صورة على جدار بعيد؟ وهل هي ما تزال موجودة؟ حلقتها يجف والكلام يحتبس فيه، وهي تنكمش حتى تكاد تتلاشى. رفعت يدها وكأنها تتحسس تلك البقعة الدافئة في صدرها التماساً لشيء من الطمأنينة لكنها لم تكد تحس بها.

في غمرة ذلك الضياع حاولت إيمان استحضار الصفات المشتركة بينها وبين أولئك النساء، لكن شعورها بالوحدة التامة معهن أثناء الصلاة لم يعد في متناولها. لقد غمرها ذلك الشعور أثناء تأديتها وإياهن عملاً جماعياً واحداً منظمًا. أما بعد انتهاء ذلك العمل فقد انتقلت العلاقة بينها وبينهن من صعيد المشاركة الروحية إلى صعيد التعامل الاجتماعي. وعندما انقسمت تلك الكتلة البشرية المتماسكة إلى أجزاءها الطبيعية، انتقلت العلاقة من مستوى التعامل الجماعي إلى مستوى التعامل الفردي الذي يتطلب اللغة. ومن الواضح ألا لغة أصلية تجمعها بأولئك النساء ولا لغة مكتسبة تكفي للفاهم التام أو الحديث الحقيقي معهن. من جهة أخرى كانت الوحدة التامة التي شعرت بها مع المصليات أثناء الصلاة معنى أضافته هي إلى علاقتها بهن وهي إضافة لا تخلو من التبسيط

والتعميم. أما بعد انتهاء الصلاة فقد حل الواقع محل المعنى المجرد، وأصبح لزامًا عليها أن تتعامل مع أولئك النساء اللواتي تراهن أمامها بدلًا من إضفاء أي تعميم عليهن.

وهي لا تستطيع التعامل مع الرجال في الفناء للسبب نفسه. يضاف إلى ذلك الآداب التي نشأت عليها والتي تحظر عليها مبادأة رجال غرباء بالحديث الاجتماعي وخاصة في مكان كهذا. هكذا ظلت إيمان تقف بمعزل عن أولئك الإخوة والأخوات الذين لا تنتمي إليهم انتماء كافيًا في الحقيقة. تعمق شعورها بالعزلة لكنها تبينت بعض الطرافة في ذلك الموقف الذي وجدت نفسها فيه. إن الجميع في شغل شاغل عنها وكأنها ذابت بينهم واختفت. فلماذا لا تستغل خفاءها لتشبع رغبتها الدائمة في النظر إلى الناس وتأملهم دون أن يلحظها أحد؟

أخيرًا سئمت كل ذلك وأثقل قلبها الخواء بعد كل ذلك الدفء الذي كان يعمره. غادرت مكانها من الفناء وأسرعت الخطى إلى الشارع، لكنها كانت تعرف أنها ستعود. فالرابطة لا يمكن أن تنفصم بينها وبين هذا المكان الذي منحها هويتها كما يمنح والد لمولود هويته. ستعود إلى المسجد بوجهه الرصين وذراعيه العاريتين فتخطى الحواجز وتنزع القشور حتى تصل إلى قلبه الدافئ وإلى تلك الدرّة الفريدة التي تستقر فيه. أما أولئك النساء فالرابطة بينها وبينهن واقع يصعب إنكاره وهي قد تتوثق بمرور الزمن.

شادي

استيقظ الطفلان صباح يوم الجمعة على صوت الريح وهي تهز النافذة هزاً، والمطر وهو يضرب زجاجها. نظرا فوجدا السماء ملبدة بالغيوم الكثيفة، والفضاء قاتمًا، والأشجار تترنح وكأنها تكاد تقتلع من أرضها. تذكر أن هذا أول أيام الربيع كما قال لهما أبوهما فتضاعف أساهما. كانا يتوقعان أن يتحسن الطقس اليوم فماذا حدث؟ كيف يأتي الربيع بكل هذا المطر والبرد؟ كيف يُظلم وجه السماء هكذا في أول أيامه؟ إنهما يتلهفان على اللعب في الحديقة بعد ذلك الشتاء الطويل الماطر. لكن ها هو المطر يهطل بغزارة وها هي الريح تعصف فتبعث فيهما خوفًا عميقًا.

كان مما زاد أسى الطفلين ذلك الصمت الذي أطبق على البيت. فوالدهما لم يستيقظا بعد. وهما قد يتأخران في الاستيقاظ لأن هذا يوم العطلة الأسبوعية. لكن أين الجدان؟ لا شك أنهما مستيقظان لكنهما يلزمان الصمت حرصًا على راحة الوالدين صباح يوم الجمعة. نظرت شادن إلى شادي في سريريه القريب من سريرها فرأته واجمًا. سألته إن كان يشعر بالدفع فأومأ برأسه. لزم الطفلان الصمت بعد ذلك لأن خيبة أملهما كانت أعظم من أن تخفف منها الكلمات. شعرت شادن برغبة في البكاء لكنها لم تشأ أن تزعج شادي ببيكائها. استرقت نظرة أخرى إليه فرأته قد ازداد وجومًا. عمق صمتهما فقررا العودة إلى النوم بدلًا من مواجهة هذا الصباح المظلم. جذب

كل منهما أغطية السرير فوق رأسه وهو يحرص على عدم إخراج يديه ورجليه من تحتها. وجد كلاهما في دفء الفراش بعض العزاء، ولا شك أن والديهما سيفسران لهما ما يحدث عندما يستيقظان.

لم يطل انتظارهما فقد سمعا أباهما بعد قليل وهو يوقد نار المدفأة. بعد الاغتسال بالماء الدافئ ألبستهما أمهما ثيابًا سميكة وجوارب تغطي أرجلهما تمامًا، ثم جلسا مع بقية أفراد الأسرة حول مائدة الفطور الشهية الذي أعدته أمهما، فكان ذلك مما أدخل السرور إلى قلوبهما.

قال الأب أثناء تناولهم الطعام: الحمد لله على كل هذا المطر.

وقالت الجدة: الحمد لله، فهو سيروي المزروعات كلها.

وقال الجد: ولن نعطش في الصيف بإذن الله.

فرددت الجدة: بإذن الله.

أما الأم فقالت: لقد نزلت أمطار كثيرة هذا الشتاء.

ثم عادت إلى صمتها. إنها تخشى على طفلها من البرد ومن أشياء كثيرة أخرى. وهي تريد لهما أن يلعبا في الحديقة تحت شمس الربيع بعد ذلك الشتاء الطويل القاسي. ثم إن البرد يشلُّ حركة الكبار أيضًا. فكيف تعنى بطفلها في مثل هذا الطقس، وكيف تقوم بأعمالها المنزلية؟

بعد الفطور توجه أفراد الأسرة إلى غرفة الجلوس وتجمعوا حول المدفأة التي راحت تلتهم قطعًا كبيرة من الحطب وكأنها تفترسها افتراسًا. وسرعان ما استعرت نارها حتى أصبح لونها يضاهي النور الكهربائي في الغرفة. لكن

صوت المطر والرياح ظل يُسمع طيلة الوقت. كان أول ما فعله الأب بعد جلوسهم حول المدفأة هو أنه أجلس شادي في حجره وطوّق شادن بذراعه ثم قال لهما: إن الماء شيء لا غنى عنه للبشر وبدونه نموت. الحيوانات والمزروعات تحتاج إلى الماء مثلنا، ولقد جعل الله تعالى المطر مصدرًا للماء في بلادنا، وهو المصدر الوحيد. لذلك ينتظره الناس من عام لآخر بفارغ الصبر.

وهنا سألته شادن: والرياح ما فائدتها؟

فردد شادي: والرياح؟

فأجابهما الأب: إن الرياح كثيرًا ما ترافق المطر، لذلك يجب أن نتقبل كل ما يرافق المطر في سبيل ما يجلبه من فائدة. ولا شك أن هذا الربيع سيكون أجمل من أي ربيع مضى بسبب هذا المطر الغزير الذي يسقط في أول أيامه. فلتطلع إليه بكل ثقة.

قالت شادن لنفسها إن كلام أبيها قد يكون صحيحًا، لكن الرياح تبعث على الخوف والمطر يحول دون اللعب في الحديقة. أما شادي فقد لاحظت في عينيه نظرة كئيبة، وكان ينزع إلى الصمت أكثر من عادته.

قال الجد: عندما كنت صغيرًا لم أكن آبه للمطر مهما اشتد. فالمطر الغزير يبشر بخير عميم، وليس فيه ما يخيف.

ربتت الجدة رأسي الطفلين ونظرت إليهما طويلاً وهي تتمتم بالدعاء. ظل الأب يحيط طفليه بذراعيه مدة ثم التقط كتابًا وراح يقرؤه. أما الأم

فقد لاذت بالصمت مرة أخرى. إن المطر يُخرج الحياة عن مسارها المعتاد ويعزل الناس عن بعضهم البعض ويبعث الحزن في القلب. وهو يسبب الخطر أحياناً رغم كل فوائده. لقد كان هذا الشتاء ماطرًا لكن لم يسقط فيه مثل هذا المطر الغزير الذي تشهده اليوم. بل إنها لم تشهد مطرًا كهذا في حياتها من قبل. ناهيك عن هذه الريح المجنونة! والغريب أن طقس الأمس لم يكن فيه ما ينذر بكل هذا.

ذهبت الأم لبعض شأنها في المطبخ. وشغل الطفلان حينًا بكتبهما وألعابهما، لكنهما كانا يصغيان إلى صوت المطر والريح أو ينظران من النافذة من وقت لآخر. عادت الأم بعد إنهاء مهمتها في المطبخ وجلست بين طفليها وهي تكاد تلتصق بهما. نظرت إليهما وكأنها تراهما لأول مرة. ما أشبههما بعصفورين مذعورين هذا الصباح! ضمتهم إليها وهي تربت شعر شادن الكستنائي الناعم وتتحسس وجه شادي الذي يذكرها بأوراق الورد في ملمسه. ابتسمت الأم ابتسامة خفيفة ولاحت في وجهها نظرة حنان بالغ. كل ما في هذا الطفل رقيق! وهي رقة تزيد من جماله غير أنها كثيرًا ما تشعرها بالخوف عليه. نهضت الأم لتتنجز عملاً آخر في المطبخ لكنها عادت بسرعة وكأنها لا تقوى على فراق طفليها. راحت تتحدث معهما عن الربيع المنتظر، ثم أحضرت كتاب الزهور فراحوا ينظرون إليها وهم يتذكرون أسماءها ويرددون كلمات الإعجاب بها.

خفت سرعة الريح بالتدريج حتى هدأت عند الظهر فظهر الارتياح على وجوه الجميع. أما المطر فقد استمر. وجد الطفلان في طعام الغداء الذي أعدته أمهما بمساعدة الجدة لذة أخرى. بعد الغداء تشاءب الجد وأغمضت الجدة عينيها. حاول الأب المشاورة على القراءة لكنه لم يتمالك نفسه من الإغفاء في مقعده هو الآخر. أما الأم فقد ظلت يقظة وكأنها تنتظر انقطاع المطر وعودة الحياة إلى طبيعتها. صحت السماء قليلاً عند العصر وتراكضت بعض الغيوم الكثيفة كأنها تولي هاربة بعد إلقاء حملها الثقيل. لم يأت أحد من الأقارب لزيارتهم بالطبع؛ إذ لا يُعقل أن يخرج أحد من بيته في مثل هذا الطقس. لكن الأقارب كثيراً ما يزورونهم عصر يوم الجمعة فيتسامرون ويلعبون بعض الألعاب الجماعية، وأحياناً يسود الهرج والمرج إبان اللعب فيشعر الطفلان بسرور عارم.

عادت الغيوم فغطت صفحة السماء واستمر المطر. جلس الطفلان إلى جانب أمهما قرب المدفأة. بدا عليهما النعاس فدعاهما جدهما للجلوس معه على الأرض، وغطاهما بعباءته الفضفاضة المبطنّة بصوف الخروف. مال الطفلان على صدر جدهما وأغفيا، وعندما استيقظا كان الظلام الدامس يملأ النافذة. خُيل إليهما لأول وهلة أن المطر قد انقطع لكنهما ما لبث أن سمعا صوته الرتيب ثانية. شُغل الطفلان عن المطر قليلاً بالحلوى التي أعدتها أمهما. انفرجت أسارير شادي وهو يقبل عليها

فقالت له شادن وهي تحاول أن تبث في قلبه الأمل: سنخرج إلى الحديقة يوم الجمعة القادم. سيكون الجو قد تحسن دون شك.

فقال والفرح يرفُّ على عينيه العسليتين: نعم سنخرج.

قالت لهما جدتهما: قولاً إن شاء الله.

وعادت شادن تقول: وسنذهب إلى الجبل أيضاً. أليس كذلك يا أمي؟

فقالت الأم: ستذهبان عندما يزول البرد تماماً.

قالت شادن: وسنقطف الزهور كما فعلنا في المرة الماضية.

فقال شادي: إن شاء الله.

ازداد وجه شادي إشراقاً لهذا الاحتمال، فأعطته شادن قطعة من نصيبها من الحلوى لتبعث في قلبه مزيداً من الفرح.

رأت أمهما أن تسليهما بالحديث عن النزهة المرتقبة في الجبل فسألتهما: وماذا تحبان أن تأخذا معكما؟

قالا معاً: نأخذك أنت.

قالت: لكنكما ذهبتما وحدكما في المرة الأخيرة.

قال شادي: إذن نأخذ سلة كبيرة.

قالت شادن موضحة: لنضع فيها زهور الجبل.

وعادت الأم تسألهما: وماذا تحبان أن تأكلا أثناء نزهتكما؟

قال شادي: هذه الحلوى.

وقالت شادن: والفطائر التي صنعتها للغداء.

بعد العشاء عادت الريح إلى العويل وراحت تضرب النافذة وكأنها تهدد باقتحامها. صدم الطفلان لعنفها، وعاودهما الخوف، وهوى قلب الأم بين ضلوعها. ما أشبه هذه الريح برسول غاضب يحمل رسالة عاجلة! بل ما أشبهها بوحش كاسر! إنها تحطم الأشجار، وقد تقتلع البشر أنفسهم. ولا شك أن بعضهم قد مات تحت وطأتها. وهذا المطر قد يؤدي إلى فيضان يغرق الناس في نهاية الأمر. بل إن الجبل الذي يحتضن البيت قد ينجرف بفعل المطر فيدفن سكان البيت تحته أحياء. أما الأب فقد نظر إلى النافذة بدهشة لم يفصح عنها. حاول أن يخفف من فزع الطفلين بدعوتهما إلى حل بعض الأحاجي الخفيفة فاستجابا له لكنهما توقفوا في أقرب فرصة سنحت لهما. عاد الأب ينظر إلى النافذة وقد تحولت دهشته إلى قلق. هب أن هذا الطقس استمر أيامًا فما العمل؟ هل تكفيهم مؤونة البيت عندئذ؟ لا سبيل لمعرفة حالة الطقس في الغد لأنهم لم يتسلموا جريدة اليوم، والمذياع لا يحسن التنبؤ الدقيق. هنا سمع الطفلان جدتهما تتكلم عن عاصفة. أما الجد فقد تمللمل في جلسته على الأرض، ثم قال وقد غاضت ابتسامته قليلًا: يبدو أن هذا المطر سيستمر طيلة الليل. لكن لا داعي للقلق الزائد.

بعد لحظات مال الأب نحو الأم وتبادل معها حديثًا قصيرًا هامسًا سمع منه الطفلان كلمات الطحين والأرز والوقود. أومأت الأم برأسها وهي تستمع إلى الأب وكذلك فعلت الجدة فبدا على الأب بعض

الارتياح. حاول الجد أن يسلي الطفلين بالحديث عن رحلاته في الصحراء والحيوانات التي شاهدها هناك، لكن الطفلين لم يجدا في أنفسهما رغبة في الاستماع إلى حديثه ذاك مع أنه يمتعهما عادة. وعندئذ قالت لهما الجدة: هل أحكي لكما حكاية الأرنب الذكي؟ لكن الطفلين لم يبيدا حماساً للاستماع إلى تلك الحكاية، رغم ولعهما المعروف بحكايات الجدة. قبل النوم ذهبت الجدة إلى ركن في الغرفة لتصلي كما فعلت أثناء النهار، لكن صلاتها طالت قليلاً في هذه المرة أو هكذا خيل للطفلين. في نهاية الصلاة علا صوتها بالدعاء كعادتها وترددت كلمة عاصفة ثانية. أخيراً أوى أهل البيت إلى الفراش على صوت الريح وهم ما بين خوف منها واستسلام لها. ولم يكن لديهم أدنى فكرة عما سيكون عليه الطقس في الغد.

عندما استيقظ الطفلان في الصباح التالي كانت الريح قد سكنت والمطر قد انقطع فشعرا بالارتياح، لكنهما لم يرغبا في الخروج إلى الحديقة كعادتهما بعد المطر. نظرا من النافذة فرأيا تراب الحديقة وقد اسودّ تقريباً بعد أن تشبع بماء المطر وأرضها وقد تكونت فيها برك صغيرة داكنة. لكن لشد ما كانت صدمتهما عندما رأيا بعض الأشجار وقد تدلت أغصانها أو تكومت على الأرض بعد أن كسرتها الريح.

قالت شادن لأمها وهي تشير إلى الأغصان المكومة على الأرض: يا لها من خسارة. إنها أغصان مورقة وبعضها محمل بالثمر.
وقال شادي: خسارة.

فقالت أمهما: خسارة فعلاً، لكن أشجارًا جديدة ستتمو في الحديقة. أما هذه الأغصان فسنستدفع بها في الشتاء القادم.
تذكر الطفلان كيف تطاير نوار الأشجار المثمرة بعد أن نشر غلاته الرقيقة فوق أجزاء من الحديقة، وكيف حلت الأوراق الخضراء الغضة محله بعد أسابيع قليلة. لكن ها هي بعض الأغصان التي تراحمت عليها تلك الأوراق ملقاة على أرض الحديقة.

قال لهما أبوهما أثناء تناول طعام الفطور: من المحزن أن تنكسر الأشجار بفعل الريح، لكن لا شك أن الطقس سيتحسن عمًا قريب، وعندئذ سنستمتع بالربيع كل الاستمتاع إن شاء الله.

خرج الأب إلى الحديقة لتفقدتها فوجد أن قسمًا صغيرًا من الجبل قد انجرف وتحول إلى أكوام من الطين تسد الطريق إلى الجزء الخلفي من الحديقة.

قالت الأم: هذا ما كنت أخشاه.

فقال الأب: فلنحمد الله على مرور العاصفة بسلام.

ثم أضاف أنه سيستدعي عاملاً يزيل الطين وينقل الأغصان إلى مخزن الحطب.

بعد الغداء جاءت العمة للاطمئنان على الأسرة وعلى الجددين خاصة. بدأت الغيوم المتراكمة تتفرق وأصبح بعضها نتفاً تسبح في الفضاء. نفذ شعاع من الشمس من بينها بعد لأي لكنه كان شاحباً مثل ابتسامة على وجه مريض. خرجوا جميعاً لتفقد الحديقة فلم يروا أثراً للبنفسج الذي انتشر في أواخر الشتاء مثل بساط داكن لامع، بينما تحولت السويت بيز إلى خيوط هزيلة ملقاة عند أسفل السور وتناثرت بقايا البانسيه في الحوض واختفت ألوانها الأخاذة تماماً. تقصفت سيقان السوسن قبل أن يفتح، ولم يبق من النرجس الذي كان يزدحم في حوضه إلا بعض أوراق ممزقة تلتصق بالطين. وكذلك كان مصير القرنفل. أما الزنبق الأصفر الذي كان من أجمل زهور الربيع في نظر الطفلين فقد بدا في ذلك اليوم وكأن قدماً غليظة قد داسته فمحته من الوجود تقريباً. تحسّر الطفلان على البنفسج الذي سحرهما بحجمه الدقيق وعطره الناعم الذي كان يفوح من مزهريات البيت قبل أسابيع قليلة. حزن شادي للسوسن الذي كان لونه بذكره بالشقائق الزرقاء، وشعرت شادن بالحنين إلى عبير النرجس الذي كان يختلط برائحة الحطب المحترق في المدفأة، فيذكرها ببرد الحديقة ويؤكد دفء البيت في نفس الوقت. قالت الأم وقد رأت أسى الطفلين على الزهور التي ازدانت بها الحديقة فترة وجيزة: من المحزن أن تنتهي الزهور هذه النهاية لكنها سوف تزرع في العام القادم من جديد.

عاد الطفلان إلى مدرستهما بعد يومين، وكان شادي الذي التحق بالصف الأول الابتدائي قبل شهور سعيداً بهذه العودة. أما شادن التي كانت في الصف الرابع الابتدائي فلم تقلّ عن أخيها سعادة. في صباح يوم الجمعة التالي استيقظ الطفلان على زقزقة الطيور التي بدت غريبة في مسامعهما بعد انقطاعها الطويل. كانت أشعة الشمس تغمر الفضاء فخرج الطفلان بلهفة إلى الحديقة التي أنهكها البلل. لسع البرد وجهيهما في البداية لكنهما لم يباليا به. أخذوا يرسمان مربعات على الأرض ويتباريان في القفز فوقها، وبعد قليل علت ضحكاتهما وتورد وجهاهما. وكان مما زاد في بهجة ذلك النهار مجيء بلقيس ابنة عمتهما التي شاركتهما لعبهما الصاحب.

ظلت الشمس ترسل فيض أشعتها في الأيام التالية، وما لبث أن شرع الربيع في ترميم ما أفسدته العاصفة. بدأ تراب الحديقة يخفي تحت أنواع مختلفة من الأعشاب الناضرة وازداد ورق الشجر كثافة حتى أصبح مثل مظلة فوق أجزاء من الحديقة. تفتح التيوليب بكؤوسه الأنيقة وألوانه التي لم يجد الطفلان لبعضها أسماء يعرفانها. تفتح الورد فتلون به فضاء الحديقة وتشبع بعطره الفخم فاستحق أن يلقب بملك الحديقة في نظر الطفلين. مع ازدياد الدفء ظهرت أنواع أخرى من الزهور لم يرها الطفلان من قبل. تكدست الزهور المختلفة في أنحاء الحديقة فامتلاأت بها مزهريات البيت وبعثت الأم بباقات منها للأقارب والأصدقاء. في حديقة المطبخ فاحت رائحة النعنع المنعشة، وعلت سيقان البصل الأخضر والثوم والبقدونس،

فسارعت الأم إلى إعداد المزيد من الأطباق اللذيذة للعائلة. قالت الأم يومًا وهي تعد أحد تلك الأطباق: ما أجمل هذا الربيع وما أكثر خيراته!
فقال لها الأب: ألم أقل لكم إنها سنة خير؟ لقد روى المطر الغزير عروق الأرض فبعث فيها الحياة على هذا النحو الرائع.

وهكذا أصبح الربيع بعد بدايته المتعثرة مدًا عارمًا لا يقف في وجهه شيء، وصار يحمل للحديقة في كل يوم شيئًا جديدًا يبعث الفرح والعجب في نفوس الصغار والكبار على السواء. راحت الحديقة تتفجر حياة وكان عاصفة أخرى تهز أركانها، وتعالى في أرجائها صياح الطفلين وضحكهما وهما يلعبان كل الألعاب التي يعرفانها، واختلطت ضحكاتهما بدفء الجو وعطر الزهور وألق الخضرة. وكم كان سرور الطفلين عندما رأيا في أطراف الحديقة زهورًا برية زحفت إليها من الجبل الذي ازدحم بها. كان للزهور البرية مكانة خاصة لدى شادن وشادي لأنها تنبت من تلقاء نفسها وكأنها هبة خالصة من الجبل، وهي أيضا مختلفة عن زهور الحديقة. في العام الماضي رأيا العديد منها مثل: الأقحوان وقرن الغزال والشقائق الحمراء والشقائق الزرقاء التي كانت أجمل من الحمراء في رأي شادي لكنها أقل عددًا. غير أن الشقائق طغت على كل الزهور الأخرى بجمالها فسميها ملكة الجبل. مع تقدم الربيع صار الطفلان يتحرقان شوقًا إلى رحلة الجبل الموعودة. وأخيرًا قال شادي: ها قد انتهى البرد فمتى نذهب إلى الجبل يا ترى؟

فقال له شادن: فلنسأل أمنا عن ذلك.

كان الجبل يقع خلف البيت الكبير تمامًا. وكان يرتفع في بعض المواضع وينخفض في بعضها الآخر لكنه لم يكن شاهقًا، بل كان أشبه بهضبة عريضة مترامية تقع بين شارعين رئيسيين في المدينة: علوي وسفلي. قبل سنوات اقتطع في منتصفه جزء بني فيه هذا البيت الكبير الذي كان يبدو بأناقته وحديقته الغناء مثل قلادة على الصدر.

كان لا بد للقادم إلى البيت من الشارع السفلي أن يصعد الدرج العالي المؤدي إليه. أما القادم من الشارع العلوي فكان لا بد له أن ينزل عن طريق الجبل نفسه. كانت بعض أجزاء الجبل قريبة جدًا من حديقة البيت لا يفصلها عنها إلا بوابتها وسورها ذو الارتفاع المتوسط. وكان سكان البيت إذا اجتازوا تلك البوابة ومشوا بضع خطوات إلى اليمين يجدون أنفسهم في موضع منبسط من الجبل يبدو وكأنه امتداد للحديقة. لكن ذلك الموضع كان في الحقيقة مختلفًا كل الاختلاف عن الحديقة لأن أرضه ظلت على طبيعتها منذ القدم، دون أن تمتد إليها يد فكان الانتقال إليه أشبه بالانتقال إلى عالم آخر.

كان بعض المارة يتنقلون بين الشارع العلوي والشارع السفلي عن طريق الجبل وعندئذ كانوا يقتربون من البيت الكبير كثيرًا. في بعض الأحيان كانوا يتوقفون أثناء الصعود أو الهبوط لالتقاط ما يشاؤون من الزهور والنباتات وغيرها، وفي الربيع والصيف اعتاد بعض الرعاة أن يهيموا مع أغنامهم؛ أي أن الجبل كان مكانًا عامًا مثل أي ساحة في المدينة، وكان الناس الذين يمرون به

صعودًا أو هبوطًا من فئات مختلفة. لكن أكثرهم كانوا ممن يسمح لهم سنهم بالصعود والهبوط على الأقدام. أما رحلة الجبل التي أصبح شادن وشادي لا يكفان عن الحديث عنها بحنين بالغ، فهي لم تزد في العام الماضي لين الخروج من بوابة الحديقة إلى الموضع المجاور لها من الجبل، واللعب هناك والتقاط الزهور وتناول بعض الطعام دون الابتعاد عن البوابة. وهي لم تستغرق إذ ذاك أكثر من نصف ساعة.

في أواخر الربيع وافقت الأم على خروج طفليها في رحلتها إلى الجبل. في ذلك اليوم كانت الشمس تصب أشعتها الرقيقة على الحديقة بينما الأشجار تلقي بظلالها الكثيفة على أجزاء منها. أما الأزهار فكانت تتوهج وكأنها تبارك الرحلة المنتظرة. وضعت الأم الفطائر التي طلبتها شادن والحلوى التي طلبها شادي في سلة واسعة. وفي العصر وقفت عند البوابة تشاهد طفليها وهما ينطلقان إلى الموضع القريب من الجبل وقد لبسا ملابس ربيعية زرقاء والبسمة لا تفارق وجهيهما. قالت لهما الأم: العبا كما تشاءان واقظفا كل الأزهار التي تريدانها واستمتعا بنزهتكما هذه كل الاستمتاع، لكن إياكما والابتعاد عن البوابة. وسأعود إليكما بعد حوالي نصف ساعة فتدخلان وتنتهي الرحلة. لم يكن في الجبل ما يدعو إلى الخوف في الحقيقة فالناس الذين يمرون به قلائل وخاصة يوم الجمعة. من الصحيح أن سكان البيت الكبير لم يعرفوا عنهم الكثير لكنهم لم يواجهوا أي مشاكل بسببهم في الماضي. ومثلهم في ذلك الرعاة وسكان البيوت القليلة عند

أطراف الجبل. أما حيوانات الجبل فهي لم تزد على أغنام الرعاة وبعض الحيوانات الأليفة. كان يقال إن ناسكاً يعيش في الجبل وهذا لا يخشى منه خطر بالطبع بل هو بركة. والأهم من ذلك كله أن الطفلين مطيعان عادة ولا يتوقع منهما أن يبتعدا عن البوابة، لكن الأم رأت أن تحذرهما رغم ذلك.

كان أول ما فعله الطفلان لدى خروجهما من البوابة إلى تلك البقعة المختارة من الجبل، القفز المتواصل ثم الركض ثم الدوران السريع وكل منهما يمسك بيدي الآخر إلى أن هبطا على الأرض وقد غلبهما الدوار. نهضا بعد قليل وراحا يتسابقان في الركض ذهاباً وإياباً، ثم أخذ أحدهما يطارد الآخر وهما يضحكان ضحكاً متواصلاً. عندما انتبها إلى أنهما تجاوزا المساحة المخصصة للنزهة عادا على الفور. كان الجبل بالنسبة للطفلين أرضاً غريبة مثل الصحراء التي يتحدث عنها جدهما، لكنها لم تكن مجهولة مثلها. أما ذلك الجزء من الجبل المجاور للحديقة فقد كان معروفاً لديهما، بل محبوباً فلا أشجار فيه تعيق اللعب ولا مزروعات يخشى إتلافها، وها هي شمس تبعث فيهما اليوم دفئاً عذباً بعد كل ذلك البرد.

كان العشب في تلك البقعة من الجبل كثيفاً، وكان يلتمع لمعاناً غريباً في أشعة الشمس. وعندما داسته أقدامهما لأول مرة كادا ينزلقان عليه لنعمته، فصاحا فرحاً ثم عادا إلى ضحكهما الصاخب. جلسا على ذلك العشب الذي يشبه بساطاً حريراً، وراحا يتقلبان عليه ويتمرغان فوقه غير عابئين بالملابس الزرقاء الأنيقة، ثم راحا يغنيان تلك الأغنية التي تعلمها حديثاً عن قدوم

الربيع. أخيراً أكلا ما وضعتة أمهما في السلة وهما يتفحصان الزهور الصغيرة البيضاء والصفراء التي كان شكلها أجمل من رائحتها بكثير. انسحق بعض تلك الزهور الرقيقة تحت أقدامهما، لكنهما لم يأبها لها في غمرة فرحهما برؤية بعض الشقائق الحمراء عند طرف المساحة المخصصة لنزهتهما. نظرا إليها وكأنها شيء خارق طال انتظاره. لا شيء يضاهي الشقائق الحمراء في رأي شادن! ما أشد اختلافها عن تلك الزهور البيضاء والصفراء التي لا يعرف أسماءها أحد!

قال شادي: انظري! إنها كالدم.

فقالت شادن: إنها كثوب أمنا الذي لبسته في عيد ميلادك.

عندما اقتريا من الشقائق وجدا صفوفاً كاملة منها تختبئ في منخفض بسيط من أرض الجبل. لم ير شادن وشادي مثل هذا العدد من الشقائق الحمراء من قبل قط. كانت أكثر من شقائق العام الماضي بكثير. بل إنها كانت مثل حقل صغير من الشقائق الحمراء يفوق كل أحلامهما. ما أكثرها! وما أجملها! خاصة تلك التي كانت أوراقها تتعانق برقة قبل أن تتفتح. لم يضع شادن وشادي وقتاً بل بادرا إلى قطف الشقائق بحماس شديد. بدأت سلتها تمتلئ بسرعة فقالت شادن: ستكون هذه الشقائق رائعة في مزهريات البيت.

قال شادي: وستملؤها كلها.

بعد دقائق امتلأت السلة بكمية من الشقائق الحمراء تكفي لتزيين البيت

بأكمله.

قال شادي بعد قليل: لكن أين هي الشقائق الزرقاء؟ إني لا أرى منها شيئاً.

قالت شادن: لا بد أن نجدها في مكان قريب. تعال نبحث عنها.

ركضا حتى تجاوزا مكان الزهرة. لكنهما سيعودان بمجرد أن يقطفا بعض الشقائق الزرقاء. لم يريا لها أثراً في البداية، لكن شادن لمحت واحدة أو اثنتين عن بعد فركضت إليها بسرعة ولحق بها شادي. وعندما وصلت إليها وجدتها أكثر عدداً مما كانت تتوقع فبدأت تقطفها بفرح شديد. ثم رأت المزيد منها عن بعد. رأت حقلاً صغيراً كاملاً من الشقائق الزرقاء يشبه حقل أخواتها الحمراء! ما أكثر الزهور هذا العام! في الجبل كما في الحديقة! إنه المطر الغزير كما قال أبوهما. أسرعت شادن إلى حقل الشقائق الزرقاء، وكان شادي يمشي وراءها ويلتقط ما يعجبه من الزهور الأخرى. نسيت شادن ابتعادها عن شادي وعن البوابة وراحت تقطف حقل الشقائق الزرقاء وهي تصيح بأعلى صوتها: إني لم أر لهذه الشقائق الزرقاء مثيلاً قط. ما أجملها! سأقطفها لك كلها يا شادي. تعال وساعدني إذا أردت.

قال شادي بفرح ظاهر وهو يمشي خلفها: هأنذا قادم فنحن لن نبقي من هذه الشقائق الزرقاء في الجبل شيئاً!

مضت شادن تقطف كل ما تراه من الشقائق الزرقاء بنشوة بالغة وقد نسيت نفسها ومكانها. وعندما نظرت إلى السلة أخيراً رأت عدداً هائلاً منها قد تجمع فيها فقالت: ها قد جمعت لك عدداً منها يكفي لتزين البيت كله إذا

أردت. انتظر فسأتى إليك يا شادي. علينا أن نسرع بالعودة الآن لأن أمي تنتظرنا.

لكنها لم تسمع شادي يجيئها فاستغربت. التفتت وراءها فلم تره. لا شك أنه وجد طائفة أخرى من الشقائق الزرقاء فهرع إليها.

وضعت شادن الشقائق الزرقاء في السلة بحرص شديد ثم حملتها وعادت أدراجها إلى حيث كان شادي. لكنها لم تجده.

صاحت: شادي. تعال يا شادي. لقد حان موعد عودتنا إلى البيت.

لكنها لم تسمع جواباً فقالت: شادي. أين أنت يا شادي؟ أين ذهبت؟ وإذ لم تسمع إجابة في هذه المرة أيضاً صاحت: شادي! أين تختبئ يا شادي؟ تعال وانظر إلى هذه الشقائق الزرقاء التي جمعتها لك. انظر ما أجملها وما أكثرها!

لكن شادن لم تسمع إلا الصمت. تلفتت ثانية فلم تر شادي. بحثت عنه في حقل الشقائق الزرقاء فلم تر له أثراً.

وعادت تصيح: شادي! تعال فوراً يا شادي!

لم يكن من عادة شادي أن يمعن في العبث لكن شادن صاحت ثانية:

- كف عن هذا العبث يا شادي. تعال فقد حان موعد عودتنا إلى البيت.

لكنها لم تحظ بأي جواب في هذه المرة أيضاً. ركضت إلى حيث كان شادي يمشي وراءها لكنها لم تجد أحداً. علا صياحها وملاً نداؤها الجبل:

شادي! شادي! شادي!

وردد الصدى وراءها : شادي! شادي! شادي!
 خيل إليها أن في صوت الصدى تأنيبًا واضحًا، لكن شادي لم يجب ولم
 يظهر. أين اختفى؟ أين ذهب؟

وعادت تنادي: شادي! شادي! شادي! شادي!
 وعاد الصدى يردد وراءها: شادي! شادي! شادي! شادي!
 وخيل إليها في هذه المرة أن الصدى يسخر من صوتها الملهوف.
 تعثرت شادن في مشيها وسقطت على الأرض وهي تردد اسم شادي
 بأعلى صوتها. ثم نهضت. لا شك أن شادي موجود على مقربة. لا يمكن أن
 يكون قد اختفى بهذه السرعة. لا بد أن تجده. ركضت في أنحاء المنطقة
 المحيطة بها من الجبل. ابتعدت كثيرًا عن بوابة الحديقة بالطبع لكن دون أن
 تأبه لذلك في هذه المرة، فلا بد لها أن تجد شادي.

عندما رأت راعيًا متجهًا نحوها من بعيد ركضت إليه ركضًا محمومًا
 وسألته: هل رأيت شادي؟

فسألها مستغربًا: شادي؟ ومن يكون شادي؟

قالت: شادي أخي. هل رأيته؟

قال: لا.

قالت: إنه يلبس ملابس زرقاء مثلي. فهل رأيته؟

قال الراعي: لا لم أره. لم أر أحدًا يلبس ملابس زرقاء اليوم غيرك.

نظرت شادن إلى الراعي في ذهول. أيعقل أن هذا الراعي لم ير شادي؟ لقد كان شادي خلفها قبل قليل. فكيف لم يره الراعي؟ أين شادي إذن؟ لا شك أنه في مكان قريب.

عادت شادن إلى حقل الشقائق الزرقاء بسرعة مجنونة وقلبها يكاد يقفز من مكانه. لعل شادي عاد إلى ذلك الموضع بعد اختبائه. لكنها لم تر أحداً. كانت تلك البقعة من الجبل خالية تماماً. ليتها لم تبتعد عن شادي أبداً! ليتها لم تتركه يغيب عن نظرها لحظة واحدة! ليتها أمسكت بيده طيلة الوقت. ليتها لم تنس نفسها لدى رؤية الشقائق الزرقاء! لكنها كانت تقطف الشقائق الزرقاء من أجل شادي؛ كانت تجمعها لتدخل المزيد من السرور إلى قلبه. ألا ليتهما لم يخرجا إلى الجبل! كانت هذه الأفكار مثل صفعات تنهال على وجهها. أين ذهب شادي؟ ماذا حدث له؟ صاحت شادن صيحة تشبه العواء ثم سقطت فوق سلة الزهور وهي تشهق وتكاد تختنق فانقلبت السلة ووقعت كل زهورها على الأرض. بكت شادن حتى ابتل ثوبها والتراب الذي كان يحتضن الشقائق الزرقاء قبل قليل. لقد كان شادي يمشي وراءها قبل دقائق فأين ذهب؟ كيف اختفى دون أن يقول لها شيئاً؟ إنها لا تستطيع أن تعود إلى البيت بدونها. لا بد لها أن تجده.

عادت شادن تصرخ وتستغيث حتى أحست بحنجرتها تكاد تتمزق. ثم سيطر عليها الرعب التام وشعرت بشيء حاد يخترق قلبها. عادت تشد ثوبها حتى تمزق ذيله. كيف يذهب شادي وحده إلى حيث لا تعلم؟ كيف يختفي

شادي هكذا في لحظات؟ من لها بمن يأخذها إلى حيث ذهب شادي؟ لا شك أن أحدًا يعرف مكانه. ولا شك أن أحدًا يستطيع مساعدتها في العثور عليه. وبينما هي على هذه الحال رأت راعيا آخر مقبلاً من بعيد. لا شك أنه سمع عويلها فجاء يستطلع الأمر. إنه يعرف كل مكان في الجبل ولا شك أنه رأى شادي. ركضت شادن إلى الراعي وسألته وهي تجهد في التوقف عن البكاء: هل رأيت شادي؟ أخي شادي. لا بد أنك رأيته في هذا الجبل. لقد كان هنا قبل قليل.

أبطأ الراعي في الجواب فنظرت إليه بصبر نافد. وأخيراً قال: لا لم أر أخاك.

صعقت شادن لجوابه وعادت تسأله: كيف لم تره؟ لقد كان هنا قبل قليل. قال الراعي: لم أره.

قالت شادن: أين أخي شادي إذن؟ أين ذهب؟ فأجاب: لا أدري. لا أظن أن في هذا الجبل ذئبًا. فقالت شادن: ذئبًا؟

قال الراعي: لا ليس في هذا الجبل ذئاب.. لكن... فسألته شادن: لكن ماذا؟

صمت الراعي قليلاً ثم أجاب: لكن بعض الذئاب لا ترى. صاحت شادن: ماذا تقول؟ أين أخي؟ أين ذهب أخي؟ صمت الراعي ثانية ثم قال: لا أعرف.

مشى الراعي مع أغنامه بعيداً فوجدت شادن نفسها وحيدة في الجبل ثانية. تملكها الرعب من جديد لكن حيرتها طغت على الرعب لحظات. أين ذهب شادي؟ كيف اختفى فجأة؟ أهى في حلم؟ أين تجد شادي؟ وكيف؟ إنها لا تستطيع أن تعود إلى البيت بدونه. ركضت ثانية وقد تشعث شعرها وتمزق ثوبها وتعفر بالتراب. كانت الدموع تنهال من عينيها دون توقف، ولم تعد تعرف مكانها من الجبل.

فجأة رأت أمامها راعياً ثالثاً فسألته بصوت مبحوح: ألم تر أخي شادي؟ لقد كنا معاً في الجبل قبل قليل. لكنه اختفى فجأة.

قال بعد أن عرف المزيد عما حدث: لا شك أن أحداً قد خطفه.

صاحت شادن في هلع: خطفه؟ من خطفه؟

قال الراعي: الخاطفون كثيرون.

قالت شادن: لكنني لم أر أحداً. ولم أسمع أحداً.

غير أنها تذكرت كيف خلفت شادي وراءها في بحثها عن الشقائق الزرقاء، وكيف دفعها حماسها الزائد إلى الابتعاد عنه مسافة لا تعرفها ومدة لا تذكرها. لذلك لم تر أحداً ولم تسمع شيئاً. ويلاه! إنها المسؤولة عن اختفاء شادي! إن الذنب ذنبها! ولقد حذرتهما أمهما من الابتعاد عن البوابة! كيف تعود إلى البيت بدون شادي؟ ماذا سيقول أبواها؟ وكيف تواجه غضبهما؟ وأين شادي؟

قال الراعي بعد لحظات ردًا على كلامها: الخاطفون لا تراهم عين ولا تسمعهم أذن عادة.

قالت شادن: ماذا تقول؟

قال الراعي: الخاطفون.. أعني الإنس.. وربما... بسم الله الرحمن الرحيم..

قالت شادن: ماذا؟

قال الراعي: ربما.. بسم الله الرحمن الرحيم. ربما كانوا من الجن.. تذكرت شادن حكايات جدتها عن تلك المخلوقات الغريبة التي لا ترى وتذكرت معارضة أمها لتلك الحكايات. إذن فالجن حقيقيون.

قالت شادن للراعي: ماذا أفعل الآن؟ ماذا أفعل؟

قال: اذهبي إلى الشيخ فقد يستطيع مساعدتك.

قالت: أي شيخ؟

قال: الشيخ الذي يعيش تحت الشجرة.

قالت: أي شجرة؟

قال: تلك الشجرة البعيدة.

ركضت شادن في الاتجاه الذي أشار إليه الراعي بلا تردد. لا شك أن الشيخ يعرف أكثر مما يعرف الراعي بكثير وهو أقدر منه على مساعدتها في العثور على شادي. عندما اقتربت من الشجرة التي أشار إليها الراعي رأت شيخًا يجلس تحتها فتوقفت عن الركض، وراحت تنظر إليه وهي تجفف

عينها بيديها المعفرتين بالتراب. كان الشيخ رث الثياب حافي القدمين ويمسك بيده كتاباً ممزقاً، لكنه لم يكن يقرؤه بل كان يتمتم بشيء وعيناه مغمضتان. فتح الشيخ عينيه ونظر إلى كتابه لكنه انتبه إلى وجود شادن أمامه فقال والدهشة ترسم على وجهه: خيراً يا ابنتي! ماذا حدث؟ هل ضللت الطريق؟

كان صوت الشيخ ينم عن العطف فاطمأنت قليلاً وقالت: لقد اختفى أخي شادي! لقد ضاع!

قال الشيخ: أعوذ بالله! كيف ضاع؟

قالت شادن: لقد خطفه شخص!

قال الشيخ: أعوذ بالله! هل أنت متأكدة مما تقولين يا ابنتي؟

قالت شادن وهي تبكي وتشهق: هكذا قال الراعي!

سألها الشيخ: متى رأيت أخاك آخر مرة؟

قالت شادن وصوتها يختنق بالبكاء: كنا معاً في الجبل قبل قليل. ثم

اختفى. لا أدري كيف.

قال الشيخ: عليك أن تخبري أباك حالاً لكي يبلغ الشرطة بما حدث.

وعندئذ تقوم الشرطة بواجبها.

أهذا كل شيء؟ لقد كانت تظن الشيخ قادراً على إعادة شادي فوراً ودون

استعانة بأحد. عاد الشيخ إلى التمتمة وهو يغمض عينيه فرأت أن توضح له

الأمر: يقول الراعي إن الخاطفين ربما كانوا من الجن.

قال الشيخ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! هذا جائز أيضًا.

راح الشيخ يتلو ويدعو ثانية وهو مغمض العينين. ثم توقف عن التلاوة والدعاء فقالت له شادن وقد نفذ صبرها: ساعدني في العثور على أخي شادي أرجوك. قال لي الراعي إنك تستطيع مساعدتي. أين أخي شادي؟ أرجوك! قال الشيخ: لقد تلوت لأخيك الأدعية اللازمة وسأتلو المزيد الليلة، والدعاء كثيرًا ما يستجاب. وعلى الشرطة أن تقوم بالباقي. أسرعي يا ابنتي فأخبري أبأك. كلما أسرعت زاد الأمل في العثور عليه.

لكن شادن ظلت تقف أمام الشيخ. أهذا كل ما يستطيعه؟ قال الشيخ وكأنه عرف ما يدور في ذهنها: إني لا أملك إلا الدعاء يا ابنتي وهو كثيرًا ما يستجاب.

سألته شادن: هل يعيد الجن أخي شادي؟

قال الشيخ: هذا جائز. كل شيء جائز بمشيئة رب العالمين. جائز! جائز! أهذا كل ما يستطيع الشيخ قوله؟ لقد ظنته قادرًا على ما لا يقدر عليه غيره. ليتها لم تأت إليه طالبة المساعدة. لكن جدتها تكثر من الدعاء هي الأخرى وتقول إنه مفيد. إذن ربما أفلح الشيخ في إعادة شادي بدعائه. متى يعود شادي إذن؟ متى؟

تذكرت شادن أن النهار قد تقدم وأنها لم تعثر على شادي بعد فكاد الرعب يشل قواها. ماذا سيقول أبوها؟ ماذا ستقول أمها؟ وماذا ستقول لهما؟ وأين شادي؟ أين شادي؟ لكنها في النهاية لم ترمفًا من التوجه إلى البيت،

فراحت تجر خطاها إليه وهي تتجنب حقل الشقائق الزرقاء. لم تعد تقوى على الصراخ لكن دموعها ظلت تنهال حتى لم تعد تتبين الطريق. كانت تشعر بإعياء شديد لكن رعبها كان أشد، أما الحزن فكان يمزق قلبها ويكاد يفقدها صوابها. إنها لم تفترق عن شادي يوماً واحداً من قبل فأين هو؟ هل هو في خطر؟ وهل يجد من يحميه؟ أخيراً رأت أباه من بعيد وهو يقف في منتصف الجبل ويتلفت في كل اتجاه. وبدا لها في تلك اللحظة هزياً حائراً كأنه شخص غريب لم تره من قبل. ورأت أمها تقف جامدة عند البوابة كتمثال. عندما اقتربت من أبيها قرأت في وجهه الرعب المطلق إذ رآها وحدها وأدرك من منظرها هول ما حدث. ثم رأت ملامحه تلتوي غضباً. وقفت أمام أبيها منكسة الرأس وهي تنتحب، ثم سمعت السؤال المدوي الرهيب الذي لا تملك له جواباً: أين شادي؟ أين أخوك شادي؟ أين شادي؟ لكن شادن سقطت على الأرض وغابت عن الوعي.

عندما صحت شادن كانت ترتجف بشدة من أثر الحمى التي دهمتها فلزمت الفراش وهي تهذي باسم شادي. في تلك الأيام ازدحم البيت الكبير بالأقارب والأصدقاء وضح بالعويل والدعاء وانقلب نظامه رأساً على عقب. توقف أفراد الأسرة عن كل أعمالهم ولزم الأب البيت وهو يصلي ويقرأ القرآن، وكذلك فعل الجد والجدة، وبدأت الأم تصلي لأول مرة. ظلت شادن تلازم الفراش حتى بعد أن فارقتها الحمى وامتنعت عن الأكل

والكلام. انتقلت من غرفة أبيها إلى غرفة مستقلة كانت تجلس فيها وحدها أو بين أهلها دون حراك وعيناها تحدقان في نقطة بعيدة لا تتحولان عنها. استمرت الصلوات وطالت القراءات وكثرت النذورات ولم تتوقف الألسنة عن الدعاء الحار ليلاً أو نهاراً. لكن الصيف بدأ وشادي ما يزال غائباً. وعندئذ أخذ الأمل الذي يضيء ظلام البيت الكبير يخبو، وراح الصمت ينمو مثل طبقة صلبة على الجدران، ولم يعد أفراد الأسرة يجروون حتى على تبادل النظر. أقفل باب غرفة شادي إقفالاً محكمًا وصار الجميع يتجنبون الاقتراب منها.

في حر الصيف هزلت الأجسام وشحبت الوجوه وكلت الأبصار لكثرة البكاء. ظل الرعب يطل من عيني شادن وكأنها ترى أشباحاً من بعيد، وظلت تحتفي بالصمت. ذوى عودها هي الأخرى وانطفأ بريق عينيها وهي تغالب حلقة اليأس كبقية أفراد أسرتها. أخيراً جاءت إلى القرآن مثلهم واستغرقت في قراءة ما تعلمته منه في المدرسة وما تعلمته في البيت. قال لها أبوها إن الصلاة من أنجع الوسائل التي ستؤدي إلى العثور على شادي، وأكدت لها جدتها أن الله يجيب دعاء الصغار، فأقبلت على الصلاة بكل جوارحها وتضرعت إلى الله بكل الكلمات التي تعرفها. لكن الأيام مرت دون أن تعثر الشرطة لشادي على أثر. ألحت عليها نفس الأسئلة مرة بعد أخرى: كيف اختفى شادي في لمححة بصر؟ لماذا سمح الله باختفائه؟ أكان ليختفي لو لم تبتعد عنه؟ غير أنها لم تجرؤ على توجيه هذه الأسئلة لأحد. ظل الندم يعذبها: لو اتبعت تعليمات

أمها ما اختفى شادي. لو لم تنس نفسها لدى رؤية الشقائق الزرقاء ما ضاع شادي. لو رعت أختها الصغير حق الرعاية ما فقدته. لكن شادن لم تفعل ما فعلته إلا لتدخل المزيد من السرور إلى قلب شادي.

حاولت شادن قراءة بعض القصص المدرسية لتدفن فيها بعض أحزانها، لكنها سرعان ما توقفت لأن القصص ذكرت شادي الذي كان مغرمًا بها. لم ترد لشيء أن يذكرها بشادي. لم تكن تقوى على تذكر وجهه أو صوته أو النظر إلى أي صورة له. لم تستطع الحديث عنه مع أمها أو غيرها من أفراد العائلة، لكنه لم يغب عن ذهنها لحظة واحدة. وعندما كانت تخلو إلى نفسها تحت شجرة اللوز التي كسرت العاصفة أغصانها، كانت دموعها تسيل غزيرة صامتة محرقة. كثيرًا ما تخيلت أن تلك الدموع قد تفلح في إعادة شادي إليهم لكن وهمها كان سرعان ما يتبدد فيتمكن منها اليأس من جديد. لم تستطع لها أمها شيئًا فتركها تستغرق في أحزانها آملّة أن تنحسر تلك الأحزان يومًا عندما تبلغ أقصى مداها. قضت شادن معظم الصيف في الجلوس تحت شجرة اللوز التي أصبحت لها مثل بيت ثان. كانت في كثير من الأحيان تتصور ما ستقوله لشادي عند عودته ثم تتذكر غيابه الطويل ويأسهم المتزايد، فيطبق عليها الحزن مثل وحش مفترس. لقد كان شادي أقرب الناس إليها لكنها أضحت لا تعرف له مكانًا. لقد كان أحب الناس إليها لكنها فقدته في لحظات. إنها لا تصدق أن شادي غائب منذ أشهر دون أن يعرفوا عن مصيره

شيئاً. إنها لا تعرف كيف تفسر غيابه أو تتحمله. ألا ليتها تذهب إلى حيث ذهب.

كان الجد يقول من وقت لآخر: يجب ألا نياس من رحمة الله، فشادي في هذه المدينة، ولعله في بيت قريب من بيوتها. والأرجح أنه بخير. وقد تتمكن الشرطة من العثور عليه قريباً. ربما هي مسألة وقت لا أكثر. لكن الجد كان يغرق بعد ذلك في صمت غريب أصبح مألوفاً منه. وعندما كان يتلو القرآن في المساء كان صوته يرتجف بعد أن كان مفعماً بالقوة والثقة. ظلت الجدة تتمتم بالدعاء والدموع تترقق في عينيها طيلة الوقت. أما الأب فقد كان صمته عميقاً مظلماً يصعب اختراقه. طالت لحيته وظهر الشعر الأبيض في رأسه، وأحاطت دوائر سوداء بعينه. وأما الأم فكانت مقرحة الجفون مهملة الشعر غارقة في ثيابها القاتمة التي أصبحت تشبه ثياب الجدة.

عادت شادن إلى المدرسة في أوائل الخريف لأول مرة منذ اختفاء شادي، لكن دوامها كان متقطعاً. مرت ليالي الشتاء بطيئة مثقلة بذلك الحزن القاهر الذي يزهد الأنفاس، لكن الأسرة لم تجرؤ على التطلع إلى الربيع لأن ذكرى الربيع الفاتت كانت تفوق احتمالها. ظل أفراد الأسرة يستعينون بالصلاة وقراءة القرآن، وظلت الدموع سخية رغم خفائها أحياناً، لكن الدعاء فتر في البيت الكبير شيئاً فشيئاً حتى أصبح يتطاير مثل أوراق الشجر الجافة. بدؤوا يحاولون العودة إلى حياتهم العادية وهم يشجع بعضهم بعضاً، لكنهم كانوا يتعشرون. في نهاية الشتاء أتمت شادن السنة الحادية عشرة من عمرها

وأصبحت البراءة في وجهها تختلط بتلك المعرفة القاسية التي جاءت قبل الأوان وحملت معها ذلك الحزن المدمر الذي يمحو ابتسامتها محوًا. لقد كان شادي مثل زهرة من زهور الحديقة لكنه ذبل وكأنه لم يكن. كان مثل عصفور من عصافيرها لكنه طار بعيدًا إلى حيث لا يعرف أحد. كان مثل كثير من الأشياء الجميلة التي يتعلق بها القلب ولا يطول بقاؤها. أيعقل أنها لن تراه ثانية؟ أيعقل أنها لن تسمع صوته ثانية؟ لقد كانت هي وشادي مثل شخص واحد فكيف ينفصلان؟ لقد كان الواحد منهما ظلًا للآخر فكيف يفترقان؟ أين هو؟ ومتى تراه؟ وهل تراه؟ اضطرت شادن في تلك السن المبكرة إلى مواجهة تلك الأسئلة دون أن تجد لها جوابًا. لم تفارقها صدمة اختفاء شادي البتة. وكلما ظنت أنها استوعبت ما حدث وبدأت توطن نفسها على الواقع المريع كانت تحس بالأرض تميد تحت قدميها وبالألم يخترق قلبها مثل نصل حاد.

جاء الربيع في وقته المعتاد حاملاً معه عطاياه المعتادة. امتلأت الحديقة بالزهور ثانية وتشبع هواؤها بالعطر لكن مزهريات البيت ظلت خاوية. اكتسى الجبل حلته الربيعية المعتادة لكن شادن أشاحت بوجهها عنه وهي تتمنى لو كان بعيدًا عن البيت. غير أن الأشجار التي انكسرت أغصانها في الربيع الماضي بدت شبه مكتملة عندما أوقرت ثانية. مع قدوم الربيع بدأت ذكريات العام الفائت تلح على شادن إلحاحًا قاسيًا فعادت إلى الجلوس تحت شجرة اللوز كلما سمح الطقس بذلك. رأت زهرها ثم أوراقها وثمرها

لكنها لم تشعر بشيء من فرحها القديم بها. مع اقتراب الذكرى الأولى لاختفاء شادي راحت الذكريات تنهشها نهشًا. تذكرت لهفة شادي على تلك النزهة وفرحه بها، تذكرت حبه للشقائق الزرقاء، والأغنية التي غناها معًا، وملمس يديه وهما يدوران معًا في أرض الجبل. تفجرت دموع شادن على نحو ظنت معه أنها لن تجف أبدًا. كانت تلك الدموع تسكن ألمها إلى أن يعاودها بضراوة أشد، وكانت تنسيها أسئلتها الكثيرة إلى أن تحاصرهما من جديد. والحقيقة أن شادن لم تعد تملك غير بكائها الملتاع بعد أن فشلت الصلاة والدعاء في إعادة شادي إليهم، وبعد أن ذهبت جهود الشرطة سدى.

في الذكرى الأولى لاختفاء شادي ازدحم البيت بالأقرباء والأصدقاء ثانية وعلا النحيب من جديد وسالت الدموع كما لم تسلم من قبل. في ذلك الصباح صحت شادن وهي تصرخ، وما لبثت أن فقدت وعيها فحملت إلى الفراش وهي تهذي باسم شادي ثانية. كان اختفاء شادي ما يزال لغزًا دون حل حتى بعد مرور عام كامل. وعندما أعلنت الشرطة في ذلك اليوم عجزها التام عن العثور عليه بدأ أفراد الأسرة يواجهون السؤال الصعب الذي تجنبوه طويلاً: هل ما زال شادي على قيد الحياة؟ وإذا لم يملكوا إجابة عن ذلك السؤال بدؤوا يوطنون أنفسهم على ما قد يكون الفاجعة النهائية. عندما تماثلت شادن للشفاء من الحمى التي عاودتها في ذلك اليوم سمعت جدها يقول لجدها إن شادي ربما كان الآن يرتع في روضة من رياض الجنة التي لا تعدلها روضة على وجه الأرض. وسمعت جدتها تقول إن شادي ربما كان

الآن ينعم بصحبة الملائكة. لكن شادن لم تصدق أن الحياة في الجنة أجمل من حياتهما معاً أو أن صحبة الملائكة أمتع من صحبتها.

بعد أن تغلغل الصمت في ثنايا البيت الكبير أشهرًا طويلة عادت الأسرة إلى شيء من الحديث المتصل. قالت الأم لشادن بصوت متهدج إن شادي قد لا يعود أبدًا، لكن الرابطة بينهم وبينه لن تنفصم أبدًا لأنها مثل الليل والنهار في ثباتها. وقال لها أبوها والإرهاق بادٍ عليه إن ما حدث قضاء الله لكن اللقاء شيء أكيد في الآخرة. بل إن اللقاء يقترب كلما طال الفراق، وعندئذ يلتئم شملهم ثانية. كان أبوها على صواب. فشادي أخوها حيثما كان، وهو أخوها إلى الأبد، وحبها له سيظل جزءًا منها مثل تنفسها ونبضات قلبها، وهي ستلقاه ثانية مهما طال الزمن. لكن لماذا قضى الله باختفاء شادي أصلاً؟ أجابت أمها أن الحياة تحفل بمسائل تستعصي على الفهم. وأجاب أبوها أن من الكفر الاعتراض على قضاء الله. قال إن كل الناس زائلون وهم سيختفون من على وجه الأرض عاجلاً أو آجلاً. لكن شادن كانت تعرف أن شادي ما كان ليختفي لو لم يبتعدا عن البوابة، وأنه ما كان ليختفي لو لم تتركه وحده في غمرة فرحها بالشقائق الزرقاء. إنها المسؤولة عما حدث لأنها الأكبر. ولقد أنبها أبوها تأنيبًا شديدًا متكررًا، وقالت لها أمها بصرامة لم تعهدا منها إن التعليمات وضعت لكي تتبع. إنها تستحق العقاب دون أدنى شك ولا عقاب يفوق هذا الألم الذي تعانيه. لكن شادن لم تترك شادي إلا لتقطف له الشقائق الزرقاء التي يحبها. ألا يخفف هذا من ذنبها؟ لقد أحبت شادي من كل قلبها،

والحب أئمن هبة يتبادلها البشر كما تقول أمها. ألا يشفع لها هذا ولو قليلاً؟
وهذه الدموع التي ذرفتها عامًا كاملاً ألا تخفف من ذنبها هي الأخرى؟ ألا
تمحوه؟

في بداية العطلة الصيفية تسللت شادن إلى غرفة شادي لأول مرة منذ
اختفائه. رأت سريره وثيابه وكتبه وأعباه التي لم تمسها يد منذ ذلك اليوم.
رأت صورته المعلقة على جدرانها ومن بينها الصورة المفضلة لديها، وفيها
يجلس على عتبة البيت وينظر إلى بعيد غافلاً عما تحبّه له الأيام. نظرت
شادن إلى الصورة طويلاً، إلى عينيه وشعره والابتسامة الخفيفة التي ترفّ
على شفتيه. تذكرت صوته وكلماته، خاصة الاسم الذي أطلقه عليها عندما
بدأ الكلام: سا. تذكرت تلك الأنشودة المدرسية التي كان لا يفتأ يرددّها: أنا
طفل صغير، لكن قلبي كبير. استرسلت شادن في ذكرياتها وهي تعجب
لقدرتها على ذلك بعد عجزها التام. حملت صورة شادي إلى غرفتها،
وعندما رأتها أمها هناك بعد أيام قالت وهي تتأمل وجهه الشفاف الذي يشعّ
نورًا: ما أشبهه بالملائكة في هذه الصورة!

قالت شادن: نعم.

قالت الأم وقد تهدج صوتها: لكن الملائكة لا يعيشون على الأرض
للأسف.

قالت شادن: لا.

مضت الأم تقول: ومن حسن حظنا أنه عاش هذه السنوات السبع.

في صباح يوم من أيام ذلك الصيف خرجت شادن إلى الحديقة وجلست تحت شجرة اللوز فرأت زنبقة تحتها لم ترها من قبل، زنبقة جديدة بدت وكأنها نبتت لتوها. حاولت أن تتذكر ثم تأكدت أن تلك أول مرة تراها فيها. لقد كانت الأمطار غزيرة هذا العام أيضًا فأنبتت زهورًا جديدة في الحديقة كما يبدو. كانت الزنبقة الجديدة ناصعة كالفجر، مرصعة بقطرات الندى المتلألئة مثل حبات الماس، بديعة الاستدارة، زاهية الأوراق كالزمرد، مفعمة بالحياة. تخيلت شادن لأول وهلة أنها تلوح لها في حلم وأنها لن تلبث أن تختفي لكنها شعرت بسرور غامر وهي تتأملها. تذكرت بكاءها في ذلك الموضع بالذات ورأت في ذلك مصادفة غريبة.

أخبرت شادن أمها بأمر الزنبقة الجديدة فنظرت الأم إليها في عجب لا يقل عن عجبها. لاح بريق خاطف في عيني الأم اللتين أذبلتهما الدموع، ولانت ملامحها المتجمدة قليلاً ثم أكدت أن تلك الزنبقة نبتت من تلقاء نفسها دون أن يزرعها أحد. أضافت بعد قليل: «كنا نظن أن الحديقة قد جادت بكل كنوزها ولم نتوقع ظهور زهور جديدة فيها. لكن ها هي زنبقة جديدة تنمو في جانب منها على غير توقع، ويا لها من زنبقة! إنها الكمال بعينه، ولا تنسي الأشجار التي كسرت الريح أغصانها في العام الماضي وكيف جبرت أوراقها الكثيفة كسورها، ومنها شجرة اللوز التي تجلسين في ظلها الوارف». ذكرت شادن لأمها بكاءها الطويل في نفس الموضع الذي نبتت فيه الزنبقة الجديدة، فقالت لها الأم إن الدموع كثيرًا ما ترهّر. وعندما نظرت

شادن إليها مستفسرة قالت الأم إن الدموع كثيرًا ما تزهر سلامًا وتسليمًا. عادت شادن تنظر إلى الزنبقة البيضاء. هل ارتوت هذه الزنبقة الفاتنة من دموعها؟ هل نبتت لتدخل بعض العزاء إلى قلبها؟ لتبعث فيها أملًا جديدًا؟ خيل لشادن في تلك اللحظات أن الزنبقة البيضاء تبسم لها. فابتسمت.

الخاتم

استيقظت سهى في الضحى فوجدت نفسها في فراغ تعجز عن تبين أي معالم فيه، وأحست أن ذهنها يشبه شاشة بيضاء تنتظر أن تُملأ بالصور. ظلت على تلك الحال وقتًا لا تدري مداه. فجأة لاحت لها صورة غائمة ما لبثت أن كبرت حتى احتلت الشاشة كلها وكأنها تجتاحها اجتياحًا. لكن سهى لم تستطع استيعابها تمامًا لأنها كانت أشبه بمن هبط على سطح كوكب آخر فانقلب كيانه. لم تبارح الصورة الشاشة فبدأت سهى تعادها قليلاً لطول تحديقها فيها. ثم انهالت عليها الذكري، وتدافعت صور أخرى وتراكت حتى ضاقت بها الشاشة البيضاء. بدأت سهى تستوعب ما تراه فتسلل إليها ارتياح ما فتئ يتزايد شيئاً فشيئاً. ابتسمت وهي ما زالت تغالب النوم ثم أخرجت يدها من تحت غطاء السرير وحدقت فيها. ماسة كبيرة تتألق في النهار كما تتألق في الليل، بل تتألق في كل لحظة حتى لو لم يرها أحد. ماسة كبيرة صافية يتركز فيها النور كأنها منبع له. ماسة فريدة تتوسط خاتماً من الذهب الأبيض وتستأثر به فلا تراحمها ماسة أخرى. إنها لا تكف عن البريق لحظة، وبريقها يخطف البصر. إنها تسطع مثل ذلك النجم الذي يحتل الأفق بعد الغروب فيخبو كل نجم آخر يجروء على الاقتراب منه. إنها تلمع كأنها تنبض بالحياة. أبعدت يدها. الماسة جميلة عن بعد وعن قرب. وهي تطفئ على ما حولها بجمالها الباهر، إنها لها وحدها، ولعلها استخرجت من باطن الأرض خصيصة لها. ماسة خالدة لن ينال منها شيء مهما تقلب الزمن

وتحوّل، وهي تمثل الكمال والدوام في هذا العالم، وترمز إلى جمال الحياة ونعيمها. ستلبس هذا الخاتم كل يوم لتستمتع برؤية هذه الماسة. سيكون الخاتم رفيقها الدائم وما أجمله من رفيق! وهناك الخاتم الثاني. لقد صيغ من الذهب الأبيض كالأول وبساطته لا تخفي فخامته. إنه يستكين في ظل الخاتم ذي الماسة الوحيدة والفريدة ويلتف حول إصبعها بإحكام وكأنه وثاق يشد حوله حمايةً له. إنه لأصدق رمز للحب هو الآخر، وهي لا يمكنها أن تنظر إلى يدها دون أن يزينها الخاتمان.

التفتت سهى فوقع بصرها على الثوب المعلق على مشجب خارج الخزانة إذ لم يتسع الوقت لتعليقه داخلها في الليلة الماضية. ثوب طويل ينساب انسياباً رقيقاً. لونه يحار بين الزرقة والخضرة، وهو يلمع لمعاناً خافتاً كأن النور قد احتبس فيه. صدره وذيله مطرزان بخيوط تقارب لونه، غير أنه تطرّيز لا يطغى عليه رغم كثافته. ثوب جميل دون شك. ثوب فاخر. لكن لونه فاتح قليلاً، وكانت لتفضل لوناً أزهى. غير أن أمها نصحتها بهذا اللون لأنه يماثل لون عينيها فوافقت مرغمة.

نظرت إلى صدر الثوب المطرّز ثانية فتذكرت العقد الماسي الذي كان يعلوه. استدارت إلى المنضدة الملاصقة لسريها وتناولت اللعبة العليا. كم هي ثقيلة! ها هو العقد بماساته المترابطة التي يتراقص النور فيها هي الأخرى. لقد صُفّت جنباً إلى جنب بطريقة فنية دقيقة لم تر مثلاً من قبل فكونت في ما بينها هلالاً. ولقد عانق هذا الهلال جيدها ليلة أمس في احتفال باهر ضمّ المئات من عليّة القوم. كم تعلق الأنظار بهذا العقد ليلة أمس!

وكم لفتت ماساته المتزاحمة الانتباه! وكم سمعت من كلمات الإعجاب تشيد به! لقد اختير هذا العقد خصيصاً لها هو الآخر، وكان اختياره موفقاً للغاية. بل إن هذا العقد غاية ما تتمناه أي فتاة. ولقد فازت به هي دون كثيرات. إنه يؤكد لها مكانتها، يطمئنها إلى الحاضر والمستقبل ويبعث في قلبها السعادة والثقة. هذه الماسة التي تتوسطه أودية بدورها، وكذلك الماسات الأخريات التي تحفّ بها وتزيدها فخامة. ما كان أشبهها بهذه الماسة وسط الناس ليلة أمس! ما كان أشبهها بنجمة لامعة تتعلق بها الأنظار! السوار والأقراط كلها مثقلة بالماس كالعقد، وهي تغري بالتأمل الطويل. لكم أسعدتها هذه الكنوز التي سبقت إليها ليلة أمس.

عادت سهى تنظر إلى الخاتم المرصع بالماسة الفريدة. جماله مذهل وهو يزيد يدها نصاعة ورشاقة. إنه يتلألأ في إصبعها وكأنه يبتسم أو يهمس لها: سأظل إلى جانبك دائماً. إن اختياره في غاية التوفيق حقاً. ولقد أحسنت الاختيار هي الأخرى. فسد شاب لا يجاريه أحد ممن عرفت، وقد اختارته من بين خاطبين أكفاء كثر. سيحيطها بحبه ورعايته كما يحيط هذا الخاتم بإصبعها. هذا ما قاله لها. وهذا ما تتوقعه. ستزداد حياتها نعيمًا في ظله وستزداد أمنًا واطمئنانًا. سيحملها سعد إلى الحياة الجديدة المستقلة التي تتوق إليها، فهي لا ترغب في مزيد من العلم بعد أن أنهت دراستها الثانوية. الزواج مصير حتمي على أي حال، ولقد وجدت أفضل شريك. فلماذا تتردد أو تنتظر؟ لقد آن الأوان لاقتحام ذلك العالم الذي تبهرها معالمه وتسحرها جِدته. لكنها تعرف أنها لا تقدم على مغامرة ولا تقذف بنفسها في هاوية. لقد

دققت الاختيار ودرست كل التفاصيل وساعدها في ذلك أهلها. إنها واثقة من اختيارها، ولقد بارك الجميع هذا الاختيار. إن حياتها الجديدة لن تكون إلا امتداداً للحياة الهائلة التي تنعم بها منذ صغرها. لقد طمحت إلى الأفضل دائماً، وسيظل الأفضل من نصيبها على الدوام.

عادت سهى تنظر إلى الثوب. جميل دون أدنى شك، وثمانين. وقد تطلّب إعدادة جهداً كبيراً. كل ما فيه مصمّم بشكل دقيق. لكن لونه باهت لا يشد إليه الأنظار كالعقد، فلا يتبين الرائي جماله غير المتناهي إلا إذا اقترب منه. غير أن أمها قالت إن لون ثوب الخطبة يجب أن يكون فاتحاً ليرمز إلى البراءة، حالماً ليوحي بالحب، ومحاييداً ليرز جمال العروس ونضارتها. ساءلت سهى نفسها: أين البراءة في ثوب يكشف عن كتفيها ونحرها أمام الملاء؟ لكنها لم تشأ أن تزجج أمها بهذا السؤال في وقت كانت تشغل فيه بترتيبات الخطبة. فأمها تقابل أهل العريس كل يوم للاتفاق معهم على كل التفاصيل مثل الحفلة والمجوهرات وغيرها. هل أحسنت أمها اختيار لونه يا ترى؟ وهل كان الثوب لائقاً بمناسبة كبرى كهذه؟ آه كم تتوق إلى النوم من جديد! فلتنس أمر الثوب الآن ولتلق بحكمة أمها. ستشتري أثواباً لا عدّها في المستقبل وسيكون الرأي رأيها في ما تلبس.

تقلبت سهى في فراشها وحاولت العودة إلى النوم. البيت ساكن وأهله ما يزالون نياماً بعد حفلة أمس، ولعلها أول من استيقظ منهم. كلهم بحاجة إلى النوم بعد ذلك الجهد الشاق الذي تطلبته حفلة الخطبة. أما الحفلة نفسها فقد بلغت حد الكمال فعلاً وكأنها حفلة ملكية. كان نظامها دقيقاً محكماً لم يشذ

فيه شيء عما رسم له فسارت على أحسن وجه. ولقد سادها المرح الشديد كما أرادت. إنها أول من يعقد خطبته من صديقاتها لكنهن سيقفن أثرها واحدة بعد أخرى عما قريب باستثناء ليلي التي ستتظر بضعة أعوام. فالشاب الذي اختارته لم يولد في أحضان النعمة ولا بد له من العمل الشاق قبل أن يصبح أهلاً للزواج. قد يكون مستقبله باهراً لكن لا بد له من الكفاح في سبيله. وستتظره ليلي مهما طال الانتظار. إنها مغامرة تقدم عليها ليلي لكن لا فائدة من النصح في مثل هذه الأمور. لقد وقعت ليلي في هوى رامي كمن يسقط في بئر عميقة لا قرار لها، ورأتها سهى تحلق في سماء السعادة حيناً ثم تهبط في مهاوي اليأس حيناً آخر، ففزعت من تلك التقلبات العجيبة. من الصحيح أن رامي شاب جميل رقيق ذو خلق لكن حبه ملك على ليلي أمرها حتى لم تعد ترى نفسها إلا في ضوء علاقتها به. لا ضرورة لكل تلك المشاعر الجارفة. لا ضرورة لتبديد طاقة الإنسان على ذلك النحو. إن التعلق بشخص إلى هذه الدرجة ضرب من الجنون. إن سهى تحب أن تدع الحياة تسير بها سيراً رقيقاً، وتغدق عليها من نعمائها بينما هي تمسك زمام أمرها بيدها. لقد أحببت هي سعداً خلال هذا الشهر الذي عرفته فيه قبل عقد خطبتهما، لكن دون أن يجتاحها شيء من تلك المشاعر التي تعصف بليلى وتفسد هناها أحياناً. ولا شك أن سعداً أحبها كما أحبه. والدليل على ذلك هذه الهدايا التي قدمها لها. إنها ترتاح لعاطفتها نحو سعد تماماً وتشعر بالثقة في مستقبلهما معاً.

آه كم تتوق إلى النوم ثانية! أمامها الليلة سهرة مع خطيبها وأصدقائهما المقربين، وهي لن تقل عن حفلة الخطبة بهجة ومتعة. ستلبس الثوب الأصفر المطرز وتزين بالعقد الماسي والأقراط طبعًا.. وما لبثت سهى أن استغرقت في النوم.

فتح سعد عينيه لحظة ثم عاد إلى النوم. فتحهما ثانية بعد مدة وهو لا يكاد يتبين مكانه ولا زمانه. تراءى له وهو بين النوم واليقظة وجه غائم ما لبث أن انجلى قليلًا. برز الوجه من وسط الضباب شيئًا فشيئًا وسطع. انتشى سعد بالصورة الماثلة أمامه، وتركها تسيطر على وعيه حتى طغت عليه. ثم باغته الذكرى. لا ليس هذا الوجه حلمًا يرأوده في غبش النوم بل هو حقيقة واقعة، بل هو أقرب إليه من أي وجه آخر. نما إدراكه لهذه الحقيقة وهو يصحو من نومه، فسرت في كيانه رعشة امتزجت فيها المفاجأة بالغبطة. ثم بدأ يتذكر بعضًا من ليلة أمس فازدادت غبطته. إن هذا الوجه له دون جدال.

اتضح معالم الصورة في ذهنه أخيرًا. حسناء يحار المرء في وصف حسننها. عيناها متألقتان تتعانق فيهما الزرقة والخضرة، شعرها شلال من الذهب، جيدها ناصع كالعقد الماسي الذي يطوقه، ابتسامتها ترفّ على شفيتها كأنها شعاع الشمس في يوم ربيعي، تيار الحياة يموج في جسمها الذي التف في ثوب غامض اللون بدت فيه كإحدى ملكات الأساطير. ساحرة تنفث السحر في كل لفظة، وستظل إلى جانبه أبد الدهر. تعمق إدراك سعد لهذه الحقيقة لحظة بعد أخرى، وتغلغلت البهجة في قلبه. ما كان له أن يختار

أجمل منها ولا أفضل. فهي تتألف مع كل شيء في حياته وكأنها خلقت لكي تحتل مكانها فيها. كم هو سعيد باختياره! وما أعظم امتنانه لهذه الدنيا التي تأتي إلا أن تسبغ عليه عطاياها وكأنه طفلها المدلل!

لقد جاء سعد إلى الحياة فوجد خير ما فيها ملك يديه: العائلة المحبة المستقرة، البيت الذي تتوفر فيه كل أسباب الرفاهية، الوسط الاجتماعي الرفيع، المدارس المتميزة، الأصدقاء المخلصين والمعارف اللامعين. نهل العلم من أرقى الجامعات في الخارج حتى نال شهادة الماجستير قبل عامين، ثم سافر في أنحاء الدنيا وازداد معرفةً واطلاعاً. شاءت الحياة أيضاً أن تجنبه الصراعات الحادة والتجارب التي تهز المشاعر هزاً وتعصف بالكيان عصفاً، وهكذا سارت الأيام به وبذويه سيراً هيناً رقيقاً وعرف سعد أنه من أبناء الحياة المحظوظين الذين سيقطفون أحلى الثمار من شجرتها على الدوام.

لكن لا شك أيضاً أن سعداً شاب ذو ذكاء واضح وعقل راجح وطبع سمح. لقد بذل أقصى جهده في كل مراحل حياته وأثبت مقدرته في كل عمل قام به، كما أنه حرص دومًا على توثيق علاقاته كلها وتوطيد مكانته في المجتمع المحيط به. لقد تعلم منذ البداية أن النجاح يحتاج إلى العمل الدؤوب، وأن الحلم لا بد له من السعي الحثيث، وقد تكللت جهوده في كل خطوة بالنجاح فتعززت ثقته بنفسه وازداد اطمئنًا إلى نصيبه من الحياة. يعرف سعد بالطبع عن تقلبات الحياة وصروف الدهر، لكنه آمن طيلة حياته بسلاح المعرفة والعمل، واستطاع بفضل هذا السلاح أن يشكل الواقع كما يريد ويشتهي. لقد رأى النجاح يسعى إليه كما يسعى هو إلى النجاح فأصبح

جزءاً من تكوينه ولم يكن له سواه خيار أو خطة، وهو يتوقع دوام هذا الحظ الباهر أبد الدهر، لا بل إنه يسعى إليه بكل طاقته. لذلك وضع لنفسه برنامجاً حافلاً بالعمل ورسم لها حياة هادئة تنأى به عن العواصف والأنواء، وها هو قد بدأ في تحقيق مسعاه. لقد وجد الرفيقة التي ستكمل بها حياته؛ فسهي تنتمي إلى عالمه وتشاركه أهدافه، وهي أنسب رفيقة له بالتأكيد، ولقد بارك أهله خطبته لها بعد أن ساعدوه في اختيارها. ستشاركه سهي في بناء الحياة الزوجية التي يطمح إليها، وهو مطمئن إلى ما ينتظره من سعادة إلى جانبها.

اهتز سعد طرباً عندما تذكر بيت المستقبل. لقد صممه أحد أصدقائه المهندسين ولم يخل عليه الأهل بالنصيحة. قالت له أمه: أريد غرضاً عديدة للأطفال فأنا أتلهف على أحفاد يحملون اسم العائلة. وقال له أبوه: لا تنس الآيات القرآنية المذهبة على مدخل البيت. وقال له عمه: أكثر من زراعة الأشجار في حديقتك وخاصة أشجار الفاكهة. وقال له خاله: ابن سوراً عالياً حول بيتك لتحجبه عن أنظار الفضوليين. سيبدأ بناء البيت بعد شهرين وسيتم بناؤه بعد حوالي السنة. في تلك اللحظات خيل لسعد أنه يرى حديقة تزدان بالزهور من كل صنف ولون، وأطفالاً يمرحون في أرجائها ويتقافزون في بركة السباحة التي تنو سطها.

شهر العسل، من المؤكد أنه سيذهب وعروسه إلى إنجلترا حيث قضى سنوات طويلة في الدراسة. إنه يعرف إنجلترا كأحد أبنائها ويتقن لغتها إتقاناً تاماً، وهو يعشق طبيعتها الجغرافية وأسلوب الحياة فيها. يحب عاصمتها وما فيها وحولها من أماكن سياحية ومتاجر أنيقة ومطاعم متنوعة وشوارع تضجّ

بالحركة، وسهى تشاركه إعجابه بتلك المدينة التي زارتها مرارًا مع أهلها. سيقيمان في أفخر فنادقها، لكنهما سيزوران مدن إنجلترا الساحلية وريفها الساحر أيضًا. إنجلترا قريبة نسبيًا، وهو يحب القريب والمعروف ولا يريد أن يضع الوقت في استكشاف البعيد والمجهول، خاصة أنه سيحتاج إلى الاستجمام بعد ضغط العمل واحتفالات العرس. والأهم من ذلك أنه يريد أن يبدأ حياته الجديدة مع عروسه دون أن يصرف انتباهه عن تلك اللحظة السحرية شيء. اقترح عليه حموه قضاء شهر العسل في بلدان الشرق الأقصى، فأجابه أنه يفضل بلدًا عريقًا قد تدرّج في الحضارة حتى بلغ ذروتها. واقترح عليه صديقه خالد قضاءه في إحدى جزر المحيط الهندي الأسطورية، فأجابه أنه لا يحب الأماكن النائية المغمورة، بل يفضل الأماكن التي يستطيع أن يستمتع بزيارتها دون أن يحتاج إلى استكشافها.

نهض سعد من فراشه متثاقلاً. راح يتشاءب وكأنه يريد العودة إلى النوم لكنه عدل عن رأيه وتوجه إلى مكتبه. أكوام من البطاقات والبرقيات تكاد تغطي سطح المكتب وكلها تهته بالخطبة. تجاوزها جميعًا إلى صحف اليوم التي قلبها واحدة واحدة حتى توقف عند خبر خطبته المنشور فيها كلها. شعر بالرضا عن المكان الذي احتله الخبر من الصحف وعن صياغته والصورة التي رافقته. ألقى نظرة على البطاقات والبرقيات فوجدها متشابهة في العبارات التي تحملها. رأى في إحدى البطاقات أبياتًا من الشعر رجح أنها من نظم صديقه مرسل البطاقة، أو لعلها من نظم نزار قباني، لا يدري. كُتبت بعض البطاقات باللغة الإنجليزية وزينت بطاقات أخرى بصور جميلة ملونة

خيل إليه أنه رأى ما يشبهها من قبل لكن لا يذكر أين. لم يستطع سعد في ذلك الضحى أن يتمعن في العبارات ولا في أبيات الشعر ولا في الصور، لكنه سرّ بكثرة التهاني وبما تحمله من مشاعر قوية رأى فيها دليلاً على حسن علاقته الاجتماعية والمهنية.

أخيراً امتدت يده إلى بطاقة كان قد وضعها جانباً قبل قليل. بطاقة بيضاء كتبت بخط أنيق. لقد عرف صاحبها لسنوات خلت. درساً معاً وتحدثاً وتزهاً. استقبلته دون تحفظ ونما بينهما التفاهم. كانت ذات عقل راجح وتفكير واضح كأنها أرض منبسطة ظاهرة المعالم. كان وضوحها ذاك يبعث على الراحة، وكانت ثققتها بالحياة تنعكس على وجهها هدوءاً فاتناً يذكر بصفحة بحيرة في فجر يوم صيفي. أما بشرتها البيضاء الصافية فهي آية أبدعتها يد الطبيعة، وكذلك عيناها الزرقاوان المضيئتان وابتسامتها الدائمة. نعم سعد بصحبة كارول وراح يقضي معها معظم وقته حتى كادت تصبح محور حياته. أدخلت كارول الأنس إلى حياته والبهجة إلى قلبه، وأصبح أهلها أهله. أحسنوا استقباله كما أحسنت وأحبوه لحسن خلقه. كانت كارول رفيقة مثلى له في تلك السنوات، وما كان له أن يتصور حياته في غربته بدونها. لكنه بدأ يشعر بعد حين أنه كلما توغل في تلك الأرض المنبسطة اقترب من أطرافها البعيدة، وهي أطراف قد لا يعرف تماماً ما يكمن فيها. شعر أن كارول قد تظل أرضاً غامضة رغم ما يبدو من وضوحها، وهي أرض قد لا تنبت الثمار المألوفة التي يشتهيها في أعماق نفسه. فترت علاقتهما لكنه أخبرها قبل سفره بنيتة خطبة فتاة من بلده فلم تستغرب، ولم يضطر إلى تفسير طويل، وافترقا

على مودة. فتاة محترمة حقًا، وهي تستحق كل الشكر على تهنتها الرقيقة له بالخطبة

في النهاية وضع سعد كل تلك البطاقات والبرقيات في أحد أدراج المكتب وهو يعد نفسه بالعودة إليها عندما يجد متسعًا من الوقت. أمامه كومة أخرى من المراسلات أحضرها ساعي المكتب قبل يومين وهي من أصحاب مصانع السيارات. وضعها كلها في درج آخر على أن يعود إليها بعد الظهر. أما في المساء فأمامه سهرة مع خطيبته التي يتوق إلى وجودها إلى جانبه في كل لحظة، وسيرافقهما فيها أصدقاؤهما المقربون. عاد سعد إلى التثاؤب ثم تمطى فوق بصره على خاتم الخطبة في إصبعه. أطلال النظر إليه وكأنه يراه لأول مرة. نظر إليه من قريب ومن بعيد. خاتم من الذهب الأبيض. جميل بلا شك، وثمانين بالطبع، وهو يماثل خاتم خطيبته التي شاركتة في اختياره بعناية فائقة، وقد لقي الخاتمان إعجاب كل من رآهما. لكن الخاتم يبدو غريبًا في يده. قد يتعود عليه بمرور الوقت كما تعود عليه المتزوجون من قبله. لكن يده تبدو غريبة هي الأخرى، ومختلفة تمامًا عن يد والده الذي لم يلبس خاتم زواج في حياته قط، ولا حتى من الفضة. وكذلك أعمامه وأخواله وأقرباؤه من ذلك الجيل. أصابعهم لا يطوقها شيء، ولعل هذا هو الصواب. فيد الرجل يجب أن تظل متعالية على الزينة التي تحرص عليها المرأة، يجب أن تظل حرة تأكيدًا لحرية الرجل في الحركة وقدرته على تحريك الحياة من حوله. لكن والده فرض قيودًا أخرى على نفسه فأخلص لزوجته إخلاصًا تامًا، وبادلها المودة والرحمة طيلة حياتهما الزوجية.

تثاءب سعد ونظر إلى يده ثانية. ما أعجب هذا الخاتم في إصبعه! لماذا يلبسه أصلاً؟ إنه لا يحتاج إلى خاتم لإعلان خطبته أو تأكيد التزامه بها. لقد درس الخطبة من كافة الوجوه وسعى إليها بكامل إرادته، وهو متمسك بسهي التي اختارها بعناية من بين عشرات الفتيات بعد أن رأى فيها أفضل من يرافقه في مسيرته، كما أنه ملتزم بمسيرتهما المشتركة التزامًا تامًا. فالمرأة هي رمز الثبات والاستقرار، والمنزل الهادئ الهانئ هو القاعدة التي سينطلق منها إلى تحقيق طموحه. أما الخاتم فهو مجرد رمز لا ضرورة له. كاد سعد يضحك وهو يتذكر صديقه زيدًا الذي يلبس خاتم خطبة منذ أن التقى بفتاة أحلامه قبل سنتين، وهو ما يزال يلبسه رغم أنه لا يستطع خطبتها في الوقت الحالي لظروف القاهرة. راح سعد يحك موضع الخاتم في إصبعه. هذا الخاتم لا يطوّق إصبعه فحسب بل يضغط عليه أيضًا فلماذا يحشره فيه؟ إنه واثق كل الثقة أن يده لم تخلق للخواتم. تثاءب مرة أخرى، ثم نهض ليغتسل ويغير ثيابه.

طُرق باب غرفته. العاملة المنزلية تدعوه إلى تناول طعام الغداء مع العائلة. لم يكن جائعًا لكنه انضم إلى العائلة حول المائدة. شرب كوبًا من العصير ثم طلب فنجانًا من القهوة.

قالت له أمه فجأة: أين خاتم الخطبة؟

أجاب سعد: إنه يضغط على إصبعي ويؤلمني.

قالت الأم بهدوء: سوف تتعود عليه بمرور الوقت.

قال: أظن أنني أحتاج إلى خاتم أكبر منه.

قالت الأم بعد قليل: هل ستري خطيتك اليوم؟
أجاب: سأراها في المساء.
فقالت الأم: عظيم.
سأله أبوه: وماذا ستفعل بعد الظهر.
أجاب سعد: سأطلع على ما وردني من مراسلات من شركات السيارات.
سألت أمه: ألا تستطيع تأجيل ذلك إلى يوم آخر؟
أجاب سعد: إني أريد البدء بالمشروع بأسرع ما يمكن.
قالت الأم: لم العجلة؟ إنك صغير لم تكد تتجاوز السابعة والعشرين من
عمرك.
أجاب سعد: هذا يعني أن أمامي الكثير مما يجب عليّ تعلمه في ميدان
التجارة.
قال الأب: هذا صحيح، ويجب ألا ننسى أن سعدًا سيصبح رب عائلة بعد
عام واحد، وأن مسؤولياته ستزداد عندئذ.
قالت الأم: إني أتلهف على ذلك اليوم الذي سيصبح فيه سعد رب عائلة،
ولقد شجعناه على هذا الزواج المبكر لأنه ابننا الوحيد. أما أصدقاؤه فهم لم
يفكروا في الزواج بعد.
قالت الأم بعد قليل: انظريا سعد إلى كل هذه البرقيات التي وصلتني في
اليومين الأخيرين حاملة التهاني بالخطبة. إني لم أر أكثر منها في حياتي.
قال الأب: أحباؤنا كثر والحمد لله.
رددت الأم: الحمد لله.

جلس سعد بعد الظهر ليراجع المراسلات التي وصلت إليه من مصانع السيارات. بعضها معروف في السوق المحلية وبعضها الآخر لم يسمع به من قبل، ولا بد من معلومات وافية عنه قبل اتخاذ أي قرار بشأنه؛ إذ ليس من عادة سعد الإقدام على أي خطوة دون تأنٍ كاف. سيبدأ باختيار السيارات المعروفة التي تتفق والذوق السائد، ولقد بدأ فعلاً دراسة الجدوى الاقتصادية لهذا الاختيار، وسيستقل بعد ذلك إلى وضع خطة تسويق محكمة. شجعه والده على البدء بالمشروع قائلاً إن السيارات آلات عظيمة ينبغي استغلال ما تقدمه من مزايا. لكن صديقه خالداً قال له: إن الشوارع مكتظة بالسيارات من كل صنف ولون ومنشأ فلماذا تريد أن تجلب المزيد منها؟ فأجابه سعد: لقد أصبحت السيارات ضرورة من ضرورات الحياة باعتبارها وسيلة للحركة والراحة والترفيه لا تدانيها وسيلة ويجب إتاحتها للجميع، حتى لأولئك الذين لم يفكروا في اقتنائها من قبل. مضى صديقه يقول: والتلوث الذي تسببه السيارات ويدفع الكثيرين إلى الشكوى؟ أجاب سعد: التلوث ملازم لكل نشاط إنساني ولا يمكننا أن نعطل حركة النمو الاقتصادي أو نعود إلى زمن ما قبل السيارات بسببه. استطرد سعد قائلاً بعد أن رأى نظرة الاستغراب في وجه صديقه: إني واثق أن مصانع السيارات ستوصل إلى وسائل تخفف من الانبعاثات المسببة للتلوث بمرور الوقت، وهي قد تحل هذه المشكلة بعد زمن ليس بالطويل. عاد صديقه يسأله: وازدحام حركة السير؟ أجاب سعد: هذه مشكلة تحل بالتنظيم الصحيح من قبل المختصين.

لقد أغرم سعد بالسيارات طيلة حياته لأنها تمثل في نظره الطاقة والحركة والكفاءة. وهي أيضًا آلات يتوفر فيها الكثير من عناصر الجمال في الشكل واللون والتفاصيل الأخرى. زار الكثير من معارض السيارات في العالم وكان إعجابه بها يزداد في كل زيارة. هناك السيارات الفاخرة، وهناك سيارات السباق، وهناك السيارات الكلاسيكية التي تشبه تحفًا فنية في حد ذاتها. لطالما تمنى أن يقتني بعضها أو يقيم معرضًا دائمًا لها، وهو قد يقدم على مشروع من هذا القبيل في المستقبل لإشباع رغبته القديمة هذه. أما الآن فالمشروع الذي يستأثر باهتمامه هو استيراد السيارات العادية التي يُقبل عليها الناس العاديون كل يوم. إنه مطمئن إلى ما توصل إليه من نتائج في دراسة الجدوى حتى الآن، والمشهد أمامه معروف إلى حد كبير ولا ينطوي على أي مغامرة، فسعد لا يطمح إلى اقتحام المجهول ولا إلى فك الطلاس.

لن يكتفي سعد باستيراد السيارات بالطبع، بل سينشئ شركات أخرى تعمل في مجالات ذات صلة بالسيارات وتؤلف في ما بينها مجموعة تحتل مقرًا متميزًا يصبح من معالم المدينة ويشار إليه بالبنان. سيتقل من مشروع اقتصادي لآخر مقدمًا السلع والخدمات لأكبر عدد من الناس، ودافعًا بعجلة النشاط الاقتصادي إلى الأمام، وملتمزًا في كل ذلك بالأخلاق المهنية العالية التي تعلمها من والده. سيتوسع في اتجاهات عديدة حتى يصبح من كبار رجال الأعمال وعلمًا من أعلام المجتمع مثله. سيقترح مجال الإسكان في الوقت المناسب، فتعمير الأرض واجب والمسكن يعني الثبات والاستقرار، وهذا ضروري كالحركة سواء بسواء. سيدخل بعد ذلك ميدان السياحة

لتسهيل السفر إلى المدن الكبرى في كل أنحاء العالم بأسعار معقولة. سيني جامعاً ضخماً يحمل اسمه كما فعل والده، وسيقوم بالكثير من الأعمال الخيرية فهذا واجب ديني واجتماعي آخر.

لقد عرف سعد بالكرم والبرّ بالآخرين طيلة حياته، لكنه في الحقيقة يشك في إمكانية حل مشكلة الفقر حلاً جذرياً، ولطالما اختلف حول هذا الموضوع مع كارول التي كانت ترى أن تطبيق بعض النظريات الاقتصادية والسياسية كفيل بانتشال الفقراء من فقرهم. غير أن سعداً لم ير في النظريات التي درسها ما يقنعه، بل كان يرى وما يزال أن معالجة جزئيات الواقع المحسوس وتصويبها أجدى من الاشتغال بالنظريات المجردة ومحاولة السير على هداها، فمعالجة الواقع يمكن أن تنتج أثراً تراكمياً يؤدي في النهاية إلى تحسينه. أما كارول فكانت ترى أن البدء بالنظرية والحرص على التماسك النظري يقدمان رؤية واضحة مفصلة تساعد على الحل بطريقة منظمة تضمن سد الثغرات وتجنب التناقض. لا مكان للنظريات في حياة سعد، خاصة في هذه الأيام التي يستعد فيها لخوض غمار المشاريع التجارية. لا وقت لديه للأسئلة الكبرى ولا استعداد، فالحياة اليومية ملأى بالمشاكل التي تحتاج إلى حل، وحلها أولى بالجهد. لا وقت للتحديق في آفاق بعيدة أو تسلق قمم شاهقة لأن السفح يحفل بالمسائل التي لا بد من مواجهتها، وليس من الحكمة ترك الأمور العاجلة والانشغال بغيرها.

إن سعداً يعجب لأمر صديقه خالد الذي يطمح إلى سبر الأغوار وهتك الأسرار. لا بل إن صديقه هذا يحلم بقلب العالم رأساً على عقب مع أن

معجزة كهذه تستعصي على المؤسسات فما بالك بالأفراد؟ أما سعد فأهدافه قريبة نسبياً ومعروفة، وهي لا تمتد إلى الإنجازات الخارقة ولا إلى الاكتشافات الباهرة. إنه يريد أن يثبت قدميه على الأرض التي يعرفها وأن يمشي عليها بثقة لا أن يحلق في فضاءها أو يضرب في أعماقها. يريد أن يضمن الحفاظ على المزايا الاقتصادية والاجتماعية التي حظي بها طيلة حياته، وأن يتيح ما استطاع منها للآخرين ليعمّ الرخاء والاستقرار في المجتمع. يريد أن يستمتع بثمرة جهوده وأن يجدد طاقته لتذليل الصعاب لنفسه وللآخرين وتحقيق المزيد من النجاح، فالنجاح ميراث غالٍ لا يمكن التفریط فيه. وسعد يريد فوق هذا وذاك حياة عائلية يرفرف عليها الهدوء ويظللها التفاهم وتتوجها المحبة، يريد أسرة ينعم بها وتنعم به ويورثها كما ورث.

نظر سعد في ساعته فرأى أن الوقت ما يزال مبكراً. عاد إلى ما كان فيه من تقلب النشرات وقراءتها وتوقف طويلاً عند صور أحدث السيارات التي أنتجتها المصانع. سيارات ذات أبعاد لطيفة وانحناءات رشيقة وألوان زاهية تبهج النظر، وقد ابتكرتها المصانع في السنوات الأخيرة بمزج الألوان بطريقة تنم عن الجرأة وسعة الخيال. لكنه سيضطر إلى الابتعاد عنها آسفاً، فالناس هنا يتجنبون الألوان الزاهية ويفضلون عليها اللونين الأبيض والأسود وما بينهما إلا في ما ندر. ذوقه لا يختلف عن ذلك كثيراً فهو يفضل اللون الرمادي ويميل إليه في كل شيء يشتريه؛ لأنه يريح أعصابه ويُسعره بمزيد من الأمان. إنه يريد أن يكون لهذا اللون مكان بارز في بيت الزوجية ولا شك أن سهى تشاركه رغبته هذه.

أخيراً نهض وبدأ يستعد للخروج. توقف على الرصيف متأملاً سيارته. لونها الرمادي يقارب الأسود في عتمة المساء التي لا تغلح أضواء الشارع الخافتة في تبديدها تماماً. خطوطها مستقيمة واضحة توحى بالقوة وتبعث على الاطمئنان. سيارة كبيرة متينة يعرف أنه سيكون مرتاحاً فيها وآمناً من الحوادث. سيارة ممتازة يتمنى كثيرون مثلها حقاً، ولقد رفض أن يستأجر سائقاً لقيادتها لأنه حريص على أن يقودها بنفسه دون أن يشاركه فيها أحد. إنه فخور بها إلى أبعد الحدود، خاصة أنها هدية قدمها له والده بمناسبة نيـله شهادة الماجستير قبل عامين. كانت إذ ذاك أحدث ما أنتجته تلك الشركة العريقة التي تبدو شارتها واضحة على مقدمتها. لكنه ينوي شراء سيارتين من طراز أحدث قبيل الزفاف، واحدة لنفسه والأخرى لسهى.

طالت وقفة سعد أمام السيارة ثم أدرك فجأة أنه تأخر قليلاً عن مواعده مع سهى. تقدم بسرعة ومدّ يده ليفتح باب السيارة فاكشف أنه نسي خاتم الخطبة في غرفته. كان قد قرر أن يلبسه في ذلك المساء مجاملة لسهى لكنه نسيه للأسف. سيشرح لسهى سبب خلعه الخاتم ولا شك أنها ستعذره، وهو لن يعدم وسيلة لاسترضائها إذا لم تفعل. نظر إلى يده فرآها كما عهدتها دائماً لكنّ ثمة شيئاً ينقصها أو هكذا خيّل إليه. هل يعقل أن يكون قد فقد شيئاً هاماً بخلعه الخاتم من إصبعه؟ هل يعقل أن يكون الخاتم قد أضاف إلى يده شيئاً ذا بال في تلك الساعات التي التصق فيها بإصبعه؟ مرت لحظة غريبة شعر فيها أن ذلك الخاتم كان مثل علامة فارقة في حياته أو مثل قمة صعدتها ثم هبط فعاد يسائل نفسه: هل انتزع تجربة هامة من حياته بخلعه خاتم الخطبة أم

ماذا؟ ضاق سعد أخيراً بحيرته ولم يشأ أن يسترسل في أفكاره تلك. سيقدر مصير الخاتم في ما بعد. قد يعود إلى لبسه، وقد يستبدل آخر أكبر منه به، وقد يهمل أمره كلية فينساه وتنساه سهى. أخيراً أدار سعد محرك السيارة استعداداً للانطلاق.

كانت السهرة رائعة، وقد تألقت سهى فيها بثوبها الأصفر وبمجوهراتها الجديدة الفاخرة. بدت سعيدة بها وبكل شيء. ولم تلاحظ غياب خاتم الخطبة من إصبع خطيبها على الإطلاق..

الجبل

عادت سعاد إلى تأمل شجرة اللوز. أوراق خضراء صغيرة قد بدأت تتخلل النوار الأبيض الذي يكللها! أوراق دقيقة التكوين قد انبثقت من الأغصان في الصمت والظلام! مدت سعاد يدها لتحسس ورقة منها فوجدتها دافئة وكأنها تكاد تنبض، رقيقة كوجنة طفل وليد! بل إن سعاد لم تكذب تستطيع الإمساك بها لرققتها. لكنها تذكرت أن بدايات الربيع كثيرًا ما تكون هشة ثم يشتد عودها بعد ذلك. طال وقوف سعاد عند شجرة اللوز التي تفرحها بجمالها وتعزز الأمل في قلبها بخصبها المتجدد. أيعقل أنها جماد لا يحس بشيء؟ أيعقل أن تكون غافلة عن المعاني التي توحى بها؟ عجبت سعاد لأفكارها هذه ثم تذكرت أنها لا تملك أن تتأمل شجرة اللوز طويلًا، فالعمل ينتظرها وهي لا تستطيع له تأجيلًا. اتجهت أخيرًا نحو أحواض الخضار، وركعت عند حوض الفول الأخضر. أوراقه حيّة هي الأخرى، ولقد احترقت حجب الشتاء الكثيفة مثل أوراق اللوز. سيقان البصل خضراء زاهية تصطف في حوضها المجاور برشاقة وإحكام. والننع تملأ رائحته المنعشة الجو. المحاصيل وافرة هذا العام والحمد لله.

راحت سعاد تعمل وهي ترفع رأسها من حين لآخر لتثبت الغطاء فوقه. لم تتمالك نفسها من النظر إلى الجبل فرأته كعهدها به عاريًا إلا من

الصخور الضخمة القاتمة. تذكرت ما سمعته عن الوحوش الضارية التي تهيم فيه ليلاً. بل إنه بدا لها هو نفسه كوحش من تلك التي سمعت عنها في القصص أو قرأت عنها في بعض كتب المدرسة. وتذكرت أيضاً ما يقال عن الجن الذي يسكنه. أشاحت سعاد بنظرها عن الجبل وقد عاودها الخوف منه، ثم عادت إلى التقاط الأعشاب الزائدة والأوراق الذابلة من حوض الفول. الرجال في الحقول البعيدة أو في حظائر البقر وأخواها في المدرسة والهدوء يغمر ما حولها. والهدوء بلسم كهذه الخضرة التي بدأت تجتاح المزرعة. لكن سعاد كانت ترتجف قليلاً. فالشمس التي تغمر أشعتها الكون اليوم لم تجلب معها الدفء. نظرت إلى يديها فرأتها حمرأوين مائلتين إلى الزرقة. لقد أنهت جانباً كبيراً من العمل حتى الآن، ويحسن بها أن تعود إلى البيت لإنجاز أعمالها الأخرى.

نهضت سعاد وهي تشعر بألم في ركبتيها، ثم راحت تجر خطاها نحو البيت. وما لبث أن تنهت إلى سمعها ذلك الخوار الطويل الرتيب الذي يشبه شكوى أزلية. شعرت بقلبها يمتلئ أسى لتلك المخلوقات العجماء التي يعيش الحزن في عيونها، والتي تسخر لخدمة غيرها دون أن تملك من أمرها إلا هذا الخوار الذي يتراوح بين اليأس والغضب. دخلت سعاد الفناء فاستقبلها الدجاج الذي راح يتزاحم حولها أو هكذا خُيِّل إليها. ضاقت بالدجاج وضوضائه فأسرعت إلى دخول البيت وقد ازداد شعورها بالبرد. هناك وجدت أختيها الصغيرتين نعمة ونجمة تلعبان، وعندما رأتاها راحتا تركضان في أنحاء الغرفة بحماس زائد وقد ازداد

صخبهما. رأت سعاد الغرفة التي رتبها في الصباح وقد انقلب نظامها رأساً على عقب، والأرض التي كنستها وقد تناثر فيها فتات الخبز. بعد قليل علا بكاء أخيها الوليد. بكاء عالٍ غاضب. ألا ليتها تعود من حيث أتت! ألا ليتها تعود إلى حوض الفول رغم البرد والتعب. لكنها أنهت عملها فيه اليوم ولا بد من إنجاز الأعمال المنزلية الأخرى. سمعت صوت أمها من المطبخ:

- أهذه أنت يا سعاد؟ أين كنت؟ لقد تأخرت.

دخلت سعاد إلى المطبخ فرأت أمها تعد طعام الغداء. قالت لأمها:

- لقد نظفت حوض الفول كالمعتاد ولم أته منه إلا قبل قليل.

- أحضري لي أذاك لأرضعه. لكن غيّرِي له فوطه أولاً.

أضافت الأم بعد برهة: ثم تعالي بسرعة لغسل هذه الأواني التي تعيقني عن العمل.

كانت أمها ما تزال ضعيفة الجسم بعد ولادة طفلها السادس، ولم تكن تقوى على القيام بكثير من أعمال المنزل. ذهبت سعاد إلى أخيها في مهده فرأته محمراً الوجه من كثرة البكاء، فقالت له وهي تشرع في خلع ملابسه:

- اسكت يا حبيبي. ما هي إلا دقائق وترضعك أمك. لكنني سأغير

لك فوطك أولاً لترتاح بعض الشيء. اصبر يا سعود.

سكت الوليد قليلاً لدى رؤية سعاد ثم عاد إلى ما كان فيه من بكاء. بل

إن بكاءه اشتد فأصبح يصم الأذان. أخذت سعاد تغير فوط أخيها وهي ما

تزال تكلمه:

- ستشبع عما قليل يا سعود فكن صبوراً، وتذكر أنك لست الشاكي الوحيد هنا يا حبيبي.

توجهت سعاد أخيراً إلى المطبخ وهي تحمل أخاها الذي لم يتمّ شهراً من عمره بعد. كان صغير الحجم حنطي اللون واسع العينين، فائق الجمال في نظر سعاد. تناولته أمه بهدوء فكفّ عن بكائه فوراً. وبدأت ترضعه بصمت وهي تنظر إليه بعينين نصف مغمضتين. كانت أواني الطعام في كل مكان من المطبخ، وكان بعضها مكوّماً على المنضدة أمام الأم. ذهبت سعاد فملأت دلوّاً بماء الساقية التي تمر في الفناء ثم بدأت تغسل الأواني: قدور وصحون وملاعق وأكواب. لقد غسلت كل الأواني بعد الفطور وها هي قد تراكمت ثانية. إنها حريصة على مساعدة أمها، خاصة في هذه الفترة التي تعجز فيها عن القيام بأعمال المنزل بمفردها، لكن هذا يزيد من أعبائها. نظرت سعاد من نافذة المطبخ فرأت الدجاج ما زال يحوم في الفناء العاري بنشاط زائد لعل مبعثه الربيع. تذكرت فناء بيتهم في قريتهم الأصلية وتحسرت على ما كان فيه من شجيرات الورد وشجيرات الدفلى وشجرة الياسمين التي تستند إلى جدار البيت وترتفع إلى ما دون السطح بقليل.

ليتها تعود إلى المدرسة بدلاً من قضاء الوقت في هذه الأعمال الشاقة المملة التي لا تنتهي. «استعدادك العلمي جيد يا سعاد فحاولي أن تكملتي دراستك». ليتها تكملها حقاً. «إنك مجتهدة يا سعاد فثابري على اجتهادك». لقد استمتعت بكل الدروس، خاصة اللغة العربية والتاريخ

والجغرافيا، ونالت علامات عالية فيها كلها. لكنها في أحد الأيام أُمرت بالتغيب عن المدرسة لمساعدة أمها ولم يُسمح لها بالعودة إليها بعد ذلك رغم توسلاتها. إنها ما تزال تحتفظ بكتب المدرسة ودفاترها وشهاداتها وبعض القصص، ومن بينها قصص أهدتها إياها الأنسة وفاء تقديرًا لاجتهادها في اللغة العربية، لكن ليس في وقتها متسع للعودة إليها رغم نهمها إلى القراءة. إنها تفتقد صديقاتها ومعلماتها خاصة الأنسة وفاء. كيف حال رقية يا ترى؟ وكيف زكية وعلياء؟ وأسماء وصبيحة؟ لقد كدن جميعًا ينهين الصف الخامس الابتدائي، وكن يأملن في إنهاء المرحلة الابتدائية بعد ذلك بسنة، لكنهن أرغمن على ترك المدرسة الواحدة تلو الأخرى دون أن تجرؤ إحداهن على الاعتراض. لا شك أن صديقاتها سيتزوجن في سن صغيرة كما هي العادة في القرى، بل قد تُرغم بعضهن على الزواج. ولا تستبعد أن تنتهي هي إلى مصير مشابه فتُزوّج رغم إرادتها. وقد ينزح بعضهن الآخر عن القرية لسبب ما فلا تراهن ثانية أبدًا.

بعد تركها المدرسة بعامين تقريبًا انتقلت الأسرة كلها إلى هذه المزرعة التي أصر أبوها على استئجارها بعد أن أغراه بها صاحبها، وهو أحد أنسبائه. كان الأب يدرك عيوبها لكنه رأى في الشروط السهلة التي وضعها صاحبها فرصة لتأمين عائلته المتزايدة عددًا، ولم تستطع الأم أن تعترض على قراره ذاك. المزرعة تحاصرها الصحراء من جانب والجبل من الجانب الآخر، وهي منعزلة عن بقية مزارع القرية وبعيدة عن القرية نفسها. الجبل موحش كالح ويجثم على صدرها كأنه سيُطبق عليها،

وكثيراً ما خيل لسعاد أنه عملاق يتربص بها. من المؤكد أنه لم يتغير منذ بدء الخليفة وأنه سيظل رمزاً للجذب والعجز إلى الأبد. أما الصحراء فهي تمتد بمحاذاة المزرعة من الجانب الآخر، وهي خاوية إلا من بعض المضارب السوداء التي تظهر فيها من حين لآخر ومن بعض الأغنام العجفاء. خواء الصحراء يبعث الرهبة في قلب سعاد، بل إنه يشعرها باليأس كلما أدركت مداها. والصحراء قريبة من المزرعة حتى لتكاد تصبح جزءاً منها. عندما علم عمّها الأكبر -وهو مزارع مثل أخيه- بنية أبيها استتجارها نصحه بالتريث، لأن هذه المنطقة المجاورة للصحراء لا تشهد أمطاراً مثل قريتهم الأصلية، بل تعتمد على مياه الأمطار التي تهطل في أماكن أخرى ويحملها السيل إليها. حذره أخوه من أن السيل الذي يروي المزرعة قد يجفُّ أو يطراً عليه طارئ فلا تصل مياهه إلى المزرعة، عندئذ ستغزوها الصحراء وتغلبها على أمرها. فأين الأمان في مزرعة تفتقر إلى مصادر مياه يمكن الاعتماد عليها إلى حد معقول؟ وكيف تضمن لهم مزرعة كهذه عيشاً كريماً؟ ذكره أن الزراعة قرب الصحراء لا تعتمد على إرادة المزارع وحده، وأن الجهد الشاق الذي يبذله المزارع في سبيلها قد لا يؤتي ثماره دائماً. سأله أخوه أخيراً: كيف تنسى القلق الذي يتوارثه المزارعون بسبب قلة المياه حتى في المناطق التي يهطل فيها المطر؟ وكيف تخاطر بالزراعة في منطقة تتأرجح على حافة الصحراء؟ أما معلم المدرسة في قريتهم فقال له إن الصحراء تحكم قبضتها على ما حولها ولا ينجو من تأثيرها شيء. إنها خطر دائم يهدد ما حولها. الصحراء تُغيّر ولا

تتغير إلا بجهد هائل أو بمعجزة، حتى أبنائها لا يفلتون من إسارها رغم عدم برّها بهم.

هنا تذكرت سعاد سلمان، فأبوها يقول إنه سيهجر الزراعة يوماً ليعود إلى حياته السابقة التي ما تزال تجتذبه رغم خوائها، فسلمان يغادر المزرعة كلما استطاع ليزور مضارب قومه القرية، لكن أباهما يحب هذا البدوي ذا العينين اللامعتين والابتسامة الدائمة والمشية الخفيفة. وسلمان يبادل أباهما حباً بحب، وهو كثيراً ما يسهر معه خارج الفناء ويروي له قصص الصحراء وهما يشربان الشاي معاً. طالما سمعت سعاد قهقهته في جلسات السمر هذه دون أن تفهم كلامه. وطالما عجبت لمرحه الدائم في بيئة يعاني فيها الناس من القلق على معاشهم. لم تكلم سعاد سلمان قط لأنها أمرت بعدم الكلام مع الرجال، لكنها أيضاً لم تشعر بأي رغبة في الكلام معه لأنها كانت تخشاه رغم ما يبدو من مرحه.

بعد أن انتهت سعاد من غسل أواني المطبخ بدأت تساعد أمها في إعداد طعام الغداء. بعد قليل سمعت بوابة الفناء تُفتح بشدة وأشياء ثقيلة تلقى على الأرض وأقدامًا تهوّل إلى المطبخ. ثم ظهر أخوها كامل وعبدالله في المطبخ وهما يلهثان ويهدران:

- إننا جائعان فهل الأكل جاهز؟ هيا فنحن لا نستطيع الانتظار.
- يجب أن تحملا الطعام إلى الوالد في الحقل أولاً.
- لكننا جائعان ولا نستطيع الانتظار.

كاد الجدال يحتدم بين سعاد وأخويها، لكن سعاد تذكرت أنهما يصلان متعبين جائعين بعد المشي مسافة طويلة من مدرسة القرية فقالت لهما:

- انتظرا فسأعطيكما ما تأكلانه في طريقكما إلى الحقل ثم تعودان لتناول طعام الغداء.

ارتى الولدان على أرض المطبخ ريشما تُعدّ لهما سعاد ما وعدت به. كانا متعبين لدرجة لم تسمح لهما بالمضي في الجدال. بعد الغداء غسلت سعاد مزيداً من الصحون والأواني والملاعق، ثم تعاونت مع أمها على تنظيف المطبخ وترتيبه. كانت تتطلع إلى بعض الراحة لكنها شعرت برغبة مفاجئة في الخروج من البيت وكأن الربيع يومئ لها فقالت لأمها:

- سأذهب لرؤية فتحة وروحية قليلاً.

- لا تطلي الزيارة. وإياك أن تكلمي أحداً من الرجال.

- لن أفعل.

- أحكمي الغطاء حول رأسك.

خرجت سعاد من البيت بعد أن غيرت ثوبها. ظلت أصوات إخوتها تصل إليها حيناً بعد مغادرتها البيت، ثم أخذت تخفت شيئاً فشيئاً لتحل محلها أصوات العصافير والحشرات التي نشطت فجأة في الضوء المتزايد. الفضاء فسيح والسماء صافية، وما أجمل أن تستمتع بالهواء الطلق وأشعة الشمس بعيداً عن العمل! خيّل لسعاد أن الخضرة قد اتسعت رقعتها في المزرعة منذ الصباح، وكأن الربيع قد رسّخ سلطانه في

هذه الساعات القلائل. ها هي المزرعة تفيق من سباتها ولا شك أنها ستصبح بحرًا من الخضرة عما قريب. مرت سعاد في طريقها بشجرة اللوز فرأتها تتألق في حلتها البيضاء مثل عروس ساعة جلوتها.

توقفت سعاد لتُحكم الغطاء حول رأسها بعد أن انزلق قليلاً ثم واصلت سيرها الحثيث. ليته تنزع هذا الغطاء فلا تضطر لتثبته بين حين وآخر، وليته تعرض شعرها للشمس والهواء فهما ملك الأحياء جميعاً. لكن قد يراها أحد. ليته تسير دون أن يعرقل سيرها هذا الثوب الطويل الفضفاض. كم تتمنى أن ترفع صوتها بالغناء وأن تقفز وترقص في كل أنحاء المزرعة وتتوقف حيث تشاء وتتأمل كل ما تريد تأمله! لكنها تُحاسب على كل حركة. ما جدوى الربيع وجماله إذا لم تمنع فيه النظر؟ إذا لم تعبر عن فرحتها به؟ ماذا لو ارتدت ثياباً زاهية بدلاً من هذا الثوب البني الغامق؟ ولماذا يُحظر عليها الكلام مع الرجال وكأنهم ذئاب كلهم؟ إنها تشارك في تعهد المزرعة لكنها لا تجد من يتعهدا ويلبّي رغباتها الحقيقية. بل إن عملها فيها قد زاد من القيود المفروضة عليها في اللباس والتصرفات. إنها سجين في هذه المزرعة التي سلبتها البقية الباقية من حريتها. إذن ما الفرق بين المزرعة والصحراء التي تُكبّل أبناءها بمختلف القيود؟ شعرت سعاد في تلك اللحظات أنها لا مكان لها في هذه المزرعة التي تنمو فيها النباتات على اختلافها بحرية، بينما يضيق عليها الخناق. ليته مثل شجرة اللوز التي تزهر وتثمر دون أن يشل الخوف حركتها.

إن سعاد وحيدة أيضًا؛ فهي لا تجد صديقات تأنس إليهن هنا غير ابنتي الحلاب اللتين لا تكادان تعرفان القراءة والكتابة. أما صديقاتها اللواتي كانت تنعم بصحبتهن في قريتهم الأصلية فهي لا تعرف متى تراهن ثانية، وقد لا تراهن أبدًا. شعرت سعاد بغضب متزايد لكنها كبتت غضبها عندما وجدت نفسها أمام بيت الحلاب المجاور لحظائر البقر. استقبلتها الأم قائلة:

- أهلاً بك يا سعاد. تفضلي.

بعد قليل جاءت فتحة لتحيتها وتبعتها روحية واتصلت الأحاديث بينهما، ثم أحضرت روحية إبريق الشاي والأكواب وحلوى لم تر سعاد مثلها من قبل. قالت فتحة: هذه حلوى لذيذة أحضرها أخي جابر. فقامت روحية: ولا شك أنك ستحبينها.

قالت فتحة موضحة: لقد اشتراها أخي جابر من المدينة.

قالت سعاد: لكن جابر لا يذهب إلى المدينة عادة.

قالت فتحة: لقد ذهب إلى المدينة مع أبي منذ يومين.

قالت روحية: كانت تلك أول مرة.

أضافت فتحة موضحة: فالحليب كثير هذه الأيام..

فأسرعت روحية تقول: فرأى أبي أن يستعين به في نقل الحليب إلى

المدينة وبيعه هناك.

قالت الأم: الموسم وافر هذا العام والحمد لله. اللهم زد وبارك.

قالت سعاد: ليت المواسم تكون كلها خيرًا.

أكلت سعاد قطعة أخرى من الحلوى وهي تقول: إنها لذيذة فعلاً.
قالت فتحية: يقول جابر إنه وجد المدينة جميلة لدرجة...
أسرعت روحية تقول: لدرجة أنه لم يُرد العودة إلى المزرعة.
ضحكت الأختان فشاركتهما أمهما الضحك.
قالت سعاد: إني لم أذهب إلى المدينة قط، مع أن عمتي تعيش فيها مع أسرتهما.
قالت فتحية: لو كنت مكانك لذهبت، فالمدينة تستحق الزيارة كما يقول جابر.
وأضافت روحية: وفيها كل ما يخطر بالبال.
عادت فتحية تقول: ويقول جابر أيضًا إن الجبل ليس شاهقًا كما كان يظن.
قالت سعاد: حقًا؟
قالت فتحية: لقد أخذ له مرزوق حمارًا كما يأخذ لأبي عادة لكنه..
وأسرعت روحية تقول: لكنه لم يركبه إلا دقائق معدودات تسَلَّق بعدها الجبل وحده دون عناء يُذكر.
عادت فتحية تقول: ثم ركب جابر الباص إلى المدينة مع أبي وعاد مرزوق بالحمارين إلى المزرعة..
قالت روحية بسرعة: ويقول جابر أيضًا إن الجبل ليس مخيفًا كما كان يظن.
قالت فتحية: قال إنه موحش قبيل الفجر لكنه لم ير فيه ما يخيف.

قالت روحية: لم ير فيه وحوشًا، بل لم ير فيه إنسانًا.

قالت فتحية: كما أنه لم ير فيه..

قالت روحية بسرعة: بسم الله الرحمن الرحيم. لا لم ير جابر في الجبل ما يخيف.

عادت سعاد إلى البيت وهي تفكر في زيارة جابر للمدينة. بعد أيام قليلة تجدد الحديث عن الزيارة بين الفتيات الثلاث، فعرفت سعاد المزيد عن المدينة وعن الطريق التي سلكها جابر إليها. المدينة كما يقول جابر ليست ضخمة كما يظنّ الناس، والمسافة بينها وبين قمة الجبل ليست بعيدة. إذن فالوصول إليها ليس صعبًا. إنها تعرف اسم الحي الذي تسكنه عمتها في المدينة، ولا شك أنها ستستطيع الاهتداء إليه في مدينة لا تبلغ من الكبر حدًا هائلًا. ما أجمل أن ترى المدينة! إن الحياة فيها مختلفة لبعدها عن الصحراء والجبل معًا، والجذب لا يهددها مباشرة. في المدينة كل شيء: مدارس وبيوت كبيرة وحدائق وأعمال لا تعد. أبواب الرزق مفتوحة للجميع في المدينة والأجور عالية. ليتها تعمل في المدينة، ليتها تلتحق بمدرسة هناك، ليتها تجمع بين العلم والعمل، إنها واثقة من قدرتها على ذلك.

كانت سعاد تعرف تمامًا أن أباه لا يمكن أن يرضى بشيء من هذا. لكنها ستعيش في كنف عمتها فلا حاجة به للخوف عليها. ثم إنها سترسل إليه نصيبًا وافرًا من أجرها بانتظام. أما أمها فهي ستسترد عافيتها وتعود إلى القيام بواجباتها المنزلية دون مساعدة من أحد، وربما كُفّت عن

الإنجاب. ليت سعاد تصبح معلمة مثل الأنسة وفاء! إنها بهذا تشقُّ لنفسها طريقًا إلى النجاح الأكيد، وعندئذ تستطيع أن تقدّم لأسرتها مساعدة حقيقية وتصبح قدوة صالحة لأخوتها وهي أكبرهم. لكن هل تقوى سعاد على فراق أسرتها؟ وكيف تترك أخاها سعود المحبب إلى قلبها؟ إن المدينة ليست بعيدة وستأتي لزيارة أهلها كلما استطاعت. كان من أثر التفكير المستمر في المدينة أن سعاد أصبحت ترى الذهاب إليها أمرًا ممكنًا، وما لبثت فكرة الذهاب إلى المدينة أن حلت محل الحنين إلى قريتهم الأصلية، لكنها ظلت طيّ الكتمان الشديد.

والجبل كيف تتسلقه؟ إن جابر فتى أما هي ففتاة، وهي لا تملك القوة الجسمية اللازمة، ولا تملك الشجاعة. ربما لم ير جابر وحوش الجبل لشدة لهفته على الوصول إلى المدينة. وربما كان خوفه من الوحوش محدودًا في الأصل لأنه وُلد في المزرعة وتعود على بيئتها. لكن الجبل مخيف حتى لو لم يخف منه جابر، وسعاد موقنة من وجود الوحوش فيه. بل إنه مخيف حتى لو لم تأو إليه الوحوش، فسعاد توقن أن أرواحًا شريرة تسكنه. وهي ليست الوحيدة التي تخاف منه، فقد حدّثها كامل وعبدالله عن خوفهما من الجبل أيضًا، وكذلك فعلت فتحية وروحية. لكنها تذكرت أن جابر لم ير فيه ما يخيف. كما تذكرت أن الحلاب يتسلقه في طريقه إلى المدينة لبيع الحليب عدة مرات في الأسبوع. إن الخوف من الجبل يعني البقاء تحت رحمته إلى الأبد. وسعاد لن تنجو بنفسها إلا إذا تسلقته في طريقها إلى المدينة.

هناك طريق آخر يؤدي إلى المدينة وهو يمر بمحاذاة الصحراء غير بعيد عن المزرعة، والسيارات والشاحنات الصغيرة تسلكه وهي قليلة. لا توجد باصات هنا، لكن سعاد لا يمكن أن تركب باصًا أو سيارة على أي حال لأن ذلك يعني افتضاح أمرها. إذن فتسلك الجبل هو الوسيلة الوحيدة إذا أرادت الذهاب إلى المدينة. يمكنها التوقف بين حين وآخر أثناء التسلق للاستراحة. ولا حاجة بها لتسلق الجبل قبيل الفجر كما يفعل الحلاب بل ستنتظر طلوع الفجر. وعندئذ تكون الوحوش قد آوت إلى أوكارها فتخف أخطارها. لكن هب أن شخصًا هاجمها فبمن وبماذا تحتمي؟ إنها لا تملك سلاحًا تدافع به عن نفسها، وهي لا تعرف كيف تستعمله حتى لو امتلكته. ستحمل في يدها عصا غليظة وستختبئ خلف الصخور الضخمة إذا سمعت صوتًا أو أحست خطرًا. كما يمكنها التنكر في ثياب الأولاد، وهذا سهل، فثياب كامل تناسبها تمامًا. يجب أن تخاطر سعاد بترك هذه المزرعة كما خاطر أبوها بالقدوم إليها.

في يوم من أيام ذلك الربيع رأت سعاد المزرعة وقد بدأت تكتسي خضرة شاملة تتحدى الصحراء والجبل معًا. لان قلب سعاد للأرض التي تتزيا بمثل هذا الجمال الذي ما كانت تظنّه ممكنًا عندما انتقلوا إلى هذه المزرعة قبل عامين. أحست سعاد بأن الحياة قرب الأرض التي تغدق خيراتها على هذا النحو نعمة كبرى، وتمنت لو تستطيع الارتباط بها والوفاء لها إلى الأبد. لكن من أدراها كيف تكون الأرض في الربيع القادم؟ إن الأرض قد تجذب رغم كرمها لأنها تخضع لما هو أقوى منها

كما قال معلم المدرسة لأبيها. ماذا سيكون من أمر المزرعة عندئذ؟ وكيف ستكون حالهم بعد أن ربط أبوها مصيره بها؟ لا جدوى من البقاء في المزرعة رغم حبها الوليد لها. لكن فراقها لن يكون سهلاً.

في اليوم نفسه رأت سعاد شجرة اللوز وقد بدأت ثمارها الغضة تظهر بين أوراقها. ثمار مخملية ممتلئة قد أبدعت الطبيعة تكوينها. خُيل لسعاد أن خضرتها الرمادية الهادئة تشبه أحجاراً كريمة لا تعرف حتى اسمها. كانت سعاد متشوقة لنكهة اللوز التي تُذكر بالفجر والبدايات المباركة. تذكرت زميلات المدرسة وشغفهن جميعاً بأكل اللوز في مثل هذا الوقت من العام. كان بائع اللوز الأخضر يقف بعربته عند سور المدرسة فتسرع التلميذات إلى شراء اللوز، ثم يذررن عليه الملح ويأكلنه بشهية كبيرة وهن يتجولن في ساحة المدرسة التي تغمرها أشعة الشمس الدافئة. كان ظهور اللوز الأخضر رمزاً للربيع في نظرهن، وكان أكله بمثابة احتفال بقدومه وتعبير عن الفرح التي يبعثها في قلوبهن. في نهاية ذلك اليوم وضعت سعاد بضع لوزات في جيبها لتأخذها إلى أمها التي تحب اللوز الأخضر مثلها وتستسيغ نكهته الخفية التي تبتعد عن الحموضة والحلاوة معاً.

توجهت سعاد نحو أحواض الفول الأخضر لتفقدّها فوجدت أن حباته قد قاربت النضوج. لقد تعهدت هذا المحصول وراقبت نموه فما أجمل أن تقطفه! تمنّت سعاد في تلك اللحظة أن تقضي حياتها في تلقي عطاء الأرض السخي، لكن أي عطاء هذا الذي يُمنح سنة ويُحجب سنة

أخرى؟ وأين الأمان في هذه الحالة؟ من أدراها ماذا سيجعل لهم الموسم القادم؟ إن الخصب الحقيقي هو الاطمئنان على الحاضر والمستقبل. والعلم أساس أكيد للاطمئنان. العلم هو ما تريده سعاد فلماذا لا يكون لها ما تريد؟ إن سعاد لا تتخلى عن أسرتها بذهابها إلى المدينة بل هي تسعى إلى حياة أفضل لهم جميعًا. لقد ترك أبوها قريتهم من أجل حياة أفضل فلماذا لا تحذو حذوه؟ فلتترك الزراعة لمن يصلح لها، ولتذهب إلى المدينة وتعدّ نفسها لما تصلح له.

راحت سعاد تقطف الفول بحماس، وسرعان ما امتلأت به الأكياس فحملتها إلى البيت واحدًا بعد الآخر وكأنها عطايا تقدمها لأسرتها. ستأكل الأسرة الكثير من الفول اللذيذ هذا العام، وسيبيع أبوها الكثير منه أيضًا فيزداد رضا. ظلت سعاد تروح وتجيء ساعة من الزمن وهي تنقل الأكياس إلى البيت. لكنها قبل حمل الكيس الأخير جلست تحت شجرة اللوز لتستريح قليلاً. كان وقت الغداء قد اقترب، غير أن سعاد كانت بحاجة ماسة إلى الراحة بعد حمل أكياس الفول في ذلك اليوم الدافئ فتمددت على الأرض. وما لبثت شجرة اللوز أن ألقت عليها ظلها مثل غلالة رقيقة تحميها بها. ما أبدع ثمار اللوز التي تتشبث بالأغصان النحيلة المتشابكة فوق رأسها! ما أروع هذا الفراش الدافئ الذي يتناثر فوقه النوار! وما أجمل هذه الزهور البرية التي تحيط بجذع شجرة اللوز فتكمل زيتها! ليتها تستظل بشجرة اللوز إلى الأبد.

عادت سعاد إلى البيت في ذلك اليوم فأنجزت أعمالها الأخرى ولبت كل طلبات أمها كالمعتاد. غيّرت لسعود ثيابه وهزت سريره طويلاً وهي تناغيه، ساعدت أخويها كامل وعبد الله في استذكار دروسهما، لعبت مع أختيها نعمة ونجمة وروت لهما القصص، وفي المساء أعدت طعام العشاء لأسرتها ثم غسلت الأواني. وأخيراً ذهبت فأحضرت قميصاً وسروالاً من ثياب كامل وكوفية قديمة لأبيها ووضعتها كلها على حافة الساقية في الفناء لغسلها. لكن سعاد لم تنم في تلك الليلة. قبيل طلوع الفجر ذهبت إلى دورة المياه في الفناء كما تفعل أحياناً في مثل هذا الوقت، وهناك استبدلت ثياب كامل بثيابها وتلفعت بكوفية أبيها ووضعت ثيابها في كيس حملته معها. تسللت من الفناء وهي تحبس أنفاسها، ثم أحكمت إغلاق البوابة خلفها ومشت بخطى حذرة. كانت خيوط الفجر الجديد قد بدأت تتخلل السماء لكن لم يكن في وقت سعاد متسع لشهوده. أحست سعاد بنسائم الفجر تربّت وجهها فانتعشت قليلاً، ثم بدأت العصفير غناءها المتردد. كان قلبها مثقلاً بالحزن لكنه مفعم بحب الحياة أيضاً. كان ضوء الفجر يزداد مع كل خطوة تخطوها فيزداد قلقها. خلعت سعاد حذاءها وركضت إلى حوض الفول فتركت رسالة صغيرة لأبيها على حافته تخبره فيها بذهابها إلى المدينة. ثم أسرع إلى طرف المزرعة الجنوبي ونفذت من خلال أشجار الحور إلى السيل، وهناك توقفت قليلاً.

ها هو السيل الذي يروي المزرعة. مياهه غزيرة قد غذتها الأمطار التي هطلت ذلك الشتاء في المناطق الأخرى، وهي ساكنة مثل صفيحة هائلة من المعدن، هادئة إلا من خريخ خافت. ليتها تبقى بجانب هذه المياه وتشارك أهلها مصيرهم، لكنها تعرف أن الحياة إلى جانب هذا السيل ليست سلامًا كلها. تذكرت ما قالت فتحية وروحية عن القلق الذي يتتاب الكبار والصغار على السواء عندما تقلّ مياهه، وعن اليأس الذي يصيبهم عند جفافها. بل إنها علمت من فتحية وروحية أن هذه المزرعة كانت قبل سنوات تمتدّ إلى حيث مضارب البدو تقريبًا، لكن مساحتها تقلصت عندما شحت مياه السيل. وكيف تنسى قصة الحاج آدم الذي قضى الجفاف على زراعته فمات حسرة؟ إن الحياة إلى جانب السيل لا أمان فيها ولا استقرار فلماذا ترضى بمصير كهذا؟ فلتذهب إلى المدينة، ولتكافح من أجل مستقبل أكثر استقرارًا.

وها هو الجبل على الجانب الآخر من السيل، قريب منه لا يفصله عنه إلا ضفة ترابية تبدو وكأنها امتداد للمزرعة. غير أن الجبل منفصل تمامًا عن المزرعة. فيد الربيع لم تجرؤ على مسّه، وقد لا تمسّه يد أخرى مهما طال الزمن. لكن شيئًا من سكينه السيل قد تسرب إليه فبدأ أقل وحشة مما كانت تظن. زایل سعاد بعض خوفها. إن هذا الجبل الأصم الأبكم هو كل ما يفصلها عن المدينة تقريبًا. إنه الحد الفاصل بين الواقع والحلم، وهو أيضًا صلة الوصل بينهما. وها هو سيضع نفسه تحت قدميها.

طال وقوف سعاد عند السيل أو هكذا خيل إليها فعاودها الهلع من انكشاف أمرها. نظرت إلى ضفته الأخرى ثم إلى سفح الجبل وأدركت أنها يجب أن تحزم أمرها حالاً وإلا ضاعت الفرصة منها إلى الأبد. اتجهت نحو الجسر الخشبي المقام فوق السيل، وما هي إلا دقائق حتى اجتازته إلى الضفة الأخرى. التفتت خلفها فرأت المزرعة خضراء مترامية. وخيل إليها أن مياه السيل بدأت تلمع وكأن الشمس تكاد تشرق فقررت أن تبدأ التسلق فوراً ودون مزيد من التفكير. وقفت سعاد عند سفح الجبل الذي طالما أخافها وتمسكت بصخوره القريبة منها لثبّت أقدامها، وبدأت تتسلقه على مهل. راحت تختبئ خلف الصخور وتمد رأسها لترى إن كان هناك خطر يهددها ثم تعود إلى التسلق بعد ذلك. وسرعان ما تبين أن تلك الصخور الضخمة تحميها وتسهل لها مهمتها. من الصحيح أن الجبل لا يمت إلى العالم الذي تعرفه بصلة لكنه لا يعرقل سيرها.

واصلت سعاد تسلق الجبل وصخوره تحيط بها من كل جانب. عندما طلعت الشمس كانت قد قطعت مسافة لا بأس بها. نظرت إلى الخلف فرأت المزرعة وقد تحولت إلى خط أخضر يتلأأ تحت شمس الربيع كالزمرّد، ولا شك أن مياه السيل تلمع الآن كالبلور. كانت سعاد تلهث لكنها كانت راضية عن جهودها في التسلق وعن استمرارها فيه دون عائق. كانت تركز على الصعود دون أن تدع شيئاً يثبّط همتها، وكانت تزداد ثقة كلما صعدت. فهي لم تصادف في الجبل ما يخيفها أو يعيقها، ويبدو أن

رحلتها ستمر بسلام. بعد حين أخذت الصخور تنفجر قليلاً وتكشف عن أجزاء في الجبل خالية منها. ثم بدأت الأرض تنبسط قليلاً. شعرت أنها ابتعدت عن المزرعة كثيراً لكن قمة الجبل بدت لها بعيدة هي الأخرى. بعد قليل رأت نفسها وقد أحاط بها قسم من الجبل متوسط الانحدار. لا شك أن تسلقه سهل، ولعل القمة تكون قريبة الآن. لكنها لم تسمع صوت سيارات بعد. هل ضلت طريقها؟ وهل تسلقت الجبل من ناحية لا تؤدي إلى المدينة؟ خشيت أن تكون في طريقها إلى أرض مجهولة أو إلى متاهات الصحراء. سيطر الرعب عليها لحظات لكنها قررت أن تتسلق المرتفع الذي أمامها أولاً ثم ترى ما سيكون بعد ذلك. راحت سعاد تصعد، وراح الجبل يزداد انبساطاً حتى كاد يصبح سهلاً واسعاً. ثم سمعت صوتاً لا تخطئه الأذن؛ سمعت نباحاً. إذن فهذه المنطقة قد تكون مأهولة، وقد تجد فيها من يدلّها على الطريق، ولا خوف من أن يعرفها أحد الآن بعد أن أصبحت بعيدة كل البعد عن المزرعة، وسيكون لها في ثياب كامل خير حماية على أي حال. أخيراً سمعت سعاد الصوت الذي كانت تتلهف لسماعه. أليس هذا صوت سيارة؟ بلى! لقد وصلت إلى أعلى الجبل! لقد وصلت إلى الطريق المؤدي إلى المدينة!

خطت سعاد خطوات في أرض منبسطة تقريباً فرأت طريقاً عريضاً يمر بمحاذاتها. لقد صدق جابر! كانت الأرض خالية إلا من أشخاص قلائل يقفون بعيداً ينتظرون باصاً أو سيارة كما يبدو. مرت بعض السيارات أمامها فتوقعت أن يمر الباص بعد قليل ويحملها إلى غايتها! لم تعرف

سعاد ما تفعل بفرحتها فارتمت على الأرض والدموع تنهمر من عينيها، وراحت تردد وهي تشهق: الحمد لله الحمد لله. وما لبثت الدموع أن بللت وجهها وكوفية أبيها ويديها دون أن تستطيع لها منعاً. ثم راحت تضحك بصوت عال، لكنها عادت إلى البكاء الذي لم تستطع مقاومته. لا بأس. فلتذرف من دموع الفرح ما شاءت، فقد نجحت خطتها.

- سعاد! سعاد!

ظلت سعاد تبكي وتشهق وهي مرتمية على الأرض.

- سعاد! سعاد!

حاولت السيطرة على بكائها، فالباص سيصل قريباً وسيظن بها ركابه الظنون، وهي أيضاً لن تكون في أمان حقيقي إلا عندما تصل إلى بيت عمته، فالأولى بها أن تلتزم الحذر بدلاً من أن تستسلم للبكاء. ازداد عدد السيارات في الطريق فأيقنت سعاد أن الباص سيصل قريباً إلى حيث تقف. ما عليها إلا أن تشير إليه طالبة من سائقه التوقف. هكذا قال جابر، وهاهي الأجرة في كيسها. راحت سعاد تجفف دموعها لكن دون أن تفارقها الرغبة في البكاء.

- سعاد! سعاد! ما بالك يا سعاد؟

ما هذا الصوت؟ هل عرفها أحد؟ هل لحق بها من المزرعة أحد؟ وهل أحبطت خطتها بمجرد أن قاربت النجاح؟

- سعاد! ما بالك يا سعاد؟

من هذا الذي يكلمها؟ لعله جني! إذن فما يقوله الناس عن جن الجبل صحيح.

- ما بالك يا سعاد؟ لم تبكين؟
لقد افترض أمرها! وها هي آمالها قد خابت بعد أن كادت تتحقق.
- كفاك بكاءً يا سعاد! انهضي يا سعاد.
هذا صوت تعرفه. لكنها لا تعرف أحداً هنا. أيعقل أن يكون قد تعقبها من المزرعة أحد؟

- كفاك بكاءً يا سعاد. هيا انهضي.
أهذه روح شريرة تريد أن تعاقبها على فعلتها؟ الأرجح أنه جني.
فتحت سعاد عينها قليلاً فرأت حذاء قربها. لا يمكن أن يكون هذا جنيًا.
إذن فهذه فتحة أو روحية، لكن هذا غير ممكن أيضًا.
- ما بالك يا سعاد؟ انهضي يا سعاد.

فتحت سعاد عينها ثانية. لعل هذا راعٍ يسرح في أعلى الجبل. يجب ألا يراها غريب وهي تبكي. لكن كيف عرف الراعي اسمها؟ أم لعل هذا جابر؟ ربما طلبت منه أختاه اللحاق بها بعد أن أحست بنيتها الهرب.
- هيا يا سعاد. انهضي يا سعاد.

هل هذا كامل؟ إنه في المدرسة فلا يمكن أن يكون هو. ماذا سيقول عن سرقتها لثيابه عندما يكتشف أمرها؟ ستعذر له وسيقبل عذرها.
- هيا يا سعاد. انهضي بالله يا سعاد.

فتحت سعاد عينيها ثانية فخيل إليها أنها ترى شجرة فوق رأسها. لكن الجبل كله ليس فيه شجرة واحدة، فمن أين جاءت هذه الشجرة؟ وهاهي زهرة وحيدة قد سقطت فوق رأسها. من أين سقطت؟ وهذا ظل. هل هو ظل صخرة من صخور الجبل؟

- هيا إلى البيت يا سعاد. لقد حان وقت الغداء.

هل هذا كامل؟ ما الذي يقوله عن الغداء؟ فتحت سعاد عينيها فخيل إليها أنها ترى أغصاناً متشابكة فوق رأسها.

- هيا يا سعاد. لقد حان وقت الغداء.

هذه شجرة تظلها. وبقايا نوارها ما تزال تكسو الأرض. ها هي الأقدام تدوسه، ولن يلبث أن تكنسه الريح ثم تدفنه في التراب كأنه لم يكن. كأنه لم يبعث الأمل يوماً. ستظل هذه الشجرة في موضعها دهرًا لا يعرف أحد مداه. ستعيد دورة حياتها سنة بعد أخرى في صمت حتى تمل وتتعب وتهرم، ثم تصبح حطبًا يوقد في ليالي الشتاء.

- هيا إلى البيت يا سعاد. لقد كنت غارقة في نوم عميق، ولقد خفت عليك.

- سآتي عما قليل. اسبقني إلى البيت.

حزن

وقف أبو رعد بالنافذة ليستطلع حالة الجو ففوجئ بالمنظر؛ عشب أخضر يحتل مساحة كبيرة من الحديقة لم يحتلها من قبل، يرص صفوفه بدقة ويتوثب إلى الأعلى رشيقيًا مستقيمًا، تغمره أشعة الشمس فيتلاأأ ويشفّ حتى يكاد هو نفسه يشعّ نورًا.

لقد ظهر ذلك العشب في الحديقة فجأة وفي غفلة من البستاني، نبت من تلقاء نفسه غير عابئ بالأشجار الملتفة حوله ولا بالنباتات التي تتسلق السور، ولا بالزهور التي تنزوي في أركان الحديقة. لقد انبثق من باطن الأرض متشوقًا للهواء والضياء ومؤكدًا حقه في الحياة. أشجار الحديقة مثقلة بأوراقها الجديدة لكنها لم تحمل ثمارها بعد، الكرمة تلتف حول العريش الحديدي الذي نصب من أجلها غير أنها ما تزال عارية. شجيرة الياسمين تستند إلى السور في انتظار إكليلها الأبيض. أما ذلك العشب فقد اكتملت حياته، وهو يمضي إلى غايته بعزم محتضنًا سرّ وجوده. كان ذلك العشب مكتفيًا بذاته محتميًا بها، وكان يرفع هامته اعتدًا فيطاول الكثير من النباتات القريبة منه.

سوف يقتلع البستاني العشب من موضعه عندما يجد متسعًا من الوقت، إذ لا مكان لنبات طفيلي في الحدائق المنمقة. لكن العشب من أوسع النباتات انتشارًا داخل الحدائق وخارجها على السواء، وهو أيضًا من أهم

بشائر الربيع التي تحمل الفرحة إلى قلوب القادرين على استقبال الفرحة. غير أن البستاني لا حاجة به إلى القلق، فالعشب زائر عابر لا أكثر، وهو سيدوي مع تقدم الربيع ثم يختفي في آخره. تأمل أبو رعد ذلك العشب وهو في عجب لما يجتمع فيه من القوة مع الهشاشة، والجمال مع سرعة الزوال، والمكانة مع المهانة. شعر بالأسى لتلك الحياة الغضة التي ستنتهي قريباً إلى مصيرها المحتوم، ولذلك التوهج الذي سيصير عما قريب إلى ذبول. راح يسأل نفسه عن الحكمة في تداخل الحياة مع الموت على ذلك النحو الوثيق فلم يحرج جواباً.

تحول أبو رعد عن النافذة ففوجئ من جديد؛ الغرفة غارقة في العتمة بعد الحديقة التي تغرقها أشعة الشمس. لا بد من إزاحة الستائر وفتح النوافذ، لكنه يشعر بالنعاس. جلس على حافة السرير ثم استلقى عليه متمنياً لو كان الوقت ليلاً ليغيب في أحضانه كالأطفال. صمت عميق يكتنف البيت كله رغم تقدّم النهار. لا أصوات تنفذ إليه من الخارج وكأن جدرانه تصدّها فتراجع، لكن أبا رعد رحّب بالصمت بعد صخب الأيام الثلاثة الأخيرة. كان يتشوّق أيضاً إلى فنجان القهوة المعتاد في تلك الساعة من النهار، لكنه لم يقو على النهوض من الفراش. لم يستطع النوم أيضاً رغم نعاسه، لكن لا بد من النهوض. هاجمه البرد بعد أن كان ينعم بدفء الفراش فارتدى سترته الصوفية وخرج من غرفته فوجد العتمة بانتظاره. مشى إلى المطبخ محاذراً الاصطدام بقطع الأثاث وعاد بفنجان القهوة بعد قليل. تردّد قليلاً ثم توجه إلى غرفة الجلوس على مهل وهو

يتحاشى النظر إلى الباب المغلق بجوارها. جلس على مقعد قرب الباب في وجل، لكنه كان يشعر بالراحة في تلك العتمة التي تسدل حوله مثل ستار واقٍ. تذكر عشب الحديقة فأحس بأنه ينتمي إلى زمان ومكان بعيدين.

أما البرد فظل يهاجم أبا رعد بهدوء خبيث وكأن الشمس لا تسطع في الخارج. كان ينغرز في جسمه رغم السترة الصوفية، لكنه لم يكن يستطيع العودة إلى الفراش والاستمتاع بدفئه فقد تقدم النهار وسيطرق الزوار بابه عما قليل. جذب غطاء خفيفاً موضوعاً على الأريكة المجاورة وتدثر به ثم أغمض عينيه. كان يتوق إلى الوحدة بعد زحمة الأيام الثلاثة الأخيرة، ويتمنى الاستسلام للمشاعر التي تعصف به بعد أن اضطر إلى كبتها طويلاً.

قالت له بصوتها الرقيق: «كيف حالك؟».

- أنا حزين ومتعب للغاية.
- كن شجاعاً.
- كيف حالك أنت؟
- أحاول دائماً ان أكون بخير.
- ظننتك ذهبت.
- أنا هنا.
- أنا سعيد بوجودك.

ابتسمت فازداد وجهها وضاعة. راح يتأمل ذلك الوجه شبه المستدير والرأس الأنيق والشعر القصير وكل ذلك التناسق الذي طالما استوقفه في الماضي. اقترب منها وهو يقول ثانية: «أنا سعيد بوجودك». فقالت: «أنا هنا دائماً».

ازداد اقتراباً منها وهو يتأمل عينيها اللتين تحاكيان عشب الحديقة بلونهما. أمسك بيدها ورفعها كأنما ليقبلها فأحسَّ فجأة ببرودة تشبه تلك التي هاجمته في الصباح. نظر إليها مستفسراً فرأى وجهها قد شحب فجأة. مدَّ ذراعيه ليحتضنها لكنه أحسَّ أنه يحتضن شيئاً كالهواء فارتعد. فتح عينيه فإذا به يجلس على مقعده وحيداً وهو ما يزال يمدُّ ذراعيه إلى الأمام. أما أريكتها فكانت خالية. قام ليفتح باب الغرفة المغلقة ويتأكد من وجودها هناك لكنه هبط على مقعده فجأة.

أين ذهبت؟ وكيف تبدد حضورها الدافئ؟ كيف شقَّت طريقها إلى هناك؟ وماذا حدث لها بالضبط؟ صُدم أبو رعد لذلك الفراغ الذي امتلأت به أريكتها ومحا الحضور محوً لأنه لم يكن. هل كانت الأريكة خالية طيلة الوقت؟ هل كان ذلك الفراغ الباهت موجوداً من قبل؟ وهل هو حقيقي الآن؟ ربما كان الماضي كله وهمًا، ربما كان الحاضر وهمًا هو الآخر، وربما كانت صاحبة الأريكة نفسها وهمًا من الأوهام. اختلط في ذهن أبي رعد الوهم والحقيقة، الحضور والغياب، الماضي والحاضر. وأفرعه ذلك الفراغ المهلهل الذي سيظل يواجهه ليل نهار حتى نهاية العمر.

طُرق الباب كما كان يتوقع، دخل أخوه يتوكأ على عصاه، ثم دخلت زوجته وخلفها ابنيهما الشاب حاملاً أواني الطعام. قال الأخ بمجرد جلوسه ودون أن ينظر إلى أبي رعد مباشرة: «لا إله إلا الله. كل شيء زائل إلا وجهه الكريم. إنا لله وإنا إليه راجعون».

وقالت زوجته: «رحمة الله على أم رعد. إن رحيلها يترك في قلوبنا لوعة».

قال أخوه مؤكداً كلام زوجته: «نعم دون أدنى شك».

عاد ابن الأخ من المطبخ بعد أن وضع أواني الطعام هناك كما طلبت منه أمه، وجلس صامتاً دون أن يبدو عليه اهتمام كبير بما حوله. جلس أبو رعد صامتاً هو الآخر وهو ما يزال بملابس النوم. لم تبد عليه الاستجابة لشيء مما سمعه بل كان أقرب إلى الذهول. عاد أخوه يقول وكأنه يحفزه على الكلام: «رحمة الله على أم رعد. لقد كانت سيدة فاضلة حقاً».

وعادت زوجة الأخ تقول شيئاً مشابهاً لكن أبا رعد ظل على صمته وكأنه لا يسمع شيئاً.

استأذن ابن الأخ في الذهاب فطلب منه أبوه أن يعود في المساء ليصطحبهما إلى البيت في سيارته. توجهت زوجة الأخ إلى المطبخ لتفقد العاملة المنزلية التي وصلت لتوها، والتأكد أن أمور البيت تسير على ما يرام.

قبل موعد الغداء جاءت أخت أبي رعد تحمل مزيداً من أواني الطعام، وجاء معها زوجها الذي أصبح يكنى بأبي إياد بعد ولادة ابنيهما البكر قبل

حوالي ثلاثين عاماً. في العصر جاء أقارب آخرون معظمهم من كبار السن، ثم وصل رئيس الجمعية الخيرية التي ينتمي إليها أبو رعد ومعه بعض أعضائها. قال له أحد أقربائه وقد رآه يجلس بينهم دون أن يخرج عن صمته: «هَوْن عليك يا أبا رعد فهذه سنة الحياة».

وقال له ثانٍ: «تشجّع يا أبا رعد ولا تستسلم للحزن هكذا».

وقال ثالث: «أدعو الله أن يلهمك الصبر يا أخي».

فقال أخو أبي رعد: «لا عزاء إلا في الدين ولا مخرج من الحزن إلا عن طريقه. قراءة القرآن، الاستماع له، الصلاة والدعاء والاستغفار، هذه كلها تفعل الأعاجيب».

لقد قرأ أبو رعد القرآن كله عدة مرات، كما أنه وازب على الصلاة في مراحل مختلفة من حياته. قرأه كاملاً أثناء مرض زوجته الأخير، ثم قرأ بعض كتب الدين والتصوف واهتمَّ اهتماماً خاصاً بالشعر الديني والشعر الصوفي. لم يبتعد أبو رعد عن الدين يوماً كل الابتعاد، لكنه لم يتعمّق فيه كل التعمّق.

قال أبو إياد: «السلوان غير ممكن في رأيي بدون المضي في طريق الحزن إلى نهايته. وأفضل ما يمكن أن يفعله المرء للتغلب على الحزن هو الاستسلام للحزن نفسه، فالحزن أشبه بموجة لا يمكن أن يُخلفها السابح ورائه إلا بعد اقتحامها، والصفة المقابلة لا يمكن الوصول إليها إلا بعد عبور النهر».

هزّ أبو رعد رأسه وهو يقول في نفسه: «أصبت يا أبا إياد».

قال قريب رابع: «استعن بكل ما تستطيع الاستعانة به لتجاوز هذه المحنة يا أبا رعد».

قال أحد أعضاء الجمعية الخيرية: «إنها محنة حقًا لكننا عرفناك رجلاً شجاعاً يا أبا رعد».

قال أخو أبي رعد: «إن الموت حق».

قال رئيس الجمعية الخيرية: «الموت حق، خاصة إذا تذكرنا أن له أسباباً محددة دائماً لا يمكن الإفلات منها، مثل الوراثة والبيئة وأسلوب الحياة والعادات الشخصية والحوادث وغير ذلك».

بدأ بعض الحضور يتحدثون عن حوادث موت مشابهة، غير أن أبا رعد لم يجد في ذلك عزاء، فحوادث الموت الفردية لا يمكن تجاوزها بالحديث عن الموت عموماً، بل ينبغي الاهتمام بتفاصيلها والغوص في تفاصيلها قبل ذلك.

استعصى النوم على أبي رعد في تلك الليلة رغم محاولاته. لم يعد يطيق الاستلقاء في السرير فجلس على حافته. استعاد ما دار في النهار من أحاديث دون أن يتوقف عند أيٍّ منها كثيراً، لكنه كان يشعر بشيء من الراحة لوجود أقربائه وأصدقائه حوله في ذلك الوقت العصيب، لأنه يبقيه عند حدود حزنه القاهر ويبعده عن غمرته. علا صوت المؤذن داعياً المؤمنين إلى صلاة الفجر فتمنى أبو رعد أن يستجيب لندائه، لكنه لم يكن يقوى على النهوض. عندما بدأت تباشير الصباح تظهر رآها ثانية. كانت مستلقية على أريكتها، هزيلة كما كانت في أخريات أيامها، شاحبة

كالشمع، غائرة العينين، قد انطفأت فيها شعلة الحياة أو كادت. كانت تشير بيدها إلى شيء وتتمتم بكلام غير مسموع تتخلله تأوهات خافتة من حين لحين.

عندما صحا أبو رعد من إغفائه القصيرة كانت الدموع تملأ عينيه. تذكر كيف أمعن المرض في الفتك بزوجه سنوات عديدة قبل رحيلها. تذكر ضعفها المتزايد وكيف صارت تبدو مثل عصفور دهمه الصقيع. لاحت في مخيلته نظرة الانكسار التي تعمقت في عينيها والتي لم يكن يقوى على مواجهتها، ثم لحظة استسلامها النهائي. لم يقاوم أبو رعد الدموع كما فعل في الأيام الثلاثة الأولى، بل استسلم لها لعلها تذيب بعض الحزن الذي تراكم في قلبه. بكى المرأة التي سعد بصحبتها والتي كان يرجو أن ترافقه حتى آخر أيامه، وبكى اللذين رحلا قبل أن يصلا، وقبل أن يحملا اسميهما اللذين اختيرا لهما بعناية ليتناغما مع اسمه: رعد وورد. أراد للأول أن يطبق ذكره الآفاق وللثاني أن يزيد الدنيا جمالاً، وللاثنين أن يجمعا في ما بينهما القوة إلى الرقة. لم ينس قط الحمل الذي أجهض مرتين في مرحلتين مختلفتين، تاركاً إياه وزوجه محرومين من الأبوة متلهفين عليها قانعين بحمل أحد الاسمين. غير أن الحرمان زاد من تقاربهما فراح كل منهما يغدق على الآخر كل ما يستطيعه من حب ورعاية. انهالت دموع أبي رعد في ذلك الصباح مثل مياه هائجة، وعلا صوته بالنحيب، بينما كان الحزن ينهش قلبه مثل وحش كاسر، وروحه تتصدع تحت وطأة الدموع.

لم ينج أبو رعد من الشك الذي اجتمع عليه مع الحزن. فقد كان يسائل نفسه طيلة الوقت إن كان قد وفرَّ لها العناية الطبية اللازمة، وكل الرعاية المنزلية الكافية. كان يستعرض مراحل المرض وتفصيله فيوقن أنه قام بواجبه نحوها خير قيام، وأنه ما كان ليستطيع أن يفعل أكثر مما فعل، لكنه كان يحاسب نفسه على بعض المواقف التي قد يستشفَّ منها شيء من الضيق أو نفاد الصبر. كان أحياناً يتخيَّل أن صورتها المعلقة في غرفة الجلوس توجّه إليه نظرة تأنيب فيتجنب النظر إليها. وفي أحيان أخرى كان يتخيَّل أن الصورة تلومه على تركها ترحل وحدها دون أن يرافقها أو يلحق بها.

قال له أخوه في ذلك اليوم: «للحزن نهاية كما تعلم وستسلو بمرور الزمن».

لكنه كان يعرف أن الحزن لا ينتهي تماماً، بل يتربص في ركن من الأركان ثم يهجم بشراسة في أي لحظة، وهو أحياناً يظهر متنكراً بأشكال متعددة.

عاد أخوه يقول: «وستلقاهم جميعاً في الجنة بإذن الله». ردد من بعده: «إاذن الله».

كان أبو رعد يوقن أنه سيلقى أحباءه الذين رحلوا، فعلاقته بهم أقوى من أن تنفصم. إن غيابهم يثقل عليه والانتظار قد يطول، لكنه الآن يتطلع إلى اجتياز نفق الحزن المظلم والخروج إلى النور، ليستأنف عمله في مكتبه ويعود إلى عمله التطوعي في الجمعية الخيرية التي أنشأها صديقه

الطبيب لرعاية الأمومة. إنه يتوق إلى التفاعل مع الحياة ثانية، إلى الالتئام معها من جديد، وهو يرجو ألا يرحل عنها إلا وهو مقبل عليها. عاد أخوه يقول وقد رآه ما يزال ساهمًا واجمًا: «هل تذكر وفاة الوالد؟ ثم وفاة الوالدة؟ أين هما الآن؟ وأين اللوعة التي مرّقتك إذ ذاك؟ أين أفراد العائلة الآخرون الذين لحقوا بهما؟ كلنا إلى زوال فغالب حزنك. سترى نفسك بعد سنوات قليلة شيخًا ضعيفًا وعندئذ ستندم على ما أضعته من وقت وطاقة. حافظ على صحتك الجسمية والنفسية واشغل الوقت بما يفيد».



صورة كبيرة معلقة على جدار غرفة الجلوس. رجل وقور في حوالي الستين من العمر ينظر من خلف نظارته إلى المصور بكثير من الكبرياء. يبدو كغيره من رجال عصره، خاصة بتلك الكوفية التقليدية، لكنه كان أبًا محبًا كريمًا، وكان يمسك بزمام الأمور في العائلة وفي العمل بكل حكمة وثقة، وقد زلزلت وفاته الأرض تحت قدمي ابنه الأصغر.

- لماذا تركتني؟
- ليس لي في ذلك خيار كما تعلم.
- لماذا تركتني صغيرًا هكذا؟
- لست صغيرًا فأنت ستبدأ السنة الأخيرة من دراستك الثانوية عما قليل. أنت شاب. أنت رجل.
- لماذا خذلتني وأنا الأثير لديك؟

- كلکم أثیرون لديّ.
- لكنني ما زلت في أشد الحاجة إليك.
- ها هم أفراد العائلة يحيطونك برعايتهم.
- لا يمكن لأحد أن يحلّ محلّك.
- أخوك الأكبر نعم الأخ.
- لا أصدق أنك تفعل هذا بي. لا أصدق أنك ترحل إلى الأبد.
- كلنا راحلون.
- لا أصدق أن عملاً مثلك يصير إلى تراب.
- كلنا إلى تراب.
- لا أريد أن أصدق ما تقول.
- يجب أن تصدقه لأنه الحقيقة.
- لم أعرف عندما قبّلتك في ذلك الصباح أن تلك ستكون القبلة الأخيرة.
- الحياة مليئة بالمفاجآت.
- كم أشتاق إلى ملمس يدك!
- سوف تتعود على غيابي.
- لا أعرف ماذا أفعل بدونك.
- سوف تعرف بمرور الزمن.
- كنت لي حصناً.
- حولك حماة كثيرون، وسيكون لك منهم المزيد.

دخلت الأم الغرفة بملابسها السوداء وعيناها مثقلتان بآثار الدموع. أحاطت كتفي ابنها بذراعها وهي تقول: «كفى يا بني كفى. ماذا دهاك؟». لكن الابن ظل على صمته فعادت تقول باستسلام: «لا يمكن لأحد الاعتراض على مشيئة الله يا سعد».

دخلت الأخت وهي تحمل صينية وضعت عليها أطباق الطعام فقالت له الأم: «تناول شيئاً من هذا الطعام فأنت لم تأكل شيئاً منذ أيام». لم تغلح محاولات الأم فخرجت من الغرفة وهي لا تكاد تقوى على المشي.

بعد قليل دخل الأخ الغرفة قائلاً: «لا بد أن تأكل شيئاً يا سعد، فقد شحب وجهك وذوى عودك».

كان سعد يحس فعلاً أن شيئاً بداخله قد جفّ، وكأنه شجرة هرمة لكنه لم يجب أخاه فعاد هذا يقول: «أعرف أن الصدمة شديدة، لكن حاول أن تتغلب عليها».

مضى الأخ يقول وقد بدأ صبره ينفد لعدم استجابة أخيه لشيء مما يُقال: «تذكر أنك ستبدأ السنة الأخيرة في المدرسة بعد أسابيع قليلة، وأنت ستكون بحاجة إلى العمل الجاد المركز».

أشاح سعد بوجهه وكأنه لا يطيق سماع شيء عن المدرسة فخرج أخوه من الغرفة.

عادت الأخت وهي تحمل طبقاً من الطعام وقالت: «أعلم أنك تحب هذا الطعام يا سعد، هيا فكل شيئاً منه».

لكن سعدًا لم يجب، بل لم ينظر إلى الطبق فخرجت أخته من الغرفة. كانت تكبره بعامين فقط لكنها تحنو عليه مثل أم ثانية..

ضباب كثيف يمتد فوق مساحة شاسعة من الأرض، لا يعرف الفتى إن كان الوقت صباحًا أم ظهرًا أم عصرًا، لكنه يحث الخطى، يتجه يمينًا ثم يسارًا فلا يصل إلى مكان يعرفه. يحاول مرة بعد أخرى لكن دون جدوى، يحس بالخطر يتربص به من خلف الضباب لكنه لا يستطيع أن يرى حتى موضع قدميه. الفتى خائف متعب، وهو يتوق إلى الوصول لكنه لا يجد مخرجًا من تلك المتاهة، يتلهف إلى صوت يسمعه، إلى صوت يطمئنه، إلى يد تأخذ بيده. يسقط على الأرض لكنه لا يستطيع النهوض. يبدأ في الانزلاق فوق منحدر دون أن يستطيع التوقف. يستمر في الانزلاق فيوقن أن قرارًا سحيقًا ينتظره وأنه هالك لا محالة. قواه تخور واليأس يطبق عليه، وأخيرًا يصرخ ويصرخ.

استيقظ سعد من نومه لكنه ظل مستلقيًا في السرير. نصحه أهله بقراءة القرآن وتلاوة الأدعية قبل النوم، لكن الضياع الليلي تكرر واستمر زمناً. كان يسائل نفسه: لماذا مات أبوه في تلك السن الصغيرة نسبيًا؟ لماذا مات في ذلك الوقت بالذات؟ ما الحكمة في ذلك؟ ولماذا مات أصلاً؟ أين ذهب بالضبط؟ وماذا حلَّ به؟ وجد الإجابات المألوفة عند أمه وأخويه الذين كانوا يجاهدون للتغلب على الصدمة لكن لم يكن فيها غناء. استمرت الأسئلة وازدادت إلحاحًا؛ فقد كان يريد تفسيرًا للموت وتبريرًا للألم الممض المصاحب له. بدت له الحياة حينئذ ضربًا من العبث لا

يمكن فهمه ولا التنبؤ به، بل بدت له مجموعة من الصدف العمياء البعيدة عن المنطق لا أكثر. ثم بدأ الغضب يهاجمه.

والحقيقة أن العاصفة العاتية هزت أركان البيت كله فترنح أفراد العائلة جميعاً تحت وطأتها، ثم غرقوا في ظلام حالك طمس الأفق. توقف الزمن ونسوا كيف يبدأ النهار وكيف ينتهي وبماذا يمتلئ. اختفى البرنامج اليومي وامّحت تفاصيل الحياة الصغيرة وكأنهم ألقى بهم على سطح كوكب آخر. اختفى العالم الخارجي إلا من جموع الأهل والأصدقاء الذين التفتوا حولهم وأحاطوهم برعايتهم. لم يحمل الأهل والأصدقاء لوعتهم ومحبتهم فحسب، بل تجاربهم الطويلة وتسليمهم بأن ما حدث هو قضاء الله وقدره وأنه سنة الحياة رغم قسوته. في الوقت الذي توقفت فيه الحياة العادية كانت العائلة تقوم بكل الواجبات المعتادة، ومنها استدعاء شيخ ليلقي موعظة في تلك المناسبة الأليمة، لكن الشيخ لم يزد على ما سبق للأهل والأصدقاء أن قالوه عن الموت.

أما عجائز العائلة فقد أبدين تماسكاً عجيباً في وجه العاصفة. كنّ يحرصن على قراءة القرآن وتأدية الصلوات في أوقاتها وتلاوة الأدعية والتوجه ببعض النصائح من وقت لآخر. قالت إحداهن وهي تنظر إلى صورة الأب الكبيرة المعلقة في غرفة الجلوس: «سبحان من له الدوام». وعندما أبدت الام شيئاً من الانفعال قالت لها: «اقرئي آية الكرسي كلما استطعت ورددي معي هذا الدعاء فهو كفيل بأن يدخل الطمأنينة إلى قلبك». وقالت لها أخرى وهي تفرش سجادة الصلاة: «عليك بالصبر فهو

مفتاح الفرج كما تعلمين»، ثم راحت تروي لها حوادث موت مشابهة لتدخل بعض العزاء إلى قلبها. أخيراً بدأ أفراد العائلة يتماسكون بعد أن كانوا يشعرون أن ما حدث لا يمكن تصديقه ولا تجاوزه لشدة هوله. لكنهم كانوا في خلواتهم يطيلون النظر إلى الآثار الداخلية التي خلفتها العاصفة بعد أن انشغلوا عنها قليلاً أثناء النهار فيعاودهم الدهول. من حسن الحظ أن الأمور المادية للعائلة كانت مستقرة فلم يضطروا للانشغال بها في ذلك الوقت العصيب.

بعد أن انجلى السواد الذي خلفته العاصفة اكتنف أفراد العائلة فراغ لم يتبينوا لأنفسهم اتجاهها واضحاً فيه. كانت الأم تقضي الوقت في ركنها المعتاد من غرفة الجلوس فتبدو مثل كتلة سوداء لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم. وكان أولادها يحومون حولها وكأنهم يحمونها أو يلتمسون لديها الحماية. وكان سعد يقضي أوقاتاً طويلة في غرفته محتفظاً بحزنه وأسئلته لنفسه. كان ينظر إلى سماء الصيف الصافية فيدرك أن أباه لن يراها أبداً من أي موضع في الأرض. وكان ينتعش عندما تتسلل نسائم المساء إلى غرفته لكنه يتذكر أن أباه غافل عنها تماماً. وكان يرى بعض أوراق النباتات المتسلقة تطلُّ من النافذة كأنها تحييه فلا تحرك في نفسه شيئاً. لم يكن يظن أن ذلك الوحش سيخرج من بين صفحات قصص الطفولة فيهاجمهم في عقر دارهم ويسدّد إليهم تلك الضربة في الصميم. إذن فالوحش لم يكن ضرباً من الخيال بل هو حقيقة واقعة.

كان سعد عاجزاً عن تحمل فراق أبيه الأبدي وعن فهم تلك الرحلة التي حملته إلى المجهول. كان يتمنى الصراخ لكنه لم يرد لأحد أن يسمع صراخه. وكان يتوق إلى البكاء لكنه لم يكن يجرؤ على مواجهة حزنه الذي يصل إلى أعماق سحيقة في قلبه. رأى أخاه وأخته يصليان ويقرآن القرآن وهو كتاب الوالد المفضل، لكنه لم يكن يملك الطاقة الكافية لأن يحذو حذوهما. كان بعض زملائه يقتحمون عزلته من وقت لآخر ومعهم زياد، أحد معلمي المدرسة، الذي نصحه بالاستسلام لحزنه الذي ينخر قلبه مهما بلغ هوله. ثم مضى المعلم يقول: «إن الدموع تروي مناطق قصية في النفس فتنبت فيها سكينه وحياة جديدة».

والحقيقة أن الأب لم يختف فائثاره في البيت كانت أكثر من أن تحصى. فهو الذي صمم بناءه واختار أثاثه، وهو الذي تفنن في تصميم حديقته وجلب نباتاتها من أماكن شتى حتى أصبحت بهجة للناظرين. صوره الفردية والجماعية كانت تملأ أركان البيت وتغطي مساحات من جدرانها. ملابسه وأدواته تركت في مكانها دون أن يفكر أحد في مسّها. كانوا يذكرون أفعاله فتملاً ذكريات عطفه قلوبهم، وكانوا يرددون أقواله فيملأ صوته الواثق أسماعهم. والأهم من ذلك أن حياتهم ظلت تسير على النهج الذي رسمه لها أثناء حياته. احتفظ سعد بنظارة أبيه وكوفيته وأضافهما إلى تذكارات قديمة مثل: صوره مع أبيه وهو طفل، وساعة اليد الأولى التي أهداها له أبوه، وآلة التصوير التي اشتراها له عندما أنهى مرحلة الدراسة الابتدائية. كما احتفظ بالوردة التي قطفها والده في ذلك

الصباح وأوسعها شمًا قبل أن يضعها في المزهريّة المعتادة. في إحدى الليالي أحس سعد بعبير الورد يفوح في فضاء الغرفة قويًا ملحًا، ثم أحس بهدوء عذب يشيع حوله وينسج بداخله طمأنينة عميقة. لم ير سعد شيئًا ولم يسمع صوتًا ولم يخبر أحدًا بما أحسّ، لكنه كان واثقًا أن روح أبيه كانت ترفرف عليهم في تلك الليلة وربما في كل ليلة.

بدأ أفراد العائلة يتحدثون عن المستقبل القريب ويتخذون بعض القرارات. كانوا متعبين وكأنّ سنوات أضيفت إلى أعمارهم، لكن أقدامهم بدأت تثبت على أرض الواقع. أما سعد فقد تعثر في دراسته ذلك العام، عندئذ قال له معلمه زياد: «عندما توفي والدي وأنا في الخامسة عشرة من عمري رأيت أن أفضل ما يمكن أن أفعله لأواجه فراقه هو أن أكون ابنًا جديرًا بحمل اسمه». نظر سعد إلى المعلم بشيء من الاهتمام فمضى هذا يقول: «قررت أن أحمل أبي في قلبي، وأن أبني لنفسي حياة كريمة من بعده تعوضني عن فقدته، وتكون مدعاة لفخره لو كان حيًا. كوفئت على اجتهادي بمنحة دراسية سخية حملتني إلى الجامعة، وفتحت لي أبواب مهنة محترمة هي التعليم».

وعندما عاد سعد إلى أسئلته قال له زياد: «لا تضع الوقت في هذه الأسئلة التي قد لا يستطيع معظم الناس الإجابة عنها إجابة شافية، وقد لا تفهم الجواب حتى إذا وجدته. واجه مشاعرك فهذا أسهل، ثم خطط للحياة بدلًا من الانشغال بالموت. إن الموت جزء من الحياة وهو باقٍ فيها شئنا أو أبينا. والواجب الأول على الأحياء هو الحياة نفسها. أما

الغضب فإن مزيداً من المعرفة والفهم قد يساعد على وضعه في الموضوع الصحيح».

توثقت علاقة سعد بمعلمه الذي ما لبث أن غادر المدرسة في نهاية ذلك العام متوجّهاً إلى جامعة أجنبية لإكمال دراسته الجامعية العليا. مضى سعد بدوره فنال شهادة الدراسة الثانوية بعد أن تأخر عامًا كاملاً، ثم نال الشهادة الجامعية الأولى في الوقت المقرر. عاد المعلم بعد أن حاز درجة الدكتوراه فُعِّين مدرسًا جامعيًا، وعندما خطب أخت سعد لقي الترحيب من جميع أفراد العائلة.

توفيت الأم بعد مرض قصير بينما كان سعد يعدّ لرسالة الماجستير، فانهار سدّ منيع وداهمته مياه كثيفة محمّلة بأشياء مجهولة وأخرى مبهمة. لازمته أخته في تلك الفترة وقامت على تدبير شئونه. وعندما عاد إلى أسئلته قال له زياد ثانية: «هذه أسئلة قد لا يستطيع الكثيرون الإجابة عنها إجابة مرضية فلماذا ترهق نفسك بها؟ لماذا لا تشغل نفسك بما هو أجدى؟». ثم مضى يقول مكرراً ما سبق له أن قاله: «إن أفضل ما يمكن الإنسان فعله في مواجهة الموت هو الحياة نفسها؛ أي العمل على استمرارها، وهذه حاجة غريزية لدى الإنسان، ثم العمل على ازدهارها وهذه رغبة طبيعية لديه. المهمة الأولى للأحياء هي البقاء ثم النماء؛ أي تأسيس حياة متينة تتجسّد فيها قيم صالحة. هذه كلها أمور يعرفها الناس بشكل تلقائي، وما عليك إلا أن تتذكّر ما يفعله الناس من الإقبال على الأكل والشرب في المآتم، ثم الانغماس في ترتيبات الحياة المختلفة».

راح سعد يغالب المياه القاتمة المضطربة التي كانت تدفع به إلى أعماق مخيفة، وفي لحظة من اللحظات أبصر القاع بأَم عينيه فارتدَّ فزعاً وهو يقول: «لن أغرق». أخذ يردد تلك العبارة لنفسه وكأنها طوق نجاة يتمسك به. بدأت المياه تنحسر بالتدريج لكن دون أن تغيض تماماً، وبعد أن كانت ذكرى أمه تمزقه تركها تدفئ قلبه وتمنحه مزيداً من التوازن المنشود.

نال سعد شهادة الماجستير بعد أن تأخر فصلاً دراسياً كاملاً، لكن الرسالة التي قدمها بعنوان «مساكن للحياة»، والدراسة الاقتصادية الملحقة بها، حظيتا بإعجاب عزز ثقته بنفسه. عمل في الخارج سنوات، وعندما عاد أسس مكتباً هندسياً مع أحد زملائه، وبدأ العمل على المشروع الذي كان يحلم به؛ وهو بناء مساكن متوسطة المساحة معتدلة السعر لا تقتصر على تقديم المأوى، بل تحفظ كرامة ساكنيها وتوفّر لهم قدرًا من متعة الحياة أيضًا. كان يريد لتلك المساكن أن تكون مريحة مستقلة دون انعزال، قادرة على استقبال الشمس والهواء والماء والخضرة والجمال وغير ذلك من نعم الطبيعة. أقبل سعد على تنفيذ مشروعه بحماس بالغ، وراح يشكل الأرض التي اختارها للمساكن ويملاً فراغها. استبدت به النشوة وهو يُقبل على البناء، وغمره الرضا وهو يعمل على تلبية احتياجات فئة كبيرة من الناس، ويساهم من ثمة في تمكين الحياة والارتقاء بها. اكتمل رضاه عندما رأى مشروعه يزهر بين يديه وكأنه حديقة أبيه. وما لبث أن بدأ الناس يقبلون على شراء المساكن حتى قبل

إتمامها. في نهاية مرحلة التصميم تزوج من فتاة اختارها بنفسه من بين الموظفين اللواتي عملن معه بشكل وثيق في تلك المرحلة.

اعتصر الألم قلب أبي رعد وهو يرى العشب يجفّ ثم يذوي بالتدريج. تذكّر ملمسه الرطب الذي يشي بسريان تيار الحياة الخفي فيه فازداد ألمًا. كان النماء يبهج قلبه كالبناء، لكنه كان يعرف أن العشب لا يمكن أن يدوم مع تقدم الربيع وازدياد حرارة الشمس التي لا يستطيع العشب تحملها وهو النبات الهشُّ الناعم كالحرير. لا بد للربيع نفسه من نهاية وعندئذ لا بد للعشب أن يزول؛ لأن العشب وهو من أول بشائر الربيع ومن أقوى مظاهره ذو مهمة محدودة تنتهي مع اقتراب الصيف. أي أن الفناء يحيط بالعشب من كل ناحية. ربما كان في زوال العشب حكمٌ أخرى لا يدركها المرء ومنها أن العشب لا يمكن إلغاؤه حتى بعد اختفائه، لا يمكن إلغاء ما أتى به إلى الأرض من بهجة. إنه ما يزال حيًّا بهذا المعنى، وأفضل ما يمكن المرء فعله إزاء العشب هو التمسك برسالته؛ أي رسالة البساطة والجمال والفرح والبدايات الجديدة.

ظلت بعض المسائل تلحّ على أبي رعد بعد كل ما اخترنّه في حياته من معارف وتجارب. كان قد تعلم حتمية النهايات في سن مبكرة، لكن النهايات ظلت تجرحه كما ظل الفناء يستعصي على فهمه. كان من الصعب عليه أن يرى الناس ينتهون إلى عدمٍ رغم علمه أن الموت حتمي لأسباب لا تخفى على أحد. لكن الموتى قد يعودون إلى الحياة على نحو

ما بعد أن يضربوا في ثنایا الأرض ردحاً من الزمن. كان من الصعب عليه أن يصبح هو شخصياً جزءاً من مشهد الفناء المتكرر المرهق، لكن ها هي المساكن التي صممها وبنها قد انتشرت في أنحاء المدينة، وكلها تحمل اسمه وتبقیه حياً إلى أمد طويل.

ذهب لزيارتها بعد حوالي أسبوعين فوجد صمتاً قاتماً وسكوناً شاملاً يمتد بلا نهاية مثل الهواء نفسه. أشجار عديدة تحيط بالمقصورة غير أن خضرتها بدأ يُثقلها الغبار. شواهد بيضاء مصفوفة بعناية تبدو كأنها تحرس ما تحتها، وعند قدميه كومة من تراب استُخرجت حديثاً قد طُمر تحتها كنز آخر لن يستطيع استرداده مهما فعل. طال الصمت حتى ظن أنه يكاد يتلعه كما يتلغ المحيط قارباً هشاً، وتحجّر السكون حتى امتلأ بأسرار كثيفة تحاصره وتناوشه. امتلأ قلبه بالصمت المفعم بحزن أزلي كأنه مادة الحياة نفسها، ثم خدّره السكون فتراجعت المشاعر التي عصفت به والأفكار التي أرهقته والأقوال التي أضجرت. انحصر وعيه بتلك البقعة من الأرض التي لا يُسمَع فيها صوت ولا تُرى حركة، بداله العالم الخارجي مثل قصة سمعها في طفولته البعيدة. من أدراه أن ذلك العالم موجود حقاً؟ لعل الوجود الوحيد هو هذا اللاشيء الذي يحيط به. أخيراً استجاب لنداء كومة التراب التي لم تطأها الأقدام بعد فجلس عندها:

أهكذا ترحلين

عند انتهاء المطر

واخضرار العشب في المرعى

وازدهار الشجر

إذ تكتسي هاماته بالدرر

فيجدد الآمال في قلوب العالمين؟

شعر براحة غامرة لقربه منها. تخيل أن الحواجز بينهما تختفي وأنه ينضم إليها ويشاركها ذلك السلام الأبدي العميق الذي تنعم به في مرقدها، والذي كانت تتوق إليه في غمرة آلامها. لا شك أن النهاية التي آلت إليها هي المصير الحتمي في تلك الظروف، وربما كان سلامها المطلق الآن يحمل الإجابة عن كل الأسئلة. فالموت يبدو هنا كأنه النهاية الطبيعية للحياة، كما أن السكون هو النهاية الطبيعية للحركة. طالت جلسته بقرها وهو يتأمل ذلك العدم البليغ، لكنه نهض أخيراً وهو يعرف أنه سيحمل ذكراها في قلبه دائماً، وأنه سيستلهم منها المحبة والطمأنينة في كل لحظة. خرج من المقصورة فواجهته مدينة مترامية من الشواهد البيضاء، مدينة صامته يجاور فيها الموت الحياة ويمتزج الوجود بالعدم. راح يمشي في جنباتها على مهل وكأنه في حلم. ها هو الموت يصول ويجول دون أن يعترضه شيء، وكل من يرى تلك الشواهد البيضاء الممتدة بلا نهاية يصطدم بالحقيقة الناصعة، وهي أن الموت جزء لا يتجزأ من الحياة، وأنه باقٍ فيها فلا يكاد يتعد عنها حتى يقترب.

المركب

الأشجار خضراء داكنة، كثيفة متزاحمة، ظلالها تمتد على الأرض الترابية التي تظهر في مواضع منها زهور تذكر بشقائق النعمان. الجو صاف بعد انتهاء العواصف الرملية، ضوء باهر يملأ الفضاء، وشمس أوائل الصيف رفيقة لم تشتد حرارتها بعد، لكن زرقة السماء يشوبها بياض خفيف. النهر عريض ساكن يكاد لونه يكون رماديًا. بعض الزوارق الشراعية تتناثر على صفحته كعهدها منذ آلاف السنين وطيور بيضاء تحوم فوق مياهه عند الضفة البعيدة. كبار يجلسون في مقاعدهم صامتين، أطفال يستكينون في أحضان أمهاتهم في شبه إغفاءة، أولاد وبنات يتلفتون حولهم بفضول، شبان وفتيات يتبادلون أحاديث خافتة باسمه. من الأرجح أنهم جميعًا من السياح. الريان ومساعدته بداخل قمرة القيادة في «ملك النهر 1» ولا شك أنهما يتفقدان معدّاتهما ويراجعان استعداداتهما. نظرت هدى في ساعتها، وبعد قليل وصلت حنان وثوبها الأصفر يعلن فرحتها بالصيف الوليد. جلست وهي تقول: «ما أجمل الصيف! لقد انتظرت طويلاً».

فقلت هدى: «ما أجمل النهر! هذه أول مرة أجد نفسي في وسطه».

مرت دقائق ثم وصلت مجموعة من الشبان والفتيات وهم يتوثبون في مشيهم. وجوههم مألوفة لهدى وحنان، لكنهم غرباء في الواقع. أحد الشبان يحمل قيثارة وآخر يحمل طبلاً وآخر مزمارًا وكأنهم فرقة موسيقية، لكن الأرجح أنهم طلاب يحتفلون بانتهاء العام الدراسي. بعد قليل ظهر شاب

يحمل جهاز تسجيل فقال له أحد زملائه: «لقد أحسنت بإحضاره معك يا كابتن». احتلَّ القادمون معظم المقاعد في المركب، لكن سرعان ما وصلت مجموعة أخرى مشابهة فامتألت مقاعد المركب واضطر بعض القادمين للجلوس على الأرض. أحدهم يلبس قبعة عالية مدببة وآخر يلبس قميصًا فاقع اللون فتحت أزراره لتكشف عن القلادة الفضية الضخمة التي تتدلى من عنقه، شاب بدين يلبس سروالاً قصيرًا يكشف عن ساقين هزيلتين، فتاة ذات عينين لامعتين تتمايل في مشيتها فتلاحقها العيون، فتاة نحيلة الخصر تلف شعرها بمنديل وردي محلى بالخرز، وأخرى بدينة كثيرة الكلام والضحك، شاب يقف عند حافة المركب متعاليًا بينما زميله يلتقط له الصور، شابان يجلسان على مقعدين متجاورين عند طرف المركب ويتحدثان دون أن يعيرا ما حولهما التفاتًا.

راقبت هدى وحنان كل أولئك باهتمام. لم تكونا طالبتين ولا سائحتين فقد تخرجتا من الجامعة قبل عامين وهما تزوران ذلك البلد أكثر مما يفعل السياح عادة.

اختلطت مجموعتا الشباب فامتزجت الأصوات وتعالى النداءات والضحكات، وتحطم الهدوء على ظهر المركب فتنبه الأطفال وندت عنهم أصوات خافتة. تداخلت ألوان الثياب الزاهية وتماوجت فوق المياه الرمادية، وكلها تبشر بمباهج الصيف. قالت حنان وعيناها تلمعان: «سأشتري كل الملابس الصيفية الجميلة التي أريدها». قالت هدى: «وأنا كذلك».

أحاط شاب خصر فتاة ممشوقة بذراعه فأزاحتها الفتاة بعصية وابتعدت مرتبكة، فصاح آخر: «إني أحذرك يا روميو».

انزعج البعض، وبعد قليل سأل شاب زميله: «أين وضعت المزمار يا جاد؟»، فأشار الشاب إلى كيس من البلاستيك موضوع على الأرض دون أن يتفوه بكلمة. اقترب شاب من فتاة خلصة واختطف الشطيرة التي كانت تأكلها وبدأ يلتهمها ووجهه يضجّ بضحك صامت، فصرخت الفتاة مغتازة ثم غلبها الضحك. صاح به زميله: «ما أشدّ نهمك إلى الطعام يا مختار!». وفي اللحظة نفسها انقضّ على شطيرة في يد فتاة أخرى وبدأ يأكلها بالنهم نفسه فتعالت الضحكات من جديد.

هدر محرّك المركب ثم انقطع صوته. هدر ثانية لكن الانقطاع تكرر وأخيراً انطلق المركب بعد تأخير يقارب الساعة. توقف لحظات كمن يستجمع أنفاسه ثم استأنف سيره بطيئاً متردداً. مرّ بصف من القوارب السكنية المحاذية للضفة فتمنت هدى ثانية أن تسكن في أحدها، ثم بدأ المركب ينساب إلى وسط النهر. نظرت هدى إلى الخلف فرأت الضفة تبتعد والمياه تحيط بالمركب من كل جانب فشعرت بالرهبة. اقتربت بعض الأبنية العالية، وفي الأفق البعيد بدا البرج.

نهض بعض الجالسين ووقفوا عند حافة المركب ثم انتقلوا إلى الجانب الآخر رغم الزحام. كانوا يمعنون النظر في ما حولهم ويشيرون إلى معالم بعيدة يعرفونها أو يخمنونها أو يتساءلون عنها. ازدادت الأبنية العالية على الضفتين عدداً. ألوانها فاتحة وبعضها جديد. كلها مباني مهيبة تحتلّها

مؤسسات هامة كُتبت أسماؤها على واجهاتها: هيئة التلفزيون، شركة النفط والمعادن، وزارة الشؤون الاجتماعية، المتحف الوطني. لكن كثيرًا منها ظل دون أسماء. اقترب المركب من عمارات سكنية تنتشر الخضرة والمظلات الملونة في شرفاتها، ثم ظهرت فيلات كبيرة تكاد تختفي وراء أشجارها المتشابكة، ثم حديقة عامة مترامية يلعب بعض الصبيان في أحد أطرافها. قالت هدى لحنان: «ما أجمل هذه المباني!».

قالت حنان: «بعضها جميل فعلاً».

قالت هدى: «وكلها تعبر عن تقدم الإنسان وطموحه».

قالت حنان: «هذا صحيح».

اقترب المركب من جسر مصنوع من الصلب يصل الضفتين بسهولة وثقة. أعجبت هدى بجمال تصميمه لكنها قالت لحنان: «أخشى ان يتداعى هذا الجسر يوماً تحت وطأة كل تلك المركبات التي تذرعه ليل نهار».

قالت حنان: «لم أسمع بحوادث من هذا النوع في حياتي».

قالت هدى: «لكن الأشياء تسقط بين حين وآخر».

قالت حنان: «أعتقد أن الجسور أقوى مما نظن».

تدخل شاب كان يجلس بجوارهما فقال: «لقد بُني هذا الجسر وغيره على يد فريق من أهم المهندسين قبل عشرات السنين».

وأضاف زميل له كان يجلس بجانبه: «لم يحدث أن تحطم جسر في تاريخ هذه المدينة».

أما البرج فكان يشق الفضاء بكبرياء. كان لونه الأبيض الناصع يبعث على الراحة، لكن تفاصيله ومنها الزخرفة الأنيقة في قمته لم تكن ظاهرة بسبب بعده. كان البرج يبدو في الصور التي رأتها هدى من قبل وكأنه يهيمن على النهر ووضفتيه وربما على المدينة بأسرها. كان من المعالم الجديدة في المدينة وكان سكانها وزوارها يحرسون على رؤيته. راح بعض الركاب يفاخرون به ويقارنونه بالمعالم الشاهقة الأخرى في بعض المدن الكبرى في العالم. لم تعرف هدى وحنان تاريخ الانتهاء من بناء البرج بالضبط، فقال الشاب الجالس بجوارهما إن البرج انتهى بناؤه قبل أشهر. سألته هدى عن الغرض من بنائه فأجاب: «هذا البرج يُراد له أن يكون رمزاً للمدينتنا وشاهدًا على عظمتها وطموحها». كان البرج مهيبًا فعلاً، ويضم الكثير من عناصر الجمال الفني في نظر هدى، كما أنه كان جزءاً من الجمال المحيط به: النهر والمراكب والزوارق والمباني والمآذن. غير أنه يوحى بالفخامة أكثر مما يوحى بالضخامة.

مضى المركب في حركته الرتيبة الهادئة لتيح للركاب رؤية النهر ووضفتيه ومعالمهما على مهل. شعرت هدى بشيء كالخدر من جراء حركته تلك، لكن الزحام حولها حال دون استسلامها له. خُيِّلَ إليها أن النهر يزداد عرضاً بمرور الوقت، وبدت في مياهه تموجات خفيفة متتابعة وجدت متعة في النظر إليها. ومن بعيد بدا مركب أبيض مشابه تعلوه لافتة كبيرة بيضاء تعلن عن رحلة أوائل الصيف. تقدمت فتاة سمراء ذات عينين باسنتين وغمازتين وجلست قرب الشابين المجاورين لهدى وحنان، ففهمت الفتاتان من

حديثهم أن اسمها سوسن وأنها زميلة لهما في الجامعة وأنهم جميعاً من البلدة الريفية الصغيرة نفسها.

علا صوت بموأل يتغنى بالنهر وجماله وخيراته، لكنه كان مفعماً بشجن لم تستسغه هدى في ذلك الصباح الذي يعد بالمسرات. ما إن وصل الموأل إلى نهايته حتى انبعث صوت القيثارة وكأن العازف كان ينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر. عندئذ تدفق لحن مثل تيار عارم لم تدرِ هدى كنهه، لكن قلبها اهتز له واغرو رقت عيناها بدموع جهدت في إخفائها. خُيِّلَ إليها أن الضفتين تختفيان من أمام عينيها وأن مياه النهر تضطرب وتعلو حتى لتكاد تغرق المركب في لجّتها. تلا ذلك دقائق عنيفة من الطبل تصمّ الأذان وتهزّ المركب هزّاً وكأنها من فعل مارذ جبار. توالى الدقات وكأن المارد يستमित في تأكيد شيء هو كالأرض في صلابته، ثم خفتت حتى أصبحت نبضات متدافعة متسارعة شعرت هدى وكأنها تتسلل تحت جلدها. رقت النبضات حتى أصبحت كخفق الأجنحة، فحلقت هدى في سماء صافية ينهمر منها ضوء ساطع. عادت القيثارة ومضى اللحن يرسم بألوانه الزاهية عالماً بعيداً قريباً تتحقّق فيه أعذب الآمال. ثم علا صوت العازف رقيقاً متيناً، وراح يتغنى بالوطن وماضيه ويّشّر بمستقبل يحاكي ذلك الفضاء في إشراقه. كان أثناء الغناء ينظر بعيداً وكأنه يخترق الحجب ويرى ذلك العالم رأي العين. دُهِشت هدى لتلك الحيوية التي تتجلّى في صوت ذلك الشاب القصير النحيف وفي عزفه، وتمنّت أن تشاركه الغناء وأن تنثر على من حولها بعض ما تفيض به

الأغنية عليها من نشوة. ساد صمت قصير بعد انتهاء الأغنية لكن نظرة الحلم التي أوجت بها ظلت تغطي الوجوه.

تعالَت الأصوات شيئاً فشيئاً بعد ذلك الصمت حتى قاربت الصباح فتحطم جو الحلم تماماً. وقف شاب يلقي نكتة وتبعه آخر فدوّت الضحكات. بدأ شاب آخر يقلّد فناً مشهوراً فنال الكثير من الاستحسان. تشجّع ومضى يقلّد شخصيات أخرى، وحذا حذوه آخرون فشاع جو المرح. لكنّ شابين ما لبث أن اشتبكا بالأيدي وكأنهما يوشكان على الشجار ثم تبين أنهما كانا يتمازحان. فجأة صاح شاب: «إذا أشرف هذا المركب على الغرق لا قدر الله وكنت قادراً على السباحة فمّن من الركاب تنقذ؟»، فصاح آخر: «ما هذا السؤال المزعج يا مجدي؟»، لكن كثيرين تسابقوا إلى الإجابة وترددت الأسماء واختلطت دون أن يتضح أي منها في ذلك الصخب. اقتربت الفتاة السمراء ثانية من الشابين الجالسين قرب هدى وحنان وتبادلت معهما بعض الكلمات الضاحكة، ثم قدمت لهما قطعاً من الحلوى دون أن تنسى تقديم بعضها للفتاتين. وهنا تقدّم شاب كان يقف بعيداً ومد يده إليها كما يفعل المتسولون قائلاً: «حسنة لله». فأعطته بعض الحلوى ضاحكة. تشجع شاب آخر وكرر الطلب نفسه فكررت الفتاة هبتها من الحلوى.

أخرج البعض طعاماً وشراباً من أكياس كانوا يحملونها. وبينما كانت إحدى الفتيات تهمّ بالشرب من زجاجة العصير هجم شاب من بعيد وأمسك بالزجاجة فأسرع زميله والتقط صورة لهما. اغتاظت الفتاة لأنها ستبدو في الصورة وكأن الشاب يسقيها العصير، لكن الجميع انفجروا بالضحك بعد

قليل. ضحكت هدى وحنان أيضًا فقد سرت إليهما عدوى ذلك المرح الذي ينعش الروح. وحتى السياح الأكبر سنًا انفرجت أساريرهم. قالت حنان إن تلك الرحلة النهرية خير مقدمة للصيف فوافقتها هدى. كانتا تجلسان عند طرف المركب فتمنت هدى أن تندمج مع المجموعة تمامًا، وأن تشارك أولئك الشباب الذين هم في مثل عمرها في كل ما يفعلون.

دوى الطبل ثانية كأنه الرعد فبدأت الأجسام تستجيب له بشكل تلقائي وكأنه قوة طبيعية قاهرة. أخذ شاب يرقص فأفسح له الباكون مكانًا وهم يصفقون، وعندما انتهى صاح أحدهم: ناهد. فرد الباكون نداءه وكأنهم جوقة محترفة: ناهد، ناهد، طال النداء، وأخيرًا برزت فتاة ذات شعر أسود طويل وعينين مثقلتين بالكحل وقوام يميل إلى الامتلاء. تقدمت بشيء من الخجل حتى توسطت المجموعة، واستأنف الطبل إيقاعه الذي عرفه الكثيرون طيلة حياتهم. غادرت هدى وحنان مكانهما عند طرف المركب استجابة لنداء الطبل وشقتا طريقهما وسط الزحام وانضمتا إلى الجمهور الذي كان يصفق بحماس. اقترب بعض السياح لمشاهدة الرقص بينما وقف بعضهم الآخر يتابعه عن بعد. مدت الراقصة ذراعيها بخفة وليونة تذكران بالقطط، فراحا يرتفعان ويهبطان ويلتفان بتناسق تام وأحيانًا يهتزان مثل أغصان الشجر. سرت الحركة إلى كتفيها وامتدت إلى جذعها وأخيرًا إلى ردفها، بينما كانت قدماها تنتقلان بحركات صغيرة في مساحة ضيقة من أرض المركب فيهتز ذيل ثوبها الأخضر المزركش اهتزازًا خفيفًا. كانت حركاتها تجمع بين الحرية والانضباط، وكانت بعيدة عن المبالغة في الشني والاهتزاز المعهودين في ذلك

النوع من الرقص. لم تكن الراقصة تسعى إلى إظهار البراعة وإثارة الإعجاب، بل كان همّها موجّهًا إلى التجاوب مع الطبل وإبراز ما في إيقاعه من قوة ومعنى بحركات مدروسة لا تزيد ولا تنقص عما تريده منها. وكانت في أثناء ذلك تثبّت نظرها على موضع بعيد تراه ولا تراه، بينما تطوف بوجهها ابتسامة خفيفة لا تخلو من غموض. قدّرت هدى أن ذلك الأسلوب الذي يهدف إلى التعبير الدقيق بدلاً من الاستعراض هو ما أكسب الراقصة ذلك القبول بين أولئك الشباب الذين صفقوا لها طويلاً وهم يرددون عبارات الاستحسان. في النهاية انفلتت الفتاة من بين الجمع واختفت، وظلت هدى تسترجع رقصها بإعجاب.

وضع الكابتن شريطاً في جهاز التسجيل فانبعثت أنغام معروفة. افتتح الرقص برفقة فتاة طويلة، ثم رقص الجميع. رقصوا أزواجاً وجماعات وفردى، كل بطريقته وبحسب مهارته غير أن بعض الفتيات أبدين مهارة فائقة في الرقص. وقفت هدى وحنان عند أطراف المجموعة في استحياء، ثم بدأت حنان ترقص فجارتها هدى. توالى أغاني الحب التي يغلب فيها الأمل على الألم وراح الراقصون يرددون كل كلمة فيها وكأنهم يحفظونها عن ظهر قلب. ازدادت حركات هدى تناسقاً بالتدرّج وتعززت ثققتها بجسمها الذي أصبح يتجاوب مع الموسيقى بحرية أكبر. اقتربت منهما سوسن وعلى وجهها ابتسامة عريضة فرقصت الفتيات الثلاث معاً غير أن حنان كانت الأبرع. شعرت هدى أن الرقص يوحد بينها وبين تلك المجموعة بل يوحداهم مع الحياة التي بدت لها في تلك اللحظات ممتدة عريضة كالنهر، حافلة مثله

بالخصب والعطاء. تعمَّق الفرح في قلب هدى وشعرت أنها ترتفع إلى قمة أخرى هي من صنع كل ما في ذلك النهار من مباحج.

توقَّف الرقص بالتدرّج وعاد الراقصون إلى حيث كانوا يجلسون. لكن الشريط ظلّ يدور في الجهاز وظلت الأغاني تملأ الأسماع دون أن يستجيب لها أحد في هذه المرة. وقفت هدى وحنان جانباً، وبعد قليل انضمت إليهما سوسن ثم زميلاها سليمان ونور وانسحبت المجموعة الصغيرة إلى طرف المركب. كانت الرطوبة المنبعثة من النهر تلطّف حرارة الجو المتزايدة. بدت مياه النهر في بعض المواضع زرقاء كلون الثوب الذي ترتديه هدى، بينما كانت التموجات الرقيقة ما تزال تعبث بها وهي تلمع تحت أشعة الشمس. مضى المركب في حركته الهيّئة فبدت ناطحات سحب على الضفتين لأول مرة، وبالقرب منها مقاهٍ مطلة على النهر غير أنها خالية من الناس في تلك الساعة من النهار، عمارات سكنية ضخمة لا تخلو من أناقة، المركز الوطني للأبحاث، معهد الدراسات الاقتصادية. ظهر مسجد ذو قبة زرقاء ومئذنة سامقة فقال سليمان إنه من المساجد الحديثة في المدينة، وإنه بني بأموال من دولة شقيقة. أحست هدى وهي تتأمل تلك القبة من خلال منظار سليمان المكبّر أنها تنفذ إلى منطقة صافية في الوجود، ثم رأت جزيرة صغيرة في النهر تكسوها خضرة زمردية مرصّعة بزهور من مختلف الألوان، لكنها بدت مهجورة من خلال المنظار. وظلّ البرج يلوح من بعيد.

صاح الكاتبين فجأة: «أين أنتما يا هاروت وماروت؟». كرر نداءه فبرز شابان يلبسان قبعين سوداوين عريضتين وقميصين من اللون نفسه. هتف

الشباب مرحبين بهما فطلب الكابتن من الجميع التزام الهدوء. وقف الساحران على منصة خشبية صغيرة وبدأ أحدهما لعبة الكرات الثلاث التي كان يلقيها في الهواء ثم يلتقطها واحدة بعد الأخرى بخفة دون أن تسقط أيُّ منها. علا التصفيق فانتقل إلى اللعبة الثانية وراح يسحب من كمّه منديلاً أبيض لا نهاية له بينما المشاهدون يضحكون ويضحكون. ثم طلب الساحر من مساعده أن يناوله كرة صغيرة بيضاء أدخلها في كمّه. ناوله المساعد كرة أخرى ثم أخرى حتى بلغ عدد الكرات عشرًا أدخلها الساحر في كمّه جميعاً، ثم أخرجها من الكم الآخر واحدة بعد واحدة. وجدت هدى وحنان وأصدقائهما الجدد بعض المتعة في مشاهدة الساحرين لكن حيلهما كانت معروفة.

عاد مجدي ووقف قبالة المجموعة قائلاً بابتسامة عريضة: ما رأيكم في حلّ بعض الأحاجي؟

- لا بأس شريطة ألا تكون صعبة.
 - هل تفضلون المعلومات العامة؟
 - نعم. ولا تنس الجوائز.
 - حسنًا. إليكم هذا السؤال: ما أكبر دولة إسلامية في عدد السكان؟
- توالى الإجابات، لكن مجدي كان يهز رأسه رفضًا في كل مرة. ثم جاء السؤال الثاني: «ما أصغر دولة عربية من حيث المساحة؟».
- عاد مجدي إلى هزّ رأسه ثم قال: «ما عدد المسلمين في العالم؟».

تعددت الإجابات لكنها كانت بعيدة عن الدقة، ثم قال: «والآن إليكم هذا السؤال: ما عدد الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية؟».

جاء الجواب سريعاً: «اثنان وعشرون». وفازت هدى بعلبة صغيرة من الشكولاتة وُزعت محتوياتها على رفاقها بسرور.

صاحت فتاة: «لقد كنت أعرف الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال وكنت أنوي أن أقولها».

قهقه البعض وقال أحدهم: «فلماذا لم تفعلي؟».

سرعان ما فتر الحماس لهذه الفقرة وعندئذ صاح شاب كثير الضحك: «ما رأيكم في إجراء مسابقة جمال بين هؤلاء الحسنات؟».

- فكرة جميلة.

- لا، لا.

- ليس هذا ما جئنا من أجله اليوم.

التفتت هدى فإذا بالقائل أحد الشابين اللذين كانا يجلسان وحدهما عند طرف المركب مستغرقين في الحديث. ساد صمت قصير سرت فيه موجة من الإثارة والتوتر في آن، وتبادل البعض الابتسامات ثم جاء الجواب حاسماً على لسان الكابتن: «لا، لا يا جلال. هذه ليست فكرة مناسبة».

عاد جلال يقول: «إذن نجري مسابقة لأجمل نكتة».

قال الكابتن: «شريطة أن يلتزم الجميع بشروط اللياقة وهي معروفة».

أعجبت هدى بالطريقة الهادئة التي كان الكابتن يدير بها الأمور وارتاحت لكل تلك الحدود والقيود التي يفرضها. روى جلال نكتة ضجّ لها السامعون

بالضحك، لكن هدى لم تستطع سماع كل كلمة في النكتة التالية فعادت إلى تأمل النهر الذي كانت مياهه تبعث فيها الراحة والرهبة معاً: عملاق خير، قديم متجدد. بدأت حنان تدندن بأغنية ثم رفعت صوتها بالغناء قليلاً، وفي النهاية قالت: «والآن جاء دورك يا هدى»، فتمنعت هدى قائلة إنها لا تجيد الغناء فقالت حنان: «إذن غنّي أنت يا سوسن». فغنّت سوسن أغنية شعبية رافقها في بعض مقاطعها سليمان.

بعد قليل صاح شاب عند الطرف الآخر من المركب غاضباً: «أراك ما زلت على عنادك يا روميو. هذه ثاني مرة أحذرك فيها. احترم نفسك». تذكّرت هدى وحنان الشاب الذي كان يلاحق الفتاة ورأتا في الموقف طرفة دفعتهما إلى الضحك، لكن القلق ساورهما أيضاً بسبب حساسية الموضوع.

سألت سوسن هدى وحنان: «هل ستبقين حتى نهاية الرحلة؟». أجابتا: «نعم، فنحن نريد رؤية المتنزه لأننا لم نره من قبل. وأنت؟». أجابت سوسن: «أنا أريد رؤية البرج والتقاط الصور هناك». قالت حنان: «ونحن أيضاً نريد رؤية البرج والتقاط الصور هناك». قال سليمان: «أظن أن كل الركاب يريدون رؤية البرج والتقاط الصور عنده. إنه ما يزال بعيداً لكننا نأمل أن نصله دون تأخير». كان من المقرر أن تنتهي الرحلة النهرية في أحد المتنزهات، لكن كان يمكن لأي راكب أن يغادر المركب قبل الوصول إليه.

قالت هدى: «لقد رأيت صوراً للبرج وهو جميل دون شك. إنه يشبه زنبقة بيضاء تنبثق من الماء وحولها أوراقها الخضراء».

قالت حنان: «أو يشبه شمعة وخاصة في الليل عندما تضاء قمته».

قالت سوسن: «إنه رائع في نظري».

قالت هدى: «إنه تحفة معمارية في الحقيقة، لكن ما الذي يميزه عن تلك المآذن التي ترتفع في سماء المدينة وكلها جميلة مهيبة مثله؟».

قال سليمان: «إنه أعلى منها جميعاً كما أنه لا يلتصق بأي مبنى آخر. أما المآذن فهي كما نعرف تشكّل أجزاء من أبنية المساجد وتكاد تلتصق بقبابها».

قال نور: «والبرج مختلف عنها من حيث الوظيفة أيضاً. فالمآذن ترتفع إلى السماء تقريباً إلى الله تعالى وتواضعاً له وإشارة إلى وجوده في كل زمان ومكان. أما البرج فهو يرتفع إشارة إلى مآثر الإنسان الماثلة للعيان. إنه يشير إلى كل تلك المؤسسات المحيطة به والعاملة على خير الوطن بكل كفاءة».

قال سليمان: «هذا صحيح».

وجدت هدى تفسير نور معقولاً واستغربت صدوره عن شخص مقلّ في الكلام مثله، لكنها قالت: «أليس في تمجيد مآثر الإنسان استعلاء واضح؟».

قال نور: «لا أعتقد أن الاحتفاء بالمنجزات الإنسانية ينطوي على استعلاء».

قال سليمان: «إن الاحتفاء بالمنجزات الإنسانية ضروري لأنه يحفز الهمم».

صمتت هدى. ربما كان البرج والمئذنة متشابهين في الوظيفة رغم ما يبدو من اختلافهما، فالجهد الإنساني الذي يعلنه البرج ويشيد به هو في الحقيقة تقرب إلى الله الذي استخلف الإنسان في الأرض وأوصاه بإعمارها. ولعل التشابه بينهما في الشكل يهدف في ما يهدف إلى التذكير بهذا المعنى الديني للبرج.

عاد نور يقول: «إن البرج يؤكد الحاضر المتين الذي يجري بناؤه ويبشر بالمستقبل الزاهر الذي نتطلع إليه».

رأت هدى في قول نور تشابهاً آخر بين المئذنة والبرج. فكلاهما يشير إلى حقيقة تسمو على الواقع، أحدهما يشير إلى عالم الغيب، والثاني إلى عالم الحلم.

تحطّم الهدوء القصير على ظهر المركب لدى سماع دويّ طبول يصمّ الأذان. ثم ظهر مركب مزين بالأعلام الملونة مزدحم بالناس من مختلف الأعمار وإن غلب عليهم الشباب من الجنسين. وما لبث أن تلاه مركب ثانٍ مماثل ثم ثالث، ومضت المراكب الثلاثة تشق مياه النهر وكأنها تنزلق فوقها انزلاقاً، بينما كان «ملك النهر 1» يتهادى على صفحتها. راح ركاها يلوحون لركاب «ملك النهر 1» وهم يدقون الطبول وينقرون الدفوف ويرقصون، بينما كانت بعض النساء يزغردن. ردّ عليهم ركاب «ملك النهر 1» بالتلويح والهتاف وزغردت بعض الفتيات. قال سليمان: «يبدو أنه موكب عرس». فقالت سوسن: «أظن ذلك»، فقالت حنان بصوت حالم: «ما أجمل أن

يحتفل المرء بزواجه بهذه الطريقة!» ثم انتهت لما في قولها من تصريح زائد فابتسمت حياء.

كان النهر يقدّم الكثير من أسباب المتعة لسكان المدينة: الماء الوفير والخضرة اليانعة والعمران وكل تلك الزهات المليئة بالفرح والمرح. لكن النهر ينطوي أيضًا على الكثير من الأخطار كبقية الأنهار، ومن ذلك خطر الموت. كانت الصلة الوثيقة بين الحياة والموت مما يحير هدى دائمًا لكنها طردت الفكرة من ذهنها في ذلك الصباح وراحت تتابع المراكب الثلاثة وهي تبعد. مرّ «ملك النهر 1» تحت جسر ضخّم بُني كله من الإسمنت. لم يكن فيه عناية كبيرة بالتناسق لكنه كان متينًا دون شك. ثم ظهر فندق عالمي شامخ على إحدى الضفتين وفندق مماثل على الضفة الأخرى، فاستغربت هدى لأن كل ما رآته على ضفتي النهر في ذلك النهار بدا محليًا. قال سليمان مفسرًا: «هذان أول فندقين عالميين يبنيان هنا».

لم تكن هدى من المتحمسين للفنادق، العالمية لكنها رأت في وجودها هناك دليلاً على انفتاح المدينة على العالم وتأكيداً لحيويتها رغم قدمها. تباطأ المركب في سيره أو هكذا خُيل لهدى، وبعد قليل توقف. استأنف سيره فراحت المباني البعيدة تقترب بينما البرج ما يزال يلوح من بعيد. سألت هدى سوسن: «لقد كلف البرج الكثير من المال فهل يستعمل لأي أغراض عملية؟».

قالت سوسن: «إنه محاط بحديقة كبيرة مفتوحة للجمهور وفيها مقهى ومطعم ومتجر صغير».

قال سليمان: «لا شك أن بناء كهذا يستعمل لأغراض عديدة قد لا نعرفها كلها ومن أهمها الاتصالات».

قال نور: «إن البرج ذو فوائد عملية عديدة دون شك. إنه أكثر من مجرد رمز».

قالت هدى: «إن البرج يجسد معاني هامة بالتأكيد لكن الأرض تتسع لكل المعاني. فلماذا لا يكتفي الإنسان ببناء المؤسسات عليها لتقديم خدمات حقيقية بدلاً من إنفاق الأموال الطائلة على الأبراج وما شابهها للتعبير عن الأفكار والمواقف؟».

قال نور: «لكن المؤسسات التي تذكريها موجودة فعلاً، وهي تقدم خدمات ممتازة».

قال سليمان: «وكل الأمم تستخدم الأبنية العالية للتعبير عن الأفكار الإيجابية وتأكيد معاني الرفع».

ثم سألها سليمان: «أراك مهتمة جداً بالمباني فماذا تدرسين؟».

قالت هدى: «لقد تخرجت أنا وحنان من قسم الآثار قبل عامين».

قال سليمان: «إذن فقد شاهدتما الآثار في هذا البلد».

قالتا: «طبعاً. شاهدنا أكثر من مرة».

سألها نور: «وما هو عملكما؟».

أجابت حنان: «نحن نعمل الآن في دائرة الآثار، لكننا سنبدأ الدراسة للماجستير في العام الدراسي القادم».

فقال نور: «عظيم».

قال سليمان بعد قليل وكأنه يريد تغيير موضوع البرج الذي أصبح يثير بعض الجدل: «تلك عمارة سكنية لذوي الدخل المحدود».

وأضاف نور: «وسينى العديد من هذه العمارات في المستقبل القريب، وهذا مثال واضح على الخدمات الممتازة المقدمة للناس».

وقال سليمان: «وهذا لا يقل أهمية عن المصانع الكثيرة التي يجري بناؤها في هذا البلد على قدم وساق».

صمت الجميع. بعد قليل نهض شاب من مكانه واتجه إلى زميله المستلقي على الأرض وسأله: «أين وضعت المزمارة يا جاد؟».

لم يجب جاد لكنه أشار إلى كيس البلاستيك كما فعل من قبل. أخرج الشاب المزمارة وبدأ ينفخ فيه فانساب صوته هزياً بعد صوت الطبل والقيثارة وشريط الأغاني. استغربت هدى أن يكون لآلة موسيقية صغيرة كالمزمار تلك القدرة على الإيحاء بالحزن، وتذكرت الموال الذي انبعث من مكان ما في المركب في بداية الرحلة. قال سليمان لسوسن ونور: «ألا يذكر كما المزمارة بالشيخ وهيب؟».

ضحك الآخرون قائلين: «بالتأكيد».

قال سليمان مفسراً: «الشيخ وهيب رجل كفيف كان في شبابه قارئاً للقرآن ثم تحول إلى زمار يجوب أزقة البلدة مستجدياً المارة».

قالت حنان: «إن صوت المزمارة جدّ حزين».

قال سليمان: «إن الحياة نفسها جدّ حزينة أحياناً».

تناولت هدى وحنان شطائر الغداء وهما تقاومان جو الحزن الذي أشاعه المزممار. وتناول رفاقهما الثلاثة الطعام الذي أحضرته سوسن. توقف المركب ثانية لكن أنغام المزممار ظلت تناوش الأسماع فتقع النفوس الرقيقة في شراكها. كانت حرارة الجو قد ازدادت فأغمض البعض عيونهم وصمت الكثيرون وكأنهم لم يملئوا المركب مرّحاً قبل ساعتين أو ثلاث. أدرك الجميع أن توقف المركب المتكرر يعود إلى خلل فيه فبدت الحيرة على الوجوه وتململ البعض في جلستهم، لكنهم استبشروا خيراً عندما رأوا الكابتن ينزل إلى قمرة القيادة. كان الزمار ما يزال ينفث أنغامه فصاح به أحدهم: «كفّ عن هذا يا بهجت».

فصاح آخر: «اتركه وشأنه من فضلك»

- إنه مزعج.

- لا أرى في أنغام المزممار ما يزعج فقد تعودنا سماعها منذ الصغر.

- هذا ليس زمّاراً. إنه مبتدئ أو متدرب.

لكن الزمار لم يلق لكل ذلك بالاً. وبعد قليل صاح به شاب آخر وقد نفذ صبره: «كفّ عن هذا يا بهجت»، فتكرر الجدل نفسه غير أن بهجت مضى ينفخ في زمماره وكأنه لا يسمع ولا يرى. ران الصمت بينما كان الجميع ينتظرون عودة الكابتن من قمرة القيادة، وما لبث أن علموا منه أن الخلل في المركب ناتج عن فقدان إحدى قطع المحرك، وأن الربان سيقوم باستبدالها في أسرع وقت ممكن. توقف الزمار من تلقاء نفسه، وبدأ أحدهم الغناء ثم عدل عن رأيه. توجه الكابتن إلى قمرة القيادة ثانية فعلم أن الربان طلب من

أصحاب المركب إرسال القطعة المطلوبة مع مركب آخر، وأن الأمر سيستغرق بعض الوقت. بدأ أمل هدى وحنان رؤية البرج والمتنزه يتلاشى وازداد خوفهما من التأخير، فطمأنتهما سوسن إلى أنها وسليمان ونور سيرافقونهما في طريق العودة. حاول الكابتن أن يطمئن الجميع قائلاً إن مراكب أخرى قد تستطيع إنقاذ الموقف وهي كثيرة، لكن البعض تشكك في ذلك، وقالت فتاة: «إننا لا نستطيع التأخر فقد وعدنا أهاليينا بالعودة في ساعة مبكرة».

وقالت أخرى: «ماذا سنقول لأهاليينا عندما نعود إلى البيت تحت جناح الظلام؟».

قالت هدى: «أما كان يجدر بالربان أن يتفقد المحرك جيداً قبل بدء الرحلة؟».

قالت سوسن: «بالطبع».

قال سليمان: «أظن أن المشكلة بدأت عندما توقف المركب أول مرة، وكان يجب على الربان إبلاغ أصحاب المركب إذ ذاك».

قالت سوسن: «ليته فعل».

قالت حنان: «كما أنه لم يلتزم بالوقت المحدد لبدء الرحلة».

قالت هدى: «يبدو أنه لم يعدّ العدة لهذه الرحلة كما ينبغي».

عاد بهجت إلى النفخ في المزمار فتوجّه إليه شاب ضخّم الجثة وهدد بإلقائه في النهر إذا لم يتوقف. استنكر البعض ذلك التهديد ونشأ جدال جديد غير أنه كان على جانب من الحدة في هذه المرة. توقف المزمار أخيراً وصمت

الجميع. بدأ ثلاثة شبان يهتفون: «هيا يا ربان، هيا يا ربان». حاول أحدهم الرقص على نغمة الهاتف فابتسم البعض، لكن الكثيرين نظروا في ساعاتهم وقد انقبضت أساريرهم. استمر الهاتف برهة فطلب الكابتن من الجميع عدم استفزاز الربان بأي طريقة. بدأت الشمس تميل عن كبد السماء التي صفت زرقتها. توهج الضوء فبدت معالم الضفتين وكأنها تلتف بغلالة، واكتسبت مياه النهر لوناً رمادياً شبيهاً بلونها في الصباح. مرّ مركب مزدحم بالركاب كما تنبأ الكابتن. توقف قليلاً لكنه لم يستطع تقديم المساعدة المطلوبة فمضى في طريقه. انطفأ المرح في عيني سوسن ولزم سليمان الصمت وواظب نور على النظر إلى الخلف مستطلعاً المركب الذي سيحمل مفتاح الحل.

تمزق الهدوء ثانية عندما صرخت فتاة بكلام غير مفهوم، ثم دوت صفعة أذنت بعاصفة. نظروا فرأوا شاباً يكيل الضربات واللكمات لشاب آخر، بينما الفتاة تقف جانباً وهي ترفع يدها إلى وجهها الذي اصطبغ بحمرة قانية. زمجر الشاب قائلاً: «ألم أحذرك من قبل؟ أتظن أن الفتيات ليس لهن هام؟ أتظن أن مضايقتهن ستمرّ دون عقاب؟». وبعد أن أشبع الشاب ضرباً ولكماً أمسك بعنقه يريد أن يجهز عليه فاندفع الآخرون للتفريق بينهما قائلين: «اهدأ يا حسن، اهدأ يا حسن. أرجوك. سيعتذر. سيعتذر. ولن يعود لمثلها»، لكن حسن واصل الضرب. حاول البعض حماية الشاب الذي كان يقف مستسلماً للضربات فتصدت لهم جماعة من الطرف الآخر وانهالت اللكمات والركلات والشتائم بدون حساب. اهتز المركب يميناً وشمالاً وسقط البعض على الأرض. عاد الكابتن من زيارته الثالثة لقمرة القيادة فهاله ما

رأى. حاول تهدئة الموقف لكن المعركة استمرت ولم ينج من ضربة أصابت نظارته وكادت تكسرها. عندئذ هدد الفريقين باستدعاء رجال الشرطة فخفت حدة المعركة. تبادلت هدى وحنان نظرات خائفة ثم اجتاحهما غضب شديد على الشاب الذي تسبب في كل ذلك بمضايقته للفتاة. وما لبث أن تحول غضبهما إلى أسى لتلك النهاية التي آل إليها النهار. ثم قالت هدى: «كان يجب على حسن إبلاغ الكابتن بالمشكلة منذ البداية بدلاً من ترك الأمور تتدهور إلى هذا الحد».

وقالت حنان: «إن الفتاة تتحمل نصيباً أكبر من المسؤولية وكان عليها إبلاغ الكابتن بنفسها».

انتهت المعركة التي بدأت بهجوم حسن على روميو وتفرق الذين شاركوا فيها، ولزموا أماكنهم بعد أن تحطم كل ما حرصوا على الاستمتاع به في ذلك النهار. كانوا متلهفين على العودة إلى حالة من الهدوء بعد ذلك العنف الذي شاركوا فيه، وكان الآخرون راغبين في نسيان ما شهدوه. راح الجميع يتظاهرون بأن شيئاً لم يحدث. كانوا يتمسكون بآخر بقايا تلك البراءة التي حافظوا عليها أثناء النهار: الأخوة، الوئام، الصفاء، المباهج البسيطة. كانت هدى تشعر برضا تام لأنها لم تشارك في تحطيم ذلك الفرح الذي ملأ قلبها في صباح ذلك النهار الصيفي الجميل، لكنها شعرت أنها تلوثت جراء العنف الذي شهدته. لقد هبط الجميع في لحظات قليلة من جنة الوفاق إلى أرض الشقاق، وكان عليهم مواجهة ما يشعرون به من خزي.

أخيرًا صاح أحدهم: ها هو ذا «ملك النهر 2». ها هو ذا ملك النهر 2. إنه يقترب». كرّر الآخرون هتافه فتجدد الأمل في النفوس. قال سليمان: «ها هو ذا ملك النهر 2 يقترب فعلاً، الحمد لله». كان المركب المسمّى «ملك النهر 2» هو الذي أرسله أصحاب «ملك النهر 1» لإصلاح العطب فيه، وكان يسرع لتفادي المزيد من التأخير. لكن «ملك النهر 1» اهتزَّ فجأة اهتزازًا عنيفًا وكأن صاعقة انقضت عليه. رافق ذلك صوت هائل، ثم جاء ما يشبه صاعقة أخرى كادت تشطر المركب إلى شطرين. ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ سقط الكثيرون على الأرض وأولهم الكابتن، وسقط فوقهم آخرون ثم داس البعض على الساقطين. تدافع الركاب وانهالت الضربات والركلات لكن دون قصد هذه المرّة. ارتطمت الأجسام ببعضها وبالمقاعد وبأجزاء من المركب فتلطخت أرضه بالدم. أدرك الركاب أخيرًا أن «ملك النهر 2» قد اصطدم بمركبهم وهو يسرع إلى نجدة. ثم رأوا ويا للهول أن «ملك النهر 1» بدأ ينقلب على أحد جانبيه شيئًا فشيئًا، وأصبح من الواضح أن لحظات قليلة تفصل بينهم وبين تلك المياه الوادعة التي احتضنتهم أثناء النهار. تمسّك بعض الواقفين بالمقاعد وكأنهم يرجون أن تقيهم الانزلاق إلى النهر، لكن المقاعد ترحزحت من مكانها. وتمسّك آخرون بجانب المركب لكنه ما لبث أن تهاوى تحت وطأة الأجسام الكثيرة الثقيلة. راح «ملك النهر 1» يلفظ ركابه واحدًا واحدًا فتلقاهم المياه تمهيدًا لابتلاعهم. رأت هدى حنان تنزلق إلى الماء وتلتها سوسن لكنها لم تر سليمان أو نور. تمسّكت هدى بحافة المركب بكل قواها بينما الأيدي والأرجل ما تزال توسعها ضربًا وركلاً.

انزلقت أخيراً من المركب فتدلى رأسها فوق الماء بينما علق حذاؤها بجزء من حافة المركب، وبينما كانت تحرّر قدمها رأت أشجار الضفة وصروحها وقد انعكست صورها على مياه النهر وهي مقلوبة رأساً على عقب. تلقتها المياه الدافئة التي كانت بانتظارها فاستسلمت لعناق النهر الذي أحبته وهي توقن أنها ستتحّد به عما قليل.

عندما غادرت هدى المستشفى بعد يومين كانت حنان ما تزال تعالج فيها من الصدمة العصبية التي أصابتها جراء الحادث. علمت أن سوسن أصيبت بكسر في ذراعها لكنها ستغادر المستشفى بعد أيام. لم تعرف شيئاً عن مصير سليمان ونور لكنها رجّحت أن تكون قوارب النجاة التابعة لـ «ملك النهر 2» قد انتشلتها كما انتشلت بقية ركاب «ملك النهر 1».

نور

تمهلت في طريقي إلى المكتبة في ذلك الضحى لأنعم بالدفء المعتدل الذي تسري فيه برودة عذبة. كانت الأشجار المتزاحمة تلقي بظلها الكثيف حولي، ورقع من زرقة السماء تلوح من بينها، وبحيرة شاسعة من النور تمتد في أعاليها. الشارع خالٍ إلا من السيارات الرابضة على جنبه. الحقائق لامعة تناثرت الزهور في جنباتها. الخضرة ساكنة إلا من أغصان نحيلة تهتز بخفة. الهدوء حثيث لا يشوبه إلا وقع خطواتي. وكل شيء يبدو كصور ملونة في كتاب أنيق.

وصلت إلى الشارع العريض فرأيت بعض رواد الحانة يقفون خارجها وبعضهم الآخر يجلس على المقاعد الخشبية المصفوفة على الرصيف. كلٌّ يحمل في يده كأسًا كبيرة ذهبية. الحديث هامس باسم، والأجسام متقاربة تنبعث منها حيوية خافتة. امرأة أو اثنتان تنتظران الباص في صمت. أشخاص قلائل يمشون على الرصيف أو يعبرون الشارع. منهم من هو مسرع ومنهم المتمهل. وكلهم ساهم واجم يتحرك في دائرة ضيقة. وبدا لي المارة الحذرون وكأنهم يتعمدون أن يفسحوا الطريق للسيارات التي لم يكن سيلها ينقطع إلا ليبدأ من جديد. كانت السيارات تغطي على الشارع وكأنه جعل لها وحدها، وكانت بسرعتها والخطر الكامن فيها تشيع فيه توترًا.

عبرت الشارع بشيء من الصعوبة وسرعان ما خلفته ورائي بهديره المتقطع، واختفى من أمام عيني ذلك المزيج الغريب بين قلة المارة وفتورهم وبين كثرة السيارات وعنفوانها. مشيت في الشارع الصغير المؤدي إلى المكتبة فرأيتُه خاليًا. الحداثق المنمقة غارقة في الصمت وكأنَّ يدًا لم تمتد إليها فتنمقها. لا أطفال، لا كلاب، لا قطط. وعجبت لذلك الهدوء يجاور جلبة السيارات فيمتصها وكأنها لم تكن. توغلت في الحي قليلًا فنسيت السيارات والمارة الوجلين الذين يشبهون فلول جيش منهزم. لا شيء يفسد الهدوء العذب الذي راح يتغلغل في نفسي وينسج حولها خيوطًا واقية ويسلمها لحال من الدعة.

كنت أتلهف على الوصول إلى المكتبة بعد أن انقطعت عنها حينًا وشغلت بأمور أخرى. لكن لهفتي تلك بدت لي روحًا غريبة في ذلك السكون. لاحت لي المكتبة عن بعد بواجهتها الزجاجية العالية، وتبينت من جديد مدى اختلافها عن بيوت الحي في طرازها. لكني رأيتها أيضًا تلتصق بالبيوت المجاورة لها وتتشبث بها. وكنت أعرف أنها تستمد وجودها من حيها وأنها تتألف مع روحه العاملة على الانتقاء والتنسيق والطامحة إلى غايات عليا في الحياة.

كان بابها مفتوحًا فشعرت بارتياح ما لبث أن أعقبه ضيق. قلة من القراء تقصدها في هذه الأيام، وقد يوصد بابها نهائيًا عما قريب. وكنت في بدء اكتشافها لها قد تساءلت كيف تدفن مكتبة وسط الصمت وكيف تجد لها روادًا في حي يبدو وكأنه خلا من سكانه! لكن ضيقي تلاشى عندما دخلت

الغرفة الفسيحة المشرقة ورأيت القراء يتناثرون في أرجائها، وبينهم وجوه مألوفة. كان معظمهم شيوخاً يأتون لقراءة الصحف ولشيء من الحديث الخافت المتقطع، ثم يغادرونها بعد ساعات قليلة وهم يسرون على مهل أو يتوكؤون على عصيهم.

جلست في مكاني المعتاد قرب الواجهة الزجاجية، وأحسست بالنور يزداد دفئاً وهو يخترقها ويغمر الغرفة. كل شيء في مكانه المعتاد وكأن يدًا لم تمسه، وكل شيء نظيف لامع: الكتب والأثاث والأرض والزجاج والنبات. الخضرة خارج الغرفة يانعة في أول عهدها بالصيف، وتيار الحياة فيها دافق لكنه غير عارم، فلا يطغى على وجود الإنسان ولا يكتم أنفاسه. الشجرة الفارعة التي لا يفصلني عنها إلا النافذة تلقي بظلها السخي على الرصيف فيكاد يصبح أخضر هو الآخر.

أوراقها الدانية ترتعش قليلاً بينما تنفذ أشعة الشمس هنا وهناك من خلال ظلمتها الخضراء. بدت لي الشجرة الباسقة في قربها الشديد من المكتبة وكأنها جزء منها، وتراءت لي في وقفتهما الحانية خارجها وكأنها تباركها.

أما النور فكان صافياً مركّزاً يزيد الزجاج من تركيزه. وكان ينسكب بين أيدينا ويذلل نفسه لنا دون أن يبهر عيوننا. الخضرة في الداخل وادعة، موزعة في أرجاء الغرفة بدقة. الأصوات خافتة: حفيف جرائد، كلمات قليلة يتبادلها عجوزان على المقعد المقابل، إرشاد مختصر من المسؤولة لقارئة. وعند الرصيف تقف سيارة في هدوء فتتزل منها امرأة لا تكاد تقوى

على المشي، رجل يغادر المكتبة حاملاً كتباً، وآخر يصل إليها. ليس بينهم من يحدث صوتاً. كلهم يتحركون وكأنهم ينزلقون على الأرض انزلاقاً. وكل ما تتلقاه الحواس يمسخها مسّاً رقيقاً فلا يؤذيها. تعمق إحساسي بالدعة في مجلسي ذاك وغمرتني طمأنينة تامة. لا شك أن يدّاً تعهدنا وتدبر الأمور في سبيل رفاها. وخيل إليّ أني أطل على العالم من علٍ وأنه كله لا يقل عن ركني ذاك أمناً وسلاماً.

سررت لرؤية الصحف في كل مكان من الغرفة: على المناضد، وعلى المقاعد وفي أيدي القراء. صحف كبيرة تحفل بمواضيع هامة. تناولت الصحيفة الأولى فطالعتني أنباء محادثات السلام وانتخابات الحزب. أقبلت على القراءة: البطالة المتزايدة، حوادث الإرهاب، الأطفال الذين يباعون في بعض البلاد، فانفتحت عيناى على العالم من جديد ورأيت مكاماً لا يهدأ فيه جزء إلا ليضطرب جزء آخر. البوسنة، انتقلت من صحيفة لأخرى فوجدتها كلها مثقلة بأنباء البوسنة. أنباء سوء قد تراكت في غيابي. فبدأت أخرج من شرنقتي، وبدأت السكينة التي بُثت في نفسي ذلك الصباح تفارقني. أهل البوسنة «تطهر» منهم مدّهم وقراهم، يُشردون ويُقتلون. الشيوخ والأطفال لا يرحمون. الأعراض تنتهك. جحيم يستعر في البوسنة. شاعت حلقة في الفضاء من حولي. حاولت أن أتساءل مع حكماء الصحف عن حل لمأساة البوسنة. لكن صور العنف ظلت تلوح في مخيلتي. وبدأت كتلة صلبة تتكون في داخلي.

سمعت عن البوسنة أول مرة في غرفة الدرس. كان اسمها غريباً وموقعها نائياً، لكنني أدركت الصلة بيني وبينها على الفور فاهتممت بها. بدت لي مثل نبتة اقتلعت من أرضها الأولى وغُرست في أرض جديدة فظلت تحمل سمات الترتين. عجبت للمزيج فيها بين ما أعرف وما لا أعرف. سُحرت بازدواجها، باجتماع شقين متباينين فيها. رأيتها كياناً هشاً فشعرت بالإشفاق نحوها، وأرضاً للصراع فخشيتها. لكن الصلة بيني وبينها ظلت تجذبني إليها. فهي قطعة من عالمي القريب انفصلت عنه أو انتزعت منه. هي مثل صغير تاه عن أهله. سرعان ما انتقلت من البوسنة إلى غيرها من الدروس فلم أنجُ من خيبة أمل. كنت أظن أنني سأحيط بالبوسنة علماً وأني سأضمها إلى عالمي المألوف فيتسع بها ويخصب. وذكرت فتاة عرفتها في المدرسة القديمة وشعرت نحوها بألفة. كان وجهها هادئاً يمتزج فيه البياض بالسمر وتشتع منه جاذبية ويلوح فيه تفكّر. وعرفت أنها قرأت ما قرأت من كتب فازداد تألفنا. لكنها ما لبثت أن اختفت دون أن أعرف السبب في اختفائها قط. وظللت أذكرها سنوات.

سرعان ما نسيت البوسنة وكأنها لم تكن، لكن ها هي ذي تبعث على صفحات الجرائد، ها هي ذي تعود أرضاً للصراع، وها هي الصلة تتوثق بيني وبينها من جديد. ارتعت للأحقاد تُنبش، للأرواح تُزهق، للأمان يتبدد، للوطن يضيع أو يكاد. وذكرت أحداثاً مماثلة عصفت بأوطان قريبة في الماضي القريب، وذكرت ما عمّقه من حقد وما خلّفته من يأس. لم يفتني ما بين هذه وتلك من صلة، ورأيت في كليهما مؤامرة أكيدة. غام

الفضاء الشفاف أمام عيني وتراءت لي فيه بقع داكنة تختلف حجمًا وشكلًا. تراجعت المكتبة من حولي وأحاط بي مكان مبهم. البوسنة تُنهش نهشًا ونحن لا نملك لها نفعًا. شيطان يطاردها، والعالم في غفلة. انكشيت في ركني وانسدل ستار أغبر حولي. اهتزَّ مقعدي وكأن يدًا تعبت به. تشبثت عيناى بالصحيفة وأنا أحس بقلبي يدمى، وراحت الكتلة الصلبة تتعاطم في داخلي. أين أنا من ذلك الصباح الوضيء؟ إن دهرًا يفصلني عنه. أردت أن أدق المنضدة بقبضتي وأن أعلن ثورتي على ما يحدث في البوسنة. أردت أن أصبح بالقراء وأن أذكرهم بقصة قديمة عن الذئب والحمل، أردت أن ألوح لهم بأشلاء البوسنة، أن أوجه اتهامًا وأفصح مؤامرة. تلهفت على بيان الصلة بين البوسنة وغيرها مما أعرف. تمنيت لو أملأ المكتبة صياحًا. تمنيت لو أن كتلة الغضب بداخلي تنفجر أو تتفتت أو تذوب.

نظرت إلى القراء عبر الفضاء الصدئ فرأيتهم منكبين على الصحف يعبّون من مآسيها عبًا دون أن يبدو عليهم من ذلك أثر. ساكنون كأن قيودًا تكبلهم، وجوههم تحمل تعبيرًا واحدًا لا اسم له، وجودهم باهت لكنه يجهض ثورتي. إن هذه الغرفة الزجاجية تحول بيني وبين البوسنة فلا تدعني أحس ما أحس. إنها تضع معارفها الغنية بين يديّ شريطة أن أكتفي منها باليسير أحشره في جيوب ضيقة من وعيي. إننا كالنباتات المتناثرة في أرجائها لا يسمح لنا بالنمو إلا بقدر الأوعية المخصصة لنا. يجب أن تظل

البوسنة معرفة يتناولها العقل دون الشعور. يجب أن تنساب التجربة فوق النفس انسياباً دون أن تهزّها.

إن ما تتحدث عنه الصحف لا يجد له صدى هنا. أين البطالة؟ إن معظم رواد المكتبة في أواسط العمر أو أواخره، وهم قد خلفوا العمل وراءهم أو يكادون. والعنف؟ إن الناس لا يجروون حتى على تبادل النظر. والعجز؟ إن الأمور منظّمة أدق تنظيم في ما أرى. والفقر؟ إننا في هذه الغرفة الزجاجية تبذل لنا الموارد فنترعرع كالنباتات النادرة. إن الصحف أجسام غريبة في هذا الحي الذي شذب كل ما فيه وهذب، وهي تلقي في وسطه المنقى سموماً. لعل الصحف تتحدث عن كوكب آخر أو عن ماضٍ سحيق. أو لعلها تنسج أساطير نزجي بها وقت فراغنا.

وخيل إليّ أننا أطفال أقصينا إلى هذه الغرفة الهادئة ووُضعت بين أيدينا قصص عن أشرار وضحايا لإغرائنا بالقراءة. وهي قصص لا تمت إلى ما نراه بصلة. ولقد نُسقت الغرفة على نحو يروق الأطفال. فالأثاث خفيف الوزن، فاتح اللون، والجرائد مصوّرة، والكتب ملونة صقيلة، والنباتات تزيد المكان بهجة وجاذبية. والقيود صارمة. وها هي المسؤولة ترقبنا من خلف منصدتها. وها أنا ألتهم القصص كما كنت أفعل أيام الطفولة.

لكن قلبي ظل مثقلاً بالبوسنة. نظرت من النافذة كي لا يلحظ أحد ما ارتسم في وجهي من شعور، فطالعتني الخضرة الممتدة التي يعلو بعضها بعضاً وتكاد تهيمن على ما حولها. كانت كثافتها وحيويتها تكسبها وجوداً

صلبًا. لكنها ممعنة في السكون، صمّاء عن لغو البشر، خارجة عن معتركهم. كانت مستغرقة في حياتها، ملتفة في طياتها، مكتفية بها. بدت لي الخضرة منطقة مستقلة في الوجود، رفيعة آمنة. فرحت أضفي عليّ من رفعتها وأمانها. وما لبثت الطمأنينة أن عاودتني قليلًا. من يدريني فلعل بعض هؤلاء القراء يشعرون ببعض ما أشعر، لكنهم لا يُبدون منه شيئًا. يحسن بي ألا يحمر لي وجه ولا يختلج جفن ولا يرتفع حاجبان في الأماكن العامة. يحسن بي أن أردي قناعًا. يجب ألا أدع مشاعري تثقل عليّ وعلى غيري. يجب ألا أخدش الوجود المصقول المحيط بي. يجب أن يرسم كل شيء ويضبط.

أخيرًا انتقلت إلى مواضيع أخرى في الصحف هربًا من البوسنة. أردت أن أضع بيني وبينها حجابًا لا تنفذ منه إليّ، وتمنيت لو يأتي يوم قريب تختفي فيه أنبأؤها. مرّت ساعة أخرى ازداد النور فيها سطوعًا وتركيزًا. خفت زرقة السماء وشابها بياض. استسلمت أوراق الشجر لأشعة الشمس الدافئة واستكانت. سكنت الأصوات الخافتة وكأن حيوية الصباح قد استنفدت. غادر بعض القراء المكتبة، وأغفى واحد أو اثنان. ذبلت الصحف وتغضنت أوراقها بعد أن قضت الصباح وهي تثقل من يد ليد، ومن منضدة لمنضدة. وأخيرًا أهملت بعد أن فصل بعض صفحاتها عن بعض. وبعد ساعات ستحمل لتنام طويلًا على أرفف بعيدة مظلمة هي مثواها الأخير. اقتربت ساعة الاستراحة في المكتبة وسيغلق بابها عما قليل. تسللت الوحشة إليها وهي تخلو من زوارها شيئًا فشيئًا، وبدت

المقاعد الخالية وكأنها حفر عميقة. امتد الصمت حتى كاد أن يصبح محيطاً مترامياً.

انحسرت موجة البوسنة عن نفسي، وبدأ عالم الصحف ينأى هو الآخر فلا تصلني منه إلا أصدااء خافتة. بدا لي النور المتكاثف في الغرفة وكأنه يبدد ظلام ما تكتبه الصحف، وصمتها المتزايد وكأنه يمتص صخبه، وضبطها الدقيق وكأنه يحلّ محلّ اضطرابه. رحت أقرأ بكسل دون أن أستوعب الكثير مما أقرأ. وأخذت السكينة المتجددة في نفسي تتحول إلى خدر. أين الصراع وأين ما يبعثه في النفس من حزن وغضب؟ لم أعد أحس من ذلك شيئاً. غاضت البوسنة وعادت موضوعاً تتناوله الصحف. ورحت أقرأ ما يروّج عن النفس. يجب أن أحرص في المرة القادمة على تناول المعارف التي تضمها هذه الغرفة بحذر. يجب ألا أدعها تفسد عليّ هدوئي وتغيّر العالم من حولي. يجب أن أنتزع من التجربة لبّها، وأن أفرغها من محتواها حتى تصبح شيئاً ولا شيء مثل هذا النور أو ذاك الزجاج. يجب أن أقف عند عتبة التجربة دون ولوج عالمها المظلم. يجب أن أنظر إلى هذه المعارف المصفوفة بعناية كعناوين للتجربة، ملخصات لها، كمعروضات تشير إليها وتغني عنها.

مللت من القراءة وأصبحت في حال بين اليقظة والنوم. وأخيراً أُلقيت بالصحيفة جانباً وغادرت المكتبة على مهل. ها أنا قد أتيت على كل الصحف وازددت معرفة، وسأذهب لأرتاح بعد ما بذلته من جهد. وعندما أجد متسعاً من الوقت سأعود إلى ما قرأت فأتزع منه أفكاراً

أرتبها وأتأملها وأوازن بينها فأشحد ذهني وأزيد فهمي وأملأ المزيد من فراغي. البوسنة بعيدة وأنا لم أرها قط، ولن أراها أبداً.

خرجت إلى الشارع فرأيت البيوت ما تزال خاوية. لا باب يفتح، لا ستار يزاح، لا وجه يطل من نافذة. بيوت رسمت خطوطها بعناية وجعلت على نفس الطراز كأنها وجه واحد متكرر. نظرت إلى حدائقها ثانية. لا لعبة طفل، لا دراجة، لا حذاء، لا أداة منسية، لا مهملات. لكن زهورها كانت تتأجج بشعلة خفية وتشع نوراً باهراً. وخيل إليّ أن تلك الزهور قد بلغت في تلك الظهيرة غاية وجودها من البهاء حتى لم يعد لها من ذلك مزيد. لكن اكتمالها ذاك كان يعمق السكون من حولها. وكان السكون العميق بدوره يزيد من تألقها ومن صخب الحياة فيها.

لقد اكتمل هذا النهار جمالاً هو الآخر، وسأذهب إلى المتنزه القريب في العصر. وفي المساء حديث شيق عن البوسنة وغيرها. أما في الغد فزيارة أخرى للمكتبة، أدفن رأسي في صحفها ثانية. فالقراءة نور آخر يزداد به هذا الصيف جمالاً ومتمعة. لديّ كل الوقت الذي أريد ولا شيء ينغص عليّ عيشي، مثلي في ذلك مثل سائر أهل الحي المشغولين بهيّن الأمور. لكنني لم أسلم من الشك. إن الشعور جسم حي نابض لكنني رأيت يوأد. والمعرفة تزهر في النفس يقظة لكنني رأيتها تهددها. وهي سلاح تنال به الحقيقة لكنني رأيتها تستحيل لهواً. وهذه المكتبة التي نسقت كنوزها وأبرزت محاسنها كبيوت هذا الحي وحدائقه، أهني في المقدمة من الحي أم في المؤخرة؟ أهني منطلق أم جحر؟

نزهة

غادرت السيارة المدينة وبدأت تسير في الطريق العريض الحديث وتقطع السهل الممتد أمامها. كان هذا أرضاً لا يكاد المرء يرى فيها أحداً أو يلحظ حركة. وعند الأفق البعيد بدت تلال شاحبة اللون متوسطة الارتفاع، جرداء هي الأخرى. السماء زرقاء فاتحة والفضاء الشاسع مشبع بضوء الشمس الذي ينعكس على الأرض فتبدو بيضاء تقريباً. كان مهند ينظر من النافذة المجاورة له وعون ينظر من النافذة الأخرى بينما كان عمر مضطجعا في مقعده وعينه مغمضتان. ران الصمت على ركاب السيارة فسألهم حسان:

هل تشعرون بالراحة؟

فأجاب ماهر: جداً.

وقال مهند: نعم شكراً.

فجأة انبعثت أنغام موسيقى صاخبة تدوي فيها الطبول، وارتفع صوت مجموعة من المغنين بأغنية باللغة الإنجليزية لم تكن كلماتها مفهومة كلها. لمس مهند كتف ماهر الذي كان يجلس إلى جانب حسان في المقعد الأمامي وقال له: أرجو أن تخفض الصوت قليلاً يا ماهر.

فقال عمر بصوت يغلب عليه النعاس: شكراً يا مهند.

قال ماهر: هذه من أجمل الأغاني التي سمعتها في الشهرين الماضيين. هل

سمعتوها من قبل؟

قال حسان بصوت خافت: طبعًا.

وقال مهند: قد تكون أغنية جميلة لكن الصوت عال جدًا.

قال ماهر وهو يضحك: لعله يوقظ صديقنا النائم في المقعد الخلفي.

خفض ماهر الصوت ثم قال: كنت أريد حضور الحفلة الغنائية التي أقامتها هذه الفرقة في جامعتنا لكنني لم أستطع بسبب اقتراب موعد السفر. لم يقل أحد شيئًا فراح ماهر ينقر على يد مقعده طربًا ثم قال: من الأشياء المشيرة في الجامعات الأمريكية أن كثيرًا من المغنين المشهورين يقيمون حفلات غنائية فيها ليحضرها الطلاب.

قال حسان: شيء جميل.

قال ماهر لحسان: ليتك التحقت بجامعتي.

قال حسان وهو ينظر إلى الطريق أمامه باهتمام: قد ألتحق بها في مرحلة الماجستير.

قال ماهر: إن شاء الله.

بعد قليل قال مهند: إني لا أرى أي سيارات في هذا الطريق.

قال ماهر: هذا طبيعي في صباح الجمعة كما أظن.

قال حسان: سيمتلئ هذا الطريق بالسيارات اليوم حتى يزدهم بها.

قال ماهر وهو ما يزال ينقر على يد المقعد: هذا جيد فالنزحات ضرورية في العطلة الأسبوعية.

بدأ المنظر يتغير أمام ركاب السيارة. ظهرت طرق تتفرع من الطريق الرئيسي وسيارة أو اثنتان في أحدها ثم نقطة تفتيش وقف عندها شرطيان، كما

ظهر أشخاص يتحركون عن بعد، وبان خط رفيع من الخضرة عند الأفق. بدأت السيارة تقترب من منطقة زراعية تختلف تمامًا عن السهل الأجرد. اعتدل عون في جلسته وتنبّه عمر من غفوته فسأل مثل طفل يصطحبه أهله في نزهة: هل وصلنا؟

فأجابه حسان: تقريبًا.

قال مهند وهو ينظر إلى الأشجار الخضراء الداكنة التي تكثر في المنطقة: اذكر أن هذه الخضرة كانت أزهى مما هي عليه الآن. قال حسان: لا أظن أنها تغيرت.

قال مهند: ربما كنت مخطئًا فأنا لم أزر هذه المنطقة منذ سنوات.

قال حسان: إنها ما تزال على جمالها.

قال مهند: ويمكن أن تكون أكثر جمالًا.

انعطفت السيارة إلى طريق فرعي ضيق وظهرت بعض المزارع الصغيرة على جانبيه وفي وسط كل منها مسكن صغير. كانت المساكن متقاربة متماثلة تقريبًا في حجمها وبنائها، وكلها من الإسمنت الذي طلي بألوان مختلفة بهتت مع الزمن أو اختفت كلية عن الجدران. وأمام كل مسكن منها فناء يبدو فيه غسيل مشور على الحبال وعريش يجلس تحته نساء وأطفال من كل الأعمار. غلبت أشجار الحمضيات على سائر الأشجار بالطبع لكن خضرتها بدت مغبرة. انعطفت السيارة إلى طريق فرعي آخر فظهرت مجموعة أخرى من المزارع والمساكن الصغيرة. وقف بعض الأطفال خارج تلك المساكن التي لم يكن أمامها رصيف، وراحوا ينظرون إلى ركاب السيارة باهتمام بينما

راح بعضهم يلوحون لهم بأيديهم. كانوا باسمين مستبشرين رغم شعورهم المشبعة وملابسهم التي لم يبذل فيها كبير عناية.

قال عون: إنهم يبدوون سعداء بزيارتنا لقريتهم.

قال حسان: إن المنطقة كلها تستفيد من السياحة الداخلية.

قال ماهر: انظروا إلى اهتمام أولئك الأولاد بالسيارة.

قال عون: هذا اهتمام طبيعي لدى الأولاد.

ثم أضاف بعد قليل: خاصة إذا كانت السيارة جديدة وحمراء براقّة كهذه.

قال مهند: مساكين هؤلاء الأطفال.

قال حسان: لماذا؟ إنهم أحسن حظاً من غيرهم بكثير.

قال مهند: من الصحيح أنهم ليسوا حفاة عراة لكنهم لا يحصلون من الحياة إلا على القليل.

قال حسان: هذه حال الكثيرين في بلادنا.

قال ماهر: إنهم يبدوون راضين بنصيبهم من الحياة.

قال مهند: هذا لأنهم ذوو طبيعة سمحة.

قال ماهر: هذه نظرة مثالية يا مهند وأظنها بعيدة عن الواقع.

قال مهند: إن هؤلاء الناس يقومون بوظيفة أساسية في الاقتصاد وهي زراعة الأرض. حياتهم ليست إلا كفاحاً مريراً مستمراً، لكنهم يتحملون المشقة بصمت وكبرياء. وإذا دخلت بيوتهم ستجد منهم كل حفاوة وبشاشة.

إنهم في رأيي على درجة كبيرة من النبل بطبعهم.

قال ماهر: إنهم مثلي ومثلك يا مهند، وفيهم عيوبنا ومزايانا نفسها.

قال عون: لكن حياتهم كفاح مستمر بلا شك.

قال ماهر: إن الحياة كلها كفاح مستمر.

قال مهند: غير أن هؤلاء يكافحون من أجل حياة محدودة في أحسن الأحوال. إنهم يغالبون قدرًا قاسيًا أو يلاحقون أملًا بعيدًا. وهم أيضًا يبدؤون من نقطة تقل كثيرًا عن تلك التي يبدأ منها غيرهم ممن تتاح لهم الفرص.

قال ماهر: من أين جئت بهذه الأفكار يا مهند؟ هل انضمت إلى حزب سياسي في مصر؟

قال مهند: لا لكن دراستي أتاحت لي المزيد من الوقت للقراءة والتفكير والملاحظة.

قلل عون: لقد بدأ مهند يكتب في الصحف الآن.

قال ماهر باهتمام: حقًا؟

قال مهند: لقد كتبت مقالين في صحيفة الجامعة لا غير.

قال حسان: لقد تحسنت الزراعة في هذه المنطقة في السنوات الأخيرة كما تحسنت أوضاع المزارعين، وهذه حقائق تؤكدتها دراستي.

قال عون: هذا لا يعني بالضرورة تحسن أوضاع العمال في المزارع.

قال حسان: سترون أن أوضاع العمال في المزارع ليست سيئة كما تظنون. وهنا قال عمر وهو ما يزال يغمض عينيه: كفى جدًّا يا جماعة فالرزق

بيد الله.

قال ماهر: لعلك تريد العودة إلى النوم يا عمر.

لم يجب عمر فقال حسان: الرزق بيد الإنسان أيضًا وعليه أن يعمل متوكلاً على الله.

قال مهند: الرزق بيد من يخططون للاقتصاد أيضًا. فهو لاء المزارعون مثلاً يعملون لكنهم لا يفلحون كثيراً لانعدام التخطيط الكافي.

قال ماهر: لكن الحكومة لا تستطيع القيام بكل الأعباء ولا بد أن يتحمل الفرد المسؤولية عن حياته.

قال حسان: كثير من المزارعين هنا يملكون الأرض التي يزرعونها، وهم يستطيعون التخطيط كما يشاؤون.

قال مهند: التخطيط الفردي لا يكفي فكثير من المزارعين هنا وفي مناطق أخرى في البلاد يفتقرون إلى الوسائل اللازمة للتخطيط لقلة التعليم والموارد والحرية الفردية والنفوذ.

عاد عمر يقول وقد أدرك أنه لن يستطيع العودة إلى النوم: ألا تملّون من الجدل يا جماعة؟

قال ماهر: يسرني أنك صحوت من نومك يا عمر.

قال عمر: وهل تظنني استطعت النوم؟

قال حسان بعد قليل: لقد أحضرت مجموعة من أشرطة الفيديو لشاهدها معاً في بيت زيد.

سأله عون: ما هي؟

قال حسان: هذه مفاجأتي لكم.

قال مهند وهو ينظر إلى حقيبته: أما أنا فقد أحضرت نسخاً من دراسة أجريت حديثاً عن مزرعة نموذجية أنشأها بعض خريجي كلية الزراعة في جامعتي. أرجو أن تجدها مفيدة يا حسان.

قال حسان: لا شك في ذلك. شكرًا لك.

قال عون: أعتقد أنها ستكون مفيدة لنا جميعاً.

بعد قليل نظر عون في ساعته وقال: ها قد اقترب موعدنا مع زيد وهادي فالساعة الآن تقارب الحادية عشرة.

قال حسان وكأنه يطمئن ركاب سيارته: لقد قاربنا الوصول.

قال عون: هذا يعني أن السيارة قطعت المسافة في أقل من ساعة.

قال ماهر: لا تنس أنها سيارة جديدة رباعية الدفع ومن أحدث طراز.

قال عون: وقد قطعت المسافة بعزم يختفي تحت حركتها الهادئة السلسة.

قال ماهر وقد تذكر شيئاً: هل فكر زيد في الجامعة التي سيلتحق بها في

مرحلة الماجستير؟

قال عون: ما يزال الوقت مبكراً، لكنني أظن أنه يرغب في الالتحاق بجامعة

هادي في بريطانيا.

سأل ماهر: وهل سيدرس الاقتصاد مثل هادي؟

أجاب عون: لا إنه يدرس إدارة الأعمال.

قال ماهر: وأنت يا عون؟

قال عون: ينصحني البعض بالعمل قبل الدراسة للماجستير.

قال مهند: هذه فكرة صائبة فالعمل سيفتح لك آفاقاً جديدة تعينك على الدراسة في ما بعد.

قال عون: خاصة إذا عملت في مجال العلوم السياسية وهو مجال دراستي.

قال ماهر: أما أنا فسأدرس الماجستير في نفس جامعتي. إني راضٍ تمامًا عنها وعن دراسة العلوم المصرفية فيها.

أراد ماهر أن يساعد عمر على مغالبة نعاسه فسأله: كيف تجد دراسة علم الكمبيوتر؟

أجاب عمر: لا بأس.

عاد يسأله: هل تفكر في الحصول على الماجستير؟

قال عمر: لا أدري.

قال ماهر: هل تفكر في الذهاب إلى أمريكا في تلك المرحلة؟

قال عمر: لا أظن.

سأله ماهر: لماذا؟

قال عمر: قد أذهب إلى أستراليا.

قال ماهر: أستراليا؟ لماذا؟

قال عمر: لي أقارب هناك.

ثم أضاف دون اكتراث: وقد أبقى هنا.

استغرب الباقون قوله لأن فكرة السفر إلى الخارج كانت تلحّ عليهم

جميعاً منذ أن التحقوا بالدراسة الجامعية.

عادت السيارة تقطع شبكة معقدة من الطرق الفرعية الضيقة التي تمتد على جانبيها المزارع الصغيرة. وضع ماهر شريطاً آخر في المسجل وراح يندندن بكلمات الاغنية. ساد الجميع حال من الترقب والحيوية. اقتربت السيارة من بيوت كبيرة يجلس في حدائقها الواسعة رجال ونساء قدموا من المدينة. كان هذا حياً أهدأ وأقل ازدحاماً من تلك الأحياء التي خلّفوها وراءهم. دخلت السيارة أخيراً شارعاً عريضاً قصيراً تحف به البيوت الكبيرة ويتتهي بأرض خلاء، وتوقفت عند بيت في آخر الشارع تقريباً. نزل عون من السيارة وهو يرفع ذراعيه في الهواء كمن يتمطى ويقول: ما أجمل إجازة نصف السنة!

قال حسان: وما أجمل الانتهاء من الامتحانات.

قال ماهر: ومن الأبحاث.

قال عون: إني أشعر مثل سجين أطلق سراحه.

ما إن نزلوا من السيارة حتى خرج من البيت رجل في منتصف العمر حياهم وعلى وجهه ابتسامة عريضة ودعاهم إلى الدخول، ثم قال لحسان وعلى وجهه نظرة إعجاب واضح: هذه سيارة رائعة.

شكره حسان وسأله: هل ستكون في أمان في هذا الشارع؟

قال الرجل: طبعاً فالسيارات لا تتعرض للأذى في هذا الشارع أبداً.

كان زيد وهادي يقفان عند بوابة الحديقة باسمين. تعانق الأصدقاء الذين لم يجتمع شملهم منذ أشهر وتوجهوا إلى الحديقة الجانبية الممتدة على يسار الداخل. العشب الناضر يكسو أرضها، الزهور تملأ أحواضها، النباتات

المتنوعة تسلق أسوارها والبيت المبني من الحجر الأبيض يزيد ما حوله إشراقاً وأناقة. وفي الحديقة الجانبية الأخرى بدت شرفة كبيرة نصف دائرية تطل على بركة سباحة، وتكاد جدرانها تختفي خلف زهور «الجهنمية» الأرجوانية. جلس الأصدقاء حول منضدة طويلة بيضاء في وسط الحديقة مستسلمين لأشعة الشمس الرفيقة، لكن ماهر ما لبث أن نهض وبدأ يلتقط الصور لأصدقائه ثم للحديقة والبيت. ابتعد عن مجلسهم وأخذ يتجول في الحديقة وهو ينظر باهتمام إلى تفاصيلها ويلتقط مزيداً من الصور. انضم إليه حسان وراح الاثنان يتبادلان بعض الحديث وهما يشيران إلى بعض أجزاء الحديقة. بعد قليل ناداهما زيد: تعالا فاجلسا معنا.

ثم قال زيد: أراك كثير الاهتمام بالتصوير اليوم يا ماهر. قال ماهر: أريد مجموعة من الصور أعرضها على زملائي الأمريكيين عندما أعود.

جاء شاب صغير حياهم بأدب خجول ثم ذهب وعاد بأكواب عصير البرتقال فقدمها لهم بطريقة تدل على دراية بهذه الواجبات.

سأل عون بعد أن عاد الشاب إلى داخل البيت: من هذا الشاب الصغير؟ قال زيد: هذا كايد ابن حارس البيت الذي رأيتموه قبل قليل، وقد جاء لمساعدة أبيه اليوم.

قال عون: إنه يبدو شاباً لطيفاً نشيطاً.

راح الأصدقاء يرتشفون شراهم تاركين تلك الأشعة المنهمرة من سماء صافية تسبغ عليهم الهدوء، بينما الخضرة الكثيفة اللانعة تحيط بهم من كل

جانب. بدوا عازفين عن الحديث وكأنهم لا يريدون التفريط بذلك الهدوء الساحر الذي يسود الحي بأكمله. وأخيراً قال ماهر: لا أصدق أنني أنعم بكل هذا الدفء والضوء بعيداً عن ذلك البرد القارس والثلج الكثيف. ولا أصدق أنني لا أحتاج إلا إلى سترة خفيفة كهذه.

أشار إلى سترته التي تحاكي لون السماء بزرقتها فأبدى أصدقاؤه إعجابهم بها، وبذلك الأحرف الزخرفية المطرزة عليها لتدلّ على اسم جامعته الأمريكية.

قال له عون: لكنك لن تشهد احتفالات عيد الميلاد في أمريكا هذا العام. قال ماهر: قد أشهدها في العام القادم بعد أن أكون قد تعودت على الغربة. قال حسان لمهند مستدرجاً إياه إلى الحديث: أما مصر فهي دافئة في هذا الوقت من السنة.

قال مهند: إن شمس مصر تدفئ القلب لا الجسم فحسب. لكنني أشتاق إلى هذا الدفء البعيد عن الزحام والدخان والغازات التي تنفثها السيارات. أشتاق إلى هذا الهدوء وهذه البساطة، وإلى البيت والعائلة بالطبع.

سأل ماهر بمرح: ماذا تحبون أن تسمعوا من الموسيقى؟ لديّ تسجيلات كثيرة هنا.

لم ينتظر جواباً بل وضع في المسجل شريطاً راح يرسل أنغاماً بعيدة تماماً عن موسيقى الصباح الصاخبة، وكأنه لا يجرؤ على خدش الهدوء العذب هو الآخر.

أغمض عمر عينيه ثانية واضطجع في مقعده فسأله حسان: أتعود إلى النوم ثانية؟ ما خطبك؟

وسأله ماهر: ألم تنم ليلة أمس؟

أجاب عمر: لا.

سأله حسان: لماذا؟

أجاب عمر وهو ما يزال يغمض عينيه: كنت أحضر عرس قريب لي.

قالوا بصوت واحد وهم يتسمون: الآن عرفنا السبب.

قال عون بعد قليل: ما أجمل الأعراس!

قال ماهر: ما أجمل أن يحتفل المرء بزواجه في هذه المنطقة.

قال مهند: ما أجمل أن يحتفل المرء بزواجه بين هؤلاء الناس البسطاء

الذين مررنا بهم اليوم.

قال حسان: ستكثر الفنادق الكبرى في هذه المنطقة عما قريب، وستقام

فيها أعراس رائعة دون شك.

قال عون مستدرّكاً: أظن أن الوقت ما يزال مبكراً للتفكير في الأعراس.

ثم قال زيد لأصدقائه: سوف نسبح في البركة في ما بعد. قبل الغداء أو بعده

بحسب ما تشاءون. أما الآن فلنلعب الورق.

قال هادي: بدون رهان طبعاً.

قال زيد مؤكداً: طبعاً.

ضغط زيد الجرس وطلب من كايد إحضار ورق اللعب فذهب كايد

مسرّعاً.

قال عون: هذا الشاب الصغير على مستوى عال من حسن التصرف وحسن المظهر معًا.

قال حسان متلهفًا على إثبات صحة رأيه: ألم أقل لكم إن عمال المزارع ليسوا في حال سيئة كما تظنون.

سأل عون: وهل هو عامل؟

قال زيد: إنه طالب في المرحلة الثانوية وسيقدم لامتحان التوجيهي في العام القادم.

أضاف هادي: وهو مجتهد في دروسه.

عاد حسان يقول: لكن أباه عامل كما ترون. وهو لا يقل عن ابنه لباقة وحسن مظهر.

قال ماهر: هذا يؤيد رأيي أيضًا. العمل هو الأساس. فهذا الرجل يعمل ويتقن عمله فينهض بنفسه وبعائلته ويرتقي بمستواه من كافة النواحي.

قال مهند: لكن المزارعين الذين رأينا أطفالهم المساكين قبل قليل يعملون أيضًا.

قال ماهر: لعلمهم لا يعملون بجد كاف. فشعبنا كسول على العموم وهذا معروف عَنَّا في الغرب.

قال مهند: دع عنك الغرب وما يقوله عنا. نحن لسنا كسولين.

قال عون: إن الغربيين أشد منا كسلًا. انظر إلى فنونهم في اللهو، وانظر إلى الوقت الذي يقضونه في الحانات في وسط النهار وأثناء ساعات العمل كما سمعت.

قال ماهر: حسنًا، أولئك المزارعون الذين رأينا أطفالهم قبل قليل يعملون، لكن دون أن يخططوا لحياتهم.

قال عون: ماذا تعني؟

قال ماهر: إنهم مثلًا ينجبون عددًا كبيرًا من الأطفال.

أضاف حسان: وهم أيضًا يعددون الزوجات.

قال مهند: إن هؤلاء المزارعين لا يملكون قسطًا كافيًا من العلم والوعي، والأولى بنا أن نأخذ بيدهم بدلًا من أن نعيب عليهم.

قال ماهر: وهل نحن أخصائيون اجتماعيون يا مهند؟

قال مهند: لسنا كذلك، لكن جمعيات النهوض بالريف كثيرة وهي ترحب بالمتطوعين.

قال عمر وهو ما يزال مغمض العينين: ألا تكفون عن الجدل يا جماعة؟

قال عون: هذا ليس جدالًا يا عمر بل هو نقاش، ومن واجبنا كطلاب جامعيين أن نهتم بالأمور العامة.

قال عمر: ألا يمكنكم الاهتمام بها في يوم آخر؟

مضى عون يقول غير عابئ باعتراض عمر: العمل التطوعي فكرة جيدة.

قال هادي: الصحيح أن هذه المنطقة بحاجة إلى التنمية ففرص العمل غير متوفرة فيها بالقدر الكافي، والفقر منتشر فيها بالتأكيد.

قال مهند: الفقر بشع وهو عار على المجتمع بأسره. بل هو وصمة في

جبين الإنسانية.

قال ماهر: أراك يا مهند تتكلم بحماس زائد.

قال مهند: لقد أصبحت أرى الأشياء بشكل أوضح منذ أن بدأت دراسة الحقوق.

قال حسان: إن الفقر لا يمكن استئصاله والتاريخ يشهد على ذلك.
قال مهند: بل يجب استئصاله. فالفقر في المجتمع يفقر الأغنياء أيضًا. إن غنى الأقلية ليس غنى، والمجتمع لا يمكن أن ينعم بالاستقرار والفقر متفش فيه.

قال زيد: يمكن التخفيف من الفقر بالتأكيد.
قال مهند: إذا كنت تقصد الإحسان فالإحسان ذو أثر محدود. وهو كثيرًا ما يخدش الكرامة.

قال عون: ما رأيك يا هادي فأنت تعدّ رسالة الماجستير في الاقتصاد؟
قال هادي: من الممكن فعل الكثير للقضاء على الفقر في رأيي. الجهد الفردي أساسي لكن الناس ليسوا كلهم قادرين عليه. الجهد الجماعي ضروري بالتأكيد وهو يتمثل في التخطيط الحكومي وفي تدخل الحكومة في بعض جوانب الاقتصاد.

قال مهند: هذا رأي سليم.
وقال عون: هذا صحيح.
فتر الحديث ثانية فقال زيد مذكّرًا: هيا نلعب الورق.
قال مهند: لن ألعب، بل سأكتفي بمشاهدتكم.

طلب زيد من كايد إعداد القهوة ليشربوها أثناء لعب الورق. وعندما جاء بها كايد سأله عون: ماذا ستفعل بعد التوجيهي يا كايد؟

أجاب كايد بخجل: لا أعرف بعد.
 سأله عون: ماذا تحب ان تفعل؟
 قال كايد متردداً: أحب أن أدرس علم الكمبيوتر.
 سأله عون: وما هي المهنة التي تحب أن تمارسها؟
 أجاب كايد بنفس التردد: أحب أن أعمل في مجال الكمبيوتر.
 قال عون: أرجو أن تحقق لك الأيام أمانيك.
 قال هادي بعد أن عاد كايد إلى داخل البيت: إنه أكبر أخوته ولا شك أن
 أباه يريد أن يعمل ويساعده. لا أظن أنه يستطيع الالتحاق بالدراسة
 الجامعية.
 قال زيد: يمكن مساعدته ببعض المال، لكن ليس بمقدور أحد أن ينفق
 على دراسته في الجامعة أو حتى في كلية متوسطة.
 قال عون: ليت يحصل على منحة دراسية.
 قال هادي: لا أظن ذلك ممكناً.
 قال مهند: ها أنتم ترون أن الفرص المتاحة لكاييد محدودة رغم اجتهاده.
 قال ماهر: لكن تكافؤ الفرص مبدأ لا يتحقق كاملاً حتى في الدول
 المتقدمة.
 قال مهند وكأنه لم يسمع قول ماهر: أي أن جهده الفردي غير كاف
 لتحقيق طموحه. أما إذا أنشئت جامعة إقليمية هنا وزادت فرص العمل بناء
 على خطة حكومية دقيقة فإنه قد يستطيع الجمع بين الدراسة والعمل.
 قال هادي: هذا صحيح.

أنستهم لعبة الورق الممتعة النقاش الذي دار بينهم قبل قليل. وعندما انتهت حاول الأصدقاء الاسترخاء في مقاعدهم بينما كان كايد يأتي من وقت لآخر ليرى إن كانوا بحاجة إلى خدماته. استمر الصمت حيناً ثم قال عون: هل تذكرون الأستاذ جلال؟

قالوا معاً: طبعاً.

وأضاف حسان: وهل يمكن أن ننساه؟

عاد عون يقول: لقد رأيته قبل مدة.

سأله ماهر: أين؟

أجاب عون: في البنك.

سأله حسان: وكيف وجدته؟

أجاب عون: كما عهدناه.

ضحكوا جميعاً وراح كل منهم يروي نادرة عن الأستاذ جلال، قال حسان أخيراً: لقد كان غريب الأطوار حقاً، لكنه كان مدرساً جيداً للرياضيات.

عاد عون يقول بابتسامة خبيثة: وهل تذكرون البدوية الحسنة؟

علت الأصوات بالضحك واتجهت الأنظار إلى ماهر الذي قال كمن يدفع عن نفسه تهمة ألصقت به: لا تنظروا إليّ هكذا فأنا لم أكن المعجب الوحيد. لقد كنا جميعاً معجبين بها.

ثم مضى ماهر يقول وهو يحدج عون بنظرة ذات معنى: وهل تذكرون بستان الكرز؟

ضجّ الجميع بالضحك ثانية وقال عون: لم أكن اللص الوحيد بل كنا جميعاً شركاء في الجريمة.

قال ماهر: لكنك كنت زعيم العصابة.

قال هادي بصوته الواثق بعد أن عاد الهدوء: إن سرقة الفواكه من البساتين ظاهرة معروفة بين طلاب المدارس ويبدو أنها جزء من تلك المرحلة.

ثم سألهم زيد: هل تحبون أن تسبحوا الآن أم بعد الغداء؟

اتفقوا على الانتظار إلى ما بعد الغداء فسألهم حسان: متى تحبون أن تشاهدوا أشرطة الفيديو؟

قال عون: بعد السباحة.

وافقه الباقون. لكن حسان قال بعد برهة: يبدو أني نسيت أشرطة الفيديو في السيارة. سأذهب لإحضارها.

وقال هادي: سأذهب للإشراف على أبي كايد.

بعد قليل سمع الأصدقاء أبا كايد وهو يوجه تعليماته إلى ابنه الذي كان يُشعل النار في الحديقة الخلفية فعرفوا أن موعد الغداء قد اقترب. عاد حسان بكيس الأشرطة وهو يقول بشيء من الانزعاج: رأيت ولدين يحومان حول سيارتي فطلبت منهما الابتعاد عنها.

خرج ماهر إلى الشارع فوراً وعاد بعد دقائق وهو يقول مطمئناً: لم أر أحداً ويبدو أنهما قد ذهباً فعلاً.

قال زيد: لا يوجد مكان في حظيرة السيارات للأسف، فأمي وأبي تركا سيارتيهما هنا قبل سفرهما. وفيها أيضًا سيارتي وسيارة هادي.

قال حسان: لا بأس. سأخرج بين حين وآخر لتفقدوها.

قال عون: لا تقلق فالأولاد مغرمون بالنظر إلى السيارات عادة.

أغمض ماهر عينيه وهو يعرض وجهه للشمس وقال: هذه شمس رائعة لا مثيل لها في العالم.

قال هادي: وما أشد اختلاف هذا الطقس عن برد بريطانيا في هذا الفصل من السنة!

قال زيد: لقد بدأ كثير من أهل المدينة يشترون بيوتًا في هذه المنطقة لقضاء عطلاتهم فيها بعد أن كانوا يكتفون بزيارتها يوم الجمعة.

قال عون مندّدًا بما سمعه من قبل: أي أن أهل المدينة يأتون إلى هذه المنطقة ليخلدوا للكسل بينما هم يعيبون الكسل على أهلها.

قال حسان: إن أهل المدينة يعملون بكل جد في المدينة ويدفعون أموالهم هنا لشراء البيوت والسلع والخدمات. أي أنهم يفيدون ويستفيدون.

قال ماهر: إنهم محقون تمامًا في إقبالهم على هذا المكان.

قال مهند: خاصة أن سكانه طيبون ومسالمون.

أجابه ماهر: لست متأكدًا من ذلك يا مهند، ولا تنس أن جنة عدن نفسها لم تخل من الشر.

قبل أن يجيب مهند قال عون وكأنه يريد للنقاش أن يحتدم: إذا كان بعد هذه المنطقة عن المدينة يعدّ من مزايها فمجيء أهل المدينة إليها يعدّ من مساوئها.

قال حسان: كيف؟

قال عون: إن أهل المدينة يأتون إلى هذه المنطقة حاملين معهم طريقة حياتهم فيزيدون الضغط على مرافقها ويلوثون هواءها بسياراتهم ناهيك عن محروقاتهم الأخرى. وازدياد البيوت هنا يعني ازدياد المتاجر وربما الملاهي وبذلك تتغير المنطقة إلى الأبد.

قال حسان: إن أرض الوطن ملك لكل أبناء الوطن. أم أنك تريدنا أن نبداً في رسم حدود بين المدينة والريف يا عون؟
قال ماهر مؤكداً قول حسان: وشمسه أيضاً ملك لكل أبناء الوطن، ومن حق أهل المدينة أن ينعموا بدفئها.

ثم أضاف حسان بلهجة المستنكر: إنك يا عون تتحدث عن أهل المدينة وكأنهم وباء يهدد الريف.

قال ماهر: والحقيقة أن أهل الريف هم الذين يهددونه باستسلامهم للفقير والعجز والكسل.

قال حسان: إذا كان أهل المدينة يتعدّون على الريف بقدمهم إليه كما تقول يا عون، فإن الريف يتعدى على المدينة بإرسال أبنائه إليها دون أن يكونوا مؤهلين للعمل فيها.

قال هادي الذي عاد لتوه من الحديقة الخلفية حيث كان يشرف على أبي كايد وابنه وهما يشعلان النار: لا يمكننا الحديث عن المدينة والريف بهذه الطريقة فكل منهما يعتمد على الآخر كما نعلم جميعاً. ثم إن الريف بدأ يسير على خطى المدينة ويتخذ منها نموذجاً فيكتسب بعض خصائصها ويفقد بعض مزاياه بالتدريج.

قال مهند: للأسف..

مضى هادي يقول: والوعي الذي تخلقه التنمية سيقضي على كثير من الوداعة والقناعة اللتين عرفهما في أبناء الريف.

قال مهند: هذه صفات ذات قيمة إنسانية كبيرة، وهي أيضاً صفات تجذب أهل المدن كما تجذبنا اليوم، لكن لا مفر من التضحية بها إذا أردنا القضاء على الفقر. لا يمكننا التمسك بصفات كهذه إذا كنا سندفع الفقر ثمناً لها.

صمت الجميع أخيراً وكأنهم ملّوا الكلام. أغمض البعض عيونهم بينما بدا البعض الآخر ساهماً. فضاء عريض شفاف، هواء نقي. خضرة كثيفة في بعض المواضع، متفرقة في أخرى، عشب لامع، وبيت ناصع البياض يتألق تحت أشعة الشمس. بيوت مماثلة على جانبي الشارع، والهدوء يخيم على كل شيء. تمنى مهند أن يسبح في ذلك الفضاء مخلّفاً وراءه الزحام الذي ظن أنه تعود عليه، تمنى أن يلغي كل الأفكار، أن ينسى كل المشاغل، أن يعود إلى السكون بعد الحركة، إلى النقاء بعد ملامسة شوائب الحياة. لكن الكثير من هذا الجمال الذي يسحره اليوم سوف يتغير أو يختفي عندما تتطور المنطقة.

عاد زيد من الحديقة الخلفية بعد أن أشرف على أبي كايد وابنه وهما يشويان اللحم. خرج حسان لتفقد سيارته ثانية، وعندما عاد قال إنه لم ير إلا بضعة أولاد يلعبون الكرة في الأرض الخلاء القريبة.

قال له زيد: اطمئن فالسيارات هنا لم يلحق بها الضرر يومًا. إنها منطقة آمنة وهذه ميزة تضاف إلى ميزات الأخرى.

قال هادي: وكثيرًا ما يلعب الأولاد الكرة في الأرض الخلاء دون أن يسببوا المشاكل لأحد.

قال عون: أرأيت يا حسان؟ إن سكان هذه المنطقة أهل لثقتك.

قال حسان: لكن هذه سيارة جديدة قد تغري الأولاد بالاقتراب منها وإلحاق الضرر بها عفوًا أو عمدًا.

وقال ماهر: ثم إن الفقر قد يدفع الناس إلى إلحاق الأذى بمن هم أحسن منهم خطأً.

قال زيد: إن التجربة تثبت عكس ذلك.

قال مهند: لا أعتقد أن الفقراء ناقدون على الأغنياء بالضرورة. والفقير بحد ذاته لا يؤدي إلى السرقة بل إن الجشع هو الذي يؤدي إليها بحكم تعريفه. فالشخص الجشع لديه ما يكفيه لكنه يطمع في المزيد. ومن المعروف أن الأغنياء يسرقون أكثر مما يسرق الفقراء.

أخيرًا جاء أبو كايد يدعوهم إلى تناول طعام الغداء فتوجهوا إلى الحديقة الخلفية. أخبر زيد أبا كايد بأمر الولدين اللذين شوهدا وهما يحومان حول سيارة حسان وطلب منه مراقبتها أثناء تناولهم الطعام، ثم أضاف: إياك ان

يلحق بالسيارة أي ضرر فصاحبها ضيفنا، وهي أيضًا سيارة جديدة غالية الثمن كما ترى.

طمأنه أبو كايد، وخرج إلى حيث تقف السيارة عند بوابة الحديقة، وبعد قليل لحق به ابنه.

كانت الحديقة الخلفية محاطة بأشجار كثيفة تحجب ما وراءها، وفي الطرف البعيد منها كانت أسراب العصافير تتنقل بين الأغصان العالية وهي تغرد كأنها جوقة ترحب بالضيوف. وعلى طول السور الجانبي للحديقة امتدت أشجار البرتقال بخضرتها اللامعة التي تحتضن شمسها الصغيرة المتزاحمة التي لا تُعدّ. التقط ماهر صورًا عديدة لأشجار البرتقال فقال له زيد: سوف يقطف لكم أبو كايد البرتقال بعد الغداء.

أما في الزاوية القريبة من الحديقة فقد نصبت أرجوحتان كبيرتان ما لبث عمر أن توجه إلى إحداهما وجلس عليها بسرور واضح، فقال له حسان: إياك أن تنام على الأرجوحة وإلا فاتك الغداء.

ضحك الأصدقاء وقال ماهر بعد برهة: لا أصدق أني أسمع كل هذا التغريد في منتصف الشتاء.

فقال له عون: إنك تبدو مأخوذًا بكل ما تراه وتسمعه اليوم. لا شك أنك اشتقت لبلدك كثيرًا.

قال ماهر: الحقيقة أني شعرت بحنين جارف لبلدي في الأشهر القليلة الماضية.

سأله عون: هل أنت نادم على ذهابك إلى أمريكا؟

أجاب ماهر: لست نادماً بالطبع، لكن هذه هي المرة الأولى التي أغيب فيها عن بلدي بضعة أشهر متصلة.

قال حسان: إن أمريكا بلاد جميلة ولا يمكن للمرء أن يندم على زيارتها أو الدراسة فيها.

قال ماهر: هذا صحيح.

نهض عمر عن الأرجوحة فجأة وكأنه أفلح أخيراً في مغالبة نعاسه، ثم قال: ما أجمل صيد العصافير يا جماعة.

قال مهند: أتعني أنك تتمنى قتل بعض تلك العصافير التي تبهجننا بتغريدها؟

قال حسان: لقد سكّت عمر دهرًا ثم نطق كفرًا.

قال عون: لماذا لا تعود إلى النوم يا عمر؟

قال عمر محاولاً تبرير رغبته: إننا كثيرًا ما نصيد العصافير في مزرعة جدي.

قال مهند: من حسن الحظ أنك لن تستطيع صيد أيٍّ من هذه المخلوقات المسكينة اليوم.

قال ماهر: لكنّ لكل مخلوق حي صيادًا.

قال مهند: هذا صحيح في نهاية المطاف، لكن لكل مخلوق الحق أولاً في أن ينهل من معين الحياة ما وسعه النهل وأن يبذل منه ما وسعه البذل؛ تمامًا كهذه العصافير التي تغترف من الحياة بهجتها ثم تصبّها في أسماعنا. كيف نغتالها وهي في قمة عطائها؟

قال عون: صدقت يا مهند.

جلس الأصدقاء حول مائدة الطعام وسط الحديقة الخلفية. راح مهند يتأمل العشب الزاهي الذي يكسو أرضها وعلى وجهه الذي لوّحته الشمس نظرة حاملة، ثم تمت: سيعشب العراق بالمطر.

سأله حسان: ماذا تقول يا مهند؟

عاد مهند يقول وعلى وجهه نفس النظرة: سيعشب العراق بالمطر.

قال ماهر: لقد سمعت هذه الجملة من قبل.

قال عون: طبعًا. إنها من قصيدة المطر للشاعر العراقي السياب.

قال ماهر: هذا صحيح. إنها قصيدة مشهورة.

سأله حسان: ما الذي ذكّرك بها اليوم؟

قال مهند: إني أذكرها دائمًا فهي وعد بحياة جديدة تتحقق فيها الآمال.

قال حسان كمن يريد إنهاء الموضوع: أرجو أن يصدق الوعد.

وقال عون: وفق الله المصلحين.

سأل ماهر بعد برهة: هل تكتب الشعر يا مهند؟

أجاب مهند: لا لكنني أحب قراءته.

أقبل الجميع على الطعام بشهية كبيرة، وقال ماهر بلهجة المبهور ثانية: إن طعامنا ألد طعام حقًا.

سأل حسان: أهذا كله من إعداد أبي كايد؟

قال زيد: نعم، فقد كان طبّاخًا في الجيش قبل أن يتقاعد منذ سنوات قليلة.

سأل مهند: وما هي واجباته الأخرى؟

أجاب زيد: إنه يتفقد البيت من وقت لآخر ويشرف على المزرعة الملحقة به وعلى الحديقة.

أضاف هادي: وهو أيضًا يشتري كل لوازم البيت.

قال مهند: لا شك أنه رجل قدير. وأين يسكن؟

أجاب زيد: في قريته القريبة مع عائلته.

عاد مهند يسأل: وهل يأتي إلى هنا كل يوم؟

أجاب زيد: لا إنه يقضي معنا ثلاثة أيام أو أربعة في الأسبوع.

ملاً الأصدقاء صحوهم بالطعام مرة بعد أخرى، وقال ماهر: ما ألد هذا

اللحم!

فقال زيد: لقد اشتراه أبو كايد من إحدى المزارع القريبة.

وقال هادي وهو يشير إلى مكان خلف الأشجار: وكل هذه الخضار

جلبت من المزرعة الملحقة بالبيت.

قال ماهر: رائع.

قال عون: هذه الحديقة لا تقل جمالاً عن تلك التي كنا نجلس فيها.

قال ماهر: إن المنطقة كلها أشبه بالجنة.

قال مهند: لكنها جنة محاطة بحزام من الفقر للأسف.

لم يعلق أحد من الأصدقاء على قول مهند؛ فقد رأوا أبا كايد يعود إلى

الحديقة الخلفية مسرعاً وهو يتلفت باحثاً عن شيء فيها. وعندما سأله زيد

عمَّ يبحث أجاب وهو يتوجه إلى ما وراء منصة الشواء في الزاوية البعيدة من

الحديقة: لا شيء.

بعد دقائق أخرج أبو كايد عصا طويلة غليظة وأسرع بها إلى الشارع فسأله زيد: لمّ العصا يا أبا كايد؟

أجاب أبو كايد: إنها للاحتياط فقط.

سأله حسان بقلق: هل عاد ولدان؟

قال أبو كايد: حاول ولدان الاقتراب من السيارة فمنعتهما، وهما الآن يلعبان مع بقية الأولاد في الأرض الخلاء.

عاد حسان يسأله: هل آتي معك؟

قال أبو كايد مؤكداً: لا ضرورة لذلك أبداً فكايد معي. سأطلب منهما الابتعاد بالحسنى ثم أهددهما بهذه العصا إذا لم يفعلا. مجرد تهديد طبعاً فأنا لا يمكن أن أؤذيهما.

قال عون: أرى أن هذه السيارة تسبب لك المشاكل يا حسان.

قال حسان: أمرها هين في المدينة لأنني أحفظها في حظيرة السيارات دائماً. قبل أن ينتهي الأصدقاء من الأكل سمعوا صياح أبي كايد رغم المسافة التي تفصل الحديقة الخلفية عن بوابة الحديقة الأمامية. أسرع حسان وزيد وهادي ومهند إلى البوابة وتبعهم الباقيون. قبل أن يصلوا إليها سمعوا أبا كايد يصيح ثانية: طلبت منكما الابتعاد عن هذا المكان أكثر من مرة. هيا فاذهبا. اذهبا حالاً.

وسمعوا ولداً يقول: إننا لا نفعل شيئاً نلام عليه.

ثم سمعوا آخر يقول: ما الضرر في النظر إلى السيارة؟ إننا دائماً ننظر إلى السيارات.

خرج زيد وحسان إلى الشارع أولاً فرأيا ولدين في حوالي الثالثة عشرة من العمر يجمع بينهما شبه كبير وكأنهما توأمان. نفس الطول ونفس لون البشرة والشعر. ملابسهما متشابهة أيضًا، ألوانها بعيدة عن الانسجام وطبقة من الغبار تغطيها في بعض المواضع، كما تتخلل شعرهما الأسود ذا التموجات الخفيفة. أما عيونهما فكان يبدو فيها مزيج من الوجل والثقة. قال أحدهما لزيد وحسان: إننا لم نمسّ السيارة البتة.

همّ الثاني بأن يقول شيئًا فرفع أبو كايد عصاه الغليظة مهددًا وعندئذ قال زيد مشفقًا: سيذهبان حالًا يا أبا كايد. هيا فاذهبا.

لكن أحد الولدين قال غاضبًا: لا ترفع العصا في وجهينا فنحن لم نفعل شيئًا.

لوح أبو كايد بالعصا ثانية وهو يصيح: قلت لكما اذهبا من هنا حالًا. قال الولد الآخر مستكبرًا: لا يحق لك أن تهددنا بالعصا فنحن لا نريد بالسيارة شرًا.

ثم قال مخاطبًا كايد: هل رأيتنا نمسّ السيارة؟ قل أنت. لكن كايد ظل صامتًا وهو يتوارى خلف أبيه خوفًا من ذلك الموقف الذي وجد نفسه فيه فجأة.

هجم أبو كايد إلى الأمام بالعصا فأسرع أحد الولدين وأمسك بها خشية أن تهوي على رأسه أو رأس رفيقه. أمسك الولد الآخر بالعصا بدوره وقبض الاثنان عليها بشدة.

صاح أبو كايد: أفلتا العصا حالًا. أفلتا العصا.

قال لهما هادي بحزم: أفلتا العصا واذها.
 قال أحد الولدين والخوف بادٍ عليه: لكنه سيضربنا بها بمجرد أن نفلتها.
 قال زيد: لن يضربكما أحد، هيّا فاذهبا.
 وعاد الآخر يقول غاضباً: بأي حق يهددنا بالعصا؟ إننا لم نرتكب أي خطأ.

ظل الولدان يقبضان على العصا بشدة بينما كان أبو كايد يحاول أن يخلصها منهما. نفذ صبر أبي كايد فراح يجذب العصا من قبضتي الولدين بعنف نجح معه في انتزاعها، لكنه فقد توازنه جراء حركته تلك فراجع بضع خطوات عندئذ ارتدت العصا إلى الخلف وهوت على رأس كايد الذي سقط على الأرض فوراً. شفق الأصدقاء، وقبل أن يدرك أبو كايد ما حدث اندفع إلى الأمام محاولاً استعادة توازنه فارتدت العصا في الاتجاه المعاكس وأصاب أحد الولدين في جانب وجهه قرب رقبته. صرخ الولد ورفع يده إلى مكان الضربة فتلطخت بالدم الذي راح يسيل على ثيابه ثم على الأرض. لم يتب الأصدقاء لصراخه في البداية وهم يحيطون بكaid المطروح أرضاً. هبط أبو كايد على الأرض في هلع وراح يهزّ ابنه ويخاطبه دون أن يبدو على الابن أي رد فعل. رفع أبو كايد رأسه وقد أظلم وجهه فقال له زيد: لا تخف يا أبا كايد. سنأخذه إلى الطبيب فوراً. اذهب فأحضر سيارتك.

ذهب أبو كايد ليحضر سيارته من موضع آخر في الشارع وهو يترنح في مشيته. في هذه الأثناء ابتعد الولدان قليلاً بينما كان الجريح يبكي والآخر يحاول إيقاف التزيف بمنديل كان في جيبه. أسرع مهند وراح يضغط على

مكان الجرح لإيقاف النزيف وأسرع زيد إلى داخل البيت فأحضر حقيبة الإسعاف بينما ظل هادي يقف إلى جانب كايد. بذل مهند جهداً كبيراً لإيقاف النزيف، لكن الدم عاد يسيل بغزارة بمجرد أن توقف عن الضغط عليه، وعندئذ قال زيد للولد الجريح: تعال معنا إلى الطبيب لكي يداوي جرحك.

فقال الولد وهو ما يزال يبكي: لا أريد الذهاب إلى الطبيب.
قال الولد الآخر في قلق: سأصاحبه إلى البيت عندما يتوقف النزيف.
طلب منه مهند أن يضغط على الجرح وأعطاه زيد ضماداً فقال الولد الجريح: لماذا يضربني؟ ماذا فعلت؟
قال له زيد: إنه لم يتعمد ضربك.
فقال الولد الآخر: لكنه كان يرفع العصا في وجهينا.
قال مهند لزيد بصوت خافت: ليت أبا كايد تريث ولم يفعل ما فعل، فهذان الولدان لم يرتكبا ما يعاقبان عليه في الحقيقة.
لم يجب زيد لكنه بدا مهموماً.
عاد أبو كايد بسيارته ودموعه تسيل على وجهه فقال له هادي: لا تحزن يا أبا كايد فالطبيب سينقذه إن شاء الله.

وقال له زيد: لا تخف يا أبا كايد وتوكل على الله.
قال أبو كايد بصوت مرتجف: أخشى أن يكون قد أصيب في دماغه.
قال مهند: أرجو أن يكون الأمر أهون مما تخشاه بكثير.

قال هادي لأبي كايد: سأقود السيارة بدلاً منك. احمل كايد أنت ومهند وزيد إلى المقعد الخلفي ثم اجلس معه أنت ومهند، وسيجلس زيد إلى جانبي ليدلني على منزل الطبيب.

تهداً هادي لقيادة السيارة، وقبل أن يتحرك نظر إلى الولدين فرآهما يمشيان ببطء إلى آخر الشارع وفي أعقابهما خط متصل من الدم. تحركت سيارة أبي كايد بركابها الخمسة أخيراً بينما كان بقية الأصدقاء يقفون صامتين قرب سيارة حسان الجديدة.

عاصفة رملية

رحّب أبو عوني بالصباح كعادته. وقف بالنافذة مستعرضاً المنظر أمامه: الفضاء الفسيح، الخضرة اليانعة، النباتات الزاهية المصفوفة بعناية على حافة الشرفة. كان يحرص على تلك اللحظات الهادئة التي تسبق كل ما قد يتمخض عنه النهار، وكان يدع سكينتها تنفذ إلى أعماقه. خرج إلى الشرفة ليستششق هواء الصباح كما اعتاد منذ بدء الربيع، فرأى أن زرقة السماء الصافية التي أمتعته النظر إليها بالأمس قد غشيها لون أبيض مائل إلى الرمادي، وأن الضوء الشفاف الذي كان ينهمر في الفضاء بالأمس قد شابه شيء من الغيش. يبدو أن دائرة الأرصاد الجوية قد صدقت. وهي كثيراً ما تصدق.

تناول أبو عوني طعام الإفطار وهو يشاهد التلفزيون، ثم صنع لنفسه فنجاناً من القهوة. بعد استراحة قصيرة نظّف الأدوات التي استعملها وربّتها ثم بدأ يتصفح الجريدة. نفس الأخبار تقريباً يومًا بعد يوم، وهي نفسها أخبار التلفزيون. طالع صفحة الوفيات ونظر إلى الصور المختلفة وإلى الكاريكاتير، ثم راح يحل لغز الكلمات المتقاطعة. بعد الغداء عدّل أبو عوني عن فكرة التنزه في الحديقة القريبة وعاد إلى كتاب كان يقرؤه عن الحرب العالمية الثانية. خبا الضوء الطبيعي قليلاً فوقف بالنافذة محاولاً أن يستمد بعض البهجة من نباتات الشرفة. كانت تلك الطبقة الشاحبة التي رآها في الصباح تنتشر في الفضاء. عاصفة رملية. هذا ما كانت دائرة الأرصاد الجوية قد تنبأت به، وها هي بوادرها قد ظهرت. لا جديد في ذلك، فالعواصف الرملية تتكرر كل ربيع، وهي تشمل

مناطق واسعة مجاورة وتكون في بعضها شديدة أحياناً، لكنها لا تدوم أكثر من أيام معدودة طيلة فصل الربيع. إنها الوجه الآخر لهذا الفصل الذي يسعد الناس بدفئه وإشراقه وعطره بعد الشتاء البارد الطويل. فهذا الوليد الجميل لا بد أن يرافق مولده شيء من التغيير وربما من الفوضى كما هي الحال في أي ميلاد. وفي المساء قالت النشرة الجوية: أما يوم غد فيستمر الطقس مغبراً لكن ينتظر أن ينجلي الغبار في المساء، وتكون درجات الحرارة حول معدلها السنوي.

إذن فالغد سيكون أشبه باليوم. وبالفعل لم يلحظ أبو عوني أي اختلاف في الطقس عندما وقف بالنافذة في صباح اليوم التالي. رأى أشعة الشمس تملأ الفضاء الربح، وأيقن أن تلك الأشعة الفتية لن تلبث أن تذيب تلك الغلالة الرقيقة التي تغطي صفحة السماء فيعود للربيع زهاؤه. خرج إلى الشرفة ليروي النباتات فرأى طبقة خفيفة من الغبار تكسو أوراقها، وطبقة أخرى من ذرات الرمل تغطي قسمًا من أرض الشرفة وحافتها. لكن عاملة النظافة ستأتي بعد أيام قليلة فتزيل كل أثر للرمل والغبار. تناول أبو عوني طعام الإفطار ثم تفقد الحاجة فاطمأن لوجود طعام يكفيه ثلاثة أيام أو أربعة، ناهيك عن الأطعمة المجمدة التي أعدتها له ابنته قبل سفرها. رتب أثاث غرفة الجلوس قليلاً، ثم صنع لنفسه فنجان القهوة المعتاد وجلس ينتظر المكالمات الهاتفية التي اعتاد تلقيها صباح كل يوم جمعة، ولم يطل انتظاره.

أهلاً يا عوني.

....

كيف حالك؟ وكيف حال الأولاد؟

....

أنا بخير والحمد لله.

...

كل شيء هنا على ما يرام. كل شيء هنا كالمعتاد.

....

اطمئن فأنا بخير تام، والحمد لله.

مع تقدم النهار شمّ أبو عوني رائحة الغبار في الجو فانتابه سعال طويل. لم تحمل نشرة منتصف النهار أخبارًا جديدة. تنقل بين محطات تلفزيونية عديدة فوجدتها تبث نفس الأخبار تقريبًا، وكأنها نشرة واحدة استمدت من مصدر واحد. وحتى صياغة الأخبار كادت تكون متماثلة. كان القتال الدائر في البلد المجاور هو المحور الذي تدور حوله كل نشرات الأخبار. قتال داخلي شرس؛ قصف وتدمير وقتل وتشريد. نازحون ولاجئون، نساء ذاهلات، نساء باقيات، نساء غاضبات، أطفال مذعورون لم يفلح الذعر ولا الشعر المشعث في إخفاء وسامتهم. شيوخ يترنحون في مشيهم. كلهم يغادرون ديارهم. كلهم يمشون نحو مصير مجهول حاملين أكياسهم وأحمالهم الصغيرة وحولهم خضرة الربيع وهي أشد ما تكون زهاء. شعر أبو عوني بضيق في التنفس فتناول الدواء الذي وصفه له الطبيب. لا يدري أحد متى ينتهي هذا القتال الذي بدأ قبل سنتين، ولا يستبعد أن يمتد إلى بلدان أخرى فتزداد قوافل المشردين عددًا. أخيرًا قام فتوَّضًا وقرأ سورًا من القرآن كعادته صباح يوم الجمعة. ثم غير ملابسه استعدادًا للذهاب لأداء صلاة الجمعة. رأى جاره الذي يسكن في

الطابق الأرضي من نفس العمارة وهو في مثل سنّه. كان متوجّهاً إلى المسجد هو الآخر فمشياً معاً ببطء.

لم يتخلف خطيب الجمعة عن نشرات الأخبار في التلفزيون، فأسهب في الحديث عن القتال الذي يعصف بذلك البلد متفجعاً على سفك الدماء والتمزق والانحيار. ثم انتقل بكل سلاسة إلى موضوع الاستقرار فذكر الجميع بهذه النعمة طالباً من الجميع الحفاظ عليها. ولم ينس في النهاية ان يحذّر الجميع من العنف وخطورته. استند الخطيب في كلامه إلى الدين والتاريخ واستشهد بعدد من الحوادث والمواقف والأقوال. وافقه أبو عوني على كل ما قال إذ لا خلاف على أهمية الاستقرار. لكن كيف يمكن الاستمتاع بنعمة الاستقرار حق الاستمتاع وذلك القتال المروّع يدور على مقربة؟ وكيف يحافظ أي مجتمع على الاستقرار؟

قال الجار في طريق العودة: لقد أحسن الخطيب بذكر الاستقرار في خطبته.

قال أبو عوني: نعم دون شك، لكن كيف نضمن دوام الاستقرار؟

أجاب الجار: الأمر بسيط؛ بتجنب كل ما قد يهدده.

لم يشأ أبو عوني أن يجادل جاره، لكنه كان يرى أن الاستقرار معنى إيجابي يتحقق بالإنجاز لا بمجرد الامتناع، فهو أشبه بالنبتة التي لا بد من إعداد التربة المناسبة لها قبل تعهدها بالعناية اللازمة الدائمة. هبّت ريح خفيفة أثارت زوبعة من الغبار تصاعدت في الفضاء وقضت على المزيد من إشراقة الصباح، فقال الجار: إنها الصحراء تغزونا.

أجاب أبو عوني وهو يشعر بذرات من الرمل تستقر على زجاج نظارته ثم على أذنيه وجبهته فتسبب له وخزاً يثير أعصابه: فعلاً. هذا الغبار يغزونا كل ربيع، وهو يذكرنا بقرب الصحراء ووجودها الدائم.

قال جاره: لشدّ ما أخشى الصحراء!

قال أبو عوني: يرى البعض أن للصحراء جمالها، لكنها في الحقيقة تحاول خنق مظاهر الحياة في المدينة منذ الأزل. لا شك أنها تنطوي على الخطر رغم كل ما يبدو من هدوئها وركودها.

ثم أضاف: لكن لا مهرب من الجغرافيا.

توجّه أبو عوني إلى نادي المتقاعدين كعادته عصر يوم الجمعة، فالطقس الذي لا يبعث كثيراً على الانشراح لا ينبغي أن يغير نمط حياته. رأى عددًا من الأعضاء يجلسون في ركن فانضم إليهم. كانوا يتحدثون عن النشاطات التي يرغب الأعضاء في تنظيمها في الأشهر الثلاثة المقبلة، مثل المعارض الفنية والبرامج الموسيقية والمحاضرات والقراءات الشعرية. اتفقوا على برنامج مبدئي لها ووضعوا قائمة بأسماء الأشخاص الذين سيطلب منهم تنفيذ البرنامج. اقترح أحد الأعضاء جمع بعض التبرعات العينية لإحدى جماعات اللاجئين، فرحب الجميع بالفكرة معبرين عن تعاطفهم البالغ مع أولئك الناس في محتهم. وتساءل أحدهم: متى يعودون إلى ديارهم يا ترى؟

فقال آخر: لا يبدو لذلك القتال نهاية مع الأسف.

ردد أبو عوني: مع الأسف.

فقال أحد الأعضاء وهو رسام كان ذا شهرة في الماضي: قد يطول القتال لكن الخلاص أكيد.

قال أبو عوني: ماذا تعني بالخلاص؟

قال الرسام: أعني الوصول إلى بر الأمان، تحقيق الأهداف التي بدأ القتال من أجلها.

قال أبو عوني: لشدّ ما أتمنى ذلك!

قال الرسام: إن ما نراه ليس إلا مخاضاً مؤلماً تعقبه حياة جديدة؛ فالالتئام لا بد أن يسبقه التمزق.

قال أحد الأعضاء: ربما.

قال أبو عوني: وربما كان ما نراه جولة جديدة من القتل والتدمير لا غير.

قال الرسام: لقد تمكّنت البشرية من البقاء رغم الصراع.

فقال أبو عوني: لا يكفي مجرد البقاء، بل لا بد من تحقيق الحياة الكريمة للجميع.

قال الرسام: لكن الصراع لم يحل دون تقدم البشرية، التقدم حقيقة ماثلة للعيان.

قال أبو عوني: التقدم الحقيقي هو ذاك الذي يحقق أشياء من أهمها تسوية الصراعات دون سفك دماء.

قال الرسام: كثيرًا ما يكون الصراع وسيلة لحل المشاكل.

قال أبو عوني: وكثيرًا ما يكون بداية للتفكك والانحيار.

قال الرسام: إن الصراع يدور بين البشر منذ الأزل كما نعلم.

فقال أبو عوني: لماذا ننظر إلى الماضي؟ ألم يكفِ البشر ما حفل به الماضي من صراعات؟

قال الرسام: إني متفائل بنتيجة الصراع الدائر حالياً، رغم كل ما ينطوي عليه من بشاعة وقسوة.

قال أبو عوني: أما أنا فلا أرى بصيص أمل في هذه العتمة.

بعد العشاء عاد أبو عوني إلى التلفزيون متجنباً نشرات الأخبار. راح يتنقل بين القنوات حتى استقر عند واحدة تعرض الأفلام القديمة التي استمتع بمشاهدة الكثير منها في صباه وغيره من الناس. أما بعد أن كبر فقد أدرك سذاجة الكثير مما كان يشاهد وبعده عن الإتقان الفني. شعر أبو عوني بالحرج وهو يتوقف عند تلك القناة بعد مشاهدة المناظر الفاجعة التي حفلت بها نشرات الأخبار، شعر بالخجل لكنه رأى في الفيلم المعروف وجوهاً معروفة وأماكن تثير في القلب الحنين. تابعه فوجد نفسه في عالم من الأكاذيب والألاعيب، عالم يتجاهل العقل فلا يسمح للأحداث بالتسلسل المنطقي، عالم تُموّه فيه الحقيقة التي تغذي الروح وتحررها رغم قسوتها أحياناً. كان الفيلم بهذا المعنى نوعاً من الفوضى، من التلوّث. كان يبداء أخرى تنفث سموماً. تحول أبو عوني عن الفيلم قبل نهايته وأطفأ جهاز التلفزيون. في المساء ظهر في الفضاء لون أحمر اختلط بالألوان الغروب ثم راح يتمدد. إنها الصحراء تغزو المدينة كما قال جاره. حان وقت النشرة الجوية المسائية فاستمع إليها بلهفة: تستمر العاصفة الرملية الليلة وغداً، لكن يُتَظَر أن تبدأ في الانحسار مساء الغد. تبقى درجات الحرارة عند معدلها السنوي..

لم يستطع أبو عوني مقاومة الأخبار طويلاً رغم ما في متابعتها من جهد نفسي. كان التلفزيون في ذلك المساء يمضي كعادته في رسم صورة للعالم القريب يحيط بها السواد ويسيل على جوانبها الدم. والأدهى من ذلك أنها صورة يصعب تبيين عناصرها بوضوح أو تفسيرها بدقة. كانت صورة لا تثير الأسى فحسب، بل الحيرة أيضاً رغم برامج التلفزيون التحليلية التي يشاهدها أبو عوني في المساء. بدت له الجهود المتعثرة التي تبذل لوقف القتال مظهرًا آخر من مظاهر العجز والاضطراب على كل مستوى. ولم يملك أبو عوني إلا أن يتذكر تلك الشعارات الرنانة التي انتشى هو وأصدقاؤه بترديدها قبل عقود: الحرية، السلم الاجتماعي، الحياة الكريمة. من الصحيح أنها ظلت مجرد شعارات دون أن تثمر شيئاً على أرض الواقع، لكنها لا يمكن أن تكون أوهاماً. إنها مُثُلٌ عليا تعيش في ضمائر البشر منذ القدم، وسيظل التطلع إليها جزءاً من طبيعتهم، وسيظل العمل من أجلها هدفاً من أهدافهم. نهض أبو عوني فأطفأ التلفزيون وأوى إلى فراشه مبكراً.

في الصباح فوجئ أبو عوني بعجزه عن رؤية نباتات الشرفة بجلاء، بل إن المنظر المعتاد من النافذة كان كله غائماً. فقد انسدل أمامه ستار رمادي، وكانت الحمرة التي رآها بالأمس في الفضاء ما تزال تتخلله لكن بدرجة أخف. عجب أبو عوني لرؤية الغبار يتكاثر على ذلك النحو. انتظر النشرة الجوية الصباحية التي اكتفت بتكرار نشرة الليلة الماضية التي تنبأت بانجلاء الغبار في المساء. جاء حارس العمارة يسأله عما يريد شراؤه من طعام وشراب فأخبره أبو عوني أنه لا حاجة به لشيء. لكن الحارس قال وهو يشير بيده إشارة غامضة إلى

الخارج إن من الأسلم التزود بطعام وشراب كافيين في ذلك الطقس، فطلب أبو عوني بعض الخبز والماء.

في ذلك الصباح بثّ التلفزيون بعض الصور للقتال الدائر في البلد المجاور مع اعتذار عن عدم بث بعضها الآخر لقسوته. عشرات الجثث المبعثرة على الأرض لأشخاص أعدموا دون محاكمة. عشرات أخرى من الجثث لفظتها الأنهار ولا تُعرف هوية أصحابها. تمنى أبو عوني لو أنه يستطيع تجنب ذلك العرض الدقيق المتكرر لما يجري في الحرب، فقد خاضت البشرية حروباً لا تعدّ ولا تحصى منذ فجر التاريخ دون أن تشاهدها إلا فئة محدودة من الناس. لكن لا بد من الاطلاع على الحقيقة مهما بلغت مرارتها. والعجيب أن ذلك القتال لا يحقق أي نتائج حاسمة، بل هو كرّ وفرّ مستمران، وكأنّ الكرّ والفرّ هدفان في حد ذاتهما. أطفأ أبو عوني الجهاز ولاذ بالجريدة يقرأ عناوينها. حلّ لغز الكلمات المتقاطعة ثم عكف على القراءة، فقد كان بعد تقاعده حريصاً على تعويض ما فاتته من قراءات أثناء سنوات العمل، لذا عاد إلى موضوعات طالما شعر بأهميتها مثل: السياسة والتاريخ والأدب والتراجم.

عندما اقترب موعد الغداء كان الغبار قد ازداد كثافة، لكن قطرات من المطر بدأت تتساقط بعد الظهر. وما لبثت تلك القطرات أن تسارعت حتى أضحت مطراً غزيراً. طرب أبو عوني لصوت المطر ومنظره وهو يرتطم بزجاج النافذة، فقد كان بحكم نشأته الريفية يعتبر المطر من أعظم هبات الطبيعة. وقد علمته تلك النشأة مراقبة الأحوال الجوية، كما علمته حب الطبيعة بكل مظاهرها رغم ما فيها من قسوة وفوضى أحياناً. هطل المطر طويلاً عصر ذلك اليوم فاستسلم

أبو عوني للطمأنينة التي يبعثها في القلب. كان يعرف أيضًا أن ذلك المطر سيضع
نهاية للعاصفة الرملية نفسها. توقف المطر أخيرًا مخلفًا البلب على السطوح
المختلفة. اختفت غلالة الغبار أو كادت قبيل الغروب، وبدت السماء الزرقاء
الفاتحة أقرب إلى الصفاء. استيقظ في صباح اليوم التالي على صوت جرس
الهاتف:

أهلاً يا عناية.

.....

أنا بخير والحمد لله.

...

نعم. اطمئني. أنا بخير.

.....

كيف حالك؟ وكيف حال الأولاد؟

....

أؤكد لك أنني بخير. اطمئني.

....

لقد بدأ الطقس في التحسن. وكيف الطقس عندكم؟

.....

كل شيء هنا على ما يرام والحمد لله.

شعر أبو عوني بالقلق في كلام ابنته، ولم يفته أنها تكلمت قبل الموعد
المعتاد. لكن لم يكن لقلقه مبرر في رأيه. لاحظ بعد المكالمات الهاتفية أن تلك

الغلالة عادت إلى الظهور وأنها بدأت تغطي صفحة السماء التي بدت أقرب إلى الصفاء مساء أمس. أما النشرة الجوية الصباحية فقد تحدثت عن غبار خفيف لن يلبث أن ينجلي مع تقدم النهار. لا داعي للشك في النشرة الجوية بعد ما كان من صدق نبوءتها بالأمس، وليست الغلالة الخفيفة التي يشاهدها الآن إلا بقايا تلك العاصفة الرملية.

كانت آثار الوحل ما تزال ظاهرة على الأرض عندما خرج أبو عوني من شقته، لكنه انتعش لرؤية الحديقة القريبة بخضرتها وزهورها. تمشى في الحديقة طويلاً مستمتعاً بكل ما فيها. فقد علّمته مهنته مهندساً زراعياً حب النباتات وكل مظاهر الحياة على اختلافها، لكنها بينت له أيضاً هشاشة الحياة وضرورة تعهدها بعناية فائقة. وكان الأمل من بين ما تعلّمه أبو عوني في مهنته، لكنه أمل أخذ يذبل في السنوات الأخيرة تحت وطأة صروف الحياة. عندما عاد أبو عوني من نزهته استلقى على أريكته ونام قليلاً، وعندما استيقظ رأى السماء مكفّهة. لم يرغب في سماع النشرة الجوية في ذلك المساء لملله منها، لكنه تابع نشرة الأخبار التي حفلت بالإحصائيات عن البلد المجاور: أكثر من مائة ألف قتل من بينهم آلاف من الأطفال والنساء والشيوخ، مئات الآلاف من الجرحى والمصابين، ملايين من النازحين وملايين أخرى من اللاجئين، عشرات الآلاف من المعتقلين من الجنسين قضى الكثيرون منهم تحت التعذيب، آلاف المفقودين، مئات الأماكن التاريخية تهدّمت، عشرات الألوف من البيوت أصبحت أنقاضاً بعد أن احتضنت الحياة طويلاً، وها هم أصحابها يعيشون في العراء ويأكلون العشب وأوراق الشجر، بينما يعيش آخرون في

الكهوف بعد أن ظنوا أنهم هجروها إلى الأبد. راحت الكاميرا تعرض صور البيوت المهدمة ببطء ثم تعود إليها بإصرار. أطفأ أبو عوني التلفزيون وعاد إلى الكتاب لكنه لم يستطع القراءة فأوى إلى فراشه.

استيقظ في وقت متأخر من صباح اليوم التالي فرأى عمودًا كثيفًا من الغبار يرتفع في الفضاء، غير أن النشرة الجوية لم تزد على القول: «عاصفة رملية تهب على البلاد لكن يتظر أن تنحسر بعد يومين». في نهاية النشرة طلب المذيع من المواطنين التزام الحذر تجنبًا للحوادث الناجمة عن صعوبة الرؤية، وذكرهم بضرورة الاتصال بالدفاع المدني عند الضرورة. أخيرًا عرض أرقام الطوارئ على الشاشة فكتبها أبو عوني على ورقة ووضعها أمامه. جاء حارس العمارة يسأله عما يريد من طعام وشراب ولوازم أخرى، فطلب منه بعض الفاكهة والخبز والماء. وعندما عاد الحارس قال إنه لم يستطع العثور على كل ما طلبه أبو عوني بسبب التهافت على المواد الغذائية الأساسية. كان كل ما استطاع شراؤه بضع تفاحات وأربعة أرغفة من الخبز وأربع زجاجات من الماء. نام أبو عوني قليلًا بعد الغداء، وعندما استيقظ رأى الغبار يتكاثر ووجد الرؤية تزداد صعوبة. أخيرًا امتدَّ عمود الغبار حتى احتلَّ الفضاء. كانت عاملة النظافة قد تخلّفت عن الحضور في صباح ذلك اليوم، فمسح أبو عوني الغبار عن أثاث غرفة الجلوس بشيء من الدقة لأن الغبار يسبب له ضيقًا في التنفس، ويذكره بالتلوث والإهمال والكسل. ربما استطاعت العاملة المجيء بعد يوم أو يومين، وربما استطاع الحارس القيام ببعض أعمالها إذا لم تستطع.

تلقي أبو عوني في صباح ذلك اليوم مكالمة هاتفية من أبي فتحي سائق الشركة التي كان يعمل فيها قبل تقاعده. اعتاد هذا الرجل أن يكلمه بين حين وآخر ليستفسر عن أحواله ويسأله عن احتياجاته. كان يشتري له الأدوية ويسدد عنه بعض الفواتير ويستخرج له بعض الوثائق ويزوره في المناسبات ويرافقه في زيارته للطبيب. أخبره أبو عوني أنه لا يحتاج شيئاً في ذلك اليوم، لكنه لا يدري ما سيجد في الغد، فوعده أبو فتحي بزيارته بمجرد أن يتحسن الطقس. في المساء تلقي مكالمة هاتفية من ابنه يطمئن فيها على أحواله، فأخبره أن لديه ما يكفيه من الطعام والشراب حالياً، وأنه سيطلب المزيد بمجرد أن يتحسن الطقس. أكد لابنه أن لديه كمية كافية من الأدوية وأنه لا يواجه أي صعوبة داخل البيت، كما أنه لا يحتاج للخروج منه لأي سبب من الأسباب. قال ابنه إنهم يشهدون طقساً مشابهاً في البلد الذي يقيم فيه، وأن السبب في تفاقم هذه الظاهرة السنوية هو تغير المناخ. بعد قليل كلمته ابنته وقالت كلاماً مشابهاً ثم ذكرته برقم هاتف ابن أخته ماهر وبضرورة الاتصال به إذا احتاج لشيء. فقال لها إن ماهرًا سافر لقضاء عمل من الأعمال وإنه لن يعود إلى البلاد قبل أسبوعين.

مرّ يومان تحسّن بعدهما الطقس كما تنبأت النشرة الجوية. خفّ الغبار فاستطاع أبو عوني أن يرى السيارات وهي تجوب الشوارع، والأطفال وهم يلعبون في حدائق البيوت المجاورة. خرج إلى الشرفة ليروي النباتات، فرأى طبقة من الغبار والرمل على أوراقها وعلى الأرض. اتصل بحارس العمارة ليطلب مساعدته في تنظيف الشقة فلم يردّ عليه. كرر الاتصال فلم يتلقَ ردّاً.

وأخيراً علم أن الحارس يلازم فراشه بسبب الرضوض التي أصيب بها قبل يومين عندما صدمته سيارة لم يستطع تفاديها بسبب صعوبة الرؤية. انتهر أبو فتحي فرصة تحسّن الطقس فجاء لزيارة أبي عوني حاملاً بعض الطعام والشراب والماء، ومعتذراً عن إحضار المزيد لأن الكميات الموجودة في السوق محدودة بسبب كثرة الطلب.

انقطع التيار الكهربائي في عصر ذلك اليوم وأظلمت شاشة التليفزيون ثم أضاءت بعد قليل. انقطع التيار ثانية في المساء فأضاء أبو عوني الشموع ووزعها في أنحاء الشقة. كان الانقطاع يشمل الحي بأكمله فاستسلم أبو عوني للهدوء الشامل حوله. غفا قليلاً وعندما استيقظ كان الحي ما يزال غارقاً في الظلام. علم من المذيع أن جهوداً حثيثة تُبذل لإعادة التيار الكهربائي الذي انقطع بسبب نفاذ ذرات الرمل إلى المولدات الكهربائية. أضاءت الشقة ثانية حوالي منتصف الليل. تكرر الانقطاع في اليوم التالي للسبب نفسه. في ذلك اليوم لاحظ أبو عوني أن ماء الصنبور أصبح في مثل لون الصدا، ثم رآه مختلطاً بذرات الرمل.

ظهر عمود الغبار ثانية بعد يومين. تكاثف وتمدد وما لبث أن انسدل الستار الرمادي في الفضاء ثانية فحجب الرؤية أو كاد. قال مذيع النشرة الجوية إن العاصفة الرملية ستستمر، وأضاف أن تلك الأحوال الجوية غير العادية التي تشهدها البلاد ترجع إلى تغير المناخ في العالم كله، لكنه لم يذكر شيئاً عن نهايتها. تحدث أبو عوني مع جاره في اليوم التالي عن الفيضانات والأعاصير التي اجتاحت مناطق في إفريقيا وأمريكا، وعن الجفاف الذي أصاب مناطق

أخرى، ناهيك عن الزلازل التي كثرت في الآونة الأخيرة. وفي نهاية الحديث تساءل الرجلان إن كان يمكن تعويض الخسائر الهائلة التي مُني بها الجميع جراء العاصفة الرملية. انقطع التيار الكهربائي أكثر من مرة في ذلك اليوم، لكن الخلل كان يتم إصلاحه بسرعة في كل مرة. تلقى أبو عوني مكالمتين هاتفيتين من ابنه وابنته فطمأنهما على أحواله بقدر الإمكان.

لم يقو أبو عوني على تجنب الأخبار طويلاً فلعل خبراً تورده إحدى النشرات يخفف من الصورة القاتمة: اشتد القتال وأصبح أكثر عنفاً وشراسة، وذهبت محاولات إيقافه أدراج الرياح. استمر القصف بمختلف أنواع الطائرات والصواريخ، واستمر سقوط حممها على الضحايا. سقط المزيد من القتلى جراء الانفجارات الغامضة التي تهزّ المدن كل يوم. ظلت المنازل تنهار شيئاً فشيئاً شأنها شأن الحياة نفسها. احترقت الغابات والحدائق والمزارع. اتسع نطاق القتال وامتد إلى بعض المدن. حوصرت مدن أخرى ومُنِعَ عن أهلها الطعام والشراب والدواء. بدأ القتال يمتد إلى بلد مجاور آخر. كان من الواضح أن القتل حلّ محلّ العقل في ذلك البلد والفناء محلّ البناء. ولم يغب عن بال أبي عوني بالطبع تلك المفارقة العجيبة، وهي أن كل ذلك القتل كان يتم باسم الحياة، الحياة كما يريدونها ويراها كل طرف من أطراف القتال. ثم ظهر على ساحة القتال مقاتلون جدد قدموا من أقاصي الأرض فأثارت هيئاتهم الغريبة مزيداً من الحيرة والقلق. أيقن أبو عوني أن الأطراف التي تشارك في القتال أكثر وأخطر مما كان يظن، وبدأت له المشكلة أعقد من أي وقت مضى وتراءى له المصير غامضاً. شعر بضيق في التنفس فمدّ يده لتناول الدواء.

استمرت العاصفة الرملية، توقفت المواصلات العامة والخاصة، توقفت الحركة في المدينة، أُغلقت المدارس وكذلك الدوائر الحكومية، احتجبت الصحف. لا يعلم أحد متى تنتهي هذه العاصفة ومتى تعود الحياة سيرتها الأولى، لكن أبا عوني قرر التحلي بالصبر والمضي في حياته اليومية العادية قدر الإمكان. واطب على التنظيف وإعداد الطعام والقراءة والصلاة ومشاهدة التلفزيون. لكنه كان يفتقد الذهاب إلى المسجد وإلى النادي وإلى الحديقة، حتى إلى المشي في الشارع. افتقد جاره الذي يزوره من وقت لآخر، وعندما سأل عنه علم أنه متوَعك بسبب سوء الأحوال الجوية. تكرر انقطاع الكهرباء وأصبح إصلاح الخلل يستغرق وقتاً أطول. كثرت ذرات الرمل في ماء الصنبور وأصبحت تعوق أنسيابه السلس، فكان ينظف الصنبور كل يوم بقدر استطاعته. نفذ الخبز لكن ظلّ في الثلاجة كمية لا بأس بها من الطعام. بدأ ماء الزجاجات ينفد فلجأ أبو عوني إلى غلي ماء الصنبور ثم تصفيته لتخليصه من شوائب الرمل. وفي أحد الأيام هبّت ريح لها صوت كالعويل، لكن النشرة الجوية اكتفت بالقول إن العاصفة الرملية ستستمر. ساور أبا عوني شيء من القلق وشعر أن الربيع قد لا ينقضي دون أن يتمخض عن خطر ما. بدأ الدواء ينفد وبدأت الشموع تذوب. انقطعت مكالمات ابنه وابنته الهاتفية. لكن أبا عوني ظل يتابع الأخبار في التلفزيون.

في أحد الأيام، أوردت إحدى النشرات خبر مذبحة أقدمت عليها جماعة من السكان في البلد المجاور ضد جماعة أخرى باستعمال السلاح الأبيض، ودون تمييز بين الرجال والنساء أو الكبار والصغار. لكن النشرة لم تجرؤ على

عرض صور للضحايا. تكررت الأنباء بعد ذلك عن مذابح أخرى في أنحاء مختلفة من ذلك البلد، فعاد أبو عوني بذاكرته إلى ما قرأه في كتب التاريخ عن مذابح مشابهة ارتكبتها جيوش غازية أو جماعات داخلية ضد جماعات أخرى. ولم يدر إن كان تكرر مآسي التاريخ وفضائعه يخفف من هولها أو يضاعفه. ثم بدأت الأنباء ترد عن المجازر التي ترتكبها الجهات الرسمية في ذلك البلد المنكوب ضد أعداد كبيرة من المدنيين بالأسلحة الحديثة. عندئذ تذكر أبو عوني ذلك الغول الذي كان يحتل مكاناً بارزاً في قصص الطفولة وحكاياتها؛ غول أسود ضخّم لا شكل له ولا ملامح واضحة يعيش في برج عالٍ، وعندما يخرج منه يمشي متخطّطاً فيهِزّ الأرض ويحجب السماء ويهرب الناس بزمجرته قبل أن يدوسهم بأقدامه الغليظة أو يلتهمهم. أدرك أبو عوني أن تلك القصص لم تكن خرافية على الإطلاق، بل هي واقعية تماماً، وها هو التلفزيون يروي إحداها للعالم بأسره. هل كان صديقه الرسام على حق عندما قال إن الصراع سُنّة من سنن الحياة؟ انقطع التيار الكهربائي في تلك الليلة وتوقف البث فأشعل أبو عوني ما تبقى من الشموع، وحاول أن يشغل نفسه بأي عمل يستطيع القيام به على ضوءها، ثم راح يفكر في تدبير أمور غده.

تم إصلاح الخلل الكهربائي في اليوم التالي، عندئذ حمل التلفزيون خبراً عن مئات المدنيين الذين سقطوا قتلى في البلد المجاور في غضون دقائق، بفعل سلاح غامض شديد الفتك لم يسبق استعماله من قبل في تلك الحرب. عرض التلفزيون صوراً لعشرات من الجثث وصوراً أخرى لعشرات من الضحايا الآخرين المشرفين على الموت، لكن النشرة ركّزت على صور عشرات

الأطفال وهم يصرخون من الألم. تضاربت الأقوال حول طبيعة ذلك السلاح ومصدره، لكن المعلقين أجمعوا على أنه سلاح خفي صامت تُسقطه الطائرات ولا يكاد ينجو منه أحد. أضافوا أنه قد يمحو مدناً بأكملها من الوجود دون أن يتمكن أحد من التصدي له أو الوقاية منه، بل قد يقضي على الجنس البشري بأكمله إذا استُعمل على نطاق واسع. سارع البعض فنفوا الأخبار القائلة إنه سلاح نووي، لكنهم أكدوا أنه محرّم دولياً، بينما قال البعض الآخر إنه سلاح كيميائي. هو إذن خطر ماحق لا يمكن دفعه، وهو يزيد الظلام حلقة. استمرت العاصفة الرملية، وتكرر انقطاع التيار الكهربائي في الحي كله، ولم يعد إصلاح الخلل سهلاً ولا سريعاً. انقطعت كافة الاتصالات الهاتفية. ثم انقطع ماء الصنبور، فسد معظم الطعام المحفوظ في الثلاجة بسبب انقطاع الكهرباء المتكرر فاضطر أبو عوني إلى إلقائه في كيس القمامة. تراكمت أكياس القمامة في الشقة وفي الحي دون أن تجد من يجمعها ويتخلص منها، لكن أبا عوني ظل يتحلى بالصبر، وظل ينتظر.

ثلج

صحت نهى على صوت أختيها وهما تصيحان في الغرفة المجاورة بكلام لم تتبينه في البداية. فتحت عينيها منزعة فرأت غرفتها غارقة في الظلام، وشعرت بلسع البرد عندما أخرجت يدها لتتنظر في ساعتها على ضوء المصباح المجاور لسريرها. أزاحت ستائر النافذة قليلاً فلم تر شيئاً إلا الظلام. أغمضت عينيها ثانية لكن الصباح استمر معبراً عن الانفعال الشديد. حاولت أن تتجاهله، واندست تحت أغطية الفراش التماساً لكل ذرة من الدفء. بعد قليل فُتح باب الغرفة المجاورة، ثم سمعت تامر يقول بأعلى صوته: الثلج! الثلج! هل رأيتم الثلج؟

اختلطت الأصوات مرة أخرى معبرة عن الدهشة والفرح لذلك الخبر. لكن نهى لم تفرح له؛ فهي لا تحب الثلج كثيراً لما يجلبه من برد وكآبة وما يسببه من صعوبات وحوادث. وهذا الثلج جاء أيضاً على غير توقع، فبالأمس لم يكن في الطقس ما يؤكد مجيئه رغم البرد الشديد. بعد دقائق صفق باب الغرفة المجاورة وسمعت نهى وقع أقدام عديدة تقترب بسرعة. طُرق باب غرفتها وعلى الفور اندفع تامر إلى داخلها وهو يقفز فرحاً ويقول: مفاجأة! مفاجأة!

وتبعته آية وهي تقول: الثلج! الثلج!

واكتفت دعاء بالوقوف في فرجة الباب فبدت مثل قطعة صغيرة ترتجف.

عاد تامر يقول: انهضي يا نهى!

وأضافت آية: كيف تستطيعين النوم والثلج في الخارج؟
وقفزت دعاء وهي تقول شيئاً لم تتبينه نهى لكن فرح الصغيرة كان طاغياً.

أدركت نهى أن ذلك الصخب سيستمر طويلاً وأنها لن تستطيع العودة إلى النوم. رفعت رأسها وهي تغالب البرد وأزاحت الستائر ثانية، لكنها لم تستطع رؤية الثلج فاندست في فراشها ثانية. لم يمض وقت طويل حتى سمعت إخوتها يركضون في الممر بحركة هائجة وهم يصيحون، وما لبثوا أن غادروا جناح النوم إلى مكان آخر في البيت. بعد لحظات سمعت أمها تقول بصوت عال حازم: لا! لا! لا يمكن!

سكتت الأم برهة ثم عادت تقول بصوت أهدأ: عودوا الآن إلى غرفكم. ستخرجون فيما بعد.

سمعت نهى باب غرفة تامر يصفق فاستبشرت خيراً وتطلعت إلى عودة الهدوء. لكن الصباح عاد سيرته الأولى يرافقه طرق على زجاج النوافذ التي كان إخوتها ينظرون منها ويحاولون فتحها. لم تشأ نهى أن تبدأ نهارها في تلك الظلمة الباردة فقررت أن تنتظر إلى أن يشيع الدفء في البيت وينهض بقية أفراد الأسرة. بعد فترة لم تدر طولها سمعت صوت أمها وهي تدعوهم جميعاً إلى تناول طعام الإفطار، وسرعان ما أخذ إخوتها

يتسابقون إلى المطبخ وهم يتنادون. نهضت نهى ببطء ووقفت بالنافذة وهي تلتف بعباءتها المنزلية السمكية. كان الثلج يغطي الأشجار الساكنة وممرات الحديقة وحافة سورها والحقل المجاور وكل شيء وقعت عليه عينها. اختفت معالم الحديقة تحت بساط الثلج الكثيف وكأنها امّحت من الوجود. لم يتحرك فيها أو في الحقل المجاور شيء، ولم يكن من المتوقع أن يتحرك في الحي كله شيء في يوم كهذا. ارتعدت نهى لمنظر الثلج لكنها لم تستطع أن تنكر جمال ذلك الزائر الغامض الذي يجيء خلسة مرة واحدة في الشهر نفسه من كل عام.

وقفت سوما بباب المطبخ الدافئ المضاء وعلى وجهها ابتسامة عريضة كأنها مضيضة تستقبل ضيوفها. كان من الواضح أنها بذلت جهداً كبيراً في إعداد ذلك الإفطار الذي فاحت روائحه الشهية، وازدحمت أطباقه على المائدة التي تحتلُّ قسمًا كبيراً من المطبخ الفسيح. وفي وسطها استقر طبق كبير مستدير مليء بالزلابية. دخلت الأم المطبخ وفي إثرها الأب. كانت جميلة كعادتها رغم ثيابها القاتمة، وكان الأب يلبس قلنسوته المنزلية كعادته في الأيام الباردة فيبدو أكبر من عمره الحقيقي. اشتكى الأب من غياب الجريدة فوافقته الأم على شكواه. أقبل تامر على الطعام والفرح يتراقص في عينيه. إلى جانبه جلست آية وهي تحاول مجاراته في ما يقول ويفعل كشأنها أحياناً. جلست دعاء بجانب أمها والنعاس يبدو عليها بعد انفعالها في الصباح الباكر فراحت أمها تساعد

في الأكل أو تغريها به فتستجيب لها. أكلت نهى لقيمات دون أن تتذوق شيئاً من الزلاية فقال لها أبوها:

- لكنك تحبين الزلاية.

قالت: لا أرغب في شيء منها اليوم.

قال: لكنك لم تأكلي إلا القليل.

صمتت نهى فقالت لها أمها: عليك العناية بصحتك يا نهى.

بعد الإفطار احتل الأب ركنه الخاص في غرفة الجلوس وراح يستعرض محطات التلفزيون. تنقلت الأم بين المطبخ وغرفة الجلوس حيناً ثم جلست في مقعدها المعتاد هي الأخرى، فشعرت نهى بالطمأنينة وهي ترى أبويها يحتلان مكانيهما في الغرفة. جلس الأطفال على الأرض يشاهدون التلفزيون. شاهدته نهى أيضاً لكنها كانت تتوق إلى الحديث مع أفراد الأسرة. ثابر إخوتها على النظر من النافذة من وقت لآخر وهم في لهفة على الخروج إلى الحديقة. صدر الإذن قبيل موعد الغداء فهرعوا لارتداء معاطفهم والحماس يسري فيهم ثانية مثل تيار لا يُغالب. ساعدت نهى دعاء في ارتداء معطفها وقفازيها ولفت لها اللفاح حول رقبتها ثم ذهبت لإحضار الكاميرا. أخيراً خرجوا إلى الحديقة والأم تصيح في إثرهم طالبة منهم المشي ببطء وحذر.

لم تتغير الحديقة عما كانت عليه في الصباح الباكر، غير أن ضوءاً غريباً كان ينهمر من السماء الثلجية وكأنه من عالم آخر. كانت أكوام الثلج ما تزال تجثم في كل مكان في الحديقة التي ترددت فيها صيحات إخوتها:

انظري! انظر! انظري إلى تلك الشجرة! انظروا إلى النافذة! تعالي إلى هنا وانظري! أين عنبر؟ إني لا أرى لها أثرًا! ليس هذا وقت عنبر! لعلها ماتت من البرد. لا، لا يمكن! لا شك أنها تحتمي من الثلج في مكان ما. انظر إلى البركة! البركة!

كان التفاهم على أتمه اليوم بين تامر وآية اللذين راحا يضحكان ويتبادلان الحديث وكأنهما يدبران أمرًا. حاولت دعاء مجاراتهما والتقرب منهما كعادتها لكن دون أن تفلح في النفاذ إلى تلك الدائرة السحرية التي تضم أخويها الأكبر سنًا. مشوا جميعًا وأقدامهم تنغرز في الثلج السميك فتحدث فيه آثارًا عميقة قاتمة تفسد بياضه النقي. بعد مدة تمكن تامر وآية من المشي بشيء من الثقة وقد أمسك كل منهما بيد الآخر. أما دعاء فكانت تمسك بيد نهي وتمشي بحذر شديد. غير أنها بعد أن تعودت على المشي قليلًا صارت تحاول الإفلات من قبضة نهي لتلحق بتامر وآية. فقد كانت تحرص على صحبتها رغم كل شيء.

بدت الأشجار وكأنها نحتت من الثلج. كانت تتخذ أشكالًا جميلة متباينة، لكن أجملها كانت تلك الأشجار ذات الأغصان المتشابكة. ازدادت شجرة الخوخ التي كانت نهي تعجب بتناسق أغصانها جمالًا. أما أشجار السرو العملاقة المحاذية للسور فقد جللها الثلج تمامًا وأكسب منظرها رهبة. وفي الحديقة الجانبية المؤدية إلى المطبخ كادت شجرة الليمون تختفي تحت غطاء الثلج كغيرها إلا من بعض الثمار التي بدت أطرافها هنا وهناك. قبل سقوط الثلج كانت أوراقها اللامعة تتزاحم فوق

ثمارها المتوهجة الواعدة بالدفع، فكانت نهى ترى في التباين بين اللونين جمالاً فريداً. أسفت نهى لاختفاء شجرة الليمون تحت غطاء الثلج لأنها كانت مفعمة بالحياة، على النقيض من الأشجار العارية التي لم يكن في اختفائها تحت غطاءه جدة أو غرابة أو خسارة كبيرة. خشيت نهى أيضاً أن تتجمد ثمار الليمون تحت وطأة الثلج كما حدث قبل بضع سنوات. أما البركة فقد رقد الثلج فوق مياهها وتراكم على حافتها ذات الأضلاع الثمانية. اختفت قبة العريش الأخضر المقام فوق البركة تحت الثلج أيضاً وكذلك أعمدته، إلا في مواضع قليلة منها فبدا لونها الأخضر ناضراً بجانب الثلج الناصع.

راح تامر وآية يصنعان من الثلج كرات يتقاذفانها مع تجنب منطقة الوجه كما أوصتهما أمهما. صنعت نهى كرة ثلجية لدعاء وطلبت منها أن تقذفها بها، لكن دعاء كانت تنوق إلى اللعب مع تامر وآية. استجابت نهى لرغبتها وصنعت لها كرة بعد أخرى، فكانت تمشي بها في حذر وتضرب أخويها وصراخها الضاحك يملأ الحديقة. التقطت نهى صوراً عديدة لإخوتها وللحديقة، ثم طلبت من تامر أن يلتقط بعض الصور بدوره. أصرت آية على مجاراة تامر. وكذلك فعلت دعاء فسمحت لها نهى بالتقاط صورتين فقط لكن بمساعدتها. استاءت دعاء لذلك لكنها نسيت استيائها بعد لحظة عندما بدأ تامر وآية بحثهما عن عنبر. سارت دعاء في إثرهما بحثاً عنها، لكن عندما حان وقت الغداء كان مصير القطعة ما يزال مجهولاً.

في العصر أظلمت السماء فجأة وكأن الليل يوشك أن يهبط فلم تخرج
 نهي وإخوتها إلى الحديقة كما كانوا يأملون. بعد ساعة بدأت الريح تهب
 فوجم الجميع وبدأ الضيق على الأم، فودّت نهي لو تجلس بجانبها
 لتخفف عنها بعض ما تشعر به، لكنها لم تشأ أن تجلس في المقعد
 المجاور لها. لم يعد التلفزيون يستأثر باهتمام أحد فأغنى الأب في مقعده
 الوثير وهو ما يزال يمسك بكتابه. نهضت دعاء من حيث كانت تجلس
 على الأرض مع تامر وآية ولاذت بأמהا، وسرعان ما أغفت وهي تستند
 إليها. ذهب تامر وآية ليرفها عن نفسيهما ببعض الألعاب الالكترونية في
 غرفة تامر. ذهبت نهي إلى غرفتها فرأت السماء قد ازدادت ظلمة وقدرت
 أن الثلج سيستمر أيامًا وأن الحياة لن تعود إلى طبيعتها عمّا قريب. لكنها
 وجدت أنها لا تمانع في قضاء بضعة أيام على هذا المنوال، فقد جمع
 الثلج شمل العائلة بعد أن اضطر أفرادها إلى ملازمة البيت فلا مدرسة ولا
 عمل ولا زيارة. غرق البيت في صمت عميق، حتى تامر وآية لم يعد يُسمع
 لهما صوت. جلست نهي إلى مكتبها وبدأت تقرأ في كتابها «أساطير
 الأولين». وعندما حان موعد العشاء كانت قد قطعت فيه شوطًا لا بأس
 به.

خفف اجتماع العائلة حول مائدة العشاء من الكآبة التي خيّمَت على
 البيت في العصر والمساء. استمتع الأطفال بالعشاء الذي أعدته سوما،
 لكن نهي لم تأكل إلا القليل فنظرت إليها أمها بقلق. بعد العشاء تبادل
 الأب بعض الحديث مع الأم ثم سأل نهي عن كتابها. شرح تامر لآية شيئًا

عن إحدى الألعاب الإلكترونية الجديدة، ثم قال بقلق: هل نخرج إلى الحديقة غداً يا ترى؟

رددت آية سؤاله وقد ارتسم على وجهها تعبير مشابه. فقالت الأم:

- قد يتحسن الطقس غداً فتخرجون كما خرجتم اليوم.

لكن نهى قالت: لا أظن أن الطقس سيتحسن فيها هو الثلج قد بدأ يتساقط ثانية.

استغرب الجميع تساقط الثلج من جديد، وانزعج الأطفال لأن الثلج الكثيف سيعوق خروجهم إلى الحديقة في الغد. من الصحيح أنهم كانوا يفرحون بقدوم الثلج لكن فرحهم به كان رهناً بقصر إقامته واعتدال كميته.

قالت نهى: سوف يتوقف الثلج في النهاية طال الوقت أم قصر. أما الآن فلنستمتع بوجودنا معاً.

هبب الريح طوال الليل. وفي الصباح كان الفضاء مظلماً والثلج أكثر كثافة والبيت أكثر برودة. قال تامر: كان صوت الريح مخيفاً في الليل. فقالت دعاء: كنت أريد الذهاب إلى غرفة أُمي في الليل لكنني خفت أن أغادر فراشي.

كان اليوم أهدأ من سابقه بكثير فقد توقف الأطفال عن الصياح والركض. أمضى تامر وآية بعض الوقت في القراءة والحديث ومشاهدة التلفزيون ثم انتقلا إلى الألعاب الإلكترونية في غرفة تامر. أما دعاء فقد التصقت بأُمها التي راحت تروي لها بعض القصص بصوت خافت.

قطعت نهى شوطاً آخر في قراءة كتابها في ذلك الصباح فاتضح لها تركيزه على موضوع الموت. عاد تامر وآية إلى غرفة الجلوس وقد احتدم الجدل بينهما، فقد أصرت آية على قراءة إحدى مجلاته قبل أن يكمل قراءتها، وعندما طلب منها الانتظار ازدادت إصراراً. كان لذلك الجدل بين تامر وآية وقع الموسيقى في مسامع دعاء، فراحت ترقبهما وكلها رضا عن الخلاف الذي دب بين الأخوين اللذين طالما استبعداها من لهما لصغر سنهما الذي لم يتجاوز السادسة. بل إنهما كثيراً ما عمدا إلى إغاضتها أو السخرية منها فكانت عندئذ تهرع إلى أمها أو إلى نهى شاكية.

غير أن الطقس بدأ يتحسن قبل الغداء. توقف تساقط الثلج وملاً الفضاء ضوء خافت. رفع الأب رأسه عن كتابه ونظر إلى النافذة باهتمام وتنهدت الأم ارتياحاً. استمر التحسن بعد الغداء فخرجت نهى مع إختها إلى الحديقة كما فعلوا بالأمس. كانت الآثار التي أحدثتها أقدامهم على الثلج في اليوم السابق قد اختفت تماماً تحت بساط أبيض جديد يكاد الضوء ينبعث منه لنصاعته. ازداد حمل الأشجار من الثلج فوجدت فيها نهى جمالاً جديداً، ورأت في ذلك البياض الذي لا تشوبه شائبة مسحة سماوية. راحوا يمشون ببطء شديد، وبعد أن ألفوا ذلك قليلاً بدأ تامر وآية يتقاذفان كرات الثلج وهما يشركان دعاء في لعبهما تلبية لرغبة الأم. تعالى صياحهم في الحديقة وما لبثوا أن سمعوا صياحاً مماثلاً في حديقة بعيدة في الحي. وكان ذلك غريباً بعد الصمت الذي ساد الحي منذ بدء تساقط الثلج حتى ظنوا أنهم سكانه الوحيدون. شاركت نهى إختها في لعبهم ثم

بدأت تمشي على مهل حول الموضع الذي كانوا يلعبون فيه. تذكرت دعاء عنبر فجأة فاقترحت على تامر وآية الذهاب للبحث عنها. قاد تامر خطوات آية ودعاء وهما تتمسكان به. وتبعتهما نهي عن كذب وهي ترقبهم بعين يقظة، وعندما وصل تامر إلى نهاية الحديقة توقف عند سورها أملاً في رؤية الأطفال الذين سمعوا أصواتهم قبل قليل. وفجأة صرخ: شجرة الليمون! شجرة الليمون!

نظرت آية ودعاء إلى حيث كان يشير. ومشت نهي إلى حيث وقف إخوتها ثم صرخوا جميعاً: شجرة الليمون انكسرت أغصانها!

اندفعت سوما من باب المطبخ المؤدي إلى الحديقة الجانبية وأطلقت صرخة خافتة. وقفوا جميعاً يحدقون في شجرة الليمون وهم لا يصدقون ما يرون. قال تامر بصوت خافت: خسارة! فرددت آية قوله وتبعته دعاء وعادوا إلى الصمت. ذهلت نهي لمنظر الشجرة ولم تجد ما تقوله. كانت معظم أغصانها العليا قد انحنت فانزاح عنها بعض الثلج الذي بدا لها إذ ذاك مثل الكفن. وتدلت الأغصان السفلية حتى كادت تنفصل عن الجذع وتلامس الأرض بينما الثمار المضيئة ما تزال تشبث بها، لكن كثيراً منها تناثر على الأرض. شجرة الليمون. أجمل أشجار الحديقة في الشتاء. أهكذا يكسرها الثلج الذي أضفى على بقية الأشجار جمالاً خاصاً؟ أهكذا يقهرها وهي محملة بالثمار؟ أهكذا تؤدي الثمار وهي الغاية من وجود الشجرة وأثنى ما فيها إلى كسر الشجرة نفسها؟ أغصانها المكسورة ستُبتر كلها فماذا يتبقى منها؟ هل تنمو لها أغصان جديدة بدلاً منها؟ وهل

تعود إلى سابق عهدها؟ لا شك أن أشجارًا أخرى قد انكسرت في الحداثق المجاورة لكن هذا لا يخفف من صدمة نهى وحزنها شيئًا. فقد عرفت شجرة الليمون طيلة حياتها وأحبت جمالها وسخاءها وقطفت ثمارها الدانية مرات لا تحصى.

تحرك تامر ببطء يريد استئناف سيره فتبعته آية وهي تتمسك به ثانية. أمسكت نهى بيد دعاء ومشت وهي تشعر برغبة في الانفراد بنفسها. اضطربت في مشيها فتركت دعاء تمسك بيدي أخويها ومشت خلفهم جميعًا وقد أظلم وجهها. توقف تامر عند موضع آخر في السور لعله يرى الأطفال الذين كانوا يصيحون قبل ذلك فلم ير أحدًا. ماذا سينكسر في مستقبل الأيام يا ترى؟ وأي الأحياء سوف يُقتلَع من على وجه الأرض؟ شعرت نهى بالخوف والحيرة معًا فقد أصبحت على دراية بضربات القدر مع أنها لا تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، ناهيك عن الأسئلة الكثيرة التي تلحّ عليها دون أن تجد لها جوابًا. ماذا تستطيع هذه الكتب التي تقرأها أن تقدم لها؟ وكيف يستطيع أبوها أن يساعدها؟

ابتسامة دائمة، وعطف لا ينفد. جميلة لم يطغ اكتمال الأمومة فيها على اكتمال الأنوثة. وجّه حسن الاستدارة لم يكدمسه الزمن، عينان بلون العشب في أول الربيع. كانت نهى تحب ساعة العودة إلى البيت لترها جالسة في مقعدها المعتاد تشر حضورها الأنيق العطر حولها مثل شجرة ياسمين مزهرة. كانت تجلس إليها فتحدثها عن يومها وعن غدها وعما يستأثر باهتمامها فتلقى منها الفهم والدعم، وطالما أسرت إليها بما

لم تسرّ به لأحد غيرها فازدادت اطمئناناً. إنها لا تفهم كيف تختفي امرأة مثلها تضج حيوية وتشع بريقاً. لا تفهم كيف تنطفئ شعلة الحياة فيها وهي في قمة عطائها. إنها لا تطيق النظر إلى مقعدها الخالي حتى الآن. أحياناً تتخيل أنها ستظهر من داخل البيت وتحتله ثانية، ثم تدرك استحالة الفكرة فيتمزق قلبها حزناً ويأساً. لماذا تصبح جدتها مبعث حزن مدمر بعد أن كانت مصدر سعادة خالصة؟ مسحت نهى دموعها لئلا يراها أحد ودخلت البيت. كان إخوتها قد سبقوها إليه فسمعتهم يصيحون بصوت واحد: شجرة الليمون انكسرت! شجرة الليمون انكسرت!

وبعد برهة أضاف تامر موضعاً: كسرّها الثلج.

فقالت الأم وقد داهمها الألم: يا لها من خسارة فادحة!

وقال الأب: خبر محزن حقاً. هذه خسارة فعلاً لكن الثلج كثيراً ما يسبب الأضرار إذا طال مكوثه.

جلس الأطفال يستدفئون بعد عودتهم من الحديقة، لكن نهى ذهبت إلى غرفتها فشيّعها أبواها بنظراتهما.

بعد حوالي نصف ساعة ذهبت الأم إلى غرفة نهى فوجدتها غارقة في حزنها. قالت لها نهى:

- كنت أحب شجرة الليمون. كنت أرى فيها معاني كثيرة. كانت في نظري مخلوقاً لا يقل عن البشر قيمة وأهمية.

قالت الأم: ستنمو أغصانها ثانية، وستعود كما كانت لكن بحجم أصغر. ثم تكبر بالتدريج. لا أظنها مهددة بالموت.

سكتت الأم ونظرت بعيداً فأمسكت نهى بيدها تريد أن تحميها أو تحتمي بها. وبعد قليل قالت مترددة: إنها لا تغيب عن مخيلتي لحظة واحدة.

ظلت الأم على صمتها فأحاطتها نهى بذراعها وكأنها تستميت في درء فراق محتمل. قالت الأم أخيراً وقد تمالكت نفسها: هكذا هي الحياة. إنها تقسو ثم تداوينا بالنسيان.

قالت نهى: لكني لن أنساها ما حييت. إني أذكرها في كل لحظة. كل شيء يذكرني بها. لقد تركت في حياتي فراغاً هائلاً. لقد تغيرت حياتنا بعدها ولن تعود كما كانت أبداً.

قالت الأم تهدئ من روعها: سيهون هذا الحزن كله يوماً.

قالت نهى: أين هي الآن؟ أعرف بالطبع لكني لا أفهم.. أين ذهبت؟

قالت الأم: ذهبت إلى جوار ربها، وهي الآن في الجنة بإذن الله.

قالت نهى: لماذا رحلت؟ أعني لماذا رحلت في تلك السن الصغيرة؟

قالت الأم: هذه مشيئة الله. الموت سنة الحياة.

قالت نهى: لماذا مرضت في تلك السن الصغيرة؟

قالت الأم: الناس يمرضون في كل سن كما تعلمين. لم يستطع لها

الأطباء شيئاً.

قالت نهى: إني لا أود إزعاجك بكل هذه الأسئلة لكنها تلح عليّ طيلة

الوقت.

قالت الأم: لا بأس. سيخف هذا الحزن حتى يصبح ذكرى بعيدة. ستنسين هذا الألم الممض.

كانت الأم تريد إنهاء هذا الحديث عن أمها التي توفيت قبل أقل من شهر فقد أثار من أحزانها ما أثار. وبعد برهة قالت: هيا إلى غرفة الجلوس.

قالت نهى: سآتي بعد قليل.

لم تر نهى إختها عندما دخلت إلى غرفة الجلوس لكنها رأت أباهما ينظر إليها وكأنه كان ينتظرها. دعاها إلى الجلوس بجانبه ووضع يده على كتفها ثم قال لها بصوت خفيض:

- إن جدتك ما تزال معك. إنها تعيش في قلبك. كل ما كانت تمثله من خير وجمال هو الآن جزء من ذاكرتك، من تجربتك، بل هو جزء منك. إنه كنز بين يديك لا ينازعك فيه أحد فاصنعي به ما شئت. سيري على خطاها. ابني حياتك على مثالها. أكملني عملاً بدأته. كيف تستطيع كل ذلك؟ عاد أبوها يقول:

- لا مهرب من الموت كما تعلمين ولا حياة بدون الموت. لا يولد نهار إلا وقد مات نهار. الموت والحياة متلازمان وكأنهما شيء واحد. الحياة زوال مستمر، والزوال شرط للدوام. أنت فتاة ذكية واعية وأعتقد أنك تفهمين ما أعني.

قالت نهى: والحزن؟

قال الأب: لا حياة بدون الحزن. الحزن لا يمكن محوه لأنه متجدد، لكن يمكن وضعه في مكانه بين صروف الدهر فيتخذ حجمه الصحيح. لقد تعلّم البشر منذ الأزل كيف يتحملون الألم وكيف يمارسون حياتهم بالرغم منه. والألم كثيرًا ما يكون مصحوبًا بالأمل في زوال المحنة وبدء مرحلة جديدة.

قالت نهي: لكن حزني شديد.

قال الأب: أعلم ذلك فابكي ما شئت. أطلقني العنان لحزنك فالمنطق وحده لا يكفي. استسلمي للحزن لكن إلى حين. لا تدعيه يشل قواك ويعطل سيرك. لا تضيعي من الوقت أكثر مما يجب، فأمامك حاضر يجب أن تستمتعي بما فيه، ومستقبل يجب أن تبنيه. ستجلب لك الحياة الكثير من المسرات إن شاء الله.

قالت نهي: وهذا الفراغ الكبير الذي تركته؟

قال الأب: املئي بصرح جديد من المحبة بدلًا من ذاك الذي انهار. أغدقي المحبة على من حولك، ودعيها تزهر وتلد حياة جديدة تقارع الموت. لقد وجدت من تجربتي أن في بذل المحبة عزاء كبيرًا.

قالت نهي: لكن المحبة تزيد من ألم الفراق.

قال الأب: ويمكن أن تخفف منه أيضًا. تذكّري المحبة التي غمرنا بها الأهل والأصدقاء وقت المصاب فخففت منه.

قالت نهي: وبعد الموت، ماذا يحدث؟

قال الأب: هذا غيب وعلينا القبول بما في ديننا عنه.

قالت نهى: هل سألقاها بعد الموت؟

قال الأب: ما رأيك؟

قالت نهى: لا يمكن أن تنتهي امرأة فريدة مثلها في التراب. ولا يمكن أن تنفصم الرابطة بيني وبينها بالموت. ولا أشك في أني سألقاها في العالم الآخر.

بدأ الثلج يذوب في اليوم التالي، بل كادت الشمس تظهر من بين الغيوم البيضاء الكثيفة. أزيحت الستائر وفتحت النوافذ. تجول الأب في أرجاء البيت يتفقدده، وطلبت الأم من سوما القيام ببعض الأعمال التي تأجلت في اليومين الماضيين. حاول الأطفال الخروج إلى الشرفة لكن لم يُسمح لهم بذلك فنظروا من النوافذ طويلاً. كان الثلج قد تساقط عن بعض الأغصان فبدت غامقة مبتلة، وسالت جداول صغيرة من الماء في أرض الحديقة بين أكوام الثلج. ظهرت بضع سيارات في الشارع وهي تسير ببطء فتحدث عجلاتها أخاديد سوداء عميقة في الثلج الناصع، وتناهت إليهم أصوات أطفال ورجال. تنقل الأطفال في أنحاء البيت بحرية أكبر، وعلت أصواتهم بالحديث، لكن الخلاف دب بين تامر وآية مرة أخرى حين أصرت على القيام ببعض الألعاب الإلكترونية دون إرشاده. احتدم الخلاف بينهما فقال لها تامر بهدوء مشبع بالكبرياء:

- إني أعرف ما لا تعرفين. فأنا أكبرك بثلاث سنوات.

فأجابته غاضبة: إننا لا أقل عنك معرفة.

مل الأب من القراءة فبدأ يستمع إلى بعض الأغاني القديمة. وعندما عادت الأم إلى غرفة الجلوس بعد أن فرغت من الإشراف على بعض الأعمال المنزلية حاول أن يشركها في سماعها لكنه لم يلق منها تجاوبًا. كف الأب عن السماع بدوره وبدأ يحدثها في بعض الأمور. أوشكت نهى على الانتهاء من قراءة كتابها، فاستتجت أن كل الشعوب القديمة حاولت تفسير لغز الموت بطريقة تساعد على التكيف معه ومواصلة الحياة بالرغم منه. كما رأت أن الإيمان بالحياة الآخرة ركنة أساسية في معتقدات كثير من الشعوب. إنها موقنة من الآخرة على أي حال لأنها تريد لقاء جدتها فحسب، بل لأن الحياة الدنيا لا تعني شيئًا بدون ذلك اليقين. لقد قرأت القرآن في المدرسة والبيت كما قرأت كتبًا إسلامية عديدة فرسخ كل هذا من إيمانها.

حزن الأطفال لذوبان الثلج لكنهم كانوا يتلهفون للخروج من البيت بعد أن حال الثلج دون ذلك أيامًا. شاركهم نهى حزنهم رغم ما فعله الثلج بشجرة الليمون، فلا يمكن لأحد أن ينكر سحر ذلك البياض الخالص. لكنها كانت تريد العودة إلى حياتها المعتادة هي الأخرى. خرجت نهى وإخوتها إلى الحديقة بعد الظهر فرأوا الثلج وقد بدأ يتغير لونه بعد أن اختلط بالماء والتراب والشوائب الأخرى في أرض الحديقة. لكنه ظل على الحال نفسها من النقاء التام في الزوايا البعيدة حيث لم تمسه يد ولم تدسه قدم. كان المشي أسهل في ذلك اليوم لأن الثلج فقد تماسكه بعد أن تخلله الماء. مشى الأطفال بحرية أكبر في الحديقة فتمكنوا من الوصول

إلى أجزاء منها لم يستطيعوا الوصول إليها في اليومين الماضيين. حرصت دعاء على المشي في المواضع التي سالت فيها المياه الناتجة عن ذوبان الثلج فلم تحتج إلى من يمسك بيدها طيلة الوقت. استغنت آية عن مساعدة تامر بدورها ومشت وهي تحس بالثلج ينسحق تحت قدميها أو ينهار. توجه الأطفال إلى الحديقة الجانبية فتبعتهم نهى عن بُعد لأنها لم تشأ أن ترى شجرة الليمون بعد أن انكسرت أغصانها. وقف إخوتها قرب الشجرة فقال تامر:

- يبدو أن سوما قطفت ثمار الليمون من على الشجرة.

ثم أضاف: ولا شك أنها ملأت بها وعاء كبيرًا.

رددت دعاء من بعده: لا شك.

أضاف تامر بحزن: لقد كانت الشجرة محملة بالثمار رغم أنها ليست عالية ولا ضخمة مثل بقية الأشجار.

عادوا من حيث كانوا يقفون قرب شجرة الليمون فواصلت نهى التجوال معهم في الحديقة.

ذاب المزيد من الثلج في اليوم التالي، لكن بعض بقاياها تحولت إلى جليد زلق فحدّرت نهى إخوتها من المشي عليه. جاء البستاني في العصر وقال إن أشجارًا كثيرة انكسرت في حدائق الحي. وقفت نهى تنظر من بعيد بينما أحاط إخوتها بالبستاني وهو يتناول فأسه استعدادًا لقطع الأغصان السفلية من شجرة الليمون. رفع الفأس وأهوى عليها بضربة صدموا لشدتها فأشاحوا بوجوههم. رفع الفأس مرة أخرى فانهالت الضربات على

الأغصان المنكسرة، وعندما نظروا ثانية كانت قد تهاوت كلها وتكومت على الأرض وفوقها بساط من الأوراق الخضراء. تحولت صدمة تامر إلى حزن، ووجمت آية ودعاء، وشعرت نهى كما لو أنها شاهدت طفلاً يُضْرَب بالسياط. عندما انتهى البستاني من مهمته رأوا أن شجرة الليمون لم يبق منها إلا أغصان قليلة تتمسك بها أوراق خضراء متفرقة. شعرت نهى أن الشجرة لم تفقد أغصانها فحسب بل فقدت كبرياءها أيضًا، لكنها كانت حية. وربما كان ما تبقى من أوراقها الخضراء بشيرًا بحياة جديدة. ثم إن أغصانها القليلة النحيلة لم تخل من رقة ورشاقة. حمل البستاني الأغصان المبتورة إلى خارج الحديقة وهو يدندن بأغنية. ومشى الأطفال وراءه في صمت وكأنهم يشيعونها إلى مثواها الأخير.



عادت نهى إلى المدرسة بشوق. وما إن التقت بصديقاتها حتى راحت كل منهن تحكي كيف قضت تلك العطلة الطارئة. حدثت نهى عن كتاب أساطير الأولين وعن الحديقة لكنها لم تشأ أن تذكر شجرة الليمون تجنبًا لمواجهة حزنها في ذلك الصباح. عندما حان موعد الدرس الأخير دخلت معلمتهن رؤى وقد بدا عليها السرور لرؤية تلميذاتها ثانية. سألتنه عن العطلة وعن الثلج فتحدثت معظم التلميذات عن اللعب بالثلج، وعن الأفلام والبرامج التليفزيونية التي شاهدتها والألعاب المنزلية التي استمتعن بها. تحدث بعضهن عن القصص والمجلات التي قرأنها، وأعربت أخريات عن حزنهن لما يقاسيه الفقراء والضعفاء في هذا الفصل

من السنة ودعون إلى تقديم العون لهم. بدأت نهى حديثها بذكر جمال الثلج وغموضه ومزياه ثم تحدثت عن المشاكل التي تنشأ بسببه. راحت تصف شجرة الليمون وجمالها ومعناها بالنسبة لها ثم روت ما حل بها. تعثرت في حديثها فشجعتهارؤى على المضي فيه وامتدحت ما يتصف به من دقة وشمول.

عند انتهاء الدرس اعتذرت نهى لمعلمتها قائلة: كان يجب أن أتمالك نفسي وأنا أتحدث عن شجرة الليمون، لكنني لم أستطع، فالموت شيء رهيب حقاً.

قالت رؤى: لا بأس. أنت فتاة حساسة وأنا أفهم حزنك. شكرتها نهى فمضت رؤى تقول: من المؤسف أننا ننشأ على إنكار الموت وتجاهله وتجنب ذكره فلا نستطيع مواجهته حين يجيء. من الأسهل بكثير في رأيي أن نسلّم منذ البداية بأنه جزء من الحياة وأنه لا مفر منه.

قالت نهى: لكن جدتي كانت صغيرة.
قالت رؤى: الناس يموتون في كل سن كما تعلمين.
قالت نهى: وكانت بصحة جيدة.
قالت رؤى: لقد مرضت في ما أعلم.
قالت نهى: أعني أن مرضها كان مفاجئاً وموتها كان سريعاً.
قالت رؤى: ليس الموت عشوائياً بالدرجة التي نظن. فالموت له في كل مرة سبب مباشر محدد لم تتم السيطرة عليه بعد مثل: المرض

والإهمال والفقر وحوادث الطرق والكوارث الطبيعية وغيرها. ولكل من هذه أسباب بالطبع. فكري في هذه النقطة فقد تجددين فيها ما يساعدك على النظر إلى الموت بطريقة مختلفة.

مضت رؤى تقول: عندما يتقدم المجتمع يتوصل إلى شيء من السيطرة على كثير من جوانب الحياة، ومن ذلك الصحة والمرض، فيعيش الناس حتى سن متقدمة ويتمتعون بالشيخوخة. لكن كثرة المعمرين تخلق مشاكل جديدة في المجتمع. أي أن الموت شيء لا بد منه في النهاية.

سكتت رؤى لحظات ثم قالت: لقد طال حزنك وأرجو أن تهتدي إلى وسيلة تخفف منه.

قالت نهى: أرجو ذلك.

قالت رؤى: إني أراك محاطة بالصدقات فدعي الصداقة تقيك بعض هذا الحزن، فليس مثل المحبة وقاء من الآلام في رأيي.

عندما وقفت نهى بنافذة غرفتها في ذلك الصباح لم تتمالك نفسها من الشهيق. كانت الخضرة قد بدأت تشق الأرض وتطل من التراب الداكن المتحفر. خضرة صافية لم تكد ترتفع عن الأرض لكنها تنتشر في كل أنحاء الحديقة. بداية صغيرة لكنها أكيدة. لم ترها بالأمس فكأنها نبتت بين يوم وليلة أو كأنها جاءت بخطى متلصصة كالثلج. من أين جاءت وكيف؟ كانت نهى تعجب دائماً لاخضرار الأرض في الوقت نفسه من كل عام،

وبالطريقة وفي المواضيع نفسها. لون زاهٍ رقيق ينبثق من باطن الأرض كالنور إذ ينبثق من الظلام. بعثت الخضرة في قلب نهى فرحاً عميقاً لكنها رأت فيها نهاية الشتاء أيضاً. كل شيء ينقضي ويزول كما قال أبوها قبل شهرين. لكنها لا تريد أن تفكر في الزوال بل تريد أن تستمتع بما تراه أمامها الآن.

بعد أيام بدأ الزهر يظهر على الأشجار المثمرة. ثم راح يمتد بسرعة على طول الأغصان وكأنه أصداف نادرة تصفّحها يد خفيّة بكل إتقان، لكن لم يكد الأطفال لمسكون ببعضه حتى تفتت بين أيديهم. وبعد مدة بدأ قسم منه يتطاير ويتكوم على الأرض فيبدو مثل لفاع من الحرير طرزته يد ماهرة. برزت أعواد الزنبق من التراب وهي تتفجر حياة، ثم تكاثرت حتى ملأت الأحواض. بعد الغروب كان الشفق يلبث طويلاً في الأفق فيبشّر بنهار مشرق في الغد. أما المدرسة فقد اجتاحتها الربيع مثل موجة عارمة، فتوردت الوجوه والتمعت العيون وتعالّت الضحكات وتكررت الأحاديث الجانبية وكثرت الهمسات. ورد ذكر النزاهات والزيارات أكثر من مرة لكن نهى لم تجد في نفسها رغبة فيها.

في الحقل المجاور ارتفع العشب وتكاثف. وعند هبوب النسيم كان يتموج بحركة تذكّر نهى بالبحر فتبعث في قلبها السرور. في أحد الأيام علا صياح الأطفال في الحديقة فأسرعت نهى إلى حيث كانوا، فرأت قطيعاً كبيراً من الأغنام يرعى في الحقل بينما الراعي الصغير يهش عليه بعصاه، وينادي على أفراداه من حين لآخر ويقول كلاماً لم يفهموه. ازداد صياح

الأطفال عندما سمعوا ثغاء الأغنام التي كانت تلوذ ببعضها البعض وهي تقبل على العشب الغزير دون أن ترفع عنه رؤوسها. لم تكن نهي أقل من إخوتها فرحاً برؤية تلك الأغنام المتلهفة على العشب الذي نبت من أجلها. ها هي الطبيعة تجود بربيع آخر كله خير وجمال هما أشبه بالمعجزة. فجأة بدا في وسط الأغنام حمل صغير يتشبث بأمه، فصرخ الأطفال صرخة مدوية ثم راحوا يضحكون ويقفزون حتى كادوا يقعون على الأرض. أما دعاء فقد اتسعت عيناها وسالت دموعها واحمر وجهها لشدة انفعالها. سمعهم البستاني الذي كان منهمكاً في عمله في مكان آخر في الحديقة فجاء على عجل ليستطلع الأمر. وعندما رأى الحمل علت وجهه ابتسامة عريضة ووقف يرقبه وكأنه لم ير حملاً في حياته. ثم عاد إلى عمله وهو يدندن بأغنية.

في منتصف الربيع نظمت رؤى نزهة لتلميذاتها ودعت نهي إلى الانضمام إليهن. ترددت نهي في بادئ الأمر لكنها أحست أن هذا الربيع يخاطبها ويضع نفسه بين يديها. فلماذا لا تستجيب له؟ لماذا لا تأخذ بنصيحة أبيها وتضع الخسارة الفادحة التي منيت بها بالأمس بإزاء هذا الربيع الباهر وما يحمله من نعم كثيرة فتكون كمن يمزج لوناً بلون؟ أليس من الجحود أن ترفض هبة الربيع السخية؟

كلمات متقاطعة

دخل الدكتور وائل غرفة مكتبه وهو يعرج قليلاً، فالحذاء الجديد كان يؤلم قدميه خاصة اليمنى. لكن لا بد له من لبسه كي يتسع ويزول الألم. لقد وجدته بعد بحث طويل ووفق في شرائه كل التوفيق. ففي لونه البني جمال، وفي طرازه الحديث أناقة، وفي جدته إثارة. وهو يطابق لون البنطلون تمام المطابقة.

جلس الدكتور وائل إلى مكتبه فخف الألم قليلاً. مديده إلى الجريدة بلهفة، وعلى الفور سمع طرقاً على الباب. دخلت الفتاة السمراء وهي تحمل صينية فضية صغيرة وضعت عليها فنجان القهوة. خلعت نعلها قبل أن تدوس على السجادة السمكية الزاهية وتقدمت من المكتب ببطء ووضعت عليه الفنجان بحذر. مد الدكتور وائل يده إلى الفنجان وهو ما يزال يقرأ العناوين الرئيسية في الصفحة الأولى، ثم راح يرتشف القهوة على مهل. كان في مذاقها لذة أنسته الألم في قدميه قليلاً فانفجرت أساريره بعض الشيء. القهوة تزيد متعته بقراءة الجريدة، وكل منهما يزيد متعته بساعة الصباح هذه.

الجريدة تتفتح بين يديه كالوردة ثم تفيض عليه من كنوزها: أخبار من كل حذب وصوب، تحقيقات في موضوعات شتى، معلومات متنوعة. نظر الدكتور وائل إلى المكتبة الضخمة التي ما تزال تنتظر وصول الطبعة الأخيرة من موسوعة العلوم الاقتصادية وغيرها فتمنى ألا يطول الانتظار.

هذه الجريدة الهشة أشبه بموسوعة يومية حية. إنها تضحّ بالأحداث وتنفض بالمعرفة. إنها في الواقع سلاح بين يديه؛ فعندما يقرؤها يزداد إلمامًا بما يحدث ويرى الأشياء على نحو أوضح ويجد أجوبة على كثير من الأسئلة التي تدور في ذهنه. عندئذ يشعر بمزيد من الثقة في مواجهة مختلف المواقف. إن المعرفة سلاح حقًا. ولقد كان طيلة عمره من المؤمنين بالمعرفة والنهمين إليها. وكثيرًا ما غبط أصدقاءه الصحفيين على مهنتهم المكرسة لها. نظر الدكتور وائل إلى صورة مكبرة لتمثال «المفكر» تحتل قسمًا كبيرًا من الحائط على يساره. لقد أبدع رودان حقًا باختيار الفكر موضوعًا لتمثاله. فالفكر هو الهبة الإلهية التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات، والمكتبة أنسب مكان للاحتفاء به. لكن بقية الجدران بحاجة إلى صور مماثلة تزينها، ولعل صديقه الذي زوده بصورة التمثال قادر على تزويده بغيرها.

لكن الدكتور وائل لا يحب الأخبار والتحقيقات فحسب، بل هو مغرم أيضًا بالكاريكاتير الذي يضحك له طويلاً، وبالقصص القصيرة والصور والألغاز وخاصة لغز الكلمات المتقاطعة التي يعتبر نفسه واحدًا من هواتها المتمرسين. بل إنه يحب ملمس الجريدة وجدتها ولونها الأبيض الناصع الذي تتزاحم فوقه الحروف. وربما كان ليختار الصحافة مهنة له لو لم توجهه الظروف وجهة أخرى. لم يستطع الدكتور وائل أن يقاوم الكلمات المتقاطعة طويلاً. ألقى نظرة على لغز الأمس وتأكد أن الحل مطابق لحله. شعر برغبة كبيرة في إتمام لغز اليوم فملأ بعض المربعات

بسرعة لكنه توقف عند عبارة «الجدارة والأهلية» فقرر إرجاء البقية. تعمقت لذة الدكتور وائل بالجريدة والقهوة معاً. لا شيء يضاهي هاتين إذا اجتمعتا، خاصة في الصباح. جالت عيناه في الغرفة الفسيحة. طولها مهيب حقاً، ومساحتها مرضية تماماً. استقرت عيناه على المنضدة الممتدة بمحاذاة النافذة في الطرف الأقصى من الغرفة والمحاطة باثني عشر كرسيًا أنيقاً. إنها منضدة مثالية للاجتماعات ولقد اهتم بها اهتماماً خاصاً عند تأثيث الغرفة. فمن الضروري أن يشعر المجتمعون بالراحة لكي تسير اجتماعاتهم بسلاسة وتسفر عن فائدة. وهنا تذكر الدكتور وائل شيئاً ففتح المفكرة الكبيرة التي تتوسط المكتب للتأكد من موعد الاجتماع التالي للجنة التحضيرية للمجلة. الثلاثون من حزيران/ يونيو. ما يزال في الوقت متسع. نظر في التقويم الموضوع على مكتبه، أكثر من شهر بقليل. سيكتب لأعضاء اللجنة بعد أسبوع مذكراً بالاجتماع وناقلاً لهم أخبار ما استجد في أمر المجلة الاقتصادية التي يراد تأسيسها.

انتقل الدكتور وائل إلى بقية أثاث الغرفة الذي اختاره كله بنفسه وبمنتهى الدقة. كل قطعة منه تحتل الآن مكانها الصحيح، وكلها منسجمة في لونها العسلي الأثير لديه، وفي طرازها الذي يجمع بين القديم والحديث. الأثاث مريح أيضاً، خاصة الأريكة الطويلة التي صُنعت أرجلها على شكل حيوان خرافي. وهو أيضاً معجب بالمزهريّة التي تزين المنضدة في وسط الغرفة، فهي ذات زخارف شرقية في غاية الدقة والجمال، ولقد أشار عليه بها مهندس الديكور الذي أشرف على تأثيث

بقية البيت. لكن أكثر ما يعتز به هو اللوحة القرآنية التي تحتل مكاناً بارزاً على الرف العلوي من المكتبة. لوحة كبيرة مذهبة كتبها فنان كبير بالخط الكوفي تقول: {اقرأ باسم ربك الذي خلق}. لقد كلفه بكتابة لوحة قرآنية أخرى لكنه ما يزال متردداً في اختيار الآية الكريمة. لقد استبعد آية {وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً} لأنه يفضل الجمل الإيجابية، وعليه أن يختار بين {وقل رب زدني علماً} و {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً}.

والآن إلى العمل. نظر الدكتور وائل إلى المفكرة الموضوعة على مكتبه ثانية: التقرير. لا بد له من إنجازه، فقد تأخر في هذه المهمة أياماً بسبب أعبائه الكثيرة في الوزارة. لا بد من كتابة التقرير هذا الصباح فالأمر لم يعد يحتمل التأجيل إطلاقاً ولعل هذه فرصته الأخيرة. لكن لا بأس فالصباح يمتد أمامه كما تمتد هذه الغرفة الرحبة وسيتسع لكل ما يريد. ولقد خصصه لهذه المهمة، وأجل في سبيلها ذهابه إلى الوزارة إلى ما بعد تناول طعام الغداء رغم الأعمال الهامة التي تنتظره هناك أيضاً. لا بد أن يسرع بعد الغداء فوراً إلى الوزارة لحضور الاجتماع الذي يناقش فيه التقرير الذي ستصدره الوزارة عن المؤتمر الذي عقد حول تحرير التجارة في الدول النامية مؤخراً، وتوزعه على الوزارات والدوائر المختلفة. التفت الدكتور وائل إلى الملف الأخضر الموضوع على الرف السفلي من المكتبة: «تحرير التجارة في الدول النامية في حوض البحر الأبيض المتوسط». هذا موضوع هام. هذا موضوع الساعة. وهو أيضاً مجال اختصاصه. لقد أصرّ على كتابة التقرير بنفسه؛ لا لأنه حضر المؤتمر

فحسب بل لأنه حريص أيضًا على صياغة التقرير بشكل واضح موجز، وعلى وضع الأفكار في سياق واحد يبرز رؤية الوزارة. لا بد من إنجاز التقرير هذا الصباح، وهذا أمر يسير بالطبع، فالتقرير ليس طويلًا، ولقد أرفق مساعده في هذا الملف كل ما يحتاجه من معلومات ووثائق.

لكن الدكتور وائل ما لبث أن نهض من مقعده خلف المكتب ومشى على مهل إلى النافذة الكبيرة في الطرف الآخر من الغرفة وفتحها على مصراعها. وقف عندها يتنشق الهواء فموجة الحر المبكرة خلّفت آثارها الواضحة حتى في هذه المنطقة الجبلية. لقد أحسن صنعًا باختيار هذا الجناح المطل على الحديقة الجانبية لغرفة مكتبه. فهو هادئ، وسيتيح له التمتع بجمال الحديقة ذات التصميم المبتكر. فأحواضها ليست متوازية كما جرت العادة في الحدائق، بل هي متعرجة متداخلة تلتف حول بعضها البعض فتكوّن شكلاً يصعب تحديده. لم تكتمل زراعة زهورها النادرة بعد لكنها ستكون رائعة الجمال عندما تتفتح كلها. هنا تذكّر الدكتور وائل البذور التي وصلت بالبريد قبل يومين. لقد شدد المهندس الزراعي على ضرورة زرعها في الأحواض المخصصة لها بمجرد وصولها. فهل زرعها البستاني أم أنه غفل عنها يا ترى؟

عاد الدكتور وائل إلى مكتبه وهو يسير ببطء. وعندما اقترب من المكتبة الضخمة وقع نظره على بعض الصور المعروضة على رفوفها: صورته وهو في زيّ التخرج؛ صورته وهو يشارك في ندوة؛ صورته وهو يستقبل وفدًا زائرًا. وعلى رف قريب رأى صورة لحفيده وهو يطفئ

الشمعات الثلاث، وصورة ثانية لحفيده باللباس التقليدي، وصورة ثالثة وهو يلعب برمال الشاطئ. الشبه واضح بينه وبين حفيده في هذه الصور، وأفراد العائلة يعلقون عليه باستمرار.

تناول الملف الأخضر من موضعه على الرف السفلي من المكتبة، وتوقف ثانية ليتأمل صور حفيده على رفوف المكتبة والحب بادٍ في وجهه، ثم جلس إلى مكتبه. سيسعد حفيده بالشلال. شلال صغير سيُنَى في ركن من الحديقة الخلفية حيث تحلو الجلسات العائلية. سيلهو حفيده بمياه الشلال كما يشاء، وسيسعد هو والعائلة بلهوه. لكن الشلال ضروري في الحديقة على أي حال لأنها لا تكتمل إلا بالماء. هناك النافورة الرخامية في الحديقة الأمامية بالطبع، وبركة السباحة في الحديقة الخلفية، لكن الشلال مختلف عن هذه وتلك. فتدفق الماء من علٍ يعبر عن الحيوية وهديره يعبر عن القوة. لن يكون في الشلال أي هدر للمياه بالطبع. فكمية المياه التي ستستعمل فيه محدودة ويمكن استغلال بعضها في أغراض عملية إذا اقتضت الضرورة. نهض الدكتور وائل من مكانه وأحضر ملفاً أحمرَ سميكاً من على رف جانبي للمكتبة. ها هي الرسوم التي اقترحها المهندس للشلال، وها هو الرسم الذي استقر الرأي عليه. لقد قال المهندس إن بناء الشلال سيبدأ بعد أيام، لكن من الضروري أن يتأكد فرغ سماعة الهاتف:

- حضرة المهندس علاء؟ صباح الخير. كيف الحال؟ نحمد الله.. أرجو ألا أكون قد أزعجتك في هذه الساعة المبكرة لكنني أود

التأكد من موعد بدء العمل في الشلال، فموعد الحفلة يقترب كما تعلم.. بعد غد؟ وبدون أي تأخير؟ عظيم.. عظيم.. ثم أسبوع على الأكثر. جميل. ممتاز.. إذن سننتظر العمال بعد غد. شكرًا لك كل الشكر. مع السلامة.

تنهد الدكتور وائل ارتياحًا. مهندس جيد حقًا. فتح درج مكتبه العلوي وأخرج منه ورقة نظر فيها مليًا فوجد اسم المهندس مكتوبًا فيها فعلاً، إذ لا يُعقل أن ينسى دعوته إلى الحفلة التي سيقمها احتفالاً بالبيت الجديد. ظل الدكتور وائل يتأمل قائمة المدعوين حينًا. تأكد من وجود اسم مهندس الديكور والمهندس الزراعي. سيكون سعيدًا بدعوة كل هؤلاء الأهل والأصدقاء إلى الحفلة ليشاركوه وعائلته فرحتهم بالبيت الجديد. ستكون حفلة تبعث البهجة في القلوب والحيوية في هذه المنطقة الجبلية الهادئة، وستظل في الذاكرة أمدًا طويلاً. لكنه ما زال مترددًا بشأن بعض التفاصيل، هو مثلاً يريد فرقة موسيقية تحيي الحفلة ويرقص على أنغامها الشباب، أما زوجته فهي ترى أن الفرقة ستطغى بموسيقاها على الحديث بين المدعوين وستحل محل التفاعل بينهم. وهي لذلك تفضل عزفًا منفردًا يطرب المدعوين بين الحين والحين، خاصة أثناء تناول العشاء. ما زال يشك أيضًا في إمكانية جمع كل الأهل والأصدقاء والزملاء في حفلة واحدة. أما الألعاب النارية فلا خلاف عليها.

قلب الدكتور وائل الملف الأخضر: المشاركون في المؤتمر الذي عُقد مؤخرًا عن تحرير التجارة برعاية إحدى المنظمات الإقليمية وبمشاركة

وزارته نيابة عن الحكومة، الأبحاث المقدمة إلى المؤتمر وهي عشرة، البيان الختامي وتوصيات المؤتمر، ردود فعل الخبراء وأقوال الصحف المتخصصة. أما التقرير الذي ينوي كتابته اليوم فسيتألف من ثلاثة أجزاء: أسباب عقد المؤتمر، موجز الأبحاث المقدمة إلى المؤتمر وتقييمها، موجز توصيات المؤتمر وتقييمها. بدأ الكتابة لكنه ما لبث أن تذكر شيئاً فضغط الزر القريب من المكتب. ظهرت الفتاة السمراء على الفور وقد امتزج في وجهها تعبير من الجذ والحذر معاً. فقال لها:

- اطلبي من محمد أن يأتي حالاً.

اختفت الفتاة بسرعة وهدوء كمن يهرب. بعد دقائق طُرق الباب ثانية وظهر شاب متوسط الطول تلوح في وجهه الأسمر ابتسامة مترددة.

- صباح الخير يا سيدي.

- صباح الخير. هل وصل حسن؟

- لم أره بعد يا سيدي.

- متى يصل عادة؟

- في مثل هذا الوقت.

- ابعثه لي بمجرد وصوله.

- نعم يا سيدي.

عاد الدكتور واثل إلى الكتابة: إن أسباب عقد المؤتمر معروفة تماماً، فوسائل الإعلام تقوم بتغطية موضوع تحرير التجارة منذ بضع سنوات. السبب الأول هو الخلاف الذي يثور منذ مدة بين أطراف عديدة حول

تحرير التجارة، وهو خلاف يتخذ شكل الجدل الحاد بين الدول والهيئات والمؤسسات والأفراد. لكنه كثيرًا ما يتجاوز الجدل فيتخذ شكل المظاهرات والاحتجاجات بل، أعمال العنف أحيانًا.

توقف الدكتور وائل عن الكتابة وعلائم التفكير بادية عليه. رفع رأسه بشكل تلقائي إلى صورة تمثال «المفكر» وكأنه يستلهمه ثم عاد يكتب: لذلك كان من الضروري طرح هذا الموضوع على بساط البحث ليتم إيضاحه من كافة الجوانب وبكافة الوسائل، ومن على كافة المنابر مثل الندوات والمؤتمرات وغيرها، وذلك بهدف حسم الخلاف حوله أو على الأقل تضيق فجوته. وهنا طرق الباب وبعد ثوان ظهر في فرجته رجل يزحف إلى منتصف العمر.

- صباح الخير يا سيدي.
- صباح الخير. هل زرعت البذور التي وصلت قبل يومين؟
- نعم يا سيدي.
- كلها؟
- نعم.
- متى؟
- صباح أمس.
- هل اتبعت كل تعليمات المهندس في ذلك؟
- نعم.
- هل كانت كمية البذور كافية لكل الأحواض المخصصة لها؟

- نعم يا سيدي.

- حسنًا.

ظل الرجل واقفًا بالباب ينتظر مزيدًا من الأسئلة، لكن الدكتور وائل أشار برأسه إشارة فهم منها أن وجوده لم يعد ضروريًا فانصرف.

هذا يعني أن الزهرة التي اختارها المهندس الزراعي لقسم من الحديقة الجانبية ستفتتح بعد ثلاثة أشهر تقريبًا، أي في أواخر الصيف وبعد انقضاء الحفلة الكبرى. في هذا خسارة بالطبع لكن ضيوفه سيتمكنون من مشاهدتها في مناسبات أخرى في المستقبل. في الصيف القادم بالتأكيد؛ في عيد الميلاد الرابع لحفيده مثلاً، ولا شك أنهم سيعجبون بها كما أعجب. تناول الدكتور وائل الملف الأحمر وفتح ثانيته. زهرة نادرة الجمال فعلاً! وسيمكنه مشاهدتها من هذه النافذة الواسعة. اسمها مكتوب تحت صورتها لكنه لا يستطيع لفظه لطوله وأعجميته. اسم يوناني أو لاتيني في ما يظن. أخبره المهندس أن هذه الزهرة ليس لها اسم بالعربية لأنها غير معروفة في هذه المنطقة، لكنه أكد أن زراعتها ستنجح فيها.

قلّب الدكتور وائل الملف الأحمر فرأى صور الزهور الأخرى التي اختارها المهندس. كلها جميلة، ولقد زرع بعضها فعلاً. أما بقيتها فستزرع بمجرد وصول بذورها بالبريد. انتقل إلى تصميم الحديقة الأمامية ثم الحديقة الخلفية. الشلال يتدفق من بين الأشجار في الركن الأقصى من الحديقة الخلفية، بركة السباحة تحتل وسط الحديقة وحولها شريط عريض من العشب الأخضر ومن ورائه تمتد أحواض الزهور المختلفة،

مكان الجلوس الرحيب في مقدمة الحديقة الخلفية وقد استعمل في أرضيته بلاط ذو لون بهيج. لا شك أن تلك الحديقة ستكون من أهم أسباب سعادته بالبيت الجديد عندما تكتمل. ستقام الحفلة الكبرى فيها بالطبع، وستتلوها حفلات كثيرة إن شاء الله.

استأنف الدكتور وائل الكتابة لكنه تذكر أن هذه الأسباب التي يجهد في حصرها وشرحها وردت في الوثائق المختلفة للوزارة. نظر إلى صورة التمثال مرة أخرى وكأنه يستغيث به، عندئذ خطرت له فكرة؛ لماذا لا يزين بقية جدران الغرفة برسوم لأعلام الفكر العربي والإسلامي مثل الكندي وابن سينا والأفغاني وغيرهم؟ لماذا لا يدع رسوم هؤلاء العظماء تطالعه صباح مساء؟ ما أحوج الجميع إلى الاحتفاء بهؤلاء الأعلام بدلاً من تمجيد الفكر الغربي طيلة الوقت! تناول الدكتور وائل المفكرة التي تتوسط المكتب ودون فكرته هذه فيها. لقد سبق له رؤية رسوم لهؤلاء العظماء في الكتب والصحف والمجلات، ولعل صديقه الأستاذ ثابت يستطيع مساعدته في الحصول على نسخ منها بحكم عمله رئيساً لقسم الأرشيف في الجريدة. رفع سماعة الهاتف على الفور محاولاً الاتصال بصديقه، لكنه لم يجده فترك له رسالة هاتفية.

أخرج الدكتور وائل قائمة المدعوين من الدرج العلوي ثانية، وتأكد من وجود اسم صديقه الأستاذ ثابت فيها. لكنه لاحظ من جديد أن القائمة أصبحت مفرطة الطول فهي تضم كل الأهل والأصدقاء والزملاء، وهو يخشى أن يقلل الازدحام من متعة الحفلة. كما أن اجتماع هذا العدد من

الناس على هذا النحو قد لا يحقق الانسجام بينهم. من الأفضل أن يقيم حفلتين بدلاً من حفلة واحدة، ولا ضير في هذا على الإطلاق. فالصيف هو موسم الحفلات.

عاد الدكتور وائل إلى الكتابة: أما السبب الثاني في عقد المؤتمر فهو ما يراه البعض من الضرر الذي سيلحق بالدول النامية جراء تحرير التجارة، بسبب عجز هذه الدول عن التنافس مع الدول الصناعية وخاصة الكبرى منها. تململ الدكتور وائل في مقعده ثانية وتوقف عن الكتابة. لا داعي لتكرار هذه الأسباب التي أوردتها وزارته في مذكرة تلو المذكرة وفي وثائق أخرى لا حصر لها. قلب الملف الأخضر ثانية لاستخراج مذكرة أو وثيقة تورد الأسباب مع بعض الشرح الضروري وتغنيه عن تكرارها، لكنه لم يجد شيئاً من هذا القبيل، فالموظف الذي أعد له الملف لم يرفق به كل الوثائق الضرورية كما يبدو. أما سكرتارية المؤتمر فهي لم تحفل بأسباب عقد المؤتمر بقدر اهتمامها بوقائعه. قرر أخيراً أن يعهد إلى أحد مساعديه بإتمام ذلك الجزء من التقرير استناداً إلى وثائق الوزارة، إذ إن قيامه به ليس من الكفاءة في شيء، ومن الأفضل أن يوجه اهتمامه إلى بقية التقرير. موجز الأبحاث المقدمة إلى المؤتمر: أقبل الدكتور وائل على كتابة هذا القسم مهمة حاول بها تعويض الوقت الذي أضاعه في كتابة القسم السابق، فقال: قُدِّمت إلى المؤتمر الذي استغرق أربعة أيام عشرة أبحاث من قبل مختصين وأكاديميين ومسؤولين مختلفين. كُتبت سبعة من هذه الأبحاث باللغة الإنجليزية وثلاثة باللغة العربية، وأُرفق بكل بحث موجز

له بهاتين اللغتين. يمكن تقسيم الأبحاث المقدمة إلى قسمين رئيسيين: قسم يضم خمسة أبحاث تدخل في صميم الاقتصاد وتهتم المختصين بالدرجة الأولى، وقسم يضم خمسة أبحاث أخرى تتناول جوانب أعم، مثل الخلفية التاريخية لمسألة تحرير التجارة والعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية المؤثرة فيها. وفيما يلي عرض موجز لهذه الأبحاث وفق الترتيب الذي اتبع في تقديمها:

البحث الأول يحمل عنوان: تحرير التجارة كوسيلة ناجعة لمكافحة الفقر. ولقد قدمه في الجلسة الصباحية الأولى يوم 20 نيسان/ أبريل عميد معهد الأبحاث الاقتصادية في..... راجع الدكتور وائل الملف الأخضر وتأكد من اسم الباحث والمعهد ومقره. أما الموجز الذي يضمه الملف لذلك البحث فقد وجده الدكتور وائل بالغ الطول. إذن فلا بد من تلخيصه بما يتناسب مع طول التقرير، ولا بد من تعديل أسلوبه بما يتناسب مع أسلوب التقرير أيضًا. ليس التلخيص من مهامه بالطبع، ولا مبرر لقيامه بما يستطيع غيره أن يقوم به، ففي هذا إضاعة للوقت وهدر للطاقات. من المعروف أن التلخيص عمل كتابي بحث وهو من صميم اختصاص مساعده. لكن لا مانع من تقديم بعض الإرشاد للمساعد. تناول قلمًا أحمر ومرّ به على الأجزاء التي يرى حذفها من ملخص البحث الأول، ثم تناول قلمًا أخضر ومرّ به على تلك التي يجب الإبقاء عليها. ارتاح الدكتور وائل لهذه الطريقة التي اتبعها في إرشاد مساعده، وسيتبع

الطريقة نفسها في إرشاده عند تلخيص بقية الأبحاث التي تميل إلى الإطالة بدورها، وهذا ما سيفعله بعد قليل.

في تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف:

- نعم. الأستاذ ثابت؟ أهلاً وسهلاً. أين أنت يا صديقي؟ إنني لم أرك منذ وقت طويل. كيف حالك؟

في نهاية الحديث الودي بين الصديقين قال الدكتور وائل:

- لقد اتصلت بك لطلب مساعدتك في الحصول على رسوم لبعض أعلام الفكر العربي والإسلامي. أعني ابن رشد وابن سينا والأفغاني وغيرهم. لا، لا يا صديقي، لست بصدد وضع كتاب عنهم لكنني أود الاستمتاع بصحبة هؤلاء العظماء في غرفة مكثبي كل يوم. أريد أن أعلّق رسومهم على جدرانها لأنهم أجدر الشخصيات بالتكريم.. نعم.. هذا عظيم.. إذن سأنتظر منك مكالمة قريباً.. كما أنتظر منك زيارة.. إن شاء الله.. شكراً جزيلاً.. مع السلامة.

بعثت تلك المكالمة الكثير من السرور في نفس الدكتور وائل، فالأستاذ ثابت من أحب أصدقائه إليه ولا شك أنه سيقدم له المساعدة المطلوبة. والآن إلى تقييم أعمال المؤتمر بشكل عام. هذا هو الجزء الذي يحتاج إلى جهده حقاً. بدأ الدكتور وائل يكتب: لقد نجح مؤتمر تحرير التجارة في الدول النامية في حوض البحر الأبيض المتوسط في إلقاء الضوء على جوانب عديدة من هذا الموضوع الهام، ومنها جوانب لم

تكن معروفة من قبل . وبذلك حقق أحد أهدافه الرئيسية وهو وضع الحقائق عن هذه المسألة بين أيدي المهتمين بها تمهيداً لمزيد من البحث أو لوضعها موضع التنفيذ. حاول الدكتور وائل الاستشهاد بآراء المختصين تعزيزاً لتقييمه هذا، فتذكر أن صديقه الدكتور قاسم كتب مقالاً في «مجلة الأبحاث الاقتصادية» أكد فيه أن المؤتمر قدم ذخيرة من المعلومات المتنوعة يستطيع الباحثون الاستفادة منها، كما يستطيع أصحاب القرار الاستناد إليها في قراراتهم. لكن الدكتور وائل لم يستطع تذكر عنوان المقال أو تاريخ نشره. راجع قصاصات الصحف المرفقة بالملف الأخضر فلم يجد للمقال ذكراً. حاول الاتصال بالدكتور قاسم لكنه تبين أن الرقم المدوّن في مفكرته قديم فكتب ملاحظة عن ضرورة التأكد من التفاصيل المطلوبة عن المقال. نظر الدكتور وائل في ملف اللجنة التحضيرية للمجلة الاقتصادية التي يراد تأسيسها فاستغرب عدم وجود اسم الدكتور قاسم بين أعضاء اللجنة فأضافه فوراً.

انتقل الدكتور وائل إلى جانب إيجابي آخر للمؤتمر فكتب: كما حرص منظمو المؤتمر على تحقيق التوازن في عرض الآراء، فأدرج في برنامجه أبحاثاً تؤيد مبدأ تحرير التجارة كل التأييد وأخرى تعارضه وتفنده. تذكر الدكتور وائل أن ممثل منظمة إقليمية هامة ممن حضروا المؤتمر أثنى في تصريح له على الحياد الذي التزم به منظمو المؤتمر في اختيار الأبحاث المقدمة إليه، لكنه لم يستطع تذكر اسم الشخص أو المنظمة أو تاريخ التصريح أو مناسبتة، فاتصل بأحد مساعديه وطلب منه

تزويده بالمعلومات المطلوبة بأسرع وقت. تذكر مقالاً نشر في الصفحة الاقتصادية لإحدى الصحف يمتدح حلقات النقاش وما اتصفت به من موضوعية، لكنه لم يستطع تذكر اسم كاتبه أو تاريخ نشره فاتصل بالمساعد ثانية طالباً المعلومات التي يحتاجها. تطرق الدكتور وائل بعد ذلك إلى دقة تنظيم المؤتمر لكنه لم يجد في الملف ذكراً لأي مقالات تعزز رأيه.

شعر الدكتور وائل بالارتياح إلى ما كتبه. انتقل إلى توصيات المؤتمر لكنه تذكر أنه لم يتطرق إلى الجوانب السلبية في المؤتمر نفسه. لا بأس، سيعود إليها بعد قليل متوخياً الموضوعية التامة كشأنه دائماً. لا بد له من إنهاء هذه الأجزاء قبل موعد الغداء في الساعة الثانية من بعد الظهر؛ لكي يتسنى له تقديم التقرير في اجتماع الساعة الثالثة. أما الأجزاء الناقصة فسيضيفها مساعده بعد يوم أو يومين وبذلك يكتمل التقرير تماماً. إن الجوانب السلبية للمؤتمر واضحة ومحدودة ولن تستغرق الكتابة عنها وقتاً طويلاً. وقل مثل ذلك في التوصيات. ما عليه إلا أن يوجز هذه الجوانب والتوصيات ثم يذكر ملاحظاته عليها وهي قليلة. توقف الدكتور وائل قليلاً وسرّح بصره في الغرفة، فتجدد إعجابه بالزجاج المزخرف الملون في الأجزاء العلوية من النافذة، وسرّ بلون الستائر الذي يطابق لون منضدة الاجتماعات. انبهر بصره بالضوء الذي غمر الغرفة في تلك الساعة من النهار فأغمضهما قليلاً. ما أجمل شمس الربيع! وما أجمل الضحى! ما يزال في الوقت متسع، وسيعود إلى كتابة التقرير عمّا قليل.

عندما فتح عينيه كانت صفحة الكلمات المتقاطعة في الجريدة أول ما طالعه فيها. نظر إلى لغز اليوم وبدأ يملأ مزيداً من المربعات بسرعة. عاد إلى عبارة «الجدارة والأهلية» التي توقف عندها في الصباح فخطرت له كلمة «كفاءة». لكن هذه تتطلب كتابة الهمزة كحرف منفصل وهو شيء لم يعهده في ألغاز الكلمات المتقاطعة. سيرى في الغد على أي حال. ولا بد له في يوم من الأيام أن يؤلف لغزاً ينهض بمستوى ألغاز الكلمات المتقاطعة في الجرائد اليومية. راح يستعرض بعض الكلمات التي قد يستعملها لهذا الغرض: توازن، حياد، أبحاث، تحرير. عاد إلى الجوانب السلبية للمؤتمر وبدأ يكتب: يلاحظ الكثيرون أن الاقتصاد والسياسة يتداخلان في أبحاث المؤتمر المؤيدة لتحرير التجارة، حتى إن السياسة تبدو في كثير من الأحيان كأنها المرجع الرئيسي بدلاً من الاقتصاد أو كأنها هي الهدف. أما التوصيات.. غير أنه أغمض عينيه ثانية. لا شك أن الألم الناتج عن حذائه الجديد هو السبب في التعب الذي يشعر به اليوم. انتقل إلى الأريكة فوجدها مريحة فعلاً. اضطجع عليها وأغمض عينيه ثانية. سوف يستريح بضع دقائق ثم يعود إلى الجوانب السلبية للمؤتمر. خُيل إليه أنه يسمع رنين الهاتف لكنه لم يستطع النهوض والرد. رنّ الهاتف ثانية. ثم خُيل إليه أن الباب يطرق. تكرر الطرق مرات. وعندما فتح عينيه أخيراً سمع الباب يطرق من جديد. ظهرت الفتاة السمراء ثانية وقد تحول الجد في وجهها إلى عبوس وقالت: تفضل إلى الغداء يا سيدي.

نظر الدكتور وائل إلى ساعة الحائط: الساعة الثانية من بعد الظهر.

بيت جديد

خرجت الأم إلى الشرفة ساعة العصر وجلست في مقعدها المعتاد. تناولت فنجان القهوة ووضعت أمامها لكن دون أن تبدأ شربه. بعد لحظات لحق بها الأب، وقبل أن يجلس وقف عند طرف الشرفة وسرَّح بصره في ما حوله. يوم جميل في أوائل الربيع. الفضاء فسيح والأفق لا يحجبه شيء، المدينة بعيدة بسياراتها وزحامها، البيوت قليلة متباعدة وكلها جديدة أنيقة، وأكثرها جدة هو بيتهم هذا الذي انتقلوا إليه في أواخر الشتاء. ستنمو الأشجار بعد سنوات قليلة فتصبح الضاحية خضراء تمامًا. لكن تعبير الرضا على وجه الأب سرعان ما تغير فجلس وهو يهز رأسه أسفًا وقال: ما زلت أرى أن هذه الخيمة لا مكان لها في هذه الضاحية. قالت الأم: لا أري ضيرًا في وجودها هنا أبدًا فقد اعتدنا منظر الخيام في مدينتنا وخاصة في مناطقها البعيدة.

قال الأب وكأنه لم يسمع ما قالت زوجته: إنها تشوّه هذه الضاحية الجديدة.

قالت الأم: إنها عند سفح المرتفع ونحن لا نراها من مجلسنا هذا. نظر الأب والأم إلى ابنيهما الأكبر وهو ينضم إليهما في الشرفة بعد أن أفاق من قيلولته. تئاءب الابن فقال له أبوه: أراك ما تزال بحاجة إلى النوم يا عامر.

وقالت له الأم: اشرب القهوة لتصحو تمامًا وتعود إلى دروسك.

قال الأب: لقد وفّقنا كل التوفيق باختيارنا هذه الضاحية الجديدة، وهي لحسن الحظ لن تزدحم بالبيوت قبل سنوات.
قالت الأم: إنها ضاحية جميلة حقًا.
وهز عامر رأسه موافقًا.

عاد الأب يقول وهو ما زال يأمل أن يوافقه أحد على قوله: لكن الخيمة تفسدها للأسف. لقد أفسد هؤلاء البدو الضاحية في الأيام القليلة التي انقضت منذ قدومهم.

قال عامر بصوت ما زال يشي بالنعاس: لكن أصحابها يحتاجون إلى مرعى لماشيّتهم.

قال الأب: لماذا لا يذهبون إلى مكان بعيد عن البيوت؟
قالت الأم: لكن هذا المرتفع مليء بالعشب يا خيري فلماذا لا يستفيدون منه؟

قال الأب: من حق أصحاب الخيمة أن يجدوا مرعى لماشيّتهم بالطبع لكن بعيدًا عن البيوت.

قال عامر: سيرحلون في أواخر الصيف بطبيعة الحال.
قال الأب: يرحلون ثم يعودون وهكذا. إنهم لا يكفّون عن الترحال.
قالت الأم: هذه طريقة حياتهم منذ خلقهم الله.

قال الأب: لكن الحكومة تتبع سياسة توطين البدو منذ سنوات في ما أعلم.

قالت الأم: لم يتم توطينهم كلهم بعد.

قال عامر: وقد لا يتم. فبعضهم قد يتمسك بحياة البداوة رغم كل شيء.

قالت الأم: هذا صحيح فليس من السهل على البدو أن يتخلوا عن طريقة حياتهم التي تعود إلى ما قبل التاريخ.

قال الأب بحماس: لكن الحكومة تسعى إلى توطينهم في مدن وقرى صغيرة رغم ذلك. والسؤال هو: لماذا لا يتم الفصل بينهم وبين أهل المدن الكبيرة إلى أن يتم توطينهم؟ إن لكل من الطرفين طريقة حياة مختلفة أشد الاختلاف عن الأخرى، والجمع بينهما في مكان واحد شيء مزعج، شيء غير منطقي في نظري.

قال عامر: لقد عاش البدو والحضر جنباً إلى جنب منذ فجر التاريخ. قال الأب: نعم للأسف. لقد لازم البدو الحضر كظلم الكتيب منذ فجر التاريخ، وطالما اعتدوا عليهم وعلى زرعهم وممتلكاتهم. وهامهم قد نصبوا خيمتهم بجوارنا ونحن لم نكد نمضي في بيتنا الجديد شهراً واحداً.

قالت الأم وهي تنظر بعيداً: قبل حوالي عشرين سنة كنا نرى الخيام بجانب البيوت دون أن يفصلها عنها فاصل تقريباً. وكان ذلك شيئاً طبيعياً للغاية.

قال الأب: لقد ظل الطرفان متجاورين حتى الآن، لكن هذا لا يعني أن يظلا كذلك إلى أبد الأبد. لقد كبرت المدينة وتقدمت وأصبحت مدينة

حديثه لا مكان فيها للبدو والخيام. وهذه ضاحية سكنية يا هدى لا مخيم للبدو. إننا في المدينة لا في الصحراء.

قالت الأم: إننا في ضاحية على أطراف المدينة.

سكت الأب وكأنه ملّ من الجدل. أنهى شرب القهوة ونهض يريد الذهاب إلى عمله، لكنه وقف عند طرف الشرفة ثانية وقال مؤكداً رأيه الذي أعرب عنه قبل قليل: إن هذه الخيمة لا تمثل إلا التخلف وكل ما فيه من قبح. إنها تلتصق بالأرض منذ أن ظهر البدو على سطحها دون أن تتزحزح عنها قيد أنملة فكأنها تشد إلى الأسفل شداً. أما بيوت الضاحية فهي تتجه إلى أعلى كشأن البيوت كلها وتتطلع دائماً إلى الأمام. سكت برهة دون أن يرد عليه أحد ثم قال: سأراكم في المساء. قالت الأم: مع السلامة.

وقال الابن وهو يتمطى في مقعده: مع السلامة.

قالت الأم بعد ذهاب الأب: لا شك أن هذه الضاحية ستكون شديدة البرد في الشتاء.

قال عامر: إن وسائل التدفئة الحديثة متوفرة والحمد لله.

سكت برهة ثم قال: ومن حسن حظ أصحاب الخيمة المساكين أنهم سيرحلون قبل حلول الشتاء وبرده.

تجنب الأب الإشارة إلى الخيمة في اليوم الذي تلا ذلك الجدل العقيم. لكن جلسة العصر المعتادة في الشرفة تخللها بعد يومين صخب وضحك منبعثان من الحديقة الأمامية. وبعد قليل اندفع طارق ونور إلى

الشرفة وهما ما يزالان مستغرقين في الضحك. قالت نور ردًا على نظرة

التساؤل التي بدت في وجه والديها: الغنمة!

فصححها طارق الذي يكبرها قليلًا بقوله: الماعز!

قال الأب منزعًا: أي ماعز هذا؟

تسابق طارق ونور على رواية ما حدث، وهو أن ماعزًا مما يمتلكه أصحاب الخيمة القرية تسلق المرتفع حتى اقترب من سور الحديقة الأمامية فاستطاعا رؤيته عن كثب.

نظر الأب إلى الأم وقال: رأييت؟ لا شك أنه سيقترحم الحديقة في المرة القادمة.

فقالت الأم: لا أظن هذا ممكنًا مع وجود الحارس.

قال الأب: بل هذا ممكن جدًا. فحيوانات البدو تعتدي على المزارع والحدائق منذ القدم. وطالما اضطر المزارعون إلى هجرة مزارعهم بسبب ذلك.

قالت الأم: لكن مهمة الحارس هي الحيلولة دون ذلك، ولا شك أنه قادر على القيام بمهمته.

عاد الأب يقول: إن البدو لا يؤمن شرهم.

قال عامر وكان قد خرج إلى الشرفة لتوّه لأخذ استراحة قصيرة من الدراسة: كان هذا في الماضي يا أبي، أما الآن فقد اختلف الأمر.

قال الأب: ما الذي اختلف؟

قال عامر: السلطات أقدر على تأديبهم الآن.

قال الأب: وماذا تستطيع لهم السلطات؟ إنهم أصحاب نفوذ كما نعلم جميعًا.

ثم سأل الأب طارق ونور: وماذا حدث للماعز بعد ذلك؟
قالت نور: جاءت الفتاة وعادت به إلى الخيمة.

فقالت الأم للأب: رأيت؟

بعد لحظات قالت نور وقد هدأ انفعالها وتغير تعبير وجهها: لماذا لا نعطي الفتاة ثوبًا جديدًا بدلًا من ثوبها الممزق؟
قالت الأم: لسوف نفعل هذا بالتأكيد. فنحن دائمًا نتصدق على الفقراء.

قال الأب: لكن إياكما والكلام مع الفتاة.

عاد طارق ونور إلى الحديقة بعد قليل فقال الأب للأم: ما كنت أحب أن تواجه نور فقر الفتاة المدقع في هذه السن الصغيرة.

قالت الأم: لم تعد نور صغيرة فهي في الحادية عشرة من عمرها تقريبًا.
ثم إن الفقر شيء طبيعي في كل المجتمعات.

وقال عامر: وطالما رأينا القصر والكوخ جنبًا إلى جنب وقرأنا عنهما في القصص.

قال الأب: إن الفقر بشع، وهذه الخيمة تصوره أسوأ تصوير. ليت الفقر يُمحي من على وجه البسيطة.

قالت الأم: إن الفقر قديم لا يمكن محوه في ما أظن، لكن الأغنياء يحاولون التخفيف منه ما أمكن.

قال الأب: الفقر يمكن محوه. إن ما تقولينه يمثل النظرة التقليدية. لقد قبلنا بالفقر كظاهرة اجتماعية لا بد منها حتى الآن. ولقد آن الأوان للحاق بالدول المتقدمة والنظر إليه كافة اجتماعية يجب استئصالها.

قال عامر: لكن الدول المتقدمة لم تنجح في استئصاله حتى الآن.
قال الأب: سوف تنجح في نهاية الأمر. وسوف يتم القضاء على الفقر في المستقبل.

قال عامر: كيف؟

قال الأب: العمل هو الحل الأساسي. القضاء على الفقر لا يكون إلا بالعمل.

قال عامر: ليست المسألة بهذه البساطة يا أبي.

قال الأب: أعلم أنها ليست بهذه البساطة لكن المبدأ سليم. العمل هو الوسيلة الأساسية للقضاء على الفقر، والتربية هي الوسيلة الأساسية لغرس هذا المبدأ في النفوس والعقول. الإحسان واجب لكنه لا يقضي على الفقر ولا يصون الكرامة. والحل الحقيقي هو العمل.

قال عامر: ليس العمل هو الحل الحقيقي دائماً يا أبي.

قال الأب: انظر إليّ فأنا برهان حي على ما أقول. لقد كافحت لانتشال نفسي من الفقر ثم التغلب عليه ونجحت. وها هي شركتي تنافس أهم الشركات في المنطقة بأسرها. وأنا أعتقد أن كل فقير قادر على تحقيق ما حققت.

قال عامر: انظر إلى هؤلاء البدو. إنهم يعملون لكنهم فقراء.

قال الأب: وماذا يعملون؟

قال عامر: إنهم رعاة.

قال الأب: أتسمي هذا عملاً؟ إن الرجال يقضون وقتهم في الحديث والتدخين وشرب القهوة ويتركون العمل لأطفالهم ونسائهم. هؤلاء قوم معروفون بالكسل منذ قديم الزمان، والكسل من أكبر الرذائل. ولقد انتقلت عدواه منهم إلى أهل المدن والقرى. إن العمل الذي أعنيه هو العمل الجاد المخلص الذي يوجهه العامل نحو غاية محددة دون أن يكل أو يمل. العمل الذي أعنيه هو ذاك الذي ينبع من الإرادة الفردية، من المبادرة الفردية. هذا هو الحل الوحيد للفقر مهما كانت أسباب الفقر.

قال عامر: لكن بعض الناس غير قادرين على العمل بسبب المرض أو العجز أو غير ذلك.

قال الأب: هذه استثناءات يجب أن تؤخذ بالحسبان طبعاً. ليس كل الناس قادرين على العمل أو عارفين بطرقه أو راغبين في بذل الجهد اللازم له. الإرادة الفردية لا تكفي وحدها دائماً بل لا بد لها من دعم يُستمدُّ في أحيان كثيرة من الجماعة، أو من التخطيط الحكومي الذي يُعدُّ الناس للعمل ويخلق الفرص له. لكن الاستفادة من الفرص في حد ذاتها لا تتحقق إلا بالشعور الفردي بالمسؤولية ولا تتم إلا بالعزم الذي يدفع الإنسان إلى الأمام. أي أن الاستثناءات التي ذكرتها لا تغير من القاعدة شيئاً. وهذا ما أقوله دائماً.

قال عامر: إن هذه الراعية وأخاها لا يعملان فقط بل يقومان بوظيفة أساسية في اقتصاد البلد وهي تربية الماشية. ولقد قرأنا في كتبنا المدرسية أن البدو يُسدُّون خدمة هائلة للبلد بهذه الطريقة. وأقل ما يستحقونه من مكافأة هو عدم الحيلولة بينهم وبين المراعي.

قال الأب: لا بد من تربية الماشية بالطبع، لكن هذه الوظيفة يجب أن تتم بطريقة منظمة بعيداً عن المدن والبيوت والمزارع. يجب أن تُخصص لهذه المهنة مناطق معينة كما تخصص للمصانع. وفي البلد أراض كثيرة صالحة لهذا الغرض. إن الصراع بين البدو والحضر أزلني، ووجودهما جنباً إلى جنب يؤدي إلى المشاكل حتماً.

بعد أن أنهى الأب حديثه استدعى الحارس وطلب منه بصرامة شديدة ألا يسمح للبدو أو لحيواناتهم بالاقتراب من البيت والحديقة إطلاقاً. ثم ذهب إلى عمله.

نصب البدو خيمتهم في سفح المرتفع المغطى بالعشب الكثيف في أوائل الربيع. رعت المعز الخمسة التي يمتلكونها في أرجاء المرتفع بحرية يحرسها كلب هزيل قلما ينبح، لكنها كانت تكتفي أحياناً بالرعي حول الخيمة قرب الحمار المربوط إلى وتدها. لم تكن الخيمة بعيدة عن بيت أبي عامر أو البيت الكبير كما كان يسمى مع أنه يقع في قمة المرتفع لأن المرتفع نفسه لم يكن شاهقاً، فكان من السهل على سكانه أن يروها إذا وقفوا عند حافة الشرفة أو عند سور الحديقة الأمامية. لم يهتم أحد من

سكان البيت الكبير بالخيمة أو أصحابها باستثناء الأب. أما بعد أن رأى طارق ونور الماعز عن كذب فقد كثر حديثهما عنه وعن الراعية، كما كثر وقوفهما عند السور للنظر إليهما. كانت الفتاة التي في مثل عمر نور ترعى المعز في أكثر الأحيان، وكان أخوها الذي يكبرها قليلاً يرعاها أحياناً أخرى. لم ير طارق ونور بقية سكان الخيمة، لكنهما رأيا الأم في أحد الأيام وهي تقوم بعمل من أعمالها خارجها.

لكن اهتمام طارق ونور بالماعز والراعية سرعان ما فتر عندما شُغلا بالأرجوحة التي نُصبت في الحديقة الخلفية. مع تحسن الطقس انتقلت الجلسات العائلية من الشرفة إلى الحديقة الخلفية بالتدريج. لكن الأم ظلت تقوم بجولاتها المنتظمة في الحديقة الأمامية لتفقدّها والإشراف على البستاني وهو يمد الخيوط على السور ليسهل على الزهور والنباتات تسلقه. وكان الأب يتفقد الحديقة عندما يجد فسحة من الوقت لأنه كان مولعاً بها كزوجته.

كان طارق ونور يجلسان على الأرجوحة ذات أصيل وبقرهما عامر عندما سمعوا الحارس يصيح صياحاً مدوّياً في الحديقة الأمامية ويقول: لا! لا! هيا! هيا! خذيه يا بنت! أبعديه يا بنت! هيا! هيا! ثم سمعوه يهشّ على حيوان. هرع عامر إلى الحديقة الأمامية وقد خمّن ما حدث ولحق به طارق فوجدا الحارس الضخم في أشد حالات الانفعال والسباب ينهال من فمه. وبالقرب منه كان البستاني منحنيّاً على حوض للزهور ليصلح الخيوط التي تهدلت أو تهمتكت بعد أن كانت تمتد على السور. وفي وسط

الحوض ارتمت بقايا ممزقة من أغصان رقيقة غضة كانت تتسلق السور وتصل إلى منتصفه.

عندما علم الأب بالأمر في مساء ذلك اليوم صبّ جام غضبه على الحارس ثم التفت إلى زوجته وقال: أرأيت؟
التزمت الأم الصمت فاستطرد قائلاً:

- ها قد تحققت مخاوفي واقتحم الماعز الحديقة.

في صباح اليوم التالي اتصل أبو عامر بمخفر شرطة الضاحية وطلب التحدث إلى قائده. روى له ما كان من اعتداء الماعز على النباتات التي تتسلق سور الحديقة، وشرح له خطورة الحادث وما تكلف العناية بالنباتات من جهد ومال، ثم طلب إجلاء أصحاب الخيمة عن سفح المرتفع.

لكن جواب القائد جاء واضحاً: إن الضرر طفيف لا يستدعي الإجلاء ولا يوجد في القانون ما يبرره. ثم إن الرعي عند ذلك السفح قد يكون مورد الرزق الوحيد لأصحاب الخيمة في هذا الوقت الهام من العام.

اختتم القائد حديثه مؤكداً أن القانون يضمن للبدو حرية التنقل شريطة عدم مخالفته، واقترح على أبي عامر تشديد الحراسة على الحديقة أو مدّ أسلاك شائكة حول سورها.

فقال له أبو عامر: لا يمكننا تشديد الحراسة أكثر مما فعلنا، ولا يمكننا مدّ أسلاك شائكة لأنها ستشوه منظر السور.

لكن القائد تمسك بموقفه وأنهى المكالمة.

التفت أبو عامر إلى زوجته وقال: هذا كلام عجيب حقًا! أسلاك شائكة؟ وهل نحن في سجن أو معتقل؟ نظرت إليه زوجته نظرة خاطفة دون أن تقول شيئًا تجنبًا لجدل آخر، لكنها رأت في كلام القائد منطقًا متوقعًا ومقبولًا. إنها حريصة على الحديقة ونباتاتها بالطبع، ولقد آلمها تمزق تلك الأغصان، لكنها لا تحب أن ترى أصحاب الخيمة يطردون من هذا المرعى الخصب لسبب كهذا. وهي لا ترى مانعًا من مد أسلاك شائكة على السور؛ فمن شأنها أن تحمي البيت والحديقة من أخطار ممكنة في هذه المنطقة قليلة السكان.

بادر أبو عامر إلى الاتصال بضابط كبير في قيادة شرطة العاصمة يعرفه منذ زمن ويعتبره من أصدقائه. لم يجده فاتصل به ثانية بعد قليل، لكنه لم يجده في تلك المرة أيضًا فقرر تكرار المحاولة في العصر. عندما نهض من قيلولته سارع إلى الاتصال بصديقه الضابط فوجده لحسن الحظ. شرح له مشكلته بالتفصيل وطلب منه المساعدة في إجلاء أصحاب الخيمة عن ذلك السفح مؤكدًا حرصه على عدم إيذائهم في معاشهم، فوعده صديقه الضابط خيرًا. توجه أبو عامر إلى الحديقة الخلفية حيث كانت القهوة تنتظره وأخبر زوجته وأبناءه بوعده الضابط. لم يتكلم أحد في بادئ الأمر ثم قالت نور:

- إلى أين يذهب هؤلاء البدو المساكين؟
لم يجبها أحد فعاتت تقول: سأحزن لرحيلهم.
قال طارق: وأنا أيضًا.

قالت نور: ليتهم يبقون. سوف أفقد الماعز والراعية.

فقال عامر: ليتهم يبقون فعلاً.

وأخيراً قالت الأم بحذر وهي ما تزال تتحاشى الجدال مع زوجها: إني لا أرى ضيراً في مد الأسلاك الشائكة على السور ففيها حماية من أخطار شتى.

فأجاب الأب بحزم: لن نضع أسلاكاً شائكة اتقاء لخطر المعز. فليس للمعز مكان هنا، ولا للبدو. إني لم أبن هذا البيت لأصبح جاراً للبدو.

قال عامر متردداً: ماذا سيقول عنا أصحاب الخيمة يا ترى؟

قال أبوه مؤكداً: ثق أي لا أريدكم بسو، بل أنا مهتم بأمرهم كل الاهتمام. كل ما أريده هو أن يرحلوا. ولا شك أنهم سيجدون مرعى آخر لا يقل خصباً عن هذا.

قال عامر: إننا يا أبي نحرمهم من المرعى في الوقت الذي تجود فيه الطبيعة على الجميع.

قال أبوه بلهجة حاسمة: هذا يعني أن المراعي الخصبة كثيرة جداً في هذا الوقت من العام.

في اليوم التالي طرق الحارس الجديد الباب وقال لعامر: ها قد جاءت سيارة شرطة إلى باب الخيمة. سأنزل لملاقاتها كما طلب مني سيدي أبو عامر.

هرع طارق ونور إلى سور الحديقة الأمامية لمشاهدة ما يحدث وقد أنساهاما الاهتمام بأمر البدو تخوّفهما من ذلك الموقف الذي لم تسبق لهما مواجهته. وقف معهما عامر بضع دقائق ثم عاد إلى داخل البيت. ما لبث طارق ونور أن رأيا شرطين ينزلان من السيارة في الوقت نفسه الذي كان فيه الحارس يهبط المرتفع وهو يحمل كيسًا كبيرًا في يده. وقف الشرطيان بباب الخيمة بينما وقفت الراعية وأخوها غير بعيد منهما. كفت المعز عن تسلق المرتفع والانتشار فيه وتجمعت حول الراعيتين وكأنها تريد متابعة ما يجري هي الأخرى. ثم راحت تقضم العشب ببطء وتردد والكلب لا يفارقها. بعد قليل خرج من الخيمة رجل كبير في السن لم يسبق لطارق ونور رؤيته فقدّرا أنه الأب. في هذه الأثناء كان الحارس قد وصل إلى الخيمة فصافح الشرطين وتبادل معهما بعض الحديث. بدأ الشرطيان يتكلمان مع الأب الذي وقف بهدوء وقد انحنى ظهره. علا صوتهما أثناء الحديث وراحا يشيران إلى المعز وإلى المرتفع والبيت الكبير بكثير من الانفعال. راح الحارس يتكلم بصوت عال هو الآخر موجّها كلامه للشرطين تارة وللأب تارة أخرى في محاولة منه لمساعدة الشرطين في مهمتهما. بدأ الأب الكلام بصوت خفيض لم يسمعه طارق ونور. طال كلامه بعض الشيء وكأنه يجد صعوبة فيه ثم سكت، فبدأ الشرطيان يصيحان وهما يشيران إلى لجهة المقابلة للمرتفع وكأنهما يقصدان مكانًا معينًا.

جاءت العاملة المنزلية تدعو طارق ونور إلى تناول طعام الغداء لكنهما رفضا واستمرا في وقفتهما عند السور. ظلت الراعية وأخوها واقفين في مكانهما وكأنهما ممسمران إليه، وراحت نور تتخيل خيبة أملهما وربما أساهما. بعد قليل هجم الشرطيان وهما ما يزالان يصيحان وأمسكا بعمود الخيمة يريدان اقتلاعه تمهيدا لتقويضها فرفع الأب يديه في ما يشبه الفزع ثم عاد يتحدث بهدوء. لكن الشرطيين قاطعاه وهما لا يكفّان عن الصياح وعادا إلى محاولة اقتلاع العمود. أخيرا دخل الأب الخيمة متثاقلا، وبعد قليل خرج منها فحلّ وثاق الحمار وساقه إلى بابها وبدأ يتناول حاجيات من داخلها فيضعها على ظهره كيفما اتفق. ظل الأب ينقل الحاجيات مدة وهو يتعثر في حركته ويكاد يفقد توازنه. هنا اقترب منه الحارس وبدأ يحدثه بهدوء وكأنه ندم على ما كان من صياحه، ثم راح يشير إلى الجهة المقابلة للمرتفع كما فعل الشرطيان. وفي نهاية حديثه أعطاه الكيس الذي كان يحمله.

خرجت الأم من الخيمة بخطى ثقيلة هي الأخرى. عندئذ شرع الشرطيان في تقويض الخيمة التي تكشفت عن أرض رمادية أو سوداء ما تزال بعض الأوعية والخرق تتناثر فيها. جمعت الأم الأوعية ووضعتها على ظهر الحمار، ثم جمعت الخرق ووضعتها في كيس. قاربت ترتيبات الرحيل نهايتها والكل يلزم الصمت، لكن الشرطيين والحارس كانوا يرقبون ما يجري أمامهم بكل اهتمام. أخيرا وُضعت الخيمة على ظهر الحمار بعد أن طواها الشرطيان بمساعدة الحارس. ركب الأب الحمار

بصعوبة ووقفت الأم إلى جانبه وهي تحمل كيسًا على كتفها وآخر في يدها. وقف خلفها الراعيان الصغيران وقد تجمع حولهما القطيع والكلب. قبل أن يتحرك الحمار اقترب الشرطيان والحارس من الأب فتبادلوا معه بضع كلمات وكأنهم يودعونه أو يطيّبون خاطره، ثم بدأت الرحلة.

عاد طارق ونور إلى الحديقة الخلفية وجلسا على الأرجوحة صامتين، لكن طقطقة الأوعية المحمولة على ظهر الحمار ظلت تتردد في مسامعهما. لم يشعر براغبة في تناول طعام الغداء غير أنهما أكلا بضع لقيمات بعد إصرار أمهما. وصل الأب بعد قليل فاستقبله الحارس عند بوابة الحديقة وأخبره بما كان دون أن يغفل أيًا من التفاصيل. عندئذ سأله الأب: والكيس؟ هل تذكرت أن تعطيهم الكيس؟

أجاب الحارس بالإيجاب فبدا على الأب الارتياح ودخل إلى غرفة الطعام حيث كانت تنتظره زوجته. وفي العصر شرب قهوته بنّفس الارتياح الواضح.

لم تعد نور تقترب من السور لأنها لم تُرد شيء أن يذكرها برحيل البدو. لكن المرتفع الخالي كان هو نفسه يذكرها بذلك الرحيل. كثيرًا ما كانت تخال أنها تسمع طقطقة أوعية لا تلبث أن تخفت بالتدرّج، وعندئذ تستعيد منظر الأب والأم وهما يجمعان حاجياتهما القليلة ويضعانها على ظهر الحمار، ثم منظر الراعية بشعرها المشعث وقدّها الهزيل وساقها العاريتين، ثم منظر أخيها الواقف بجانبها منكس الرأس. كانت الذكرى

تؤلم نور فتمنى لو تستطيع اللحاق بأولئك المساكين لتطيب خاطرهم وتعرب لهم عن أسفها لرحيلهم. لكنها كانت تتذكر الكيس الذي حمله إليهم الحارس فترجو أن يكون فيه بعض ما ينسيهم الأذى الذي لحق بهم. شُغلت نور بعد يومين بالاستعدادات للحفلة التي ستقام بمناسبة الانتقال إلى البيت الجديد. واطبت الأم بدورها على جولاتها اليومية في الحديقة للتأكد من أنها ستبدو في أبهى مظهر ممكن يوم الحفلة. كانت الزهور قد نمت بشكل ملحوظ خلال الأسابيع القليلة التي انقضت منذ انتقالهم إلى البيت. كما ترعرعت النباتات المزروعة حول قاعدة النافورة الضخمة فصارت تغطيها وتلتف حولها. أما الأغصان التي مزقها الماعز فقد بدأت تتسلق السور بعزم جديد. قبل الحفلة بثلاثة أيام كانت الأم تتفقد الشجيرتين المزروعتين على جانبي مدخل البيت عندما سمعت جلبة هائلة في المرتفع. وقف البستاني عند السور لاستطلاع الأمر. ، وبعد لحظات اندفع الحارس من كوخه وخرج من البوابة على عجل. استمرت الجلبة واتضحت أصوات صبية ورجال تختلط بالثغاء والنهيق والنباح. استغربت الأم فسألت البستاني: ماذا حدث؟

فأجابها في حيرة وهو ما زال ينظر إلى المرتفع: لا أدري والله.

ذهبت الأم إلى حيث كان يقف فرأت المرتفع وقد امتلأ بقطيع كبير من المعز يرتع فيه بينما كان بعض الصبية يركضون في أنحائه ويقفزون بين المعز وهم بين صياح وضحك. ثم راحوا يتدحرجون إلى سفح المرتفع ويتسلقونه ثانية وهكذا. وعند السفح وقف ثلاثة رجال أشداء يصيحون

بدورهم وقد وضعوا خيمة على الأرض تمهيداً لنصبها. وبجانبتها جلست ثلاث نساء وحولهن كلبان ضخمان وحماران. كان الحارس قد وصل إلى حيث وقف الرجال فبدأ بينهم الحديث. وسرعان ما علا صوت الرجال الثلاثة وهم يردون عليه. استأنف الحارس الحديث لكن صوته ضاع بين أصواتهم ثانية وبدأت محاولاته للشرح والإقناع غير مجدية. كان من الجلي أنه ليس كفؤاً لهم رغم ضخامة جسمه وغلظة مظهره، غير أنه استمر في محاولاته مستعيناً بحركات رأسه وإشارات يديه. سرعان ما تطور الموقف فأمسك أحد الرجال الثلاثة بتلابيبه ودفعه ثانٍ في ظهره ثم أحاط به الثلاثة وهم يرفعون قبضاتهم في الهواء، غير أنه استطاع الإفلات منهم بحركة سريعة إلى الوراء. ظل صياح الطرفين يدوي لكن دون أن يؤدي إلى أي تفاهم. وأخيراً أخرج أحد الرجال بندقية من تحت الخيمة صوبها نحو الحارس الذي تجمد في مكانه وانعقد لسانه. بعد أن استوعب الحارس الصدمة انسحب تاركاً الرجال في صياحهم وتهديداتهم، وعاد يتسلق المرتفع وهو يجرّ أذيال الخيبة. دخل إلى الحديقة وقد أظلم وجهه من الغضب واتجه إلى كوخه مباشرة غير ناظر إلى أحد.

هز البستاني رأسه أسفاً لتلك الروح العدوانية. صدمت الأم هي الأخرى وراحت تنتظر عودة زوجها ليستوضح الأمر. عجب الأب أشد العجب لما سمعه من زوجته لكنه كان على يقين أن في الأمر خطأ ما. اتصل بصديقه الضابط في عصر ذلك اليوم وكله ثقة أنه سيبادر إلى معالجة هذا الموقف الجديد لكنه لم يجده. اتصل به بعد ساعة فلم يجده أيضاً.

اتصل مرة ثالثة فلم يصب نجاحًا. قدّر أن صديقه الضابط مشغول بواجباته الكثيرة فأرجأ الموضوع للغد.

في صباح اليوم التالي بدأت الجلبة في المرتفع في ساعة مبكرة، وعاد صراخ الصبية يختلط بصياح الرجال وأصوات الحيوانات من جديد. كانت الأم في الحديقة كعادتها فرأت الصبية أنفسهم يتضاربون ويتبادلون الشتائم بأعلى أصواتهم، بينما وقف الرجال الثلاثة عند سفح المرتفع يتجادلون في ما بينهم ويصيح كل منهم على الآخر. ثم اندفع أحدهم فجأة فتسلق المرتفع في لمح البصر وراح ينهال على الصبية بالضرب حتى علا عويلهم. انتهى الشجار وهدأ الضجيج، لكن الصبية عادوا بعد قليل إلى الركض في أنحاء المرتفع ثم التدرج إلى سفحه وتسلقه مرة ثانية وهم يصخبون كعادتهم. وما لبث صياحهم أن تحول إلى أهازيج يرددونها وهم يصفقون ويرقصون على أنغامها. كان من الواضح أن أولئك القادمين يشعرون براحة تامة في مستقرهم الجديد وأن إقامتهم فيه قد تطول. لم يكن قطيعهم أقل منهم جسارة وصخبًا، فقد راحت المعز تتقافز في أنحاء المرتفع بحرية وخفة زائدتين وقد علا ثغاؤها. وكانت في أثناء ذلك تقترب من سور البيت الكبير حتى لتكاد تقتحم حديقته. بدا البستاني متهيئًا من ممارسة عمله في ذلك اليوم، وشعرت الأم بالتخوف من الحفلة المرتقبة التي لم يبق على موعدها إلا يومان، وراحت تسائل نفسها عن الحكمة في إقامتها بينما البدو يعيشون فسادًا قرب البيت دون رادع.

اتصل أبو عامر بصديقه الضابط ثانية في ذلك الصباح فأخبره عامل المقسم أنه غير موجود. عندئذ طلب أن يتكلم مع نائبه أو مساعده. شرح أبو عامر المشكلة للمساعد وأكد له أن عطوفة الضابط فلاح استطاع حل مشكلة مماثلة قبل أيام بسرعة وبساطة، أنهى شرحه بطلبه من المساعد إسداء الخدمة نفسها وإرسال الشرطيين للقيام بها، فوعده المساعد بإرسالهما في منتصف النهار. تنفس أبو عامر الصعداء وقرر انتظار الشرطيين في البيت للتأكد من قيامهما بالمهمة على الوجه الذي يريد، واكتفى بإصدار تعليمات هاتفية لنائبه في الشركة تتعلق بأعمال ذلك اليوم. في الساعة الواحدة بعد الظهر تقريباً جاء الحارس يخبر أبا عامر بوصول الشرطيين فعرف هذا أن المشكلة قد قاربت الحل. وقف الحارس عند السور يرقب ما يجري متشقيماً في أولئك البدو الذين أذلوه بالأمس. فكر في تحديهم بالنزول واستقبال الشرطيين وتقديم المساعدة لهما كما فعل في المرة الماضية، لكنه عدل عن الفكرة ولزم مكانه. وقف البستاني عند السور هو الآخر لكنه عاد إلى عمله عندما رأى أن المجابهة بين الشرطيين وأصحاب الخيمة الجديدة قد طالت. كانت أصوات الرجال عالية تعبر عن سلطة الشرطيين وعن بأس البدو ومشاعرهم الحادة، لكنها خلّت من تلك الروح العدوانية الفجة التي أبدّاها البدو في مواجهتهم مع الحارس. بعد أكثر من نصف ساعة هدأ الصياح قليلاً وتحول إلى حديث متوتر طال بدوره. نفذ صبر الحارس فأوشك أن يهبط المرتفع ليعرف ما يجري عن كثب، لكنه ما لبث أن رأى الشرطيين

يصعدان المرتفع في طريقهما إلى البيت الكبير. دخلا إلى الحديقة الأمامية وطلبا مقابلة صاحب البيت.

استغرب أبو عامر طلبهما ذاك لكنه استبشر خيرا. رحب بالشرطين وشكرهما على جهودهما المثمرة التي بذلاها قبل أيام مع أصحاب الخيمة القديمة ودعاهما إلى الجلوس وشرب القهوة. لكنهما اعتذرا وقد بدا في وجهيهما الجد الصارم. سألهما عما حدث وهو يستغرب عدم مبادرتهما إلى زف الخبر السار إليه، فأجابه كبيرهما: لم نستطع إجلاء أصحاب الخيمة الجديدة.

قال أبو عامر وقد ازداد استغرابه: عجباً! ولماذا؟

قال الرجل: إنهم يرفضون الرحيل.

قال أبو عامر: لماذا؟ وكيف يرفضون؟ ألا تستطيعان إرغامهم كما أرغمتما من سبقهم؟

أجاب الرجل بهدوء وهو يتجنب نظرات أبي عامر: لا، فهم يقولون إنهم أقارب عطوفة الضابط فلاح، بل من أبناء عشيرته الأقربين. وهم يهددون برفع شكواهم إليه إن تعرض لهم أحد ثانية.

منخفض جوي

أغلق الأستاذ أكرم باب شقته على عجل وطرق باب الشقة المقابلة لكن دون أن يتلقى ردًا. هبط الدرج وهو يثبت قلنسوته على رأسه، ثم أحكم اللفّاع حول رقبة وارتدى قفازيه وشد معطفه السميك حول جسمه. لم ير أحدًا من سكان العمارة وهو يغادرها، لكنه لا يكاد يعرف أحدًا منهم على أي حال. توقف قليلًا خارج العمارة وهو ينظر في ساعته. الثالثة بعد الظهر. تلفّت حوله بحثًا عن حارس العمارة ليسأله عن انقطاع التيار الكهربائي فيها بعد أن عجز عن سؤال جيرانه، لكنه لم يره. أخرج هاتفه الخلوي، الخط مشغول. حاول ثانية، الهاتف مغلق حاليًا.

السماء ملبّدة بالغيوم البيضاء التي تخبئ في طياتها ما تخبئ، ومثذنة المسجد المجاور يكتنف أعلاها الضباب. قُبَّتْ تبدو باهتة الزرقة اليوم، ومن ورائها يمتد الفضاء الأبيض مثل بقاء شاسعة. قمم الأشجار الطويلة العارية تهتز متوعدة. المنخفض الجوي في طريقه إلى هنا بالتأكيد. سيزداد البرد ضراوة، خاصة في شقته التي لم يكتمل تأثيثها بعد. كان عليه أن يملأ خزان الوقود فيها قبل أيام، لكنه شُغل بأمر كثيرة أخرى. أخرج هاتفه الخلوي ثانية، الخط ما يزال مشغولًا، فالطلب على وقود التدفئة كبير في هذه الأيام.

مشى الأستاذ أكرم بسرعة متزايدة في الشارع الفرعي القصير وهو يتفادى النباتات المزروعة في وسط الرصيف. السيارات الرابضة أمام البيوت وعند جوانبها ازدادت عددًا في ذلك اليوم. سيارات كثيرة أخرى تزدهم في الأرض الخلاء القريبة لكنها خالية. إذا تمكن من اقتناء سيارة في يوم من الأيام فعليه أن يجد لها مكانًا في هذا الزحام. تذكر أنه نسي مظلته في البيت، لكن لا متسع من الوقت لديه الآن للرجوع لإحضارها، ولعله ينجو من المطر إلى حين عودته في المساء. وصل إلى الشارع الرئيسي فوقف ينتظر سيارة أجرة وهو يرتجف من البرد.

الشارع خالٍ إلا من شخص أو اثنين يظهران عن بعد ثم يختفيان فجأة في الشوارع الفرعية. حتى حراس العمارات الذين يجولون بينها عادة لا أثر لهم اليوم! حاوية القمامة الكبيرة تحتل مكانها على الرصيف المقابل وقد هجرتها القطط التي كانت تتجمع عندها قبل يومين. مرت سيارة أجرة تقل راكبًا واحدًا وتلتها سيارة مماثلة بعد دقائق ثم سيارة ثالثة فبدت له كلها مثل سجون متحركة. لبث الأستاذ أكرم واقفًا في مكانه يشير إلى سيارات الأجرة القليلة وهي تُقبل من بعيد قبل أن يكتشف وجود راكب أو أكثر في كل منها. أخرج هاتفه الخلوي ثانية، الخط ما يزال مشغولًا وربما كان معطلًا، وعليه أن يطلب من الحارس رقمًا آخر في الغد. نظر في ساعته متخوفًا من اقتراب الموعد، ثم قرر أن يمضي إلى آخر الشارع حيث تكثر سيارات الأجرة نسبيًا عند التقاطع، كما أن المشي سيخفف

من شعوره بالبرد. تحسس الأستاذ أكرم لفاعه وشد معطفه حول جسمه ثانية، وبدأ يمشي بخطوات سريعة رغم تعبته بعد ليلة عانى فيها من الأرق. البيوت في الشارع الرئيسي متشابهة كلها، أبوابها موصدة وحجارتها البيضاء تكسبها مزيداً من الصلابة وتؤكد حدودها وكأنها قلاع صغيرة. الحدائق التي عّراها الشتاء خالية تلوذ بالصمت. ألوانها الرمادية تمتزج بلون الحجارة فتزيد من مساحة الفضاء المحيط. الهدوء شامل لانهائي مثل ذلك الفضاء.

مرّ الأستاذ أكرم بالبقالة الوحيدة في الشارع الرئيسي فطالعه اسمها ثانية: سوبرماركت الأكرام. ألقى نظرة عجل على الصحف المعروضة عند بابها المغلق: حصار غزة مستمر، إسرائيل تُضيق الخناق على غزة، سقوط أربعة شهداء في غزة، اعتقال ثمانية فلسطينيين في الضفة، مبعوث السلام يصل إلى المنطقة يوم الأحد، السلام هو الحل الوحيد. من الضروري متابعة هذه الأخبار في التلفزيون الليلة، ولعل التيار الكهربائي يكون قد أُعيد وصله آنذاك، وهذا محتمل فانقطاعه لم يطل في المرة الماضية. لا أثر للصبيّة الذين أنس لرؤيتهم قبل يومين وهم يقفون عند باب البقالة لشراء الحلوى وغيرها. لكن صاحب البقالة يجلس في ركن بعيد مظلم منها وقد تكدست حوله البضائع رغم مساحتها التي لا تزيد على بضعة أمتار مربعة. عاودت الأستاذ أكرم الرغبة في تصحيح ذلك الخطأ الهجائي في اسم البقالة. لن يكلف الأمر كثيراً فهي همزة وحيدة

تُنْقَل من أعلى الألف إلى أسفلها لا غير، كما عاوده الغيظ لذلك الخطأ وكأن فيه استهانة باسمه أو ربما بشخصه.

ثابر الأستاذ أكرم على المشي السريع في الشارع الرئيسي الطويل وهو يتلفت إلى الخلف من حين لآخر بحثاً عن سيارة أجرة تقله إلى مواعده الذي ما فتئ يقترب. كان ذلك الخيط الواهي من سيارات الأجرة هو كل ما يربطه بوجهته، والخيط قد ينقطع في أي وقت كما يبدو. كما أن الحافلات لا وجود لها في هذا الحي. توقف في سيره فجأة وهو يرفع يده إلى رأسه ويستند باليد الأخرى إلى سور البيت الذي كان يمشي بمحاذاته. أغمض عينيه لحظات ثم فتحهما واستأنف سيره لكن ببطء. تلفت حوله لكنه لم ير أحداً في الشارع غيره. مرّ بمكتبة الأوسكار القرية من نهاية الشارع الرئيسي فرأى المجالات المعروضة عند بابها الزجاجي الملطخ بالبقع وقد غطت أغلفتها صور الممثلات. لا يتوقع الأستاذ أكرم أن يجد الكتب التي يبحث عنها في هذه المكتبة الصغيرة التي تحتل كراجاً آخر، ولا تزيد بضاعتها الهزيلة على القرطاسية إلا قليلاً. قد يجد ورق الطباعة هنا مثلاً لكن لا بد أولاً من إصلاح جهاز الكمبيوتر الذي سقط على الأرض أثناء نقل متاعه إلى شقته. دفاعاً عن غزة، قصة مدن ثلاث، مدينة الله. من الضروري أن يجد هذه الكتب قريباً. عند نهاية الشارع الرئيسي رأى الأستاذ أكرم سيارة أجرة مقبلة من بعيد، وكانت خالية.

كان الجزء السفلي من باب السيارة ملطَّخًا بالوحل من أثر المطر الغزير الذي هطل قبل أيام، كذلك كان ظهر المقعد الأمامي وأرض السيارة. انكمش الأستاذ أكرم على طرف المقعد الخلفي الذي ظهرت فيه بعض البقع والثقوب. كان مذياع السيارة يُثبِّت حديثًا حماسيًا عاليًا اضطرَّ معه إلى رفع صوته وهو يخبر السائق بوجهته. كاد يطلب من السائق خفض صوت المذياع قليلًا لكنه تذكر وجهه الصارم فلزم الصمت. وما لبث أن نفذت إليه رائحة مألوفة فهمَّ بفتح النافذة قليلًا غير أنه عدل عن ذلك خشية البرد. سرعان ما انتهى الحديث الإذاعي وأعقبته أغنية لا تقل عنه حماسًا تمجِّد الحرب وتفاخر بالشجاعة وتبشر بالنصر. تكاثفت الرائحة داخل السيارة فاستند الأستاذ أكرم إلى النافذة وهو يرفع يده إلى رأسه ويغمض عينيه. وعندما فتحهما بعد لحظات رأى عيني السائق في مرآة السيارة وهما تتفحصانه بحذر من تحت كوفيته الغبراء التي تلفُّ رأسه الكبير وتسدل أهدابها على كتفيه العريضين. اعتدل في جلسته وهو ينظر إلى يدي السائق الغليظتين المطبقتين على مقود السيارة. تحسَّس جيبه للتأكد من أنه لم ينس محفظة نقوده في البيت كما فعل في مرة سابقة، وشعر بالارتياح إذ وجدها.

الشوارع متشابهة هي الأخرى ولا يكاد يميز بينها إلا المتاجر المختلفة المتناثرة فيها. توقفت السيارة عند الإشارة الضوئية في شارع رئيسي قريب، فبدت السيارات المتجمعة هناك أقلَّ عددًا مما كانت عليه قبل

يومين. كان المارة القلائل يسرعون الخطى وكأنهم يحاولون اللحاق بشيء ما أو الهرب منه. لا أثر للكهل الأشيب الذي كان يسعى يومذاك بين السيارات المتوقفة لبيع ما بحوزته من الأدعية الدينية. كذلك اختفى بقية الباعة على اختلاف أعمارهم وبضائعهم. تزايدت السيارات في الشوارع مع ابتعاد الأستاذ أكرم عن الحي السكني المحيط ببيته، وعندما اقترب من وجهته كانت قد أضحت رتلاً طويلاً يتحرك ببطء عديد. نظر الأستاذ أكرم في ساعته. الساعة الرابعة تقريباً، لقد فات مواعده أو يكاد، وكان يمكن أن يصل قبل نصف ساعة على الأقل لو وجد سيارة أجرة بمجرد خروجه من بيته. لكن هذه السيارات المتزاحمة كانت ستحاصره على أي حال هنا دون أن يستطيع منها فكاً. توقفت السيارة أخيراً أمام مبنى عالٍ ذي واجهة زجاجية فنزل منها بسرعة وهو يللم ذبول معطفه كما فعل عند ركوبها. كانت العتمة قد بدأت تتخلل الفضاء، لكن الأمل راوده في العودة إلى بيته دون تأخير طويل.

سوى الأستاذ أكرم قلنسوته على رأسه أمام مرآة المصعد فرأى الشيب قد بدأ يوغل في شعره، ورأى وجهه محتقناً وعينيه محمرتين خلف نظارته. ذهب إلى وظيفة الاستقبال معتذراً عن تأخره ثم جلس على مقعد قرب الباب وهو يسند رأسه إلى الحائط. أغمض عينيه لحظات ثم فتحهما وهو يطمئن نفسه إلى أن الجالسين في الغرفة لم يلحظوا ما اعتراه؛ فموظفة الاستقبال مشغولة بأوراقها ومكالماتها الهاتفية، والشيخ الذي

يجلس في أقصى الغرفة يبدو شارد الذهن، والمرأة التي تجلس بجانبه تسدل على وجهها خماراً أسود سميكاً. وجد الأستاذ أكرم نفسه يطيل النظر إلى الشيخ ذي اللحية البيضاء والوجه الذي نهشه الزمن. أنس إلى ملامحه المألوفة وثيابه الطويلة الداكنة، ورآه مثل شجرة باسقة قد جادت بالكثير قبل أن تجفّ وتهرم. حوّل نظره عنه وقد طافت بذهنه صور مشابهة لأحباء رحلوا منذ زمن.

نادت موظفة الاستقبال الشيخ فقام يسير على مهل متوكئاً على عصاه، وتبعته المرأة وهي تتعثر في مشيها وتجرّ ذيل ثوبها الطويل الفضفاض على الأرض. تقدّمت الموظفة تساعدهما فبدت أصغر مما رأها قبل قليل. حاول أن يسترخي في مقعده الوثير الذي تمنى أن يشتري مثله لشقته، لكن شقته تحتاج إلى ما هو أكثر من المقاعد بكثير، وهو لا يدري من أين يبدأ. تصفّح بعض المجلات لكنه ما لبث أن وضعها جانباً. عاد إلى تأمل اللوحات الزاهية المعلقة على الجدران فتأكد أنها غير ذات معنى ينفذ إلى داخله. أخرج من جيبه كتيب الأدعية الدينية الذي اشتراه قبل يومين من الكهل فتمتم ببعضها ذاكرًا فيها أحباء بعيدين. لا بد من ملء خزان الوقود في أقرب وقت بعد انتهاء المنخفض الجوي، إذ لم يعد في الوقت متسع لملئه قبل ذلك. لا بد من تفقد خزان المياه في أقرب وقت أيضًا إذ إن المياه تنقطع هنا معظم أيام الأسبوع. لا بد من استدعاء الكهربائي لإعادة تركيب الأضواء في شقته على النحو الصحيح. لقد حاول اتباع تعليمات

المذيع فتزوّد بالطعام والشراب وغير ذلك من الضروريات، لكنه لم يستطع أن يُعدّ العدة لكل شيء. وهو أيضًا ما كان ليستطيع البقاء في البيت اليوم بناء على نصيحة المذيع أو أسوة بسكان الحي لأنه لا بد له من معرفة النتائج. تسارعت دقات قلبه ثانية فحاول أن يبعد النتائج عن ذهنه قليلاً. من مزايا المنخفض الجوي أن أمطاره ستروي هذه المدينة العطشى وكذلك سيفعل الثلج إن نزل. لكن الثلج سيزيد من برد هذه المدينة وشحوبها ويعمق الشعور بالفراغ. والثلج بعد هذا وذاك شيء لم يشهده منذ أن كان طفلاً.

طال مكوث الشيخ وامراته في الداخل فتذكر الأستاذ أكرم حرصه على الموعد وما كلفه ذلك من عناء. توقف الهاتف عن الرنين وساد الصمت في الغرفة. تكاثف الظلام في النافذة الكبيرة فبدا مثل وحش يكشف عن أنيابه. تلملم في مقعده وأخذ يحلم بالعودة إلى البيت ليحتمي من العاصفة الوشيكة مثل بقية سكان الحي. لا يعرف إن كان التيار الكهربائي قد أعيد وصله، وهو لن ينسى أن يسأل الحارس عن أمره في الغد.

رفع الطبيب رأسه لدى دخول الأستاذ أكرم. نهض وصافحه بابتسامة خفيفة ثم دعاه إلى الجلوس.

- كيف حالك اليوم؟

- الحمد لله.

- كيف تسير الأمور؟
- الحمد لله.
- ما رأيك في هذا الطقس؟
- بارد جداً، وهو شيء لم أعتده منذ سنوات طويلة للغاية.
- وهو للأسف قد يزداد برودة.
- عاد الطبيب ينظر في أوراقه فراح الأستاذ أكرم يتفحص تعبيرات وجهه ويتابع حركاته عسى أن يستشف أفكاره. خُيل إليه في لحظة من اللحظات أن وجه الطبيب يكتسي بتعبير من الجذال، وأنه يتردد في استئناف حديثه فراح يردد أدعيته المعتادة. رفع الطبيب رأسه ثانية وقال:
- هل ما زال الدوار يعاودك؟
- نعم.
- هل من تغيير في نمطه؟
- هو أخفُّ من ذي قبل قليلاً.
- هل ما زال يؤثر على حياتك؟
- نعم، فأنا لا أستطيع حتى التفكير في قيادة سيارة مثلاً.
- والأرق؟
- ما زال النوم يجافيني في بعض الليالي.
- هل من تغيير في نمطه؟
- هو أخفُّ من ذي قبل قليلاً.

- هل تأخذ الأدوية بانتظام؟
- نعم.
- هل تحسُّ بأعراض جديدة؟
- لا.
- قلب الطبيب أوراقه ثانية، فعاد الأستاذ أكرم إلى متابعة حركاته وهو يشعر بنفاد الصبر. وأخيرًا قال الطبيب بلهجة تشي ببعض الحيرة:
 - كل التقارير التي أمامي تقول إن نتائجك طبيعية.
 - حقًا؟
 - كل الفحوص التي أجريت لك تؤكد أنك سليم الجسيم.
 - حقًا؟
- شعر الأستاذ أكرم بشيء في داخله يستقرُّ في مكانه بعد أن كان يَمُور. استسلم لإحساسه هذا لحظات ثم قال:
 - ما سبب هذا الدوار إذن؟ إني لم أعانِ من الدوار قط قبل مجيئي إلى هنا.
 - لم يجبه الطبيب بل سأله بعد شيء من التمهّل:
 - متى جئت إلى هنا بالضبط؟
 - قبل شهر.
 - هل استقرت أمورك هنا؟
 - ليس بعد

- متى تبدأ عملك هنا؟
- بعد شهر واحد.
- عاد الطبيب إلى أوراقه يقلّبها. رفع يده إلى رأسه وكأنه يربت شعره الأسود اللامع، وبدا وجهه رائقاً وهو مستغرق في أفكاره. وأخيراً قال:
- هناك فحص آخر يمكن إجراؤه لك.
- فحص آخر؟
- هو فحص استُحدث مؤخراً وأصبح بالإمكان إجراؤه في مركزنا الطبي هذا.
- ألا تُعتبر الفحوص السابقة كافية؟
- يمكن الاكتفاء بها في الحقيقة، وهي تؤكد سلامتك من الأمراض كما قلت.
- إذن لماذا يُجرى لي فحص آخر؟
- قال الطبيب:
- هل أنت ممن يخافون الفحوص الطبية؟
- ربما كنت كذلك، لكن الفحوص السابقة كافية كما قلت.
- هذا الفحص الجديد سيعزّز النتائج التي توصلنا إليها.
- سكت الأستاذ أكرم برهة ثم سأل:
- هل تخفي عني شيئاً؟
- لا، لا، أبداً.

- إذن لماذا يُجرى لي هذا الفحص الجديد؟
- لنستبعد كل العوامل الجسمية الممكنة، وهذا سيزيد من اطمئنانك.

تمهل الطبيب قليلاً ثم أضاف:

- فأنت ممن يخافون المرض كما يبدو لي.
- ومن منا لا يخافه؟
- كتب الطبيب بضع كلمات في ورقة ناولها للأستاذ أكرم وهو يقول:
- لن يطول بك الانتظار فهذا فحص سريع تظهر نتائجه بعد يومين وعندئذ نقرر الخطوات التالية. في هذه الأثناء أرجو منك الاستمرار في تناول الدوائين.

ها هو ذا أمام فحص قد يسلمه إلى آخر وهكذا، وقد تستمر الفحوص إلى ما لا نهاية دون نتيجة، ناهيك عن التكاليف وعن القلق الذي يرافق الفحوص. لكن الأستاذ أكرم يعرف من ناحية أخرى أن هذا الدوار جديد عليه وأنه قد يكون ذا صلة بحياته الجديدة التي لم تستقر بعد، ولقد بدا له الطبيب وكأنه لا يدرك هذه الصلة تماماً.

كان المطر يتساقط خفيفاً عندما خرج الأستاذ أكرم من المركز الطبي بعد ساعة. توجه إلى الصيدلية في المبنى المجاور لشراء مؤونته الجديدة من الدوائين اللذين أوصاه الطبيب بتناولهما. وجد أحدهما دون الآخر

فطلب منه البائع أن يعود بعد يومين أو ثلاثة لاستلامه. لم يجد مظلة في الصيدلية فخرج إلى الشارع ونظر حوله بحثًا عن متجر قد يجد فيه ضالته لكنه لم يوفق. كانت السيارات على اختلاف أنواعها تملأ الشارع على شكل صفين يتحركان في اتجاه واحد دون أن يفصل السيارة الواحدة عن الأخرى فاصل. أضواءها تسطع فتضيء أرض الشارع السوداء المبتلة بينما يتطاير رذاذ المطر حولها ويتراقص. أضواء أخرى متفرقة تشرق في الأبنية التي تشق الفضاء مثل هياكل ضخمة بينما تحاول أعمدة الكهرباء عبثًا أن تمزق مواضع في القبة الهائلة الحالكة في الأعالي لتبدد شيئًا من ظلامها. لم تزد الأضواء على اختلافها عن كشف أجزاء متفرقة من الشارع دون أن تغلح في إيضاح معالمه بشكل عام.

مرت سيارات أجرة كثيرة وكلها تحمل ركابًا. راح الأستاذ أكرم يتنقل مع المنتظرين من موضع إلى آخر على الرصيف لعل التنقل يزيد من فرصة العثور على سيارة أجرة خالية. مشى بعكس اتجاه السيارات وتوقف قليلًا ثم مشى في الاتجاه الآخر. تذكر أن كثيرًا من الموظفين يغادرون أعمالهم في تلك الساعة من المساء كما قدر أن كثيرًا من الناس يعمدون إلى الهرب من العاصفة الوشيكة. وأخيرًا جاءت لحظة توقفت فيها كل السيارات وهي تهدر فبدت مثل موكب ضخم لا أول له ولا آخر. أصبحت كل السيارات على اختلاف أصنافها سواء، ولو كان يقود إحداها

في تلك الساعة لأصبح أسير ذلك الموكب مثل غيره تمامًا ولما استطاع التقدم نحو وجهته خطوة واحدة. لكن ذلك كان سيقه الرياح التي بدأت تنشط.

انتهز الأستاذ أكرم فرصة توقف السيارات فقطع الشارع إلى الرصيف المقابل ووقف هناك مع غيره من المنتظرين. لكنه سرعان ما اكتشف أن ذلك ليس أدعى لتحقيق غرضه. نزل إلى الشارع ومشى بين السيارات وهو يدقق النظر بحثًا عن سيارة خالية، فلم يتمالك نفسه حينئذ من تذكر ذلك المتسول الكهل الذي اشترى منه كتيب الأدعية الدينية قبل يومين. فجأة وجد نفسه يستند إلى أقرب سيارة وينحني فوق مقدمتها وهو يرفع يده إلى رأسه ويغمض عينيه فأطلق سائقها صرخة حادة من بوقها. فتح الأستاذ أكرم عينيه فرأى السائق يرمقه بنظرة تأنيب فعاد إلى الرصيف فيما كانت السيارات تتحرك ثانية. بعد قليل سمع صوتًا يقول عن قرب: هل أنت بخير؟

كان السائل رجلًا في مثل عمره. أجابه وهو يهز رأسه: نعم. لو سقط على الأرض عندما انتابه الدوار قبل دقائق لما استطاع أحد إنقاذه في ذلك الخضم. ولو صدمته سيارة آنذاك لما استطاعت سيارة الإسعاف اختراق ذلك الزحام للوصول إليه.

تجراً الأستاذ أكرم فسأل الرجل: ما العمل الآن؟

فأجاب الرجل: لا شيء سوى الانتظار.

تلفت الأستاذ أكرم باحثاً عن شرطي قد يشير عليه بشيء غير الانتظار فتذكر أنه لم ير شرطياً واحداً في ذلك اليوم. عاد يقول للرجل: لكن السيارات قد تنقطع عما قريب بسبب هذه الأحوال الجوية.

- يمكن الاستعانة بشرطة النجدة في الحالات القصوى.

- والحافلات؟

- لا توجد حافلات في هذا الجزء من المدينة. فمعظم الناس يفضلون استعمال سياراتهم الخاصة هنا.

قال الأستاذ أكرم لنفسه بمرارة: يا لها من مدينة مقطعة الأوصال حقاً. قرر أخيراً أن يمشي إلى بداية الشارع وليكن ما يكون. أسرع الخطى رغم تعبته حتى وصل إلى حديقة عامة صغيرة تذكر أنه مر بها في طريقه إلى المركز الطبي عصر ذلك اليوم. انعطف إلى أول شارع صادفه بعد تجاوز الحديقة وتوقف قليلاً ليلتقط أنفاسه. كان الشارع عامراً بالمتاجر والمكاتب والأبنية وحافلاً بالسيارات التي تذرعه جيئةً وذهاباً، لكنه كان أقل ازدحاماً من ذاك الذي خلفه وراءه. مرت سيارات الأجرة وكل منها يفرد لراكب أو اثنين كالمعتاد فأشار إليها بالحاح من يريد الركوب بأي ثمن حتى لو اشترك في سيارة واحدة مع غيره. بل كان على استعداد للركوب في أي مركبة. لكنه سرعان ما راح يهيئ نفسه لوقوف طويل على الرصيف قد لا يسفر عن نتيجة. ازداد المطر غزارة بالتدريج فيما كانت بعض المتاجر تغلق ابوابها والمارة يقلون عدداً. غادر الأستاذ أكرم مكانه

على الرصيف واحتمى في مدخل متجر لبيع الهواتف الخلوية قد أغلق لتوّه. انحشر في زاوية المدخل وقد ابتلت ثيابه. قد يسعفه الحظ فيرى شرطة النجدة وهم يجوبون الشوارع بحثًا عمن تقطعت بهم السبل من أمثاله، لكن ذلك احتمال بعيد. فكر في الانتقال إلى مدخل عمارة قد يستطيع حارسها مساعدته على نحو ما. ربما تمكن من قضاء ليلته في ردهتها على أن يتدبر أمره في الغد إن استطاع. إنه ما كان ليستطيع أن يعدّ العدة لمثل هذا الموقف إطلاقًا، وهو عندما غادر بيته عصر ذلك اليوم ما كان يحسب أبدًا أنه سيصعب عليه العودة إليه.

ركض الأستاذ أكرم متجهًا إلى أقرب عمارة والمطر المنهمر يحول بينه وبين الرؤية الواضحة. خيّل إليه أنه يسمع بوق سيارة فلم يحفل به. سمعه ثانية فالتفت وهو ما يزال يركض فرأى سيارة أجرة تتحرك بمحاذاته. كانت خالية لكنه ظن أن السائق يريد السؤال عن وجهة ما. غير أن السائق قال له: تفضل فاركب.

لم يجب الأستاذ أكرم وكأنه لم يفهم قول السائق فقال له الرجل ثانية: تفضل فاركب.

قال الأستاذ أكرم بعد تردد: أتريدني أن أركب؟

أجابه السائق: نعم. لقد رأيتك قبل قليل تشير إلى السيارات فرأيت أن أعود إليك بعد أن أوصلت الراكب الذي كان معي إلى وجهته.

جلس الأستاذ أكرم على طرف المقعد الخلفي فسأله السائق عن وجهته فأجاب: شارع الاتحاد، قرب مسجد الإيمان.
قال السائق قبل أن يحرك سيارته: سأتناقضى منك عشرين دينارًا لا غير.

كان ذلك المبلغ أضعاف ما دفعه لقاء رحلته إلى المركز الطبي لكنه وجد نفسه يقول: لا بأس.

قال السائق موضحًا وهو يطفئ العداد: إني في عجلة من أمري في الواقع لأن بيتي بعيد لكنني رأيت أن من واجبي أن أعود إليك في هذه الأحوال الجوية السيئة.

قال الاستاذ أكرم: شكرًا.

مضت السيارة إلى آخر الشارع حتى وصلت إلى طريق رئيسي مألوف، غير أنها ما لبثت أن انحرفت إلى شارع فرعي ثم إلى آخر. قال السائق موضحًا: إني كثيرًا ما أختصر الطريق بالسير في الطرق الفرعية.

استسلم الأستاذ أكرم لإرادة السائق عن طيب خاطر فما هي إلا نصف ساعة على الأكثر ويكون في بيته. بعد قليل بدا في الظلام برج أسود شاهق وكأنه ماردي يهدد بالانقراض. على واجهته الزجاجية المعتمة كانت تنعكس بعض الأضواء القليلة المجاورة، وعند قدميه تستلقى الشوارع السكنية الخالية وبيوتها التي تعد العدة للهجوع. أضواؤها قليلة هي

الأخرى والأشجار تتمايل على جانبيها كالأشباح. قطعت السيارة شبكة من الشوارع الجانبية لكن البرج ظل يهيمن عليها أينما اتجهت. طالت رحلة السيارة في تلك الشوارع الفرعية لكن دون أن تقترب من مسجد الأمان فقال الأستاذ أكرم للسائق يذكره: إن مسجد الإيمان لا يبعد كثيرًا عن الإشارة الضوئية في الشارع الرئيسي. فقال السائق: نعم، نعم.

أضاف الأستاذ أكرم مترددًا خشية إغضابه: يسميه البعض هنا بالمسجد الأزرق بسبب قبه الزرقاء. ليس من السهل أن يخطئه أحد. - طبعًا، طبعًا.

توقفت السيارة فجأة في منتصف الشارع وعادت أدراجها إلى أوله فقال السائق موضحًا: لقد تذكرت. المسجد من هنا.

انحرفت السيارة إلى شارع إلى اليمين ثم إلى آخر إلى اليسار، وراحت بعد ذلك تقطع شارعًا بعد شارع. كانت أحيانًا تنتهي إلى آخر الشارع ثم تعود إلى أوله لكن دون أن تبدو أية مؤذنة أو قبة. داخل الأستاذ أكرم شك في مقدرة السائق ثم في نواياه. بدأ الغضب يتسلل إليه لكنه حاول السيطرة عليه لأنه سيزيد الأمور تعقيدًا. لاذ بالصمت وأخيرًا قال السائق: كان يجب أن أذهب من تلك الجهة.

قال الأستاذ أكرم مجازفًا: لعلك لا تعرف المنطقة حق المعرفة.

- بل أعرفها. لكن لا أدري ماذا يحدث اليوم. المسجد قريب من هنا على أي حال. سأحاول ثانية.

خشي الأستاذ أكرم أن يعود السائق إلى الدوران في تلك الشوارع المتشابهة دون جدوى فقال له بحزم: قف مكانك. سأنزل هنا.

توقفت السيارة. استدار السائق وشيء من الشرود يبدو عليه. تجرأ الأستاذ أكرم ثانية وقال له: ألا ترى أن عشرين دينارًا مبلغ كبير خاصة وأنت لم توصلني إلى حيث أريد.

- بل أوصلتك. فالمسجد قريب جدًا من هنا والسيارة استهلكت الكثير من البنزين في هذه الرحلة الطويلة.

فقال الأستاذ أكرم لنفسه وهو يغالب خيبة أمله: وأين هذا المسجد الذي تتكلم عنه؟ فالشارع كان خاليًا من أي بناء يمكن أن يسمى مسجدًا كما أن الأستاذ أكرم لم ير أية مئذنة أو قبة قريبة أو بعيدة. لكن الشارع كان شبيهًا بشوارع حيّه وقد يكون قريبًا منه. إذن فقد يكون مسجد الإيمان قريبًا حقًا. عليه أن يبحث عن بقالة أو مكتبة أو صيدلية أو أي متجر فأصحاب المتاجر هم أدرى الناس بالأمكن في محيطهم. أو عن مسجد آخر. وقد تمر سيارة فيسأل سائقها. كان المطر قد توقف قليلاً فبدأ الأستاذ أكرم بحثه بشيء من الثقة.

أضواء الشارع متباعدة والظلام يتكدر فيما بينها. البيوت بكماء لا يصدر عنها صوت، أضواؤها قليلة باهتة، وسياراتها التي تصطف أمامها

تبدو وكأنها لم تتحرك منذ زمن. ومن حولها تهتز الاشجار وكأن أرواحًا شريرة تحركها. مشى إلى آخر الشارع فلم ير أي متجر. اتجه إلى شارع مواز فبدا له مماثلًا للشارع الأول. وصل إلى نهاية الشارع ثم عاد أدراجه واتجه إلى شارع مواز آخر. لم يسبق له رؤية تلك الشوارع كما أنه لم يسمع بأسمائها من قبل. كان الشخص الوحيد الذي يمشي فيها في تلك اللحظة بل الشيء الوحيد المتحرك هناك. فجأة بدت له تلك الشوارع وكأنها منظر في حلم قد يختفي في أي لحظة. لم يعد يعرف إلى أين يتجه لكن فكرة خطرت له فأخرج هاتفه الخلوي من جيبه. جاءه الصوت المؤلف فسأل: أنا الآن في شارع الإسراء فكيف أصل إلى العمارة؟

- ...

- لا أعرف فأنا لا أرى هنا أي معالم واضحة استدل بها.

- ...

- لا أرى حولي أي متجر أو صيدلية.

- ...

- شكرًا لك على كل حال.

الحارس جديد فعلاً ولا يتوقع منه معرفة المنطقة. وهو لا يريد أن يثقل عليه بمزيد من الأسئلة، لكنه لا يعرف شخصًا آخر يمكن أن يسأله. سار الأستاذ أكرم على غير هدى. ها هو ذا قد أصبح شريدًا في هذه المدينة بالإضافة إلى كونه غريبًا فيها، وهو شيء لم يخطر له ببال عندما

غادر بيته عصر ذلك اليوم. عاد المطر يتساقط خفيفاً فأسرع في سيره وجدّ في بحثه. فكر في طرق باب من تلك الأبواب التي يختفي نصفها في الظلام والسؤال عن مسجد الإيمان أو شارع الاتحاد لكنه شعر بالرهبة من صمتها العميق وربما بالخوف أيضاً. وخشي أن يصبح هو موضع خوف وشك بدلاً من أن يكون موضع شفقة. غير أنه كان يعرف ألاّ مهرب من الاستعانة بهؤلاء الناس في نهاية الأمر. ظل الأمل يراوده في رؤية شرطة النجدة في أحد الشوارع خاصة وأنه لم يستطع الاتصال برقم الطوارئ من هاتفه الخليوي. أخيراً رأى صيدلية، غير أنها كانت مغلقة. ثم بقالة. مغلقة هي الأخرى. ثم كنيسة شاهقة موصدة الأبواب. خيل إليه أنه يسمع محرك سيارة فالتفت ملهوفاً فرأى مؤخرة سيارة تختفي في شارع فرعي بعيد. عاد المطر إلى الهطول وعلا أنين الريح. لكن البرد كان أخف قليلاً مما كان عليه في العصر. كان يتوق إلى رؤية مئذنة، كان يتوق إلى رؤية أضوائها التي سيستدل بها إلى مسجد. ولن يصعب عليه بعد ذلك الاهتداء إلى مسجد الإيمان وإلى بيته. لكن المساجد كانت قليلة في ذلك الحي كما يبدو.

ثابر على السير بينما المطر يزداد غزارة ويشق لنفسه مجرى عند طرف الشارع. تشبعت قلنسوته بالماء الذي أخذ يقطر منها على لفاعه وكتفيه، وغشيت نظارته طبقة إثر أخرى من الماء حتى صعبت عليه الرؤية فارتطم مراراً بالشجيرات المزروعة في وسط الرصيف. لكنه لم يشأ أن يخلع

النظارة خشية أن تفوته رؤية المئذنة أو القبة إن فعل. كان يضطر أحياناً إلى النزول عن الرصيف بسبب الشجيرات أو الرمل أو الإسمنت المكوم في وسطه فيخوض في ذلك السيل العكر المتسارع الذي كان يقاوم خطواته ويزيد من صعوبة المشي. اصطدم فجأة بعمود الكهرباء فتوقف في مكانه وهو يتشبث بالعمود ويسند رأسه إليه. فتح عينيه بعد لحظات طويلة لكنه سقط على الأرض فوراً والدنيا تدور من حوله. تشبث بطرف الرصيف بكلتا يديه وتمكن بعد لأي من النهوض لكنه كاد ينزلق ثانية، فتوقف في مكانه محاولاً استعادة توازنه. عاد أخيراً إلى الرصيف لكنه لم يعد يقوى على المشي فلبث واقفاً وقد تشبعت ثيابه وحذاؤه بالماء وراح البرد يتغلغل في أعماقه. ارتعد لفكرة قضائه الليل أو جانباً منه على ذلك الرصيف فحاول أن يستجمع قواه، وبعد قليل بدأ يمشي ببطء شديد. فجأة دهمه ظلام مطبق فظن أنه دخل نفقاً أو سقط في حفرة عميقة لم يتمكن من رؤيتها بسبب نظارته المبتلة. لكنه تبين بعد لحظات بصيص ضوء مرتعش. ثم رأى أضواء مشابهة هنا وهناك. مشى في حذر بالغ وهو يشعر كمن هبط على كوكب آخر. كان الشارع خالياً كغيره لكنه قد يكون مليئاً بمخلوقات من عوالم أخرى تجوبه أو تطلّ من نوافذه دون أن يراها، وقد ينقضّ عليها أحدها من داخل هذه البيوت أو خارجها. لعله بدأ يهذي لكن المؤكد أنه بدأ يحس بالتعب من التحديق في الظلام ومحاولة الرؤية،

بل إنه بدأ يحس بالتعب من الظلام نفسه وكأنه مادة صلبة تثقل على جسمه.

وصل إلى نهاية الشارع فرأى شارعاً آخر كانت الشموع تحاول إضاءته جاهدة. مشى فيه والمطر ما زال ينصب فوق رأسه ويجهد في استنفاد كل مخزونه. قرر أخيراً أن يطرق باباً من تلك الأبواب المضاءة والسؤال عن شارع الاتحاد. هم باجتياز الشارع فلفت نظره باب في الجانب المقابل منه. كان مغلقاً مثل كل الأبواب المجاورة ومظلماً مثل معظمها لكنه كان ضيقاً واطئاً على نقيضها. عاد فنظر إليه وهو يقطع الشارع فرأى لافتة تعلوه: سوپرماركت الأكرام. إذن فهو في شارع الاتحاد نفسه، في الشارع الذي يقع مسجد الإيمان في نهايته، وما عليه إلا أن يمشي بضع دقائق ليجد نفسه في بيته. مشى بعكس اتجاه البقالة فتبين عن بعد وبصعوبة كبيرة مئذنة سامقة قد هجرتها الأضواء والتصقت بها قبة فقدت بعضاً من استدارتها في الظلام وتحولت زرقتها البهيجة إلى قتمة.

قطع الأستاذ أكرم الشارع الفرعي المؤدي إلى بيته والريح تزار، فرأى العمارة تكافح الظلام العاتي بالشموع كبقية بيوت الحي. دخل الردهة بخطى مترنحة والوحل يعلو ثيابه والماء يكاد يسيل منها وجلس على الدرج وهو يسند رأسه إلى ركبتيه. مر به الحارس بعد قليل وهو يتكلم في هاتفه الخليوي فأسرع إليه محاولاً إنهاضه. لم يستطع الأستاذ أكرم النهوض في البداية بل ظل جالساً على الدرج دون حراك فسأله الحارس:

هل أنت بخير. لم يجبه الأستاذ أكرم لكنه تحرك أخيراً ورفع رأسه فساعده الحارس على الوقوف ثم كرر سؤاله والانزعاج باد عليه: هل أنت بخير؟

هز الأستاذ أكرم رأسه بالإيجاب فقال الحارس:

- هل تحتاج إلى مساعدة؟

هز الأستاذ أكرم رأسه نفياً فقال الحارس بإصرار:

- هل أنت متأكد؟

هز الأستاذ أكرم رأسه بالإيجاب. مضى الحارس يقول:

- المذرة لأنني لم أستطع مساعدتك عندما اتصلت بي هاتفياً.

لم يجب الأستاذ أكرم فأضاف الحارس:

- لقد انقطع التيار الكهربائي عدة مرات اليوم، لكنهم يقولون إن

الخلل سيتم إصلاحه غداً.

مشى الأستاذ أكرم ببطء وإعياء والحارس يمشي إلى جانبه. ثم دخل

شقته وأغلق الباب.

التقرير

توقفت السيارة في شارع مزدحم وأشار سائقها إلى مبنى في الجانب المقابل. نظر كريم إلى ساعته فوجدها تشير إلى الثامنة والنصف. ليته لم يصل في هذه الساعة المبكرة، لكنه حريص على المواعيد دائمًا. وهذا يعني أن عليه الانتظار نصف ساعة تقريبًا. نزل من السيارة وأعاد نقوده إلى محفظته وهو ينظر بفتور إلى المبنى الذي أشار إليه السائق. كان من الحجر الأبيض مثل كل مباني المدينة، غير أن حجارته اصفرت وعلتها بقع رمادية كبيرة. نوافذه واسعة كمعظم مبانيها لكن تحميها شبكة متينة من القضبان الحديدية. لا شك أنه كان بيتًا لأسرة ميسورة الحال في الماضي. فكثير من البيوت الكبيرة التي بنيت في فترة معينة تحولت إلى دوائر حكومية بعد أن انتقل أصحابها إلى مناطق جديدة في المدينة. لا فرق تقريبًا بين هذا المبنى وكثير من المباني الحكومية التي زارها خاصة بتلك اللافتة الضخمة التي تجثم في أعلاه معلنة اسم الدائرة التي تحتله: دائرة العمل.

لم ير كريم مكانًا مناسبًا ينتظر فيه فاحتمى بشجرة عند الرصيف وراح ينظر إلى المتاجر التي يحفل بها الشارع وإن كان أكثرها ما يزال مغلقًا. لكن أشعة الشمس كانت تنصب عليه دون أن تخفف الشجرة من جبروتها. انتقل فوقف تحت مظلة بقالة صغيرة غير أنه ما لبث أن ضاق

بصغر المكان فراح يمشى على الرصيف أملاً في أن يخفف انشغاله بالحركة من شعوره بحرارة الشمس. لكنه كثيراً ما كان يتوقف ليفسح الطريق للناس المسرعين إلى أعمالهم. رجال من كل الأعمار والفئات يهرولون في مختلف الاتجاهات، وبينهم عدد لا بأس به من النساء. حركة مستمرة. ناهيك عن ازدحام السيارات وضوضائها في هذا الحي القريب من وسط المدينة. وفيما هو يمشي على مهل رأى وجهًا منعكسًا في المرآة الجانبية لسيارة واقفة عند الرصيف. وبعد ثوان ضحك من نفسه لأنه لم يعرف وجهه فوراً. نظر إلى المرآة ثانية فرأى شاباً أنيقاً بنظاراته الشمسية وقصة شعره الحديثة. ورأى نفسه صغيراً جداً في المرآة. لكنه لم يعد صغيراً في الواقع. فقد أنهى دراسته الجامعية في الشهر الماضي وودع شبابه الأول، وها هو يوشك أن يبدأ حياته العملية. كان يتمنى أن يسافر إلى الخارج فوراً للدراسة لدرجة الدكتوراه، لكن لا بد له من العمل في الوقت الحاضر ليتفرغ أبوه للإنفاق على أخيه الأصغر الذي ما يزال طالباً في الجامعة. للعمل فوائد أخرى لا تنكر منها ادخار بعض المال اللازم للدراسة والاعتماد على النفس بعد الاعتماد على الأهل سنوات طويلة. لكنه يخشى أن تفوته فرصة الحصول على الدكتوراه في خضم حياته الجديدة، وسيكون هذا شيئاً مؤسفاً لخريج ذكي طموح مثله. نظر إلى حذائه اللامع وإلى حقيبة أوراقه الجديدة فرأى أنه اهتم اهتماماً زائداً بمظهره في هذا الحي الأغبر. لكن لماذا

يهمل مظهره في اليوم الذي يجيء فيه لمقابلة المسؤول الذي سيقدر أمر تعيينه في الوظيفة التي تقدم إليها؟

غير أن وجهه يحمل مسحة من القلق أيضًا. ربما كان القلق شيئًا طبيعيًا في يوم كهذا، لكن كريمًا لديه سبب آخر هام وهو عدم ميله إلى العمل في الدوائر الحكومية. فهي في رأيه جامدة لا حياة فيها ولا تجديد وموظفوها يجسدون الخمول بعينه. لو كان له الخيار ما أتى إلى هذا المكان لكنه مضطر إلى العمل الآن. ولقد سمع عن شواغر في هذه الدائرة فرأى أن ينتهز الفرصة. شجعه أبوه على ذلك وقال له إن قدرته كفيلة بتذليل العقبات التي قد تعترضه.

اقتربت عقارب الساعة من التاسعة فقطع كريم الشارع متجهًا إلى المبنى الحكومي وهو يتفادى السيارات بصعوبة. لم يتبين كل ما حوله بوضوح عندما دخل المبنى لكنه رأى غرفة جانبية بدا له أنها غرفة الاستقبال. ألقى التحية على الرجل الضخم الرابض وراء المكتب فرد الرجل تحيته بصوت ينضح بالنعاس دون أن ينظر إليه مباشرة. كانت الحجرة خالية إلا منه وكان المكتب يحتل معظم مساحتها وعليه دفتر مفتوح هائل الحجم مألوف المنظر يكاد يحتله كله. أخبر كريم موظف الاستقبال بغرضه فطلب منه كتابة اسمه وعنوانه ورقم هاتفه في الدفتر ففعل وهو يستغرب قلة البيانات المكتوبة في الدفتر بالمقارنة مع حجمه. وعندما أنهى كريم هذه المهمة طلب

منه موظف الاستقبال التوجه إلى غرفة في الطابق الأرضي وصف له موقعها. ثم عاد إلى العبث بمسبحته وهو ينظر إلى شيء غير محدد أمامه.

وجد كريم الغرفة دون عناء. كانت خالية هي الأخرى إلا من موظف يجلس وراء مكتبه هو الآخر. دعاه الموظف إلى الجلوس، ثم استدعى رجلاً ذا لحية رمادية شعثناء ونظرات حائرة وطلب منه إعداد فنجان قهوة على عجل. ذهب الرجل بخطوات بطيئة ثم عاد بنفس البطء وقدم لكريم فنجان قهوة ما يزال صحنه مبللاً كالصينية التي وضع عليها. رحب كريم بالقهوة خاصة وأنه لم يتناول الإفطار في ذلك الصباح لضيق الوقت، لكنه وجد السكر فيها أكثر مما يحب فراح يرشها رشقات صغيرة وهو يجيل النظر فيما حوله. كان أثاث الغرفة قديماً لا تتناسب قطعه القليلة مع مساحتها، ولقد صفّ في غير عناية. الجدران بيضاء عارية إلا من لوحة مائلة تحمل عبارة قرآنية بخط أسود كبير. المبنى أقدم في الداخل منه في الخارج، ومن الواضح أن سكانه قضوا فيه سنوات طويلة قبل أن يغادروه. بل إن القاعة التي تتوسط الغرف والتي كان كريم يراها من حيث يجلس بدت له وكأنها تحفل بظلال تلك الحياة السابقة. شعر كريم مرة أخرى أن مظهره لا يتناسب مع التقشف المحيط به. لكن الغرفة بدت له نظيفة وكذلك أرضها التي تأكل بلاطها في بعض المواضع. كانت الغرفة هادئة وكأنها منفصلة تمامًا عن ذلك

الشارع المكتظ بالناس والسيارات. وكان الموظف يجلس إلى مكتبه ساهمًا، لكنه كان يمد يده من وقت لآخر إلى إحدى الأوراق الموضوعة عليه فيقرأها ببطء ثم يعيدها وهكذا.

طال انتظار كريم أو هكذا خيل إليه. نظر إلى الساعة فوجدها تشير إلى التاسعة والنصف تقريبًا. من الواضح أن العمل لا يبدأ هنا في الساعة الثامنة ولا حتى في التاسعة. فلماذا اختيرت الأخيرة موعدًا لمقابلة المسؤول؟ لكن لا بأس في الانتظار فترة يزايله فيها القلق تمامًا. ما لبث أن أحس بالنعاس يسري إليه بفعل الهدوء فكاد يغمض عينيه. وبعد قليل سمع وقع أقدام في القاعة ورأى شبحًا يتسلل إلى غرفة مجاورة. قفز الموظف من وراء مكتبه وفتح بابًا في الغرفة لم يكن كريم قد لاحظته من قبل واختفى وراءه. سمع كريم أصواتًا خافتة في الغرفة المجاورة وبعد دقائق وقف الموظف ببابها ودعاه إلى الدخول. قام كريم بشيء من التردد وكأنه استمرأ جلسته الهادئة فدخل غرفة كبيرة قد أسدل جانب من ستائرهما للتخفيف من وهج الشمس. ورأى رجلًا يجلس إلى مكتب كبير في صدارتها. كان حسن الهندام على جانب من الوقار، لكن الزمن نال من وجهه وترك آثارًا داكنة حول عينيه تشبه لون بذلته. كان تعبير وجهه يتأرجح بين اللطف والتحفظ دون أن يستقر بينهما. لم يطمئن كريم إلى الرجل تمامًا، وضايقته رائحة السجائر التي كانت تتشبث بهواء الغرفة مع أن الرجل لم يبدأ التدخين بعد.

بعد التحية سأله الرجل وهو ينقل بصره بينه وبين الملف الجديد النحيل الذي وضعه أمامه على المكتب:

- أنت خريج جديد.
- نعم.
- من خريجي هذا العام.
- نعم.
- دراستك هي الإحصاء.
- نعم
- وعلاماتك عالية.
- شكرا
- خيل لكريم في البداية أن الرجل متردد في إجراء المقابلة وكأنها عملية شاقة لا يملك لها الطاقة اللازمة. ثم قال الرجل:
- هل تلقيت تدريباً عملياً على أعمال الإحصاء أثناء دراستك؟
- فأجاب كريم وهو يشعر بالاستغراب:
- نعم.
- وهل اكتسبت خبرة ميدانية فيها؟
- نعم.
- متى؟
- في الصيف الماضي.

- أين؟
- في شركة خاصة.
- ما هي طموحاتك؟
- أن أعمل في مجال تخصصي.
- قال الرجل بعد برهة وكأنه نسي:
- الإحصاء...
- نعم.
- الإحصاء طبعًا. وفيما عدا ذلك؟
- لا مانع لدي أن أعمل في أي مجال قريب منه في الوقت الحالي.
- لماذا؟
- لأكتسب مزيدًا من الخبرة.
- هل هناك أسباب أخرى؟
- لأنني أسعى إلى العمل مثل أي شاب.
- وفي المستقبل؟
- أمل أن أستزيد من علم الإحصاء في المستقبل.
- قال الرجل بعد صمت قصير:
- إذن فأنت قد تترك عملك لتحقيق هذا الهدف.
- لكنني سأعود لأطبق ما تعلمته.
- وهل تتوقع أن تقضي معظم حياتك العملية في مجال الإحصاء؟

- نعم.
- لماذا؟
- أجاب كريم وهو يشعر بالاستغراب ثانية:
- لأنه العلم الذي تخصصت فيه.
- هذا جيد.
- قال الرجل بعد فترة أخرى من الصمت:
- لعلك تعلم أن دائرتنا هذه جديدة.
- نعم.
- وأنها بحاجة إلى خريجين جدد متحمسين.
- نعم.
- وأنا نريد أن نثبت مقدرة الدائرة على القيام بأعمالها على أحسن وجه.
- بالطبع.
- فهل تجد في نفسك الرغبة في مواجهة تحد كهذا؟
- سيكون هذا شرفاً عظيماً لي.
- ندم كريم على ما بدا في رده من حماس زائد لكن هذا ما يقوله الناس في مثل هذه المواقف فيما يظن.
- هذا جيد.

خرج كريم من المقابلة متعباً مثل مدير شئون الموظفين الذي قابله للتوّ. لكن الزمن الذي ألقى رواسبه الثقيلة في داخل ذلك الرجل لم يكسبه خبرة ذات بال. حيا كريم الموظف في الغرفة المجاورة وخرج إلى القاعة الكبيرة فانزعج لوقع قدميه على بلاطها العاري، وشعر بذلك البلاط صلباً يكاد يؤلم قدميه. بدت القاعة لكريم شاسعة. لا شك أنها شهدت اجتماعات العائلة واحتفالاتها على مدى السنين فلماذا تترك خاوية هكذا بدلاً من أن تستغل على نحو مفيد؟ بدا له عريها فاضحاً وكأنها جسم إنساني فأحس بما يشبه الحرج. ثم انتبه لأبوابها الكثيرة التي لم يرها عند وصوله، ورأى ساقى القهوة وهو يختفي وراء أحدها حاملاً صينيته. كانت الأبواب كلها مغلقة لكنه سمع أصواتاً من ورائها. وعند الباب الرئيسي رأى بقعة كبيرة من الصدأ تفسد ما تبقى من هيبة القاعة فأدرك أنها من مخلفات المدفأة القديمة. التفت عند خروجه إلى موظف الاستقبال ورفع يده مودعاً، ثم هبط الدرجات القليلة المتآكلة إلى حديقة المبنى على مهل. كانت حديقة كبيرة بدورها لكنها خلت من الزهور فيما عدا شجيرة ياسمين انكمشت على نفسها في أحد الأركان وتركت زهورها القليلة تتناثر عند أقدامها. خط عريض من الصدأ يزحف على بلاط الحديقة المكسور في بعض المواضع ويتسلق الجدار، وهو امتداد للبقعة التي رآها قبل قليل. وفي أقصى الحديقة أشجار عالية هرمة تتزاحم فوقها أوراق أقرب إلى اللون البني منها إلى الأخضر.

خرج كريم إلى الشارع فهاجمته الشمس بعنف دفعه إلى استئجار أول سيارة رآها. حاول أن يقيّم المقابلة لكنه شعر أن المطاف سينتهي به إلى هذه الدائرة شاء أم أبى. فهي بحاجة إليه لأن الإحصاء أصبح ضرورة لا غنى عنها في كثير من الدوائر الحكومية. وهو بحاجة إليها إلى أن تتحسن ظروفه وتمكنه من السفر إلى الخارج لإكمال دراسته.

بعد أسبوع كان كريم يجلس في غرفة رئيس الديوان لتقديم بقية الأوراق اللازمة لتعيينه. وبعد أسبوعين من تقديمها بدأ عمله في الدائرة. في ذلك اليوم وصل في الساعة الثامنة مع أنه كان يعرف أن العمل لا يبدأ في تلك الساعة كما هو مفروض، لكنه شعر بضرورة إظهار التزامه بالعمل خاصة في يومه الأول. لم ير أحداً إلا موظف الاستقبال الذي كان يجلس مغمض العينين تقريباً والمسبحة ما تزال تتدلى من بين أصابعه. لم يكد الرجل يرد على تحيته، لكن كريماً لم يأبه لذلك في غمرة انشغاله بتجربته الجديدة. ذهب إلى غرفة رئيس الديوان لكنه وجد بابها مغلقاً بالطبع فعاد إلى غرفة الاستقبال لينتظر فيها. راح كريم ينظر إلى عناوين الصحيفة التي كان يحملها وكل ما حوله غارق في الصمت. قرأ بعض ما تحمله من أخبار وقلّب صفحاتها مراراً ثم وضعها جانباً في ملل. ومن مجلسه ذاك رأى الموظفين وهم يصلون واحداً بعد الآخر. وجوهمهم مألوفة وإن لم يعرف أحداً منهم، وجباههم لامعة من أثر

العرق، وفي أيديهم صحف أو أكياس صغيرة من الورق. نظروا إليه بغير اهتمام وهم يدخلون صامتين إلا من تحية يتبادلونها قبل أن يتفرقوا في الغرف المختلفة. كانوا حوالي خمسة وعشرين موظفًا، متقاربين في العمر متشابهين في الشكل. ليسوا من كبار الموظفين بالطبع فأولئك لا يصلون في مثل هذه الساعة في الدوائر الحكومية. ثم وصلت موظفتان شابتان تكبر إحداهما الأخرى بقليل، لكن لم يكن فيهما ما يلفت النظر. دخلتا بما يشبه الحياء ثم اختفتا كبقية الموظفين.

وصل رئيس الديوان قبيل التاسعة فدعاه إلى غرفته ثم استدعي ساقى القهوة كالمعتاد. وبعد أن خلع الرجل سترته وعلقها على المشجب ودار في أرجاء الغرفة جلس إلى مكتبه وفتح بعض الأدراج ورتب بعض الأوراق. ثم تناول الهاتف وسأل عن موظف اسمه الأستاذ عبد الحميد لكنه لم يتلق جوابًا. بعد نصف ساعة سأل عنه ثانية فعرف أنه لم يصل بعد. وعندما وصل الأستاذ عبد الحميد في حوالي العاشرة استدعاه رئيس الديوان إلى مكتبه. بعد قليل دخل الغرفة رجل في

منتصف العمر سريع الخطو خفيف الحركة تشيع في وجهه ابتسامة تزيد في إشراقها أسنان بيضاء منتظمة. وجد كريم تلك الابتسامة غريبة في ذلك المكان، وكذلك القميص الزاهي الذي كان يلبسه الرجل. بعد حديث ودي قصير دعاه الأستاذ إلى مرافقته بطريقة شبه أبوية، فذهبا إلى غرفة متوسطة الحجم يجلس في جانب منها موظفان شابان إلى مكتبين

متقاربين وأمامهما أوراق كبيرة وكيس فارغ من الورق قد استقرّ على أحد المكتبين. توجه الأستاذ عبد الحميد إلى الموظفين وقدم إليهما كريماً ثم عاد إلى الجانب المقابل من الغرفة وجلس إلى مكتب كبير داعياً كريماً إلى الجلوس قبالة. راح يشرح له أهداف العمل والابتسامة ما تزال تثبت بوجهه كأنما يريد بها إضاءة الطريق لكريم في ذلك المكان الجديد. كان الشرح واضحاً إلى حد كبير رغم قصره، ولم يكن فيه شيء يستوقف النظر بجذته، فبدأ لكريم أن العمل سيكون سهلاً نسبياً. بعد فنجان ثانٍ من القهوة أتى به الساقى واصل الأستاذ عبد الحميد حديثه عن العمل بصوت عالٍ وكأنه يلقي محاضرة:

- إن المهمة الأولى المطلوبة منا الآن هي إعداد تقرير إحصائي لوزارة التخطيط عن موظفي الوزارات للسنوات الخمس الأخيرة أي من 1960 حتى 1964. وهو تقرير في منتهى الأهمية لا بد من إنجازه خلال ثلاثة أشهر بالضبط أي في آخر شهر تشرين الأول تماماً. ونحن بالطبع حريصون أشد الحرص على الالتزام بهذا الموعد النهائي كما أننا حريصون على إنجاز التقرير على أحسن وجه ممكن لأنه فاتحة أعمال هذه الدائرة الناشئة تقريباً. وبما أنك متخصص في علم الإحصاء فسيكون لك دور بارز في إنجاز الإحصائيات طبعاً، لكن لا تنس أننا سنكون إلى جانبك دوماً لتقديم المساعدة والدعم اللازمين.

توقف الأستاذ عبد الحميد لحظة وتفर्स في وجه كريم الذي كان ينظر إليه باهتمام ويهز رأسه من وقت لآخر، ثم مضى يقول بصوت مختلف النبرة:

- أما مقدمة التقرير الإحصائي... فسأكتبها أنا. أو... ربما يكتبها زميلنا الذي سيعين قريباً، وسيكون مثلك خريجاً جامعياً جديداً. وعاد الأستاذ يقول بصوت عال وهو ينظر إلى الموظفين:

- لقد بدأنا في استلام البيانات الأولية بالفعل بعد أن طلبها الزميلان خالد وفتحي من كل الوزارات، ونحن بانتظار بقيتها في الأيام القليلة القادمة. سيزودك خالد وفتحي بالبيانات المتوفرة الآن بينما يقومان بمتابعة البقية.

نظر كريم إلى الموظفين بدوره فرأى أن أحدهما يصغر الآخر قليلاً وأنه ربما كان أحدث منه عهداً في هذه الدائرة. بادله الموظفان النظر الصامت وهما ما يزالان يجلسان متقاربين في تراخ وبدون أي تعبير واضح على وجهيهما. وعاد الأستاذ عبد الحميد يقول:

- لكن لا بد من قراءة الخطة التي وضعها قسم الأبحاث قبل البدء في التقرير. وهي جاهزة تقريباً وسأعطيها لك بمجرد أن أستلمها بعد يوم أو اثنين.

في الصباح التالي احتل كريم مكانه وراء مكتبه المجهز بمعظم الأدوات اللازمة. كان يشعر بثقة أكبر لكن مكتب الأستاذ عبد الحميد الخالي بعث فيه شيئاً من الوحشة. وكذلك المكتب الخالي المواجه له. سيأتي الأستاذ عبد الحميد عما قليل، وسيشغل المكتب الخالي خريج آخر قريباً كما قال مدير شؤون الموظفين وأكد رئيس الديوان. كان ضوء الشمس ينصب من نوافذ الغرفة الثلاث لكن الحرارة لم تكن قد اشتدت بعد في الغرفة في تلك الساعة من النهار فشعر كريم بالانتعاش. ثم إن الضوء كان يخفف من قتامة الأثاث المتناثر في أرجائها. بعد قليل وصل خالد وفتحي فجلسا يأكلان ما في كيسهما الورقي ويشربان الشاي. وبدا لكريم أن كلاً منهما يعرف الآخر منذ زمن بعيد.

كان كريم متحمساً للتقرير الإحصائي الذي حدثه عنه الأستاذ عبد الحميد بالأمس. فهو مثل أي خريج جديد يتشوق إلى وضع ما درسه موضع التطبيق ويتطلع إلى إتقان أول عمل يكلف به كموظف. ثم إن الخبرة التي سيكتسبها في إنجاز التقرير المذكور وغيره ستكون رصيذاً كبيراً له عندما يقدم أوراقه إلى جامعة أجنبية للدراسة لدرجة الدكتوراه. بعد أن شرب قهوة الصباح راح يضع خطوطاً عريضة للإحصائيات المطلوبة وهو يشعر بصفاء ذهني كبير رغم إحساسه بالوحشة. إن الأشهر الثلاثة المقررة كافية طبعاً لإنجاز التقرير فهو يثق في قدرته

ويحرص على إثباتها دائماً، لكن لا بد من أخذ أشياء مثل التأخير والتقصير وغير ذلك في الحسبان.

بعد أن انتهى خالد وفتحى من الأكل وشرب الشاي نشر كل منهما أوراقاً كبيرة أمامه وراح ينظر فيها ويكتب شيئاً من وقت لآخر. كان خالد يتململ في مجلسه ويهمس في أذن صاحبه بكلمات قليلة من حين لآخر. أما فتحى فكان يلزم الصمت التام وعيناه تبدوان نصف مفتوحتين لضيقهما. أراد كريم أن يسألهما عن البيانات الأولية لكنه خشي مقاطعهما أثناء عملهما فلزم الصمت بدوره. أخيراً وصل الأستاذ عبد الحميد. دخل الغرفة وهو يلهث وجلس إلى مكتبه وقد اتسعت ابتسامته عما كانت عليه في اليوم السابق. استدعى ساقى القهوة بمجرد جلوسه وطلب منه فنجاناً راح يرشفه في لذة واضحة وهو يستريح من عناء رحلته إلى الدائرة. انتهز كريم لحظة رفع فيها خالد وفتحى عيونهما عن الأوراق عند دخول الأستاذ عبد الحميد فسألهما عن البيانات الأولية وهو ينقل بصره من واحد إلى الآخر وكأنهما يمثلان شخصاً واحداً معاً. قال له خالد وكانت تلك أول مرة يسمع فيها صوته بوضوح:

- لم نستلم بيانات وزارة الشؤون الاجتماعية بعد.

ثم أضاف:

- ولا بيانات وزارة الشؤون البلدية والقروية.

قال كريم ملاطفاً:

- أرجو إعطائي ما ورد من بيانات.

أما فتحي فلم يقل شيئاً.

تأخر الأستاذ عبد الحميد أو الأستاذ حميد كما يناديه الموظفون في صباح اليوم التالي أيضاً فوجد كريم نفسه يتساءل عن السبب. من الصحيح أن مدير شؤون الموظفين تأخر يوم أجرى معه المقابلة لكنه وصل بعد الساعة التاسعة والنصف بقليل لا في العاشرة. ربما كان الأستاذ حميد يعاني من ظروف صحية تحول دون استيقاظه مبكراً. لكنه يبدو في أتم صحة والابتسامة لا تفارق وجهه. أو ربما كان يواجه مشاكل عابرة. اطلع كريم على البيانات الواردة من معظم الوزارات فوجدها أولية حقاً إذ أنها لم تزد عن جداول منفصلة لكل سنة وجدول موحد للسنوات الخمس، وكلها تدرج أعداد الموظفين بعد تقسيمهم إلى فئات حسب العمر والجنس والتعليم أو التدريب والوظيفة ومدة الخدمة وغيرها. ولهذه الجداول ملحق يبين أسباب انتهاء الخدمة مثل التقاعد والاستقالة والهجرة والوفاة وغير ذلك. لن يكون إنجاز التقرير الإحصائي المطلوب صعباً لكن لا بد من استلام بقية البيانات أولاً، ولا بد من الاطلاع على الخطة الرسمية له.

ذكر كريم الأستاذ حميداً بالخطة فوعده خيرًا. وبعد يومين ذكره مرة أخرى وهو يعرب عن قلقه للتأخير. وعندئذ قرر الأستاذ حميد الذهاب إلى مدير الأبحاث لاستطلاع الأمر. وعندما عاد كان القلق بادياً عليه،

وراح يفتح أدراج مكتبه واحدًا بعد الآخر بحدة استغربها كريم لما عهده فيه من هدوء الطبع حتى الآن. أخيرًا توقف الأستاذ حميد عن البحث وراح يحرق في ورقة استخرجها من أحد الأدراج والدهشة ترتسم على وجهه. وبعد أن تأمل الورقة مليًا اقترب من كريم وهو يحاول إعادة ابتسامته إلى موضعها المعتاد وكأنها حلية سقطت منه وقال:

- هذه هي الخطة فيما أعتقد. كنت أظن أنها ما تزال لدى مدير الأبحاث لكنني فوجئت بوجودها هنا. لا أذكر أن مدير الأبحاث قد أرسلها إليّ، ولعل أحدًا وضعها على مكنتي أثناء غيابي دون الإشارة إلى أهميتها. ما زال في الوقت متسع على أي حال والبيانات لم تصل كلها بعد.

لكن كريمًا سرعان ما اكتشف أن الخطة كتبت بسرعة بالغة وخط سيئ وأنه لا يستطيع فهمها على نحو يطمئن إليه. الحذف فيها كثير وكذلك علامات الاستفهام وبعض البنود مذكورة في أكثر من موضع وبأكثر من طريقة، ولم يكن من الواضح إن كانت بنود أخرى ما تزال جزءًا من الخطة أم لا. كان منظر الورقة يوحي أن كاتبها لم يستقر على رأي بعد، بل كان يوحي أنها مسودة نسي كاتبها رميها في سلة المهملات. أفسدت خيبة الأمل الحماس الذي شعر به كريم في البداية. كيف يبني عمله على خطة لا يستطيع حتى قراءتها؟ ولماذا يضطر إلى

إضاعة الوقت في فك طلاسمها؟ لا شك أن هناك نسخة منقحة. فأين هي؟

ذكر كريم مشكلته هذه للأستاذ حميد بمجرد وصوله في الساعة العاشرة من الصباح التالي وقبل أن يستريح من رحلته. كان يريد منه المساعدة كما كان يريد إبراز هذه العقبة التي تعترضه. فقال له الأستاذ حميد وهو ما زال يجفف عرق جبينه بمنديله الورقي:

- دعني أساعدك. أعطني الورقة.

نظر في الورقة ثم قلب شفته السفلى، وما لبثت ملامحه أن اكتسبت تعبيراً من الجد وهو يقول:

- سأذهب إلى مدير الأبحاث ثانية فقد أجد النسخة النهائية لديه.

عندما عاد الأستاذ حميد من زيارته لمدير الأبحاث كان بادي الضيق لأنه لم يجد النسخة النهائية لديه كما كان يأمل. لكنه قال إن مدير الأبحاث يطلب من كريم وضع الخطة بنفسه وعرضها عليه قبل البدء في التقرير. نظر الأستاذ حميد إلى كريم محاولاً الابتسام والتخفيف من شعور الإحباط الذي سببته الورقة، لكن كريماً كان مشغولاً باستيعاب الموقف الذي بدا له غريباً بقدر ما كان عادياً في نفس الوقت. وبعد قليل قال له الأستاذ حميد:

- لا شك أن لديك الكثير من الخبرة في مثل هذه الأمور. ضع
الخطة التي تراها وما أظن إلا أن المدير سيوافق عليها. ابدأ على
بركة الله.

وجد كريم أنه لا بد له من مواجهة الموقف فقال أخيراً بصوت ينم
على التصميم:
- حسناً. سأضع خطتي.

بدا الارتياح على الأستاذ حميد لدى سماعه رد كريم فتوجه إلى
مكتبه وضغط الجرس مستدعيًا ساقى القهوة. وعندما وقف الساقى
بالباب وهو يجيل نظراته الحائرة في الغرفة سأل الأستاذ حميد كريماً إن
كان يرغب في فنجان آخر من القهوة. اعتذر كريم فطلب الأستاذ فنجاناً
كبيراً لنفسه على أن توضع فيه كمية كبيرة من السكر كالمعتاد.

عاد كريم إلى التفكير في الخطة فوجدها مكتملة في ذهنه تقريباً لأن
الإحصائيات المطلوبة لن تختلف كثيراً عن الإحصائيات التي أنجزها
أثناء دراسته ثم تدريبه. ستدرج إحصائيات كل وزارة في جدول واحد
لكل سنة، ثم في جدول موحد للسنوات الخمس. وفي كل جدول تذكر
نسبة الفئة الواحدة من الموظفين كالرجال مثلاً إلى المجموع. يلي ذلك
الاستدلال على العلاقات بين الفئات والتأثير المتبادل بينها مثل تأثير
العمر على نوع العمل وعلى التعليم وغير ذلك. تدرج أسباب انتهاء
الخدمة حسب درجة شيوعتها وتستخرج نسبة كل منها إلى بقية

الأسباب. تحليل النسب كلها للاستدلال على بنية القوى العاملة والتغيرات التي طرأت عليها في الفترة التي يغطيها التقرير ومعرفة الاتجاهات السائدة في التوظيف خلال الفترة نفسها، ويتم التعبير عن كل ذلك إحصائياً مع إبراز أي سمات جانبية يكشف عنها التحليل. ثم ينتقل التقرير إلى التنبؤ بالتغيرات التي قد تطرأ على بنية القوى العاملة في السنوات الخمس المقبلة وعلى اتجاهات التوظيف خلال الفترة نفسها مع التعبير عن تلك التغيرات إحصائياً.

الخطوة التالية هي إدراج بيانات كل الوزارات معاً في جدول شامل لكل سنة ثم في جدول شامل يغطي السنوات الخمس. تحليل البيانات الشاملة بنفس الطريقة التي اتبعت في تحليل بيانات كل وزارة بهدف الكشف عن نفس العوامل مثل نسبة الفئة الواحدة من الموظفين إلى المجموع والعلاقات بين الفئات وأسباب انتهاء الخدمة وغير ذلك مع التعبير عن كل ذلك إحصائياً. في النهاية تلخص النتائج التي يتم التوصل إليها بشأن بنية القوى العاملة واتجاهات التوظيف وذلك في جدول خاص بكل وزارة يغطي السنوات الخمس، ثم في جدول يشمل كل الوزارات ويغطي السنوات الخمس. ترتب الإحصائيات زمنياً وغير ذلك. لا بد من تخصيص وقت كاف في الجدول الزمني الملحق بالخطوة لعملية إدراج الأرقام وطباعتها وخاصة في غياب الكمبيوتر الذي لم يصل إلى هذه الدائرة بعد. ولا شك بعد هذا أن التقرير المنتظر سيكون

على درجة عالية من الإتقان. ولا شك أيضًا أنه سيكون على درجة كبيرة من الفائدة لمن يطلع عليه.

عندما برزت خطة كريم المفصلة إلى الوجود في صباح اليوم التالي فرح بها وكأنها مولود غال. كيف سيشعر إذن عندما يكتمل التقرير؟ كانت خطته دقيقة تبين الخطوات اللازمة بوضوح وترتيبها منطقيًا وتضع جدولاً زمنيًا لكل منها. وكانت واقعية لأنها تترك هامشًا للتأخير والطوارئ. وهي إلى ذلك أنيقة بعد أن كتبها بعناية واستعان في إيضاحها بالخطوط والألوان وغير ذلك من الوسائل. شعر كريم بارتياح كبير إلى خطته وأيقن أنه لن يضل إذا اهتدى بها. وعندما وصل الأستاذ حميد في الساعة العاشرة سلّمها له ليعرضها على مدير الأبحاث. وعندئذ تذكّر كريم البيانات التي لم ترد بعد من الوزارتين. ذهب إلى خالد وفتحها وسألها عنها بحذر فتأكد من عدم وصولها. استاء كريم لذلك دون أن يستغربه ورأى أن الطريقة البديهية لاستعجال البيانات هي أن يلح خالد وفتحها في طلبها مع التأكيد على أهميتها. وعندما طلب منهما ذلك هزّ خالد رأسه ونظر إليه فتحي نظرة حاملة ثم عاد كل منهما إلى عمله. لم يستغرب كريم رد فعلهما فهو يحييهما بمودة ظاهرة في الصباح دون أن يظفر منهما بمودة مماثلة، وهو يحاول تبادل الحديث معهما دون أن يلقى منهما تجاوبًا. غير أن حديثهما مع الأستاذ حميد كان قليلًا أيضًا.

بل إنهما مقلّان في الحديث فيما بينهما باستثناء ذلك الهمس المتباعد.

حاول كريم التماس بعض العذر لهما ثم انصرف إلى التقرير.

بعد يومين جاء خالد إلى كريم وهو يحمل ظرفاً كبيراً سلمه إليه دون اكراث. كانت تلك بيانات وزارة الشؤون البلدية والقروية. سرّ بها كريم وقدّر أن بيانات وزارة الشؤون الاجتماعية في طريقها إليه وبذلك تكون مشكلة التأخير قد قاربت الحل. غير أن أربعة أيام أخرى مرّت دون استلامها فقال لخالد:

- أرجوك أن تتصل هاتفياً بوزارة الشؤون الاجتماعية لطلب بياناتها.

قال خالد باقتضاب:

- هذا ما فعلته.

قال كريم:

- أرجوك أن تتصل ثانية لأن الأمر لم يعد يحتمل التأخير كما تعلم.

قال خالد بضيق:

- إذا كانت الوزارة لا تبالي بالتأخير فلماذا نبالي به نحن؟

قال كريم:

- لأننا نحن المكلفون بوضع التقرير.

قال خالد:

- لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

- فقال كريم بلهجة توخى فيها مزيداً من اللين:
- أعتقد أننا يجب أن نلحّ في طلبها إلى أن نستلمها.
- قال خالد بصوت عال:
- لقد طلبناها عدة مرات ولا نستطيع فعل المزيد.
- ثم أضاف وهو يزفر:
- لماذا لا تطلبها أنت؟
- قال كريم:
- لكن هذه مهمتك كما قال الأستاذ حميد.
- قال خالد:
- لقد قمت بمهمتي.
- أما فتحي فقد لزم الصمت وهو يميل برأسه حتى كاد أن يستقر على كتفه.
- عندما وصل الأستاذ حميد في الساعة العاشرة أخبره كريم بموقف خالد بهدوء فقال الأستاذ حميد بضيق وهو يمد يده إلى الجرس لاستدعاء ساقى القهوة:
- خيراً إن شاء الله. سنرى.
- وعندما خرج خالد من الغرفة قال الأستاذ حميد لكريم:
- لقد بذلا جهدهما فعلاً لكن الوزارات كثيراً ما تستهين بهؤلاء الموظفين الصغار، فلماذا لا تتابع الأمر بنفسك؟ إنك إذا تكلمت

مع المسؤول بصفتك الخبير الذي كلف بإعداد التقرير فقد يأخذ الأمر بمزيد من الجد.

قال كريم لنفسه : وكيف يعرف الأستاذ أنهما بذلا جهدهما وهو يتأخر كل صباح ثم لا يكاد يجلس إلى مكتبه بقية النهار؟
قال كريم للأستاذ حميد:

- لكنك قلت في البداية إن هذه مهمتهما.

قال الأستاذ حميد:

- هذا ما قلته بالفعل، ولقد بذلا جهدهما. لذا أرى أن تحاول أنت الآن، وقد لا يكلفك الأمر إلا مكالمة هاتفية واحدة.

قال كريم وهو يستغرب السطوة التي ظهرت في لهجة الأستاذ:
- إني على استعداد للمساعدة من حيث المبدأ لكنني إذا قمت بعمل غيري فقد لا أجد الوقت الكافي للقيام بعملي.

قال الأستاذ حميد بطريقة أبوية تختلف كل الاختلاف عن لهجته قبل لحظات :

- ليست هذه الطريقة التي نعمل بها هنا يا كريم. إننا هنا نعمل يدًا واحدة ويعاون بعضنا بعضًا.

عاد كريم يقول لنفسه: إذا كان التعاون هو الأسلوب المتبع في العمل هنا فلماذا لا يقوم الأستاذ بنصيبه منه ويشرف على القسم إشرافًا حقيقيًا؟ إن التعاون الحقيقي هو أن يقوم كل بعمله على أحسن وجه.

استاء كريم من الأستاذ حميد لأنه يقول ما لا يفعل، لكنه لم يملك إلا الرضوخ لسلطته. اتصل بوزارة الشؤون الاجتماعية في ذلك اليوم وأوضح للمسؤول أهمية البيانات وضرورة استلامها في أقرب وقت فوعده خيرًا، لكن كريمًا لم يشأ أن يستسلم للتفاوض. ظل خالد بادي الغضب في الأيام التالية فشعر كريم أن العلاقة بينهما قد تدهورت تمامًا، لكنه قرر أن يحاول إصلاحها ما استطاع. أما فتحي فقد كانت سلبيته التامة تضعه خارج نطاق أي علاقة حقيقية معه.

بعد يومين جاء خالد إلى كريم وهو يحمل ظرفًا بنيًا كبيرًا مألوف المنظر وضعه على مكتبه وهو يشيح بوجهه. فتحه كريم بلهفة، وعندما وجد بيانات وزارة الشؤون الاجتماعية بداخله طغى سروره بها على كل شعور آخر. لم يبق الآن إلا استلام موافقة مدير الأبحاث على خطته ثم يبدأ العمل في الإحصائيات.

عرف الأستاذ حميد بوصول البيانات المنتظرة عندما دخل الغرفة بخطواته المتوثبة التي تذكر كريمًا بجندب الحقل فقال لكريم:

- ألم أقل لك؟

بعد قليل ذكر كريم الأستاذ حميدًا بالخطأ التي كان قد سلمها له فوعده بسؤال مدير الأبحاث عنها. وفي الغد ذكره بها ثانية، لكن الأستاذ كان بادي الضيق في ذلك اليوم بسبب الحر الشديد. وبعد أن طلب من

الساقى شرباً بارداً بالإضافة إلى القهوة قال لكريم وهو يبدو مشتبكاً بالذهن:

- لا تستعجل الأمور يا كريم. سأذهب إليه في الوقت المناسب.
متى يحين الوقت المناسب؟ لقد أرسل الخطة إلى مدير الأبحاث قبل تسعة أيام، فهل في تذكير الأستاذ بها أي استعجال حقاً؟ وتذكر كريم أن الأستاذ حميداً لم يعد يذكر التقرير رغم ما قاله عن أهميته الكبرى في اليوم الأول. إذن سينسى التقرير هو أيضاً. وسينجز ما يمكن إنجازه في اليوم الواحد دون التطلع إلى ما وراءه. وبعد ثلاثة أيام من الأعمال الصغيرة المتفرقة سأله الأستاذ حميد:

- هل أعاد مدير الأبحاث الخطة؟

أجابه كريم:

- لا لم يعدها.

فقال الأستاذ حميد وقد بدا في وجهه الجذ:

- لقد كلمته في الموضوع أكثر من مرة فقال إنه سيدلي بملاحظات على الخطة بمجرد انتهائه من بعض الأمور العاجلة. وبما أنه تأخر في ذلك فأنا أرى أن تذهب إليه وتسأله عن مصير الخطة بصفتك المسؤول عن التقرير.

قال كريم:

- لكنه قد يعتبر سؤالاً تجاوزاً للصلاحيات.

قال الأستاذ حميد:

- يمكنك أن تقول إنني أرسلتك.

قال كريم قبل أن يستطيع السيطرة على أعصابه:

- وهل تراني صبيًا حتى أكلف بحمل الرسائل للكبار؟

قال الأستاذ حميد:

- لا تغضب هكذا. إنني أحترمك وأود أن أذكرك بنجاحك في

الحصول على بيانات وزارة الشؤون الاجتماعية من حيث أخفق
غيرك.

قال كريم بلهجة حاول بها محو أثر عبارته السابقة:

- لكنني أعتقد أن سؤالك المباشر عن الخطة سيكون أكثر فائدة من
سؤالي لأنك رئيس القسم.

قال الأستاذ حميد في حيرة:

- هذا ما فعلته أكثر من مرة. ولقد صرت أشعر بالحرَج لكثرة ما
سألت عن الموضوع.

مع أن كريمًا لم يكن راغبًا في القيام بعمل الأستاذ حميد في هذه المرة
أيضًا فقد رأى ألا مانع من سؤال مدير الأبحاث عن الخطة لأنه
واضعها. يضاف إلى هذا رغبته في التعرف إلى مدير الأبحاث. ثم إنه قد
ينجح من حيث فشل الأستاذ حميد، وبذلك يبدأ التقرير الذي لم يفتّر
حماسه له رغم تظاهره بذلك. بعد لحظات قال للأستاذ حميد:

- لا بأس. سأذهب إلى مدير الأبحاث.
- فقال الأستاذ حميد بارتياح واضح وقد اتسعت ابتسامته:
- بارك الله فيك.
- كانت الغرفة الواسعة قد أسدلت بعض ستائرهما هي الأخرى اتقاءً
لوهج الشمس. وفي وسطها جلس كهل إلى مكتب كبير أمامه كرسيان
ومنضدة عليها كأس ماء فارغ، ووراءه مكتبة عالية فيها كتب متفرقة. بدا
الرجل وحيداً في تلك الغرفة وكأنه من مخلفات عصر بائد. رفع رأسه
لدى دخول كريم دون أن ينبس بحرف فرأى كريم وجهًا أبيض كبيراً
كأنه أحد الحجارة التي يتألف منها المبنى. وخيل لكريم أن نظرة تأنيب
لاحت فيه لاقتحامه على الرجل خلوته لكنه صمم على
المضي فيما جاء لأجله. استمر الرجل في توجيه نظراته الباردة إلى
كريم فرأى الشاب أن يبدأ الكلام بدلاً من الاستسلام للخرج:
- لقد جئت لمعرفة رأيك في خطة التقرير الإحصائي التي وضعتها
إذا سمحت.
- قال الرجل ببطء:
- أي تقرير؟
- التقرير الذي طلبته وزارة التخطيط عن موظفي الوزارات.
- علا العبوس وجه مدير الأبحاث وهو يحاول التذكر فأضاف كريم
موضحاً:

- لقد طلبت مني إعداد خطة للتقرير...
- بدا الرجل وكأنه تذكر فقال مقاطعًا كريم:
- وهل أعددتها؟
- نعم وأرسلتها إليك.
- قال المدير بصوت رتيب:
- متى أرسلتها؟
- قال كريم:
- قبل اثني عشر يومًا.
- قال المدير:
- اثني عشر يومًا؟
- قال كريم:
- نعم.
- قال المدير:
- ولماذا لم تطلبها من قبل؟
- فقال كريم محاولاً ألا يقحم اسم الأستاذ حميد في حديثه:
- لقد فهمت أنها طلبت من قبل.
- ظل الرجل ينظر إلى كريم لحظات ثم فتح درجًا راح يقلّب محتوياته على مهل، ثم درجًا ثانيًا. وأخيرًا رفع ورقة بأصابعه الطويلة البيضاء عرف فيها كريم الخطة التي كتبها. كانت حركات الرجل قليلة بطيئة

وكان جسمه مقيّد بسلاسل فتذكّر كريم رجالاً مثله رآهم من قبل في الدوائر والسيارات الرسمية. ظل كريم واقفًا في صمت وهو ينظر إلى سطح المكتب اللامع الخالي من الأوراق ومن كل أثر للاستعمال. استمر مدير الأبحاث في النظر إلى الورقة وكأنه لم يرها من قبل فتأكد كريم أنه يقرأها الآن لأول مرة. وأخيرًا أمسك الرجل بقلمه الثمين وهمّ بكتابة شيء عليها لكنه عدل عن رأيه وقال لكريم:

- عد بعد ساعة.

تنفس كريم الصعداء وهو يغادر الغرفة. من الصحيح أنه لم يحقق الغرض من زيارته لكنه قطع شوطًا في سبيله. وإذا أكمل مدير الأبحاث النظر في الخطة بعد ساعة كما قال فسيكون ذلك نجاحًا كبيرًا. أما إذا لم يفعل فسيستمر الانتظار، ولا يدري عندئذ ماذا سيكون مصير التقرير.

بمجرد أن جلس كريم إلى مكتبه أخرج من درجه الأسفل دفتراً لتدوين ملاحظاته عن سير التقرير كما اعتاد أثناء دراسته وتدريبه فكتب بضع كلمات عن زيارته لمدير الأبحاث مع ذكر التاريخ. وعندما دخل الأستاذ حميد الغرفة صاح في مرح:

- ماذا حدث؟ قل لي بالله.

أخبره كريم بما حدث في تلك الزيارة فقال له الأستاذ حميد:

- ألم أقل لك؟

جال الأستاذ في الغرفة وقد ازدادت خطاه توثباً ثم جلس إلى مكتبه وتنهد في ارتياح وقال:

- ها قد قاربت المشكلة الحل والحمد لله.

عاد كريم إلى مدير الأبحاث بعد ساعة وهو يتهيّب لقاءه. رفع الرجل وجهه ببطء وقال وهو يشير بقلمه إلى موضع في الورقة إشارة متكررة:

- ما هذا الكلام الذي كتبتّه هنا عن التنبؤات؟

قال كريم:

- هذا ما جرت عليه العادة في الإحصائيات.

قال الرجل:

- لا شأن لنا هنا بما جرت عليه العادة.

ظل كريم صامتاً، ومضى الرجل يقول:

- التنبؤات كما تسميها ليست من مهمتنا. إننا هنا لا نتنبأ بالغيب.

قال كريم:

- كما تشاء.

عاد مدير الأبحاث يقول:

- يحذف هذا الجزء وتبقى بقية الخطة على ما هي عليه.

وهنا رسم الرجل خطاً غليظاً تحت الجزء الذي يقصده وأعطى كريمًا الخطة دون أن ينظر إليه. ظل كريم واقفاً بانتظار مزيد من التعليمات لكن مدير الأبحاث راح ينظر إلى درج مفتوح في مكتبه، ففهم

كريم أن وجوده لم يعد له مبرر. خرج من الغرفة بعد أن شكر الرجل وأغلق بابها بعناية لئلا يفسد عليه الهدوء الذي يكتنفه كالشرنقة أو لئلا يتسرب شيء من هوائها الخانق إلى الخارج. ثم أسرع إلى غرفته وكأنه يخرج من الظلام إلى النور. رأى الأستاذ حميدًا يأكل شطيرة ويشرب الشاي فقال له:

- ها هي الخطة أخيرًا.

فأجاب الأستاذ حميد:

- أرايت؟ ما حك جلدك مثل ظفرك.

ثم علت ضحكته معبرة عن هناء عميق.

عندما غادر كريم الدائرة في ذلك اليوم شعر وكأنه قضى فيها شهرًا، فماذا سيكون من أمره بعد أن يقضى فيها سنوات؟ تخيل نفسه وهو يغادر ذلك المبنى يومًا بعد يوم وسنة بعد سنة. سيكون جسمه قد بلي مثل هذه الدرجات، وعقله قد صدئ مثل هذا البلاط ويداه قد تصلبتا مثل أوراق الشجر التي داهمها الصقيع. بل وسيسري البرود في روحه ويطفىئ بريق الحياة في عينيه ويمحو من وجهه التعبير والمعنى فيصبح مثل مدير الأبحاث. وهنا ارتعد كريم. ماذا ستجديه المكانة إذا آل إلى مصير كمصير ذلك الرجل الذي جف كل ما فيه؟ كيف تركه الزمن خواء هكذا؟ وماذا سيسلبه أيضًا يا ترى؟

أقبل كريم على التقرير وقد تجددت عزيمته فقد كان يعتبره مشروعاً الشخصي. وهو لن يتقدم في حياته العملية إلا إذا أتقنه وكثيراً من التقارير غيره. وهو أيضاً يريد تعويض التأخير الذي اضطر إليه. لم تعترضه عقبة حقيقية فوجد نفسه بعد أيام وقد قطع فيه شوطاً لا يستهان به فحفزه هذا إلى مزيد من النشاط. وأخيراً استسلم كريم لمتعته بالإحصاء. من قال إن الأرقام جامدة لا حياة فيها؟ إنها في نظره تثمر أفكاراً جديدة طويلة الوقت. إنها لغة موجزة بليغة ذات حجة دامغة. وهو يحبها منذ صغره ويرأها جميلة على الورق، جميلة في الذهن، وهي كثيراً ما تحمل المفاجأة والتسلية معاً. إنه يريد إتمام هذا التقرير لإبراز المعنى الكامن في هذه الأرقام. بل هو يتطلع إلى بناء مجموعة من التقارير تغذيها الأرقام وتغنيها. ومع أن الإنسان لا يحيا بالأرقام وحدها فإن كريماً يريد أن يقضي حياته العملية وهو يحاول النفاذ إلى خفاياها.

استعاد الأستاذ حميد اهتمامه بالتقرير وهو يرى كريماً منكباً على الإحصائيات يوماً بعد يوم. وصار يسأله عنه كل صباح بنفس الابتسامة المشرقة موقناً أنه سيتلقى نفس الإجابة المطمئنة. وخيل لكريم أن الأستاذ ازداد مرحاً، لكنه ظل يتأخر كل صباح. من الصحيح أن التأخر شيء عادي في هذه الدائرة وغيرها. لكن تأخر الأستاذ حميد ظل يلفت نظر كريم لأن عمله لم يكن واضحاً في نظره. لقد كان يبدو مشغولاً ببعض الأوراق أحياناً، لكن العمل كان يسير في القسم دون توجيه منه

وكانه ليس رئيسه. والأدهى من ذلك أنه لم يكن يجلس إلى مكتبه إلا لينهض عنه ويغادر الغرفة على عجل وكأنه يخشى أن يفوته شيء هام خارجها.

بعد شهر من بدء العمل في الإحصائيات دخل الأستاذ حميد الغرفة وعينه تلمعان. توجه إلى مكتب كريم مباشرة وقال له بصوت خافت وكأنه يفضي إليه بسر:

- لقد سألتني مدير الأبحاث عن التقرير اليوم.
رفع كريم رأسه عن الأوراق المتراخمة على مكتبه فقال الأستاذ حميد بثقة:

- فطمأنته إلى أنه سينتهي في الموعد المطلوب.
- هذا ما أعتقد.
- بارك الله فيك. فالتقرير ذو أهمية كبرى كما تعلم.
وفي نهاية ذلك النهار اقترب الأستاذ حميد من مكتب كريم وقال:
- إني أشعر بالحرَج حقاً...
نظر إليه كريم متعجباً فمضى الأستاذ حميد يقول:

- لكنني كنت أمل تعيين الخريج الجديد طيلة الفترة الماضية.
سكت الأستاذ حميد فظل كريم ينظر إليه دون أن يفقه قوله. وكان أيضاً يتلهف على مغادرة الدائرة بعد يوم مثقل بالعمل. ابتعد الأستاذ

حميد عنه وهو يهز رأسه كأنما عدل عما كان يريد أن يقول، لكنه لم يلبث أن عاد وقال بابتسامة خفيفة:

- ما دام الجزء الإحصائي من التقرير سينتهي في الوقت المحدد فهل تساعدني في كتابة المقدمة؟

لم يكد كريم يصدق أذنيه. فهو يتلهف على الانتهاء من الإحصائيات ولم يكن يظن أن لها ذيولاً من هذا النوع على الإطلاق. ثم إن الأستاذ حميداً هو المسؤول عن كتابة المقدمة كما قال هو نفسه في اليوم الأول. نظر كريم إلى الأستاذ طويلاً فبادله الرجل نظراته الصامتة وقد بدا عليه شيء من الحرج فعلاً. وأخيراً قال كريم:

- لكن...

فأسرع الأستاذ حميد يقول:

- إني أعرف ما ستقول. أعرف أنك مرهق بالعمل لكنني بحاجة ماسة إلى مساعدتك. ولا بد أن نتم التقرير كله في الوقت المطلوب كما تعلم...

صمت قليلاً ثم عاد يقول بشيء من التردد:

- لقد بدأت بكتابة المقدمة لكنني لم أستطع المضي فيها بسبب أعبائي الكثيرة.

أي أعباء يتكلم عنها هذا الرجل الذي لا يفتأ ينتقل من مكان إلى مكان في المبنى وكأنه طفل ينتقل من ملعب إلى آخر؟ ولماذا يساعده وهو مرهق بدوره؟

عاد الأستاذ حميد يقول وقد اختفت ابتسامته تمامًا فبدا وجهه وكأنه فقد أحد ملامحه:

- سأنهض ببعض الأعباء عنك في المستقبل إن شاء الله. أما الآن فأنا غير قادر على إكمال المقدمة.
ثم قال موضحًا بعد صمت قصير:

- هناك ظروف معينة تمنعني من إكمالها في الوقت الحالي.
لم يقل كريم شيئًا فقال الأستاذ حميد:

- ثم إنك أفضل من يستطيع المساعدة في هذا الأمر... فأنت نشيط وملتزم، وقدراتك لا مجال للشك فيها، ولعلك --

خيل لكريم أنه أمام طفل يلحف في السؤال لا أمام رجل يكاد يكون في سن أبيه. لكن سؤاله نفسه يعني أنه المسؤول عن كتابة المقدمة في الواقع. شعر كريم بالرغبة في قول شيء يعبر به عن عجبه لكنه أثر في اللحظة الأخيرة ألا يفعل فلعل الرجل يعاني من ظروف تمنعه من كتابة المقدمة حقًا. مضى الأستاذ حميد يقول:

- ما رأيك؟

ثم عاد إلى الابتسام وكأنه يستجدي بابتسامته عطف كريم أو كأنه رأى في صمت كريم بشيرًا بالقبول.

قال كريم أخيرًا وقد ملّ هذا الموقف:

- سأساعدك قليلًا إذا أردت. لكن بعد أن أنتهي من الإحصائيات طبعًا.

فقال الأستاذ حميد في فرح ظاهر:

- ألف شكر لك. سأحدد لك غداً المساعدة التي أريدها منك.

عاد كريم إلى الإحصائيات التي كانت تغطي مكتبه. إنه لا يعرف ظروف الرجل في الحقيقة ولعله بحاجة إلى المساعدة فعلاً. وفي هذه الحالة لا مانع لديه من مساعدته بكتابة جزء من المقدمة أو إيضاح بعض النقاط، وقد لا يكلفه ذلك كثيرًا. سيحدد له الأستاذ ما يريد منه في الغد على كل حال.

في صباح اليوم التالي تمنى كريم لو أن المكتب الخالي المواجه له يشغله زميل يأنس إليه حقًا. وعندما وصل الأستاذ حميد في حوالي الساعة العاشرة صباحًا هرع إلى كريم وقال له بصوت خافت وهو يشير إلى ورقة في يده:

- هذا كل ما أريده منك.

ثم علا صوته قليلًا وهو يقول:

- أولاً البداية بالطبع وفيها نذكر السبب في وضع هذا التقرير الإحصائي وأهميته.
- توقف الأستاذ حميد وكأنه يريد التأكد من مدى استجابة كريم ثم عاد يقول بصوت أعلى:
- بعد ذلك نذكر طريقة البحث التي اتبعت فيه. ثم النتائج التي تم التوصل إليها. وهذا كل شيء.
- كل شيء؟ إن هذا الرجل يكلفه بكتابة المقدمة كلها بعد أن قال إنه هو المسؤول عن كتابتها. وبالأمس فقط قال إنه بدأ بها.
- قال الأستاذ حميد بلهجة حاول بها محو أثر السطوة التي ظهرت في صوته قبل قليل:
- إنك أعرف الناس بالتقرير الإحصائي وإليك يرجع الفضل فيه. ومن الإنصاف أن تتاح لك الفرصة لتصف عملك الدقيق هذا وتبين أهميته.
- الإنصاف؟ إذن سيتوجب على كريم كتابة مقدمات كل التقارير التي يعدها والحالة هذه.
- ثم أضاف الأستاذ حميد وكأنه يلاطف طفلاً صغيراً:
- أليس كذلك؟
- وضع الأستاذ الورقة التي كان يحملها على مكتب كريم دون أن يعبا بصمته وأسرع إلى مكتبه قائلاً :

- إننا لا نريد أن نخيب ظن مدير الأبحاث كما تعلم.

هل يهدده الرجل بكلماته هذه؟

ثم أضاف الأستاذ حميد بابتسامته المعتادة:

- أرجو أن تتمكن من بدء المقدمة في أسرع وقت.

ذهل كريم وهو يرى الرجل يتنصل من مسؤوليته مرة أخرى ويفرض

عليه سلطته بتلك الطريقة الفجة في نفس الوقت. أفلا ينبغي أن يكون

تحمل المسؤولية شرطاً لتقلد السلطة؟ لقد استغل الرجل

استعداده لمساعدته فألزمه بها إلزاماً. وها هو يجد أن جزاءه على ما

بذل من جهد في الإحصائيات هو مزيد من الجهد؛ ها هو يرى أن

اجتهاده في العمل يجعله مطية لحמיד وربما لغيره في المستقبل، فما

حيلته إزاء مثل هذا الأسلوب في العمل؟ لقد اعتاد في أيام الدراسة أن

يكافأ على جهده الشخصي دون أن يضطر إلى بذل الجهد نيابة عن

الآخرين، وكانت المكافأة سخية دائماً. من الصحيح أنه أعلم الناس بما

ورد في الإحصائيات، ولعل معرفته تؤهله لكتابة مقدمتها. لكنه يؤمن

بتقسيم العمل تقسيماً واضحاً كما يؤمن بمسؤولية كل شخص عن

عمله. ظل كريم ينظر أمامه بعينين غائمتين وقد نسي حماسه الذي

يتجدد كل يوم مثل ينبوع ماء صاف. لكن ما تذكره من رضاه عن

الإحصائيات بعث في نفسه بعض العزاء. لقد انتهى من تحليل

إحصائيات كل وزارة على حدة، ومن المفروض أن يبدأ العمل في

الجدول الشاملة غداً. وسيستغرق هذا أسبوعين آخرين. إن العمل في التقرير الإحصائي يسير قدماً رغم كل شيء، ولا شك أنه سينتهي في الموعد المحدد.

في نهاية ذلك النهار استعاد كريم بعض انشراحه القديم. ما أجمل هذه السحب البيضاء العالية! وما ألطف طقس الخريف بعد ذلك الصيف الحار. وليته يمشي طويلاً قبل أن يستقل سيارة إلى البيت اليوم. جال بنظره في الغرفة فوجد مكتب خالد خالياً، ورأى فتحي يضع أوراقه في أدراج مكتبه استعداداً للمغادرة. فليغادر المكتب هو الآخر. لكن عليه أن يسجل ملاحظاته على الإحصائيات في الدفتر كعادته في نهاية الدوام. فتح كريم درج مكتبه الأسفل ومد يده إلى حيث يضع الدفتر، لكنه لم يحس به تحت أنامله كالمعتاد. أزاح بعض الأوراق وحقق في الدرج لكنه لم يره. فتح درجاً آخر ثم آخر لكنه لم يجد له أثراً. لقد اختفى الدفتر! اختفى مع أنه يقفل المكتب بالمفتاح كل يوم! لعله في البيت، لكنه لا يذكر أنه حمله معه إلى البيت أبداً. ربما وضعه في مكان مختلف. لا يذكر شيئاً من هذا القبيل أيضاً. فتش كل الأدراج تفتيشاً دقيقاً مرة أخرى لكن دون أن يجده في أي منها. كيف اختفى الدفتر؟ ومن أخذه؟ خطر له خالد وفتحي فوراً فليس من الغريب أن تتجه شكوكه إليهما. لكن لماذا يريدان الدفتر؟ وكيف يجروان على فتح مكتبه؟ وماذا يقول اختفاء دفتر من مكتب مقفل عن الدائرة وموظفيها؟

خرج كريم من الدائرة وهو لا يكاد يرى ما حوله، ومشى في الشارع دون أن يلحظ نسيمات الخريف وهي تداعب أوراق الشجر المتساقطة. إنه لا يشك في علاقة خالد أو فتحي باختفاء الدفتر فهما يجافيانه منذ البداية رغم مودته نحوهما ورغم محاولته تحسين علاقته بخالد بعد خلافهما. فهل هذا شأن الموظفين القدامى حيال الموظفين الجدد؟ إن ضياع الدفتر أو بالأحرى سرقة ضربة قاسية لأنه أودعه ملاحظات قيمة سيرتبك لفقدانها. ثم إن ضياعه يعني أنه لا يأمن على ممتلكاته حتى في وجود المفتاح. وهو يعني أنه مراقب من حيث لا يدري. فكيف تنمو الثقة في جو كهذا؟ وكيف يرتقي العمل دون قدر معقول من الثقة بين العاملين؟ لكن خالدًا يقضي معظم وقته في غرفة الطباعة هذه الأيام لتدقيق الإحصائيات قبل أن يراجعها هو، وفتحي في شبه غيبوبة من الصمت المتكاثف والانغماس في عمل غير واضح تمامًا، وحميد دائم الحركة لا يكاد يستقر في الغرفة. فمتى يراقبه هؤلاء؟ شعر كريم أنه يهبط إلى قاع سحيق من المرارة. فهذا أسوأ مما كان يتوقع في هذه الدائرة بكثير. بل إنه يكاد يكون قاصمة الظهر. وراح يمشى على غير هدى وهو يتمنى ألا يعود إلى الدائرة أبدًا.

في صباح اليوم التالي وصل كريم إلى الدائرة في الساعة التاسعة. كان خالد وفتحي يشربان الشاي وهما يجلسان متلاصقين كتوأمين. حياهما بصوت لا يكاد يسمع متجنبًا النظر إليهما. أحس بدخان السجائر يسمم

هواء الغرفة الجاف ورأى أاثاتها مضطرباً وأرضها غبراء. إن هذين لا يعرفان ماذا سلباه بسرقتهما للدفتر، وهو لا يظن أنه سيستعيد ثقته فيهما أبداً. جلس كريم إلى مكتبه دون حراك وراح يحرق من النافذة ثم في الفراغ أمامه حتى شعر بالخدر. لقد فكر فيما حدث بالأمس كثيراً، وبدأ يحس أن النوم الذي جافاه في الليلة الماضية يزحف إليه على مهل وهو في مجلسه ذاك فأغمض عينيه. لكن عليه أن ينهي التقرير. وبعد ذلك يأخذ إجازة يومين يضافان إلى يوم الجمعة فيستريح ويجدد نشاطه. ويجدد تفاؤله أيضاً. فالتفاؤل جزء هام من نظريته إلى الحياة وهو يريد أن يستعيده دون شروخ ورجم كل شيء. إنه لا يريد أن يتحول إلى موظف يحتمي من اليأس بالسخرية، لكن روح السخرية بدأت تزحف إليه منذ التحق بهذه الدائرة وكأنها جرثومة. بل وأصبح يستعين بالأفكار الساخرة على مواجهة بعض المواقف.

وجد كريم في القهوة لذة لم يألّفها من قبل، واستعاد بعض نشاطه بعد شربها فكاد يطلب فنجاناً آخر لولا أن تذكر الأستاذ حميداً الذي لا يكاد يرى إلا وفنجان القهوة في يده. تمنى لو تطول جلسته تلك لكن لا بد من إنهاء الإحصائيات وكتابة المقدمة لينهي التقرير ويأخذ إجازته المرتجاة. كان ينوي أن يبدأ في تحليل الجداول الشاملة اليوم بعد أن انتهى من تحليل جداول كل وزارة على حدة، لكنه قد يؤجل البدء إلى الغد. سينتهي من تحليل الجداول الشاملة بعد أسبوعين تقريباً، وعندئذ يبدأ

في كتابة المقدمة التي ستحتاج إلى خمسة أيام كاملة لأنه لا يثق بقدرته على الكتابة كما يثق بقدرته على الإحصاء.

عاد كريم إلى عمله بالتدريج، وما لبث أن استغرق فيه فلم ير خالداً وهو يخرج من الغرفة ولا حميداً وهو يدخل إليها. لكنه سمع تحية الأخير. هل يمكن أن يكون حميد هو سارق الدفتر في الحقيقة؟ إنه لن يستغرب هذا مطلقاً إذا كان صحيحاً. حاول أن يتجاهل حميداً لكنه شعر أنه يراقبه رغم صخبه. استرق إليه نظرة فرآه ينظر إليه فعلاً وهو يضغط الجرس لاستدعاء ساقى القهوة. وبعد حوالي ربع ساعة رآه ينهض عن مكتبه ويختفي. عاد خالد إلى الغرفة بعد مدة لا يذكرها وهو يحمل رزمة من الأوراق المطبوعة. وبعد حوالي ساعة أعطاها لكريم ليراجعها. لكن كريماً كان يرجئ المراجعة إلى آخر ساعات الدوام بعد أن يكون قد أنجز القسم الأصعب من العمل.

عندما دخل الأستاذ حميد الغرفة ثانية كان يتكلم بصوت عال مع شخص خارجها عرف فيه كريم الساعي الذي يوزع المراسلات والأوراق الرسمية على الموظفين. وبعد قليل اقترب الأستاذ من مكتب كريم ووضع عليه ورقة وهو يقول:

- لقد أحضرته لك بنفسى.

لم يفهم كريم ما قاله الأستاذ حميد ولم يشعر برغبة في النظر إلى الورقة فقال له الأستاذ:

- أرجو أن تقرأ الخطاب فهو هام وعاجل.
- ثم أضاف وهو يوجه إليه نظرة توحى بخبرته الطويلة وتلقي على ابتسامته المشرقة ظلاً كأنه الظلام إذ يمتزج بالنور:
- لكن لا مشكلة هنا على الإطلاق والحمد لله. فالتقرير سينتهي في الوقت المقرر على أي حال.
- ألقي كريم نظرة سريعة على الورقة فرأى أنها خطاب صادر عن الدائرة. قال له الأستاذ حميد :
- أرجو منك التوقيع عليه بعد قراءته.
- لماذا؟
- اقرأه وستعرف السبب.
- ... أوجه إليكم هذا الخطاب مذكراً بضرورة تسليم التقارير التي كلفتم بإنجازها في الموعد المحدد لها تماماً.
- أولاً- تقرير القوى العاملة: يسلم كاملاً في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول وبدون تأخير على الإطلاق لأن التأخير يستدعي إجراءات إدارية نحن في غنى عنها.
- ثانياً -.....
- وفي آخر الخطاب قرأ:
- يرجى التوقيع على هذا الخطاب للتأكد من الاطلاع عليه والتقيد بمضمونه.

وفي ذيله رأى اسم مدير الأبحاث وتوقعه.
إنه لخليق بأن يعرف كاتب هذا الخطاب حتى لو لم يقرأ اسمه!
فالكلام المقتضب واللهجة الجافية هما أسلوب مدير الأبحاث المميز.
لا عبارة تشجيع. لا كلمة شكر. وهل من الضروري أن يوقع هو على شيء يلتزم به التزامًا تامًا؟ وإذا كان مدير الأبحاث يحرص على إنهاء التقرير في الوقت المحدد فلماذا أهمل خطته اثني عشر يومًا كاملاً؟ زاد خطاب مدير الأبحاث من امتعاض كريم في ذلك النهار ثم حاول أن يتناسى الموضوع.

في نهاية الدوام امتدت يد كريم إلى الدرج الذي كان يضع فيه الدفتر وكأنه يريد تسجيل بعض الملاحظات فيه كالمعتاد. لكنه تذكر ضياعه ف شعر بأسى عميق بعد أن كان قد نسي الأمر حينًا أثناء العمل. ثم وجد نفسه يتحسس موضعه القديم وكأن في ذلك عزاءً عن فقده، ولدهشته أحس بأنامله تلامس شيئًا يشبهه. تحسس الموضع ثانية فازدادت دهشته. أزاح بعض الأوراق فرأى دفتره في مكانه المعتاد وكأنه لم يختف أبدًا! من أخذه بالأمس؟ ومن أعاده اليوم؟ وهل فقد الدفتر حقًا؟ شعر كريم بشك قاتل في حواسه وذاكرته لحظة. لكن لا مجال للشك في فقدان الدفتر أمس. ولا مجال للشك في وجوده في الدرج الآن. لقد ضاع الدفتر يومًا أو بعض يوم، لكن كريمًا لا يستطيع أن يسأل عما كان من ضياعه وعودته لأن السؤال يتطلب مجابهة زملاء لا يربطه بهم ود ولا

ثقة. ومن المؤكد أنه لا يستطيع إثارة الموضوع بعد عودة الدفتر لئلا يتهم بالكذب. لكنه ليس بحاجة للسؤال عن شيء من ذلك في الحقيقة لأنه يدرك الآن أن سارق الدفتر أراد التحقق من أن محتوياته لا تشكل خطراً. ازداد امتعاض كريم لهذه الفكرة لأنه لم يكن يتوقع مواجهة موقف من هذا النوع أبداً. لكن حسبته أن الدفتر موجود في الدرج اليوم. فليستمد من عودته سروراً هو أحوج ما يكون إليه، وليكن بالغ الحذر في المستقبل.

في الأسبوعين التاليين أقبل كريم على إنهاء الإحصائيات بحماس زائد لأنه كان يريد اللحاق بجدوله الزمني بعد أن تأخر عنه في اليومين الأخيرين. كان تطلعه إلى الإجازة القصيرة التي سيأخذها يزيد من حماسه، وكذلك شعوره أن مرحلة هامة من حياته العملية ستكتمل باكتمال التقرير. لكنه لاحظ بعد بدئه في كتابة المقدمة أن الأستاذ حميداً أصبح يصل في الساعة الحادية عشرة تقريباً بدلاً من الساعة العاشرة. لا شك أن السبب في ذلك هو المشاغل التي ذكرها! شعر كريم بغيظ شديد من حميد يجتاحه ثانية غير أنه حاول صرف نفسه عن التفكير في الموضوع ليركّز على كتابة المقدمة.

استهل كريم المقدمة بذكر الهدف من الإحصائية مستعيناً بالمعلومات التي استقاها من المطبوعات القليلة الصادرة عن الدائرة ومن أقوال المسؤولين فيها. ثم انتقل إلى الخطوات التي اتبعها في الإحصائية فوصفها بوضوح واختصار مستعملاً اللغة المناسبة لهذا الموضوع دون التوغل في الاصطلاحات الفنية. بعد ذلك لخص النتائج التي توصل إليها ملتزماً نفس الأسلوب البعيد عن المبالغة والتنميق. أخيراً كتب الخاتمة التي وعد فيها بمزيد من الإحصائيات المنتظمة بناء على ما علمه من سياسة الدائرة. أمضى في كتابة المقدمة خمسة أيام كما قدّر ثم تفحص ما كتب فشر برضا مألوف، غير أنه تشكك في بعض العبارات التي استعملها وفي بعض قواعد النحو التي اتبعها. وعندئذ تذكر أن الأستاذ حميداً سيقراً المقدمة ويصحح ما يجد فيها من أخطاء. ولا شك أنه سيطلع على التقرير كله أيضاً إذ لا يعقل أن يصدر التقرير عن قسم الإحصاء دون أن يطلع عليه رئيسه. اطمأن كريم لهذه الفكرة، وعندما وصل الأستاذ حميد في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي أسرع إليه حاملاً أوراقه وقال:

- هذه هي المقدمة.

ثم أضاف غير عابئ بما في قوله من إلحاح:

- أرجو أن تقرأها بسرعة إذ لا بد من تخصيص وقت كاف للطباعة

والتدقيق والتجليد كما تعلم.

فرد عليه الأستاذ حميد بابتسامة أضاءت وجهه الذي بدأت الكهولة
تعبث به فبدا أصغر من حقيقته:

- أمن الضروري أن أقرأ ما كتبت؟ لا شك في أنك قمت بعملك
خير قيام.

ثم أضاف وهو يمد يده إلى الجرس:

- سأقرأها غداً وأعيدها إليك في نفس اليوم إن شاء الله.
قال كريم:

- ولا شك أنك ستطلع على التقرير كله أيضاً.

- أي تقرير؟

- التقرير الإحصائي.

- لماذا؟

- لتأذن بإصداره رسمياً.

قال الأستاذ حميد وهو يتمسك بابتسامته:

- لا. لا داعي لقراءة التقرير. وهو سيصدر على أي حال.

- أفلا تتصفحه إذن؟

قال الأستاذ حميد كمن نفذ صبره:

- أعتقد أن قراءة المقدمة تكفي.

وأضاف وهو يحاول الضحك:

- فأنت الخبير هنا! وأنا أثق بك كل الثقة.

عاد كريم إلى مكتبه وهو يشعر أن حملاً بدأ يزاح عن كتفيه. لقد راجع كل الإحصائيات بعد أن دققها خالد وهو واثق من صحتها، ولم يبق إلا مراجعة طباعتها النهائية، ثم مراجعة المقدمة بعد أن يدقق خالد طباعتها. أما التجليد فهو مهمة خالد ولن يستغرق أكثر من بضعة أيام. وهكذا يتوقع أن ينتهي التقرير الإحصائي في اليوم الحادي والثلاثين من تشرين الأول وأن يسلم في نفس اليوم كما هو مطلوب. ما ألد الارتياح الذي بدأ يشعر به حتى قبل أن تبدأ إجازته المنتظرة!

بعد يومين أعاد الأستاذ حميد المقدمة بعد أن كتب ملاحظات متفرقة اقترح فيها بعض التغييرات الطفيفة. سرّ كريم لعودة المقدمة رغم التأخير كما ارتاح لقلة التغييرات المطلوبة فيها، لكنه سرعان ما تساءل إن كان الأستاذ قد قرأها باهتمام كاف. في الأسبوع التالي كان خالد لا يرى إلا مسرعاً إلى غرفة الطباعة أو عائداً منها وهو يحمل رزماً من الأوراق ليدققها قبل أن يراجعها كريم. وبعد ذلك شغل بالتجليد الذي أمضى فيه خمسة أيام. لم يستغرب كريم النشاط الذي أبداه خالد في ذلك الأسبوع لأنه وقع على ذلك الخطاب كما وقع هو. لكنه تمنى أن يكون خالد أيضاً ممن يحفزهم ضغط العمل لإبراز قدراتهم الكامنة. أما فتحي فقد ظل في أحلامه رغم أوراقه التي كان ينشرها أمامه طيلة النهار. في تلك الأيام بدا الأستاذ حميد جذلاً مثل طفل وعده أبواه بلعبة ثمينة حان وقت استلامها. ازدادت أسئلته عن التقرير، وعند تلقيه

الإجابة المطمئنة المنتظرة كان يزداد جذلاً. لكن كريمًا صار يشعر أن الأستاذ يفعل ذلك بحكم العادة أيضًا. في اليومين الأخيرين انصرف كريم وخالد إلى الخطوات النهائية في التقرير انصرافًا كاملاً واضطرا إلى التأخر بعد ساعات الدوام. وفي اليوم الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول اكتمل التقرير الإحصائي تمامًا. وعندما وصل الأستاذ حميد في الساعة الحادية عشرة ذهب إليه كريم وسلمه المجلد وهو يقول بفرح هادئ:

- ها هي نسخة مدير الأبحاث من التقرير الإحصائي عن القوى العاملة في الوزارات.

كان المجلد كبيرًا سميكًا ينبئ بالجهد الذي بذل فيه. وهو لم يخل من أناقة بغلافه الأسود وعنوانه الذي كتب بحروف كبيرة مذهبة: التقرير الإحصائي عن القوى العاملة في الوزارات للأعوام 1960-1964. فجلجلت ضحكة الأستاذ حميد وهو يتناول التقرير من كريم برقة بالغة كمن يخشى عليه من اللمس. ثم قال بانفعال وقد نسي ما كان ينتويه من استراحة:

- عظيم. عظيم. ألف شكر لك. ألف شكر لكما. إن مدير الأبحاث ينتظر نسخته بلهفة شديدة.

قال خالد:

- ولقد اخترت هذا الخط المذهب لنسخة سعادة مدير الأبحاث
خصيصًا.

فقال الأستاذ حميد:

- لا شك أن سعادة مدير الأبحاث سيسر بها أعظم السرور.
ثم ذهب خالد إلى ركن من الغرفة وبدأ يجر صندوقًا ثقیلاً إلى
وسطها. وعندما أدرك الأستاذ حميد ما يجري وقف ليستقبل الصندوق
وكأنه يحمل إليه كنزًا غاليًا وسأل:

- كم نسخة؟

فأجابه خالد:

- ثلاثون نسخة كما طلبت وزارة التخطيط وهي هنا في هذا
الصندوق.

فقال الأستاذ حميد وقد عاوده الانفعال:

- شكرًا لك. شكرًا لكم جميعًا. بارك الله فيكم.

ثم أضاف:

- سيأتي مندوب الوزارة لتسلمها اليوم أو غدًا على أبعد تقدير.

قال خالد:

- وهذه هي النسخ الخمس التي طلبها قسم المحفوظات في هذه
الدائرة.

قال الأستاذ حميد:

- أرجو أن تسلمها إلى رئيس الديوان حالاً. أما نسخة سعادة مدير الأبحاث فسأسلمها له بنفسى.

ذهب خالد حاملاً النسخ الخمس وظل الأستاذ حميد يحتضن نسخة مدير الأبحاث من التقرير وكأنه لا يقوى على فراقها. وبعد أن عاد خالد من الديوان راح الأستاذ يتبادل معه بعض الحديث. وفي نهاية الدوام أسرع كريم فجمع حاجياته وحيا زميليه وخرج من الدائرة بسرعة وكأنه يهرب منها. أمامه ثلاثة أيام كاملة من الراحة وعليه أن يستمتع بها تماماً قبل أن يعود يوم السبت.

الهواء بارد قليلاً لكنه منعش، وكريم يشعر بالدفع والراحة في هذه السترة الصوفية الخضراء التي يحب لونها. السماء باهتة الزرقة لكن الشمس تغدق عليها ضوءاً سخياً. الأشجار هزيلة متفرقة لكنها رشيقة في عريها. الناس ما يزالون في ازدحامهم والسيارات في ضوضائها لكن كريماً بدأ يتعود ذلك الحي وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد. لقد كان التعاون بينه وبين خالد مثمراً في المراحل الأخيرة من التقرير لكنه لا يدري ما سيكون من أمر خالد الآن. وهو لا يثق في الأستاذ حميد أيضاً، ولا يحترم مفاهيمه في العمل طبعاً. لكنه ما فتى يذكر نفسه في الآونة الأخيرة بأنه لم يفاجأ بتلك المفاهيم في الحقيقة بل توقعها منذ البداية. لذلك وطن كريم نفسه على التعايش مع حميد. بل وأصبح يرثي له أحياناً

ويضحك لبعض تصرفاته أحياناً أخرى. أما فتحي فهو ما يزال لغزاً في نظره لكنه لم يعد يشغل نفسه بتفسيره. بدت سرقة الدفتر في ذلك الصباح مثل ذكرى بعيدة تأبى أن تختفي تماماً. لكن كريماً لا ينسى أنه أنجز عملاً هاماً يحبه رغم ما لقي في سبيل ذلك من عناء. وهو يذكر المتعة التي وجدها في إنجازها أكثر مما يذكر العناء الذي لقيه. ربما اكتشف في هذه الدائرة محاسن أخرى في المستقبل. وربما استطاع أن يقضي فيها سنتين أو ثلاثاً ريثما يسوي أموره على مهل. لقد طمأنه أبوه إلى أن إكمال دراسته في الخارج حلم سيتحقق: «تأكد أني لن أَدع الدكتوراه تفوتك أبداً. وكل ما أطلبه منك هو قليل من الصبر.» لقد جدد هذا الوعد تفاؤله، وهو يشعر بالحماس لاستئناف عمله اليوم. لا ضير في الانتظار. فها هو قد بدأ في ادخار جانب من مرتبه، وهو مستمتع باستقلاله المالي كل الاستمتاع.

حيّاً كريم موظف الاستقبال بصوت عال لكنه لم ير غيره من الموظفين. ثم تذكر أن الوقت ما يزال مبكراً وأن الموظفين يتأخرون في الوصول إلى الدائرة خاصة يوم السبت. كانت الغرفة قد انزاح بعض أثاثها عن مكانه وتبعثرت فيها بعض الأوراق. وكان المكتب المواجه له ما يزال

خالياً فتأكد أن انتظار الموظف الجديد سيطول. جلس كريم بضع دقائق ثم أقبل على ترتيب مكتبه الذي تركه على عجل يوم الثلاثاء

الماضي. كان الهدوء يضيف إلى متعته بعملية الترتيب لكنه شعر بحقن عابر عندما رأى دفتر الملاحظات. إنه يعرف الآن لماذا سرق الدفتر ومن الحكمة أن ينسى أمره ويأخذ حذره. وبعد أن انتهى كريم من ترتيب المكتب راح يرشف فنجان القهوة على مهل.

عندما وصل خالد وفتحى انقبض كريم لمراى ملابسهما الخريفية الداكنة. ولفت نظره طول فتحي الزائد وكأنه يراه للمرة الأولى. ثم تذكر أن فتحي يجلس إلى مكتبه طيلة الوقت تقريبًا وكأنه مسمر إليه. حيا خالد كريمًا تحية موجزة وسأله عن إجازته القصيرة. أما فتحي فقد غمغم ببضع كلمات وهو لا يكاد ينظر إليه. ثم اتجه الاثنان إلى مكتييهما المتجاورين وعاد الصمت يخيم على الغرفة.

قلّب كريم الأوراق التي وجدها على مكتبه فعرف أنها البيانات الخاصة بالتقرير الإحصائي التالي وهو عن المرأة العاملة في كل الدوائر. سأل خالدًا:

- هل وردت أي بيانات أولية؟
- ورد بعضها.
- ثم عاد يسأله:
- هل هناك خطة رسمية يجب اتباعها كما في التقرير السابق؟
- لا أعرف.
- سأسأل الأستاذ حميدًا عن ذلك عندما يصل.

نظر كريم في ساعته فوجد أنها التاسعة وتذكر أن الأستاذ حميداً لا يصل قبل الحادية عشرة. وهنا قال خالد:

- إنه لن يأتي اليوم.

- كيف عرفت؟

- لقد أخبرني بذلك يوم الخميس.

- ومتى يأتي؟

- ربما غداً الأحد.

كان كريم يشعر باهتمام كبير بالتقرير الإحصائي الجديد خاصة وأنه ازداد معرفة وثقة. تأكد من الدوائر التي سيشملها التقرير الجديد ومن تلك التي أرسلت بياناتها الأولية حتى الآن، ثم سأل خالداً:

- هل ذكر الأستاذ حميد الموعد النهائي للتقرير الجديد؟

- لا أذكر.

قبل نهاية الدوام بدأ كريم يضع خطة للتقرير الجديد على أن يعدّها وفقاً للخطة الرسمية إن وجدت. تذكر ذهابه إلى مدير الأبحاث في المرة الماضية وما خلفه ذلك في نفسه من نفور وتمنى أن يتمكن من الاعتماد على الأستاذ حميد أكثر مما فعل في المرة الماضية. وجد كريم نفس المتعة في وضع الخطة الجديدة وتمنى لو كان مطلق اليد في تصميم خطة مثالية وتنفيذها، لكنه كان واثقاً أن المستقبل سيحمل له هذه الحرية من بين ما سيحمل.

دخل الأستاذ حميد الغرفة في حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي على عجل. وعندما رأى كريمًا حياه بحرارة ثم سأله عندما رأى البيانات الجديدة على مكتبه:

- التقرير الجديد؟
- نعم.
- إنه تقرير هام.
- لدي بعض الأسئلة عنه.
- سأجيبك عن كل أسئلتك بعد أن أشرب القهوة.
- لكن كريمًا كان يريد معرفة الموعد النهائي للتقرير ليحكم خطته فقال:

- سؤال واحد قصير إذا سمحت.
- تفضل.
- ما هو الموعد النهائي لإنجاز التقرير الجديد؟
- في العاشر من شباط تمامًا. أي بعد ثلاثة أشهر تقريبًا.
- ثم أضاف الأستاذ حميد بلهجة لا تخلو من تحذير خفيف:
- وهو موعد لا مجال لتغييره إطلاقًا.

خرج الأستاذ حميد من الغرفة بعد أن شرب القهوة دون الإجابة على أسئلة كريم الأخرى. كان كريم قد تعود على تأخر رئيسه وعلى حركته الدائمة لكنه كان يرجو رغم ذلك أن يحظى منه التقرير الجديد باهتمام

أكبر. وعندما عاد الأستاذ حميد إلى الغرفة بعد حوالي ساعة ذهب إليه خالد وتبادل معه بضع كلمات توجّها بعدها إلى ركن من الغرفة. وبعد قليل بدأ خالد يجرّ صندوقاً ثقيلاً ما لبث كريم أن أدرك أنه نفس الصندوق الذي جرّه في الأسبوع الماضي فسأل مستغرباً:

- تقرير القوى العاملة؟

فأجاب خالد:

- نعم.

ثم أضاف خالد موضحاً:

- لم يأت مندوب وزارة التخطيط لاستلامه بعد.

تذكر كريم ذلك الخطاب الذي وقعه وما ورد فيه من تهديد خفي، وتذكر ما قاله الأستاذ حميد عن أهمية التقرير في اليوم الأول ثم أسئلته المتكررة عن موعد إنجائه فقال:

- لكن التقرير انتهى يوم الثلاثاء الماضي واليوم هو الأحد.

فقال الأستاذ حميد بلهجة جادة:

- المهم أننا انهيينا التقرير في الموعد المحدد وقمنا بواجبنا خير قيام. هذا هو المهم.

فجأة هرع الأستاذ حميد إلى مكتبه وكأنه تذكر شيئاً، وراح يفتح أدراج مكتبه واحداً بعد الآخر بحدة وقد غام وجهه. ثم رآه كريم يستخرج من أحد أدراج المكتب مجلداً كبيراً ويتجه إلى باب الغرفة

على عجل. لكن كريمًا كان قد رأى المجلد الذي يحمله الأستاذ في يده رؤية واضحة. كان مجلدًا جديدًا سميكًا، وكان الخط الكبير المذهب يلمع على غلافه الأسود: التقرير الإحصائي عن القوى العاملة في الوزارات للأعوام 1960-1964 فلم يمالك نفسه من السؤال:

- نسخة مدير الأبحاث من التقرير؟
- لم يجبه أحد فعاد يسأل مستغربًا:
- ألم يستلمها يوم الثلاثاء الماضي؟
- فتوقف الأستاذ حميد عند الباب وقال بصوت هو أبعد ما يكون عن صوته العالي المعتاد:
- لقد كان يحضر اجتماعًا هامًا يوم الثلاثاء الماضي.
- ثم أضاف الأستاذ بنفس الصوت:
- وحالت أمور أخرى عاجلة دون تسلمه إياه بعد ذلك.
- ثم غادر الغرفة بسرعة وهو يحمل المجلد وشفق الباب وراءه.

ثوب وردي

«سوف تلبسين ثوبك الوردي يوم الخميس القادم».

ما أجمل أن تلبس ثوبها الوردي يوم الخميس القادم! ثوب وردي جديد في مثل لون الأفق ساعة الغروب، أو لون شجرة الورد القريبة من الباب. لم تر لوناً في مثل جماله. لون وردي خالص لا يداخله لون آخر. لون وردي كأن الشفق تراكم فيه أو عصرت فيه كل أوراق الورد. إنه يبعث الفرحة في قلبها، وهي لا تكتفي من النظر إليه. تريد أن تخبئ وجهها في ذلك اللون الذي يبهج أنفاسها وأن تنسم فيه عطر الورد وعبير فاكهة الصيف. لا شك أن أنظار النساء ستتعلق به. سيرددن ما قلن في الماضي عن أثواب أخرى لها: «انظرن إلى هذا الثوب البديع!» و«من أين جئت بهذا الثوب الرائع يا صغيرتي؟» آه، إنها لا تصدق متى تلبس هذا الثوب الوردي الذي أصبح في نظرها عنواناً للصيف ومباهجه.

في عصر يوم الخميس من كل أسبوع تأتي النساء إلى البيت زرافات ووحداً. نساء من كل الأعمار يسعين إلى لقاء بعضهن البعض وكأن اللقاء ضرورة كالشمس والهواء. يأتين من وسط المدينة وأطرافها. يأتين مشياً على الأقدام متحررات من قيود البيت ساعة أو ساعتين من الزمن. يأتين مجللات بالسواد فتستقبلهن نساء البيت وقد ارتدين أجمل ثيابهن. وسرعان ما ينزعن الحجاب الأسود فيبرزن من تحته وهن في أبهى حلة.

وجوه بعضهن كالأقمار في زيتها، شعورهن مصففة والعطور تفوح منهن وبهجة الحياة تلمع في عيونهن بعد أن عجز الحجاب عن إخمادها. يجلسن معاً في البهو الكبير أو في جانب الحديقة القريب من البهو. تتصل الأحاديث بينهن وتتناثر الضحكات بين حين وآخر كنوار الربيع تذروه نسمات ناعمة. وقد تعزف إحداهن على العود في منتصف الجلسة، وتغني أخرى بعد إلحاح، وترقص ثالثة على استحياء.

البيت ينال نصيباً فائقاً من العناية يوم الاستقبال هو الآخر. غرفه تنظف وترتب. أثاثه ينفض، أرض البهو تدعك بالماء ثم تجفف، شجرة الشمع التي تستند إلى أحد جدرانها تسقى وتمسح أوراقها، الحديقة تكنس أرضها وتغسل هي الأخرى، النباتات تروى على اختلافها وتزال شوائبها، كل شيء يهذب ويصقل، والنظام يشمل كل شيء. وعندما تتم الاستعدادات يتألق البيت الكبير، والحديقة ريّانة، الزهور من كل لون، الهواء معطر، والطقس معتدل. وأخيراً تصل النساء. أما الرجال فلا أثر لهم في البيت عصر يوم الخميس. إنهم يخلونه للنساء في تلك الساعة من النهار. إنه يوم الاستقبال، وهو مخصص للنساء. ذلك حق طبيعي لهن لا يسألن عنه ولا يناقشن فيه.

في عصر يوم الخميس تجلس الجدة وسط النساء كالملكة. رزينة رقيقة، صوتها خفيض وحديثها متقن، تبث السكينة في ما حولها وتحرك كل شيء بهدوء دون أن تتحرك. هي سيدة البيت بلا منازع، هي قلبه

ومركزه والأمانة على نظامه. تجلس محاطة بالزائرات. بعضهن مستآت وقورات كالأشجار الباسقة في الحديقة، وبعضهن باسمات ضاحكات يملأ الفرح قلوبهن. تنتقل شابات البيت بينهن تحت أنظار الجدة. يتسمن لهن ويسألن عن أحوالهن ويقدمن لهن الشراب البارد ثم الشراب الساخن مع الحلوى.

الأم تتوهج جمالاً. ملابسها لا تدانيها ملابس وعطرها لا يشبهه عطر، وبريقها يخطف الأبصار. في الأسبوع الماضي كان ثوبها الهفهاف ينسدل على جسمها وينساب ذيله على الأرض. ثوب من الحرير لونه كالنار يبهز النظر، يتخلله في بعض المواضع تطريز أسود غريب يزيد سحرًا. ما أشبه ثوبها الوردي بثوب أمها الناري. إنه مثل قطعة صغيرة تاهت عنه. ورد ونار؟ ما أعجب ذلك. الأم تطل من عل هي الأخرى، لا من عرشها كالجدة بل من سمائها كالشمس.

الصغيرات يلبسن أجمل ثيابهن يوم الاستقبال مثلهن في ذلك مثل النساء، فأناقتهن تكمل أناقة الكبيرات. أجمل الثياب تخاط لهن ليلبسنها في مناسبات كهذه وكأنها تعرض على الضيوف فيما يعرض. الصغيرات يشاركن في مراسم يوم الاستقبال أيضًا. عن بعد طبعًا. كأنهن زينة جانبية أفردت لها زوايا معينة. فعندما تصل الزائرات تحييهن هذه الصغيرة بخجل. بعد حين تقترب منهن في تردد، ثم تحوم حول مجلسهن وكأنها تودّ الانضمام إليه لكنها تعرف ألا مكان لها فيه. تراها الجدة فتدعوها،

تداعبها الزائرات ويغمرها بكلماتهن المعسولة فتسرّ بتدليلهن لكنها سرعان ما تركض بعيداً مثل طائر ملوّن.

أخيراً حل اليوم الموعود. صباح مشرق منعش. استيقظ أهل البيت مبكرين وبدأت الحركة بمجرد استيقاظهم. أسرع النساء من مكان لآخر في أنحاء البيت والحديقة، وتسابقن في إنهاء الأعمال المطلوبة وكلهنّ يتطلعن إلى ساعة العصر التي ستكافئ جهودهن. كان صوت إحداهن يعلو أحياناً بنداء أو سؤال أو أغنية ما تلبث أن تتلاشى في خضمّ العمل. كانت هذه الصغيرة ترقبهن أو تتجول في أرجاء البيت أو تداعب أخاها الصغير، وأحياناً تحمل رسالة من امرأة لأخرى في البيت أو تحضر لها شيئاً وتأخذ منها شيئاً آخر. كانت تحب مساعدة النساء في أعمالهن يوم الاستقبال فهو اليوم المفضل لديها. كانت تتطلع إليه من أسبوع لآخر، فهو مثل يوم العيد لكن دون انتظار طويل.

تناول أهل البيت طعام الغداء بسرعة في ذلك اليوم، ثم أزيلت آثاره على عجل وصقلت الأواني ونظف المطبخ. حانت ساعة القيلولة فاختفى أهل البيت في غرفهم كالمعتاد، وحل سكون تام هو أشد ما يكون اختلافاً عما سبقه من حركة نشطة. استلقت الصغيرة في سريرها هي الأخرى مستسلمة لذلك الهدوء العميق الذي غمر البيت. نامت قليلاً وأفادت فرأت السماء ما تزال متوهجة وأدركت أن الوقت لم يحن بعد. عادت إلى النوم وأفادت ثانية على صوت الهدوء المطبق. رأت السماء أقل توهجاً

لكنها ظلت في سريرها تنتظر صوتاً أو حركة تنبئ باستيقاظ أمها. ليت أمها تستيقظ. هل نسيت الثوب الوردى ولهفتها على ارتدائه؟ وكيف تنسى أمراً كهذا؟ لعل الجدة تستيقظ وتذكر ما بها، لكن الصمت استمر. ترقرت الدموع في عيني الصغيرة غير أنها لم تشأ أن تفسد يوم الخميس بالبكاء. أخيراً تسللت من سريرها بعد أن غلبها اليأس وذهبت إلى البهو لعلها ترى أحداً هناك لكنها وجدته مهجوراً. نظرت من النافذة إلى الحديقة المترامية فرأت فضاءها الشفاف وأرضها اللامعة وخضرتها الياضعة وزهورها المتفتحة التي لا تعرف كل أسمائها. تذكرت العطور العجيبة التي تنبعث من بعضها فأحست أن الحديقة مثل الجنة التي حدثتها عنها أمها. لكن البهجة العميقة التي تملكها في تلك اللحظات سرعان ما تبددت عندما تذكرت لهفتها على ارتداء الثوب الوردى، فسألت نفسها من جديد: لماذا لم يستيقظ أحد بعد؟

عادت إلى غرفتها. لن تنتظر أحداً. فتحت باب خزانة الثياب وأحضرت كرسيّاً وضعته أمام الخزانة، ثم تسلقته بعد جهد. مدّت جسمها نحو الثياب المصفوفة في الخزانة بعناية وتناولت الثوب الوردى المعلق فيها ورفعته من مكانه، ثم بدأت تهبط عن الكرسي ببطء وهي تحمل الثوب في يدها. لكن توازنها اختل أثناء هبوطها فسقطت على حافة الخزانة السفلية وارتطم رأسها بحافتها الجانبية. أحست بألم حاد في ركبتيها ورأسها لكنها كتمت صرختها لئلا يسمعا أحد. تفقدت الثوب

بسرعة وهي ما تزال ملقاة على الأرض فوجدته سليماً لم يصب بأذى. أفلتت الثوب من يدها لتتحسس ركبتها فوجدت الدم يسيل منهما. أحضرت منشفة صغيرة مسحته بها والفرع يملأ قلبها. راحت تمسحه مرة بعد أخرى حتى انقطع مخلقاً خدوشاً سطحية. ثم اكتشفت أن السقطة خلفت كدمة في أعلى جبهتها وانتفاخاً، فجذبت شعرها إلى الأمام لتخفيهما. عندما خف ألمها واستعادت هدوءها نهضت ورفعت الثوب عن الأرض. لم يصب بسوء والحمد لله. خلعت ملابسها ببطء وبدأت تلبس الثوب الوردى. لم يكن ذلك سهلاً على الإطلاق فهي لم تعتد ارتداء ملابسها بنفسها، ثم إن الثوب الجديد كان ذا صف طويل من الأزرار الأمامية وحزام عريض يربط من الخلف. ثابرت في مهمتها وتمكنت بعد لأي من لبس الثوب تاركة لغيرها مهمة ربط الحزام وتثبيت الأزرار. وقفت تتأمل الثوب الوردى في المرأة. كان رائعاً. أروع مما توقعت بكثير. لا حد لروعته في الحقيقة. ستختفي هذه الخدوش كما اختفت غيرها من قبل، وستختفي الكدمة كشأن الكدمات السابقة، لكن ألمها ستغضب منها دون شك. ستعاقبها على فعلتها هذه دون شك. وسيكون العقاب شديداً دون أدنى شك. لكن ذلك كله هين. فهي الآن تلبس ثوبها الوردى.

ملك منير شقير

معلمة ومدرّسة جامعية وأمينة مكتبة ومترجمة.

درست في جامعة القاهرة وفي جامعة ميشغن الغربية بالولايات المتحدة الأمريكية وفي جامعة وستمنستر ببريطانيا، ونالت منها شهادات جامعية عليا بتفوّق في الأدب الإنجليزي وعلم المكتبات والترجمة.

علّمت اللغة الإنجليزية في مدرسة ثانوية بالأردن، ثم عملت في مكتبة الجامعة الأردنية، ثم في مكتب تعليمي تابع لإحدى الدول العربية بلندن، ثم درّست اللغة العربية والترجمة في جامعة وستمنستر وجامعة آغاخان والمركز الإسماعيلي بلندن.

عملت مترجمة مع عدد من الهيئات الرسمية في بريطانيا، وترجمت مجموعة من القصص القصيرة لكاثرين مانسفيلد من الإنجليزية إلى العربية.

فهرس المحتويات

7	مطر
14	طائر أزرق
24	العصر
30	المزهرية
41	الرحلة
67	غبار
90	زحام
101	البحيرة
130	زهرة حمراء
145	صلاة
161	شادي
196	الخاتم
215	الجبـل
238	حزن
260	المركب
284	نور

294	 نزهة
325	 عاصفة رملية
343	 ثلج
366	 كلمات متقاطعة
383	 بيت جديد
404	 منخفض جوي
428	 التقرير
486	 ثوب وردي